تبقى لي أن

رواية

دخولة حمدي

كيان للنشر والتوزيع

أن تبقى

رواية

تأليف :

د.خولة حمدي

مراجعة لغوية :

محمد حمدي

رقم الإيداع : 2016/8969

الترقيم الدولي : 978-977-6376-90-8

إشراف عام :

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772

هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794

بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com - info@kayanpublishing.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذنٍ كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

أن تبقى...

د.خولة حمدي

رواية

إهداء

أن تكون عاريا من الهويّة

حافيا من الانتماء

فذلك أقسى أشكال الفقر

إلى الفقراء الذين لمّا يدركوا مدى فقرهم

«الحب ليس أن ينظر أحدنا إلى الآخر،
بل أن ننظر معا في الاتّجاه نفسه»

أنطوان دي سانت اكسوبيري

السّبت ١٥ ديسمبر ٢٠٣٥، الساعة السادسة مساءً.

الزمـن، شـتاء باريـسيّ قـارس، والشـوارع مزدانـة بزينـة رأس السّـنة الـتي يحـلّ موعدهـا بعـد أسـبوعين. مصابيـح بيضـاء وملوّنـة تغطـي أذرع الأشـجار المقلّمـة في تناسـق عـلى جوانـب الطرقـات، وأشرطـة مضيئـة تمتـدّ بـين أعمـدة الإنـارة الشـامخة، وموسـيقى خافتـة تنبعـث مـن مكـبّرات صـوت مبثوثـة بـين الأعمـدة والأشـجار، لتبـدّد وحشـة الليـل وتؤنـس المشرّديـن وعابـري السّـبيل.

عنـد رأس الشّـارع، نُصبـت لافتـة إعلانيّـة إلكترونيـة مقسّـمة إلى شاشـات متلاصقـة، ظهـرت عبرهـا لوحـات متشـابهة الأشـكال والأحجـام، تحمـل وجوهـا مبتسـمة في نفـاق يـؤذي الأعـين، لمرشـحي مجلـس النـوّاب الموقريـن. شاشـات عبثـت بهـا أيـدي المـارّة بمختلـف مشـاربهم فتشـقّق زجـاج بعضهـا، وشـوّهت الصّامـدة منهـا بطـلاء أسـود يـكاد يحجـب مضمونهـا، أو بكتابـات قبيحـة مـن أصحـاب الـرؤى المضـادّة.. ووعـد المشـهد بعـرس ديمقراطـيّ مشـحون بالتوتّـر.

خلـف المكتـب الفاخـر في الطابـق الرابـع مـن عمـارة تجاريـة حديثة التشـييد، جلـس الأسـتاذ خليـل الشـاوي المحامـي، المرشّـح اليسـاريّ المسـتقلّ، وعينـاه تدقّقـان في الملـفّ الإلكـتروني الـذي يظهـر عـلى جهـاز العـرض. الشّـارع الـذي أخـذ يغـرق في الظلمـة يبـدو مثـل لوحـة حيّـة مـن واجهـة المبـنى الزّجاجيّـة، الـتي تغطـي مسـاحات الجـدران الخارجيّـة كاملـة. بينمـا يتناقـص نسـق الحركـة في الطّريـق الرّئيسـيّة الـتي ينتصـب مبـنى المكتـب عـلى جانبهـا الأيـسر، يواصـل خليـل عملـه كأنّ شـيئا لـن ينتزعـه ممّـا يشـغله. لـم يكـن يعمـل عـلى قضيّـة مـا في ذلـك الوقـت المتأخّـر مـن مسـاء السّـبت. السـكرتيرة غـادرت منـذ السّـاعة الرّابعـة. وشركاؤه أيضـا انفـرط عقدهـم منـذ زمـن لقضـاء عطلـة نهايـة الأسـبوع مـع عائلاتهـم، أو للعربـدة في بعـض حانـات عاصمـة الأنـوار

facebook.com/groups/exchange.book

حـتّى سـاعة متأخّـرة مـن الليـل. لكـنّ خليـل كان يقبـع خلـف المكتـب، يتابـع باهتمـام وتركـيز شـديدين المشـاهد المسـجّلة لبرنامـج حـواريّ حديـث البـثّ. يرقـب بتوتـر حبّـات العـرق الـتي تلمـع عـلى جبـين الضيـف وتسـيل عـلى جانـب وجهـه، ونظـرات المحـاورة المتمرّسـة تعتـصره بقبضـة مـن حديـد، فينصهـر معدنـه الرّخيـص تحـت وطـأة أسـئلتها اللاذعـة.

تساءل في جزع، هل سيشهد مصيرا مماثلا بعد أسبوع من الآن؟

كان حـتّى ذلـك الحـين محاميـا مفوّهـا. ربـح القضيّـة تلـو القضيّة، حـتّى عُرف اسـمه في الوسـط المهـنيّ. مكتبـه الـذي افتتحـه مـع زمرة مـن الـشركاء، والمؤلّف مـن أربعـة مكاتـب وقاعـة اجتماعـات وصالـة انتظـار واسـعة، يشـغل طابقـا كامـلا مـن بنايـة تجاريّـة عـلى الشـارع الرئيـسي في ضاحيـة «سـوران-Suresnes» الخلاّبة.

منـذ اتّخـذ قـراره بخـوض معركـة البرلمـان، ضـاق صـدره، كأنّمـا انطبقـت جـدران حياتـه بعضهـا عـلى بعـض، فأصبـح يصـاب بضيـق تنفّـس مفاجـئ كلّمـا استرسـل في التفكـير في حربـه المرتقبـة. إمّـا انتصـار وإمّـا اندحـار. كان يبـني آمـالا عريضـة عـلى تلـك القضيـة. هـي مسـألة حيـاة أو مـوت. ثـورة عـلى حياتـه كلّهـا ومـا كانـت عليـه حـتّى تلـك اللحظـة.

فكّر، ما الذي سيؤول إليه الأمر لو أنّه فشل؟

يتملّكـه الضّيـق، فيدفـع عنـه الخواطـر المحبطـة، مـع أنّ القوانـين الإحصائيـة ليسـت في صالحـه. اثنـا عـشر مرشّـحا يتنافسـون عـلى مقعـد واحـد في دائرتـه. عليـه أن يجمـع قـدرا مـن الأصـوات يعـادل ربـع الناخبـين عـلى الأقـل، وأن يكـون ترتيبـه الأول بـين المتنافسـين! لـو أنّهـم يدركـون أهمّيـة المسـألة بالنّسـبة إليـه، لـو أنّهـم يقـدّرون مـا تنطـوي عليـه تلـك الخطـوة مـن مخاطـرة جسـيمة.. هـل يفسـحون لـه المجـال ويربّتـون عـلى كتفـه مشـجّعين؟ ارتفعـت الدّمـاء إلى وجهـه في سـخط. وهـل يريدهـا شـفقة ورثـاء؟ مـا الفائـدة آنـذاك؟ هـل يثبـت شـيئا أو يغـيّر شـيئا لـو لـم تكـن حربـه شرسـة وحاميـة

facebook.com/groups/exchange.book

الوطيـس؟

طرقـات عـلى البـاب تشـدّه مـن قطيـع الهواجـس الشـاردة. يرفـع عينيـه إلى الشـابة الماثلـة عنـد المدخـل، وفي عينيهـا نظـرة رجـاء. يقـول في جفـاء مـن دون أن يطيـل التحديـق بهـا:

- كيف وصلت إلى هنا؟ المكتب مغلق الآن.. عودي يوم الاثنين.

- أستاذ الشاوي، أليس كذلك؟

في صوتها رجفة تنذر ببكاء قريب، تمتزج بتصميم عجيب يثير فضوله.

- لقـد طرقـت أبوابـا كثـيرة في الأيـام الماضيـة.. وعُـدت خائبـة في كلّ مـرّة. لكـن حـين قـرأت اللافتـة في الخـارج، راودني الأمـل. لـن تـردّني مثـل غـيرك، أليـس كذلـك؟

يتأمّـل الآن هيئتهـا، وجـه طفـوليّ مسـتدير ينـمّ عـن بـراءة مغلّفـة بقـشرة هشّـة مـن القـوّة المسـتعارة. ربّمـا كانـت في بدايـة العشرينـات، يركّـز نظـره عـلى غطـاء رأسـها الـذي لا تتسـلّل منـه شـعرة واحـدة، وفسـتانها الطويـل الـذي ينسـدل حـتّى الأرض تحـت معطـف صـوفيّ ثقيـل. ليسـت تـدرأ عنهـا الـبرد وحسـب، بـل تعلـن انتمـاءً صارخـا. مـاذا كانـت تقصـد بشـأن اللافتـة؟ قـرأت اسـمه؟ هـل مـيّزت فيـه مرشّـح مجلـس النّـوّاب؟ لعلّهـا فعلـت، فصـوره عـلى كلّ شاشـات المدينـة المتصـدّرة للسّـاحات العامّـة مذيّلـة بإمضائـه وشـعاره الانتخـابي:

الوطن للجميع!

يتحفّـز، وقـد سـاوره الشـكّ. هـل هـو مقلـب، أم اختبـار مـا؟ يبحـث بعينين حذرتـين عـن عدسـة خفيّـة. هـل يختـبئ المصـوّر خلـف البـاب المـوارب، يلتقـط المشـهد مـن الشـقّ؟ أم تـراه نصـب كاميرا معلّقـة مـن جهـة النافـذة؟ يفكّـر. شركاؤه، أتراهـم متواطئـين في الأمـر؟ تمـرّ ابتسـامة عابـرة عـلى زاويـة فمـه، بينمـا يشـحذ ذهنـه ويسـتحضر لباقتـه البديهيّـة. يـترك مـا بـين يديـه ويشـير إليهـا برأسـه:

facebook.com/groups/exchange.book

- تفضلّي.

جلست، كأنّما انهارت على المقعد، وتدفّق الحديث من شفتيها متدافعا لاهثا:

- يريدون إخراجنا من بيتنا.. البيت الذي نعيش فيه منذ ثلاثين عاما. فيه ولدتُ وأخي، وكبرنا عاما بعد عام. الآن يريدون منّا أن نرحل! بحجّة أنّ المنطقة خاصّة بالـ«بيض»، وعلى العرب إخلاء بيوتهم والانتقال إلى الأحياء الخاصّة بهم.

كانت خارطة التوزيع الدّيمغرافي قد تغيّرت كثيرا في العشرين سنة الأخيرة، عمّا كانت عليه قبل ذلك. بدأ الأمر بحركة انسحاب طوعيّ للعائلات الفرنسيّة من أصول أوروبيّة، من الأحياء ذات الأغلبيّة العربيّة والإفريقيّة، تدريجيّا وتصاعديّا، بعد الأحداث الإرهابيّة لسنة ٢٠١٥ وما تلاها، وشغلت مساحاتها عائلات من أصول مهاجرة، طُردت أو انسحبت بدورها من أحياء ذات أغلبيّة «بيضاء». تلك المسمّيات ليست بتلك الحداثة. كان يجري العمل بها منذ عقود. بعض الأحياء في باريس وضواحيها تُحسب على جالية بعينها، باعتبار وفرة عدد الوافدين منها. لكنّ الوضع تفاقم في السّنوات التي تلت الهجمات الإرهابيّة. أصبحت «الهجرة» إلى حيّ أو منطقة تؤكد انتماءك، تدبيرا غريزيّا للحماية وضمانا هشّا لأمان موهوم.

سياسة الدّولة لم تفعل شيئا طيلة عقدين للحدّ من الظاهرة، بل لعلّها تواطأت ويسّرت المهمّة لكلّ من يبغي شدّ الرّحال والالتحاق بفئة أو أخرى، معزّزة الشقاق بين فئات المجتمع. بعد ذلك، قنّن الدّستور الفرنسيّ حركة الهجرة الدّاخلية، وأصبح لزاما على كلّ من يتقدّم جيرانه بشكوى بسبب اختلافه العرقيّ أن ينتقل من مسكنه، من دون حاجة إلى تبرير. وقد أصبح من اليسير اليوم التعرّف إلى خارطة واضحة المعالم، توضّح الأصول العرقيّة لسكّان كلّ منطقة. في النّهار، يتنقّل الفرنسيّون

facebook.com/groups/exchange.book

والمهاجـرون بأصولهـم المختلفـة عـبر المدينـة بحريّـة تامّـة. أمّـا في المسـاء، فتغلـق البوّابـات الحديـد الضخمـة الفاصلـة بـين مناطـق بعينهـا، ويقـف رجـال الأمـن عـلى حراسـتها، حـتّى ينبلـج فجـر يـوم جديـد.

والحـالات الشّـاذة الـتي اختـارت البقـاء، تعتـبر قليلـة ونـادرة. نـوع مـن المقاومـة العقيمـة لاتّجـاه أخـذه المجتمـع منـذ زمـن، وتجـذّر في سـماته الحديثـة. كانـت خارطـة الدّوائـر الانتخابيّـة قـد تغـيّرت أيضـا منـذ ذلـك الوقت. تـمّ تقليـص عـدد المقاعـد مـن ٥٧٧ مقعـدا في مجلـس النّـوّاب إلى ١٩٣ فقـط. كانـت الدّوائـر المتقاربـة تُدمـج في دائـرة واحـدة، ولهـدف واضـح. لـم يكـن يُـراد لأيّ دائـرة أن تكـون حكـرا عـلى الفرنسـيّين مـن أصـول أجنبيّـة، فينتهـي الأمـر بمرشّـح منهـم يحتـلّ مقعـدا في البرلمـان! كان يجـب أن تبقـى القاعـدة الشـعبيّة غـير الأصيلـة مهمّشـة وتابعـة، حـتّى وهـي تُفـرَز جانبـا. وهـذا يجعـل المقعـد أشـدّ إثـارة وبعـدا عـن المنـال!

- الدّولة يمكنها أن تيسّر لكم الانتقال إلى مسكن جديد في وقت قصير..

قاطعت اقتراحه الوقح في شراسة:

- لكنّنا لا نريد الانتقال!

تراجـع لإراديّـا متّقيـا غضبتهـا، لكنّهـا سرعـان مـا اسـتعادت هدوءهـا واسـتطردت:

- والـدي رجـل مسـنّ فقـد بـصره منـذ سـنوات، وقـد أَلِـفَ المـكان، لديـه علاماتـه الخاصّـة الـتي يهتـدي بهـا مـن دون مسـاعدة مـن أحـد.. تعـوّد عـلى التحـرّك في مجالـه الخـاصّ معتمـدا عـلى نفسـه، واقتلاعـه منـه سـيؤدي إلى انهيـار معنويّاتـه وتـأزّم نفسـيّته. نريـد فقـط أن نبقـى في منزلنـا الـذي احتضـن حياتنـا كلّهـا، بـين جدرانـه كلّ ذكرياتنـا وأحلامنـا، ولا نريـد لـه بديـلا.. هـل هـذا طلـب مجحـف؟ هـل هـو كثـير عـلى رجـل أفـنى عمـره بـين ماسـورات الميـاه، يصلـح القنـوات؟

أحجـم برهـة عـن الـردّ. إمّـا أنّهـم أحسـنوا انتقـاء ممثلـة بارعـة.. وإمّـا أن

facebook.com/groups/exchange.book

تكـون كلماتهـا صادقـة ونابعـة مـن القلـب. لـم يكـن قـد قـرّر خطوتـه التّاليـة، حـين سـمع وقـع أقـدام جديـدة تعـبر الممـرّ بحماسـة.

- دانيال، عزيزي.. ما زلت تعمل؟

ظهـرت سـيلين، زوجتـه الفرنسـيّة، عنـد بـاب المكتـب، واندفعـت مريـم الصّغـيرة في اتّجاهــه لتعانقــه، غــير مباليــة بالضيفــة الــتي أخــذت ترقــب التجمّــع العائــليّ في شــحوب.

- بابا، ألن نذهب؟

ابتسـم وربّـت عـلى خصلاتهـا الشـقراء الشـبيهة بخصـلات أمّهـا وهمـس في حنـوّ:

- انتظراني قليلا.. دقائق وأكون في الأسفل.

- سننتظرك في السيّارة.

تنسـحب الخطـوات الــتي قاطعــت الحديــث، ويسـتمرّ الصّمــت لثــوان ثقيلـة. أتراهـا سـتقول شـيئا، أم عليـه أن يكـون البـادئ؟ تفاجئـه بنـبرة حزينـة منكـسرة:

- ظننتك.. عربيّا!

آه، هـو ذاك إذن! اللاّفتـة.. قـرأت الاسـم العـربيّ، فعوّلـت عـلى تعاطفـه؟ يجيـل بـصره مـرّة أخـرى، متخلّيـا عـن حـذره. ليـس هنـاك مـن كاميرا؟ أم تراهـم أخفوهـا بحرفيّـة؟ مهمـا يكـن، عليـه أن يتقمّـص الـدّور ويكـون مقنعـا، سـواء كانـت الكاميرا أم لـم تكـن. لـن يمسـكوا عليـه دليـلا واحـدا. عليـه أن يـردّ، ليـس كخليـل الشّـاوي الـذي يبغـض تذكـيره بكونـه مـن أصـل عـربيّ لا يسـعه إنـكاره، بـل كخليـل دانيـال الشـاوي، المرشّـح لمجلـس النّـوّاب عـن دائـرة «نـويي سـير سـين-Neuilly-sur-Seine» و«بيتـو- Puteaux» و«كولومـب-Colombes» البلديــة. يرســم الابتســامة المداهنــة ويضغــط عــلى مخــارج حروفـه مؤكـدا عـلى كل كلمـة:

facebook.com/groups/exchange.book

- أنا فرنسيّ، آنستي! ولادة ونشأة وولاءً!

يلمح علامات الخذلان على محيّاها. لم يكن هذا ما توقّعته وانتظرته. ولا ما توقّعه هو وانتظره. لو كان مقلبا، فعليه أن ينتهي عند هذا الحدّ. يظهر المخرج من مخبئه، يهنئه على اجتياز الاختبار بنجاح ويصافحه بحرارة، ويتمنّى له التوفيق في معركة الانتخابات.

بدلا عن ذلك، تهمس الفتاة وهي تشدّ على حقيبتها:

- لن تساعدنا.. أليس كذلك؟

ينبري مبرّرا:

- هذه سياسة الدّولة الفرنسيّة. وعلى جميع المواطنين الانصياع. من المفترض بكم الانتقال بهدوء إلى مسكن جديد في حيّ مناسب.. ستوفّر لكم الدّولة مسكنا لائقا، يكون مماثلا في مواصفاته للمسكن القديم.. لن يقع عليكم أيّ ظلم.. أضمن لك ذلك!

تحرّك رأسها رافضة. لم يكن هذا ما جاءت من أجله.

- حاولوا إخراجنا عنوة، فتصدّى لهم شقيقي.. وتأزّم الوضع.. حتّى اعتدى على رجل أمن.. وهو الآن محتجز.

- آه، يا للعمل الأخرق! هل كان عليه أن يعطّل تنفيذ القانون؟

يتنامى ضيقه من القصّة برمّتها. يطالع ساعته، سيلين ومريم تنتظران في الأسفل. يقول محاولا إبداء بعض التعاطف، ومنهيا الحوار:

- سننظر في مسألة شقيقك.. لكن يوم الاثنين. لا شيء يمكن عمله مساء السّبت.

ينتعش الأمل في نظرتها. تتتبّع حركاته في لهفة، وهو يقف ليرتدي معطفه ويتناول مفاتيحه. ها هو يحاول طردها، بينما تستمرّ في رجاء:

- يجب أن يطلق سراحه في أقرب وقت.. إنّه عائلنا الوحيد.. أنا وأبي الكفيف..

facebook.com/groups/exchange.book

- نعم، نعم.. سنفعل ما بوسعنا.

يسـير باتّجـاه المخـرج بخطـوات سريعـة، وتتبعـه بخطواتهـا الصغـيرة المتعـثّرة في الفسـتان الطويـل.

- عودي يوم الاثنين.

يزفـر وهـو يجلـس أمـام مقـود السـيّارة. كيـف يمكنـه أن يصرفهـا بلباقـة يـوم الاثنـين؟

- أنـت تـولي المسـألة اهتمامـا أكـثر ممّـا تسـتحقّ. أعـط لعقلـك وجسـدك حقّـه مـن الرّاحـة!

نظـرة عتـاب وزمّـة شـفاه توحـي بعـدم الرضـا، ثـمّ صمـت مطبـق طـوال الطريـق.

لـم يسـتطع أن يطيـل العشـاء العائـليّ مـع أقـارب زوجتـه. كان شـاردا عـلى امتـداد الجلسـة، يـأكل قليـلا ويتكلّـم أقـلّ، حـتّى لاحـظ الجميـع غيابـه العقـليّ رغـم حضـور الجسـد. أرسـلوا بعـض الدّعابـات حـول الانتخابـات الـتي تلتهـم وقتـه وتمتـصّ تركـيزه، ثـمّ عقّبـوا بكلمـات تشـجيع فاتـرة.

لا يؤمنون بفرصه.

لا أحد منهم يفعل.

بعـد سـتّ سـنوات مـن زواجـه بابنتهـم، لا يـزال بعضهـم يعتـبره دخيـلا، أو غـير جديـر بهـا.

عـلى مقعـد السـيّارة الخلفـي، تسـتلقي مريـم ذات السـنوات الخمـس غائبـة في أحلامهـا. هـل يتبـنّى عقلهـا الصّغـير حلمـا بـأن يصبـح والدهـا عضـوا في البرلمـان؟ لعلّهـا لا تـدرك لذلـك معـنى يُذكـر! هـل تقـدّر سـيلين، المنزعجـة

facebook.com/groups/exchange.book

مـن الانسـحاب المبكّـر مـن السّـهرة العائليّـة، حلـم زوجهـا؟ بالتأكيـد لا تفعـل. وصفتـه بالأمـر الـذي لا يسـتحقّ! ومـا الـذي يسـتحقّ إذن؟ أن يمـضي سـاعات في تبـادل أحاديـث سـمجة مـع أوغـاد لا يحترمونـه ويحقّـرون مـن شـأنه؟ سـيختلف كلّ ذلـك، حـين يصبـح عضـوا في البرلمـان. سـيقصدونه حينهـا ليقـضي حاجاتهـم ويتوسّـط لهـم! سـتختلف اللهجـة ويخفـت الاسـتهزاء.. سيرسـمون الابتسـامات المتزلّفـة، ويرسـلون الهدايـا والدّعـوات للولائـم. سـيتكلّمون بحمـاس، ويحنـون الـرّؤوس احترامـا.

عليه أن يضمن المقعد. أن يفعل أيّ شيء من أجل ذلك.

خلـف جـدران «الفيـلا» الفاخـرة ذات الطابقـين في ضاحيـة «نـوبي سـير سـين» الرّاقيـة، أخـذ خليـل يـذرع غرفـة مكتبـه في خطـوات واسـعة متأنيـة، وقـد تدثّـر بـروب بيـتي ولاذ بنـيران مدفأتـه الكهربائيّـة. كان وحيـدا في غرفـة المكتـب. ومـع ذلـك، تـراه يشـير بكفيـه في حـركات وقـورة ويرتفـع حاجبـاه ويتعانقـان تماشـيا مـع تعابـير وجهـه الجـادّة، بينمـا تتمتـم شـفتاه بكلمـات خافتـة، كأنّمـا يحـادث شـخصا خفيّـا يشـاركه فضـاء الغرفـة بأمـر جلـل.

أيّام الأحد أصبحت مختلفة، منذ بدأت الانتخابات تشغل ذهنه.

لـم تعـد صباحاتهـا كسـولة، يمـضي معظمهـا في السّريـر، ثـمّ يتنـاول وجبـة «برانـش» عـلى السـاعة الحاديـة عـشرة، دامجـا وجبـتي الفطـور والغـداء. لـم يعـد يقـضي يومـه في عبـث طفـوليّ مـع صغيرتـه الحلـوة، يشـاركها ألعابهـا ويخـرج وإيّاهـا لنزهـة عـلى الأقـدام إلى الحديقـة القريبـة. لـم يعـد وقتـه وتفكيره يتّسـعان لـشيء غـير الانتخابـات. يفتـح عينيـه مبكّـرا، بعـد ليلـة نـوم قلقـة تقطّعهـا الكوابيـس، يعـدّ كوبـا مـن القهـوة المـرّة تُجهـز عـلى بقايـا الخمـول وتدفـع النشـاط إلى أطرافـه وخلايـا دماغـه، ثـمّ يختـلي بملفّاتـه في

facebook.com/groups/exchange.book

غرفة المكتب. قد يمضي كامل اليوم بين جدرانه من دون أن ينتابه ملل أو يشعر بدبيب الوقت والسّاعات تنسحب واحدة إثر الأخرى حتّى تتوارى الشّمس بالمغيب.

هذا يوم أحد آخر يهدره على خطّته الانتخابيّة، وخطاب الحوار التّلفزيّ.

يتحرّك في توتّر في اتّجاه طاولة المكتب، الّتي استقرّت على سطحها لوحة إلكترونيّة وقلم رقمي، تحتضن مسودّة خطابه. يمرّر سبّابته على الشاشة إلى الأعلى والأسفل، يلقي نظرة سريعة على ملاحظاته، مثل ممثّل مسرح ضاعت منه مفردات السيناريو في أثناء اعتلائه المنصّة، ثمّ يضفي تعديلات أو يدوّن إضافات، قبل أن يتلبّسه الدّور الجادّ الذي كان يمثّله منذ ثوانٍ، فيستعيد جلسته السّالفة وقد التقط خيط الأفكار الذي انقطع.

ارتفع رنين جرس الباب فجأة ليقطع محادثته ذات الطرف الواحد. جرس لحوح مزعج، يفكّر منذ الأزل في تغيير نغمته، لكنّه لم يفعل. انتظر لثوان، وترقّب أن يسمع خطوات أهل البيت متّجهة نحو الباب.. لكنّ ذلك لم يحصل. نادى في ضيق:

- سيلين؟ مريم؟

كانت جلبة أهله في الطابق العلويّ تتناهى إليه في صخب مكتوم عابرة الدّعامات الإسمنتية التي رصفت عليها أرضيّة خشب عتيقة. ولم يبد أنّ أحدا قد انتبه إلى الجرس الذي رنّ عند أذنيه، حيث غرفة مكتبه هي الأقرب إلى المدخل.

تخلّى عن دوره مضطرّا واتجّه في خطوات عصبيّة إلى الباب، وقد أزعجته المقاطعة. أشرع دفّة السّنديان الثقيلة وتطلّع في شكّ إلى الشّارع المقفر في ذلك الوقت من اليوم. أمام عينيه تجلّت الطريق الفرعيّة الهادئة التي قلّما تسلكها سيّارات عابرة. عدا عربات السّاكنين وزوّارهم القلائل، لم

facebook.com/groups/exchange.book

يلحـظ أدنى حركـة. مصابيـح الشـارع الباسـقة وزينـة الأشـجار الزّاهيـة كانـت تبـدّد جـزءا مـن عتمـة الليـل الـذي هبـط مبكّـرا. هبّـت نسـمة شـتويّة بـاردة، فتسـلّل إليـه حفيـف ورق عـلى مقربـة. هنـاك عنـد قدميـه، اسـتقرّت لفافـة صفـراء سـميكة، وقـد تناثـرت فوقهـا نـدف ثلـج خفيفـة كانـت قـد شرعـت في التّسـاقط للتّـو. انحـنى في ارتيـاب ليلتقطهـا. ورق؟ كـم مـضى مـن الوقـت مـذ لمـح ورقـة آخـر مـرّة؟ نظـرة أخـرى عـلى الشّـارع السّـاكن، ثـمّ عـاد إلى الدّاخـل بحملـه الثقيـل.

ألقـى اللّفافـة عـلى المكتـب في إهمـال، وحـاول أن يعـود إلى مراجعـة الخطـاب الـذي يسـتحوذ عـلى تفكـيره. منـذ قـدّم ترشّـحه لعضويّـة مجلـس النّـوّاب، والمواجهـات الحواريّـة المرتقبـة تشـغل ذهنـه. محـامٍ شـابّ في بدايـة الثلاثينـات، مـتزوّج بفرنسـيّة وذو وضعيّـة اجتماعيّـة ومهنيّـة مريحـة ومسـتقرّة.. أصلـه العـربيّ هـو مربـط الفـرس. يمكنـه أن يكـون مـيزة تسـتقطب النّاخبـين أبنـاء الهجـرة المغاربيّـة، وإن شـاء الإعـلام جعـل منـه علّـة إقصـاء وتهمـة وطنيّـة هشّـة.

زفـر بقـوّة محـاولا طـرد المخـاوف، فالتقـت عينـاه بسـطح المغلّـف. انتبـه إلى الحـروف اللاتينيّـة المـتردّدة الـتي شـكّلت اسـمه. حـروف متفرّقـة متباعـدة ليـد مبتدئـة تشـكّلت فوقهـا بقـع مـاء رقيقـة، بعـد أن ذاب الثلـج الـذي تناثـر عـلى المغلـف. خليـل الشّـاوي.. ولا شيء غـير ذلـك. مـطّ شـفتيه في شـكّ واقترب ليقلّـب المغلّـف في اهتمـام. ليـس بريـدا عاديّـا. فـضّ الختـم وقـد تملكّـه الفضـول، ثـمّ أفـرغ المحتـوى عـلى سـطح المكتـب. اسـتقرّت أمـام عينيـه لفافـات ورق يبـدو عليهـا القِـدم. قبـل أن يتبـيّن محتواهـا، اسـترعى انتباهـه رنـين معـدنيّ لجسـم صلـب انزلـق مـن الظـرف وتدحـرج تحـت المكتـب. انحـنى ومـدّ ذراعـه إلى الرّكـن المظلـم، تلمّـس الأرضيّـة لبضـع لحظـات قبـل أن تلتقـط أصابعـه قطعـة أسـطوانيّة ذات طـرف مدبّـب. فغـر فـاه وهـو يتأمّلهـا في دهشـة.

مقذوف رصاصة!

facebook.com/groups/exchange.book

كان تركيزه قد تشتّت بالكامل. هل هي رسائل تهديد؟ غاضت الدّماء من وجهه وازدرد ريقه بصعوبة. جلس إلى المكتب وقد انصبّ اهتمامه الآن على الأوراق التي وصلته للتوّ. كانت عبارة عن لفافتين منفصلتين. قلّب صفحات الأولى، الأكثر اكتنازا. كانت تحمل كتابة عربيّة. ميّز الحروف الليّنة للغة أبيه وأجداده. يعرف تلك الحروف ويقرأها متفرّقة. يسترجع من دون وعي ذكريات من طفولته.. ألف، أرنب.. باء، بقرة. لكنّ معارفه المحدودة لن تكون كافية لفكّ شيفرة كومة الورق تلك. وضعها جانبا، وأمسك بالثّانية. كانت حروفها فرنسيّة رقيقة. خطّ أنثويّ ولا شكّ. تنفّس في ارتياح.. هذه مفهومة لا ريب! قرأ التاريخ والملاحظة التي تتصدّر الرزمة:

«مايو ٢٠٠٧،

عزيزي خليل،

هذه رسائل والدك إليك، جمعتها ورتبتها كما بدا لي مناسبا، فهي كما سترى ليست مؤرخة. لا أريد أن أتدخّل في الحكاية التي يرويها لك، لذلك تركت الرّسائل صافية من دون ملاحظات منّي تتخللها وتفسد تسلسلها. ستجد تعقيبي في نهايتها، منفصلا. لكلّ منّا رؤيته للأحداث، ورؤية والدك صادقة حتما بالنسبة إليه، من وجهة نظره، لكنّ الصّورة تكتمل حين تجتمع وجهات النّظر وتتضافر. لا أريدك أن تتحامل عليه أو تلومه، فقد فعل ما حسبه خيرا لك.. وأنا كذلك فعلت. حين تنتهي من روايته، اطلع على الرّزمة الثانية التي كتبتها.

هذا تاريخك، ميراثك.. احمله على عاتقك وسر به في الطريق الذي تختاره. لكن لا تهمله ولا تتخلّ عنه، فأنت لا شيء من دون ماضيك وجذورك.

أمّك المحبّة.»

أمّه؟ ما هذه الدّعابة؟ ترك الورقة وتناول هاتفه:

- أمي.. كيف حالك؟ نعم.. الجميع بخير. لا تقلقي، سأكون مستعدّا...

facebook.com/groups/exchange.book

أنصت إليها بصبر وهي تدعو له وتعبّر عن مدى فخرها به وبإنجازاته ومستقبله الزّاهر، قبل أن يتجرّأ على مقاطعتها:

- أمي.. حصل أمر غريب اليوم. وصلتني رسائل.. كميّة كبيرة منها.. جزء منها بالعربيّة وأخرى بالفرنسيّة. يقال إنّها من أبي وأمّي! هل تعلمين ما الذي يجري هنا؟

أجابه صمت المفاجأة على الطّرف الآخر. صمت رهيب مستمرّ. تساءل في قلق:

- أمي؟

تنفّسها المضطرب يصله بلا كلمات، ثمّ تنهيدة عميقة، تسبق صوتا مهزوزا لا يكاد يُسمع:

- ظننتها لن تظهر بعد كلّ هذا الوقت.. ظننتها ضاعت إلى الأبد..

- من تقصدين؟ هل تعلمين بأمر هذه الرّسائل؟ هل كتبتها حقّا؟

تجاهلت فيض التساؤلات المتدفّق عبر الهاتف وقالت متهالكة:

- هل.. أنت مشغول الآن؟ هل يمكنك أن تأتي؟

- بالتّأكيد.. هناك مسوّدة الحوار التلفزي.. أوشكت على الانتهاء منها.. لكن يمكنني المجيء، إن كان الأمر يستدعي ذلك.. أمّي، أنت بخير؟

زفرة أخرى تزيد من مقدار الحيرة ولا تشفي الغليل.

- أحضر الرّسائل.. لنقرأها معا. هل تفعل؟

facebook.com/groups/exchange.book

facebook.com/groups/exchange.book

الرزمة الأولى

رسائل نادر الشاوي

«هل تعرف ما مشكلة هذه الحياة؟ أنّنا نعيشها مرّة واحدة!»

facebook.com/groups/exchange.book

facebook.com/groups/exchange.book

هـل تـدري كيـف يكـون إحسـاس ورقـة الشـجر في مهـبّ الرّيـح؟ لا هـي تمسّـكت بغصنهـا الفـتيّ وظلّـت شـامخة في عليائهـا، ولا هـي تهـاوت إلى أديـم الأرض، حيـث تجـفّ وتتحلّـل لتواصـل حيـاة أخـرى في بطـن الـتّراب. تظـلّ متأرجحـة، تتخبّـط في عجـز. لا تملـك مـن أمرهـا شـيئا، وجـلّ مـا ترجـوه هـو أن تلفظهـا الرّيـح قريبـا علّهـا تحظـى ببعـض السـكينة.. ولـو في العـدم.

هل رأيت ذلك الإحساس يا ولدي؟

حـاول، افعـل مـا بوسـعك.. حـتّى لا تعرفـه أبـدا. فـكلّ مـا صنعتـه في مـاضيّ وحـاضري كان هدفـه الأوحـد ألا تجـرّب الضيـاع كمـا عرفتـه!

لـم أدرك معـنى الحيـاة في وقـت باكـر، فقـد مـرّت بي أزمنـة تسـاءلت فيهـا عـن جـدوى وجـودي عـلى سـطح البسـيطة. تشـابهت أيّامـي وتعاقبـت ليـاليّ عبثـا، حـتّى رأيـت المـوت بعيـنيّ. منـذ ذلـك الحـين، أصبحـت أعيـش كلّ لحظـة كأنّهـا الأخـيرة. لأنّـني تعلمـت أنّ المـوت أقـرب ممّـا أتوقـع. وإنّي أسـابق المـوت، وأرجـو أن أسـبقه، لعـلّ قـدري يمهلـني لأنهـي رسـائلي إليـك. فتعـرف عبرهـا مـن هـو أبـوك، كيـف عـاش ومـا كان عليـه.. أنـا ورقـة الشـجر في مهـبّ الرّيـح.

لعلـك تسـألني يـا بـنيّ، كيـف بـدأت الحكايـة. وإنّي لأتسـاءل إن كانـت هنـاك نقطـة بدايـة واضحـة في خـطّ الزّمـن. فكلّمـا غصـت في المـاضي، تعاظـم يقيـني بـأنّ القصّـة بـدأت قبـل ذلـك، قبـل أن أصـل إلى الأراضي الفرنسـيّة وقبـل أن أركـب زورق المـوت، بـل قبـل أن أدخـل كليّـة اللغـة العربيّـة وقبـل مقتـل جـدّك رحمـه اللـه. كلّ مـا حصـل معـي بعـد ذلـك ترتّـب عـن وقائـع سـحيقة البعـد لعـلي لا أذكـر ملامحهـا.. فـكلّ شيء متّصـل ومرتبـط بالسـببيّة الزّمنيّـة.. وإنّي الآن وأنـا أمسـك القلـم وأحـاول أن أخـطّ رسـالتي إليـك، لا أدري مـن أيـن

facebook.com/groups/exchange.book

يجـب أن أبـدأ.. بالحـدث الأقـدم، أقـصى مـا يمكنـني تذكّـره، أم بالحـدث الأهـمّ، نقطـة التحـوّل الـتي صنعـت مسـاري.. ومسـارك مـن بعـدي؟ وإن كنـت لا أدرك الجـواب، فـإنّي لـن أفعـل هـذا ولا ذاك. سـأكتب الأفـكار كمـا تـراودني. سـأضمّن رسـائلي خلاصـة تجربـتي ولبّهـا. أعتـصر ذاكـرتي ومخلّفـات رحلـتي وأصبّهـا لـك عـلى الـورق.

أراه الآن بـين عيـنيّ كأنّـني أعيـش اللحظـة مـن جديـد. الزّمـان، خريـف ٢٠٠٤. المـكان، قـارب صغـير يتهـادى فـوق الأمـواج، يتدافـع في كل شـبر مـن مسـاحته المحـدودة عـشرات الأشـخاص المتراصّـين. يتكـوّر كل منهـم عـلى نفسـه ويلـف متاعـه الزهيـد حولـه في حـرص. يتعـالى الـصّراخ حـين تـضرب موجـة عاتيـة، ويخفـت الأنـين وتنحـني الجـذوع حـين يأخـذ منهـم التعـب مأخـذه. مشـهد اعتيـاديّ لا تـكاد تختلـف تفاصيلـه كلّمـا جـازف أحـد «مراكـب المـوت» بعبـور المتوسّـط في فجـر يـوم خريفـيّ معتـم الجنبـات.

أغـوص الآن في مـكاني وتنتابـني الرّعشـة. تتداعـى الصّـور في مخيّلتي وتسترسـل بشـكل تلقـائيّ، تعيـد إليّ كلّ ذكـرى بـأدقّ تفاصيلهـا. تغمـرني تلـك الأحاسـيس القديمـة في نـوع مـن الاسـترجاع اللاشـعوريّ، كأنّـني هنـاك، الآن.. بـين ركّاب ذلـك المركـب، أخـوض نفـس الرّحلـة مجـدّدا.

في مؤخـرة القـارب الخشـب المتهالـك، جلسـت القرفصـاء بـين رفـاق رحلـتي، أنـا «نـادر الشـاوي» ذو السّـنوات الثلاثـين ونيـف، أسـناني تصطـك مـن الـبرد وأوصـالي ترتجـف خوفـا وفرقـا. لكـنّ الرحلـة طويلـة ممتـدّة، واليابسـة لا تلـوح في الأفـق، ولا حـتى مقـدار ذرّة. حـين غـادر المركـب شـواطئ عنابـة، كانـت السّـماء حالكـة السّـواد وقـد أرخـى الليـل سـتارته السّـميكة. ليلـة بـلا قمـر، تسّـترت عـلى المتسـلّلين الذيـن كنـت بينهـم، في غفلـة مـن أعـين حـرس الحـدود.

لـم يكـن هنـاك الكثـير لنفعلـه لتجزئـة الوقـت، نـدّت عـن جـار لي محاولـة تعـارف سرعـان مـا بُـترت. تبادلنـا بعـض الأحاديـث المتقطعـة الخاويـة. نرقـع

facebook.com/groups/exchange.book

أشلاء عبارات ونكوّن بدايات جمل، ماذا تفعل، ومن أين أتيت، فتتشابه الإجابات وتتكرّر المعاناة. نحن جميعنا، نسخ منّا، نماذج متكرّرة لبطالة وفقر وسبل مسدودة. حكايات معادة عن يأس قديم جديد سلّم أصحابه إلى مصيرهم القاتم، أقرأ تفاصيلها في النظرات الذاهلة، الشاردة نحو الماء.. الماء ولا شيء غير الماء لأميال كثيرة حولنا.

أمّا حفل الشّواء الذي نشهده مضطرّين مع وصول الشمس إلى كبد السماء، فقد كان نوعا آخر من الاختبارات المنهكة. ارتفعت إلى العنان في بطء، وامتدّت أشعتها تدفئنا ابتداءً وتجفّف ثيابنا الرّطبة، ثمّ قست سطوتها حتّى كادت رؤوسنا تحترق، واقعا لا مجازا. نتقلّى على نيران هادئة في صمت ودعة مغريين بالهلوسة. بعضنا أصيب بضربة شمس، فراح يُفرغ أمعاءه الفاسدة بين أقدامنا. والعشرات، أرداهم دُوار البحر مثل خرق بالية. ثم يتسلل الظلام ليحجب الرؤية من حولنا، ساحبا في أذياله الهواجس والهلاوس. ونرجع إلى جحيمنا المتّصل، نرتشف جرعاته على مهل.

الليل مرتع مثاليّ للأفكار السّوداوية المتطفّلة. حين ينفرد كل منّا بقلبه وعقله، فيتقاذفانه بلا رحمة. ما الذي حملني على خوض هذه التجربة رغم ما أعرفه عن المخاطر المحدقة بها؟ ودّعت عائلتي منذ يومين ولا أعلم إن كنت سأراها مجدّدا.. خجلت من أمي التي لا تزال تنقدني مصروفي اليومي، ومن شقيقاتي البنات اللاتي أتسوّل منهن ثمن السّجائر. فأخفيت عن الجميع مشروع الفرار الذي عزمت عليه، وبقيت أخطّط لأكثر من سنتين.

كلّ شيء يبدأ على قارعة المقهى، حيث يجتمع شباب الحيّ من العاطلين، يتداولون باستمرار أخبار الرّفاق المحظوظين السّابقين إلى السّفر. نستند إلى جدار المقهى الخارجيّ، ونتابع المارّة بأعين فارغة، نلقي التحية على هذا ونعاكس تلك. ومع غياب أدنى خطط للمستقبل في الوطن، فإن أحاديثنا كانت تحوم حول الواقع المرير والأحلام الوردية.

facebook.com/groups/exchange.book

حـين تتوافـر الرّزمـة المكتـنزة، تتفتّـح أمامـك أبـواب الخـلاص، مثـل عـلي بابـا يقـول «افتـح يـا سمسـم». فيغـدو اقتفـاء الأثـر الـذي تفـوح رائحتـه قويّـة نفّـاذة، محـض تسـلية.

حين اكتمل المبلغ في جيبي، وجدت أحدهم يترصّدني عند المنعطف.

لـم أكـن أمتلـك جـواز سـفر، ولـم أكـن لأحتاجـه في سـفرتي هـذه. يسـمّوننا «الحرّاقـة»، لأنّنـا نحـرق أوراق ثبوتيتنـا وجـوازات سـفرنا، حـتّى لا يتـمّ ترحيلنـا وإعادتنـا إلى نقطـة البدايـة، إذا مـا تـمّ القبـض علينـا عـلى الضفـة الأخـرى، ثـمّ نواصـل حـرق كلّ القوانـين والأعـراف في سـبيل لقمـة العيـش.. والأرجـح هـو أنّنـا اسـتحقينا التّسـمية، لأنّنـا نحـرق قلـوب أمّهاتنـا علينـا ونـذرّي رمادهـا في عـرض البحـر مـن دون رحمـة، ونحـن نمـضي في طريـق يقـف المـوت شـاهقا مترصّـدا في أول منعطفاتهـا!

حـين جـاء الاتّصـال المرتقـب، وضّبـت أغـراضي في حقيبـة رياضيـة سـهلة الحمـل. ثـمّ تسـلّلت ليـلا بعـد أن قبّلـت جبـين أمّـي، ووعدتهـا بـأن أرجـع رجـلا كمـا تشـتهي. لـم تردعـني دمعتهـا وتجاعيـد جبينهـا الـتي حُفـرت أخاديـد بـين يـوم وليلـة. كنـت قـد عقـدت العـزم وانتهـى الأمـر. عنـد المنعطـف، ترقّبـت سـيّارة النقـل الجماعـي. بعـد دقائـق مـن الانتظـار، كنـت أنضـمّ إلى ركّابهـا السّـتة المتحفّـزة نظراتهـم. سـاعتان مـن الطريـق المظلمـة الوعـرة، قبـل أن يتوقّـف ركبنـا عنـد شـاطئ منعـزل ومقفـر. أفرغـت السـيّارة حمولتهـا وانطلقـت ناثـرة خلفهـا غبـارا ورمـلا. تابعنـا السّـير عـلى الأقـدام، نتبـع دليـلا، بـين الحشـائش العاليـة، حـتّى كـوخ صيّاديـن متـوارٍ عـن الأعـين. حـين فتـح البـاب المعـدن الصـدئ عـلى مصراعيـه، تـراءى أمـام أعيننـا حجـم المأسـاة. كان العـشرات يتكـوّرون عـلى أنفسـهم أو يقرفصـون داخـل جـدران الكـوخ، مثـل صناديـق مخزّنـة بانتظـار الشّـحن.

هنـاك، انتظرنـا. وانتظرنـا. لعلّهـا مسـألة سـاعات. يـوم. يومـان. تأتينـا الوجبـات البـاردة ملفوفـة في ورق جرائـد مـع الأنبـاء. الأحـوال الجويّـة لا تسـمح

facebook.com/groups/exchange.book

بالإبحـار، ربّمـا في الغـد. لـم يكـن يُسـمح لنـا بالخـروج أو التجـوّل في الخـارج. كنّـا ثلاثـين رجـلا ربّمـا، نتقاسـم دورة ميـاه واحـدة، نجلـس في العتمـة وراء نوافـذ غـاب زجاجهـا خلـف ورق الكرتـون. نتقلّـب في صمـت عـلى جمـر القلـق، ونتآلـف مـع القـذارة والـبرد وضيـق المسـاحة الـتي سـنكون في رفقتهـا حـتّى نهايـة الرّحلـة.

قبيـل منتصـف الليلـة الخامسـة، جـاء الفـرج. تلقّينـا الإشـارة المرتقبـة. سـنبحر.

سرنـا حـتّى الشـاطئ الصّخـريّ، نتعـثّر في الظـلام وتنزلـق خطواتنـا. ثـمّ خضنـا في البحـر. نتقـدّم، فيغمرنـا المـاء وتلطمنـا الأمـواج، ويحثّنـا المـشرف بصوتـه الغليـظ.. هيّـا، هيّـا. مـن بعيـد، تـرى سلسـلة مـن الـرؤوس البشريـة يتبـع بعضهـا بعضـا نحـو نقطـة في عـرض البحـر. مركـب الصّيـد المتهالـك. يفـترض بـه أن يخرجنـا مـن الميـاه الإقليميـة، ثـمّ ننتقـل إلى سـفينة شـحن أكـبر حجمـا وأمـتن بنـاءً فتأخذنـا إلى الضفـة الأخـرى بسـلام.

بعـد ظهـيرة اليـوم الثالـث، لاح لنـا شـكل قاتـم في الأفـق. تبـادل مـع مركبنـا إشـارات ضوئيـة، كأنّهـا شـيفرة «مـورس»، ثـمّ أخـذ في الاقـتراب وهـو يتأرجـح الهويـنى. حـين غـدا عـلى بعـد بضعـة أميـال، تبـيّن شـكله شـديدَ الشـبه بمركبنا. لـم يكـن سـفينة الشـحن الـتي منّينـا بلقياهـا أنفسـنا. خـلال دقائـق، كان المركبـان يتعانقـان، وأعطـى ربّاننـا الإشـارة بالانتقـال إلى المركـب الآخـر. تبادلنـا نظـرات قلقـة. المركـب القـادم مـليء عـن آخـره بـركاب أفارقـة، قدمـوا ولا شـك مـن بعـض سـواحل الأطلـسي الشرقيـة. موريتانيـا وغينيـا ومـالي. هاجـم رجـلان الرّبـان في سـخط، فتعـاون عـلى كلّ واحـد منهمـا اثنـان مـن مـشرفي الرّحلـة، أمسـك كلّ بـذراع وطوّحـوا بهمـا في عـرض البحـر! سـمعنا صرخـة واحـدة. ابتلعـت الأمـواج العجـلى صـدى الثانيـة. وخـلال ثـوان، اسـتحال سـطح المـاء صـافي الزرقـة إلى لـون دامٍ. اتّسـعت بركـة حمـراء قاتمـة أسـفل مروحـة المحـرّك في مؤخـرة المركـب، وصاحَـبَ أزيـز متقطّـع حركـة الشـفرات الحـادّة الـتي أعملـت تقطيعـا في جسـد بـشريّ واتـت سـقطته مسـارها. بعـد

facebook.com/groups/exchange.book

انقضاء الصّدمة، انحنى بعض الرجال على حافة المركب يفتشون عن ناجٍ. مرّت لحظات من الذعر، قبل أن ينشق السّطح عن رأس يشهق ويبصق وأطراف تتخبّط. امتدت أذرع كثيرة لتنتشل الرّجل وتعيده إلى السّفينة، بينما غاصت الجثّة المقطّعة بعيدا.

بعد ذلك، تحرّكنا من دون كلمة في اتجاه مركبنا الجديد. يلتصق الرّجال ويتلاحمون ليتركوا مجالا للوافدين. يجلس كلّ منّا وصدره على بعد سنتيمترات من ظهر جاره. ينزاح مقدار شبر إضافي كلّما ازداد عدد المسافرين نفرا. تختلط الأنفاس وتضيق الصّدور، وتختنق آهات الغضب بين الأسنان المكشرة. كأني أسمعك تقول يا بنيّ: أما بالإمكان التمرّد وأنتم كثرة وهم قلّة؟ لكنّنا كثرة عن ضعف وضيق حال، نحتاج إلى ربّان يأخذنا إلى البرّ، ولو تخلصنا من المشرفين لضعنا في عرض البحر حتى نهلك. لذلك تحمّلنا المعاملة السّيئة والظروف الكريهة علّ الرّحلة تنتهي بسلام.

بعد ساعتين من الانتقال إلى المركب الجديد، تمكّن الألم من ساقيّ المضمومتين تحتي. تلكزني مرافق جيراني السّمراء الخشنة كلّ حين وتسدّ أنفي الرّوائح العطنة. أكاد أفقد الإحساس بقدميّ، ترتجف شفتاي الجافتان، فأبتلع لعابي وأغمض عينيّ هربا إلى خيال أهنأ. ومع ذلك، فقد كنت أوفر حظا من تلك السيّدة النيجيريّة. لم نسمع لها تذمّرا هي الأخرى. داستها الأقدام واعتصرتها الأجساد المتدافعة، حدّ الاختناق. فارقتها الحياة في صمت. خرجت روحها من دون حشرجة، مثل تنهيدة خفيفة لا يُسمع لها صوت. وبقي الجسد المطحون مستندا إلى الأجسام المتخشّبة المحدقة به، حتّى شعر بعضها بثقله المتهاوي. أخرجت الجثّة من زحام الأجساد بصعوبة، وطوّح بها من دون تردّد خارج المركب، لتكون وليمة لأسماك البحر. هكذا، ببساطة. لم أقرأ في الأعين ذرّة ندم أو تقريع ضمير. كأنّ ما اقتُرف طبيعيّ ومشروع. كأنّ حرمة الجسد تندثر مع خوائه من نفس يتردّد. على متن مركب ضئيل يتهادى في فضاء البحر المتوسّط الرّحب،

facebook.com/groups/exchange.book

العـرف يقـول: الحـيّ أولى مـن الميّـت.

هبّـت ريـح قويـة جعلـت المركـب يهـتزّ ويتأرجـح بعنـف. رفعـت عيـنيّ إلى السّـماء فرأيـت غيمـة سـوداء قاتمـة تشـقّ الفضـاء. تلتهـم المسـافات وتغـذ الخطـو في اتجاهنـا منـذرة بتغـيّر وشـيك للجـوّ. ومـا لبـث ربـان السـفينة أن صـدّق حـدسي وصرخ فينـا:

- تمسكوا.. عاصفة آتية..

تحسّسـت بكـفّ متجمّـدة الحاجـز الخشـب المهـترئ. هـل يجـدي التّمسـك بـه؟ تلفـتُّ حـولي بنظـرات جاحظـة لألمـح الهلـع يطـلّ مـن مئـة عـين وعـين. ترتفـع الأصـوات بالدّعـاء والابتهـال. «يـا اللـه!»، تسـمعها مـن الشـفاه المرتعشـة وتلمـح ظلالهـا في الأعـين الضارعـة. ومـا هـي إلا لحظـات حـتى بـدأت الأمطـار بالهطـول قويّـة غزيـرة.

- المركب يميل إلى اليمين... تحركوا إلى الجانب الآخر!

يعـمّ الهـرج بـين الأجسـاد المتلاصقـة. يحـاول القابعـون في الجانـب الأيمـن الانتقـال إلى الجانـب الآخـر، لكـنّ مسـاحة الحركـة كانـت ضئيلـة. يـزدادون التصاقـا، ويتعـثر بعضهـم في أجسـاد بعـض. ننطـق بالشـهادتين، وتلتحـم الأذرع في عـراك مزمجـر ومجهـد.. كلّ يحـاول النجـاة بحياتـه. لا وقـت للتفكـير في الآخريـن. تـزداد الأمطـار قـوّة، تجلـد زخّاتهـا العنيفـة ظهـور ركاب رحلـة المـوت. أغـوص في موقعـي علّـني أحمـي وجهـي مـن الصّفعـات العشـوائية الـتي تكيلهـا الأجسـاد المتخبطـة بعضهـا لبعـض، فأفاجـأ بمسـتوى المـاء الـذي ارتفـع حـتى ابتـل نصفـي الأسـفل إلى وسـطي. صرخـت منبهـا:

- الماء يرتفع.. سنغرق.. سنغرق..

لكـنّ صـوتي ضـاع في جلبـة العاصفـة. غطـى دويّ الرّعـد عـلى نـداء البـشر. ارتجفنـا، ونحـن شـبّان ورجـال خُطّـت منهـم الشـوارب وخالـط شـعورهم الشـيب، وقـد أيقنّـا ضآلـة شـأننا. أدركنـا بمحـض غريـزة أنّنـا هالكـون لا محالـة، إن لـم يكـن غرقـا، فبفعـل الصّواعـق الـتي كانـت تـضرب البحـر واحدة

facebook.com/groups/exchange.book

تلـو الأخـرى مثـل الشـهب. وبينمـا نحـن نحـدّق في هلـع إلى تحـوّلات السّـماء، ارتفعـت موجـة مثـل طـود هائـل مـن ورائنـا، فرفعـت القـارب عـشرات الأمتـار في الهـواء، عابثـة بـكلّ محـاولات التـوازن الـتي سـعى البحّـارة إلى تحقيقهـا.

صرخـت، بـكلّ الرعـب المتراكـم طبقـات داخـلي مـذ كنـت طفـلا تخيفـه الظـلال عـلى الجـدار، صرخـت، وأنـا أرى الـرّكاب يتسـاقطون مـن المركـب مثل دُمـاي القديمـة الـتي أقذفهـا بـلا وجهـة في نوبـات غضـب طفـوليّ، ليبتلعهـم المـوج في غمضـة عـين. تشـبّثت بأجمـع كفـيّ مسـتنفرا كلّ قـوتي المتبقيـة في جسـد أنهكتـه المقاومـة، وتلـك الكامنـة في أعمـاق سـحيقة لـم أكتشـفها بعـد، اسـتجديتها لتكـسر القمقـم وتفصـح عـن نفسـها.. فمـا مـن فرصـة أوتى مـن هـذه! ثـمّ أغمضـت عيـنيّ بعـد أن أيقنـت أنّ كلّ قـوى العالـم لـن تمنـع عـنّي شـيئا قـد كتبـه اللـه عـليّ، فابتهلـت إليـه سـبحانه أن ينقـذني مـن مـوت يـكاد شـبحه يلتهمـني. لـم تكـن علاقـتي باللـه موصولـة قبـل ذلـك.. بـل كثـيرا مـا تقطّعـت وتباعـدت، فـلا أقبـل عليـه إلاّ عنـد حاجـتي إليـه. وكثـيرا مـا تعاتبـني أمّـي لإهمـالي الصـلاة. أؤخرهـا عـن وقتهـا، وأحيانـا أنـام عنهـا، أنسـاها أو أتناسـاها ثـم أقـول «اللـه غفـور رحيـم». في تلـك اللحظـات، مـرّت أمـام عيـنيّ حيـاتي كلهـا، تسـحب بعـض مشـاهدها بعضـا، كشريـط سريـع مـن الصّـور. أبحـث في خضمهـا عـن عمـل صالـح واحـد أسـأل اللـه بـه أن ينجيـني. لكـن ذاكـرتي عدمـت الجـواب.. فبكيـت بحرقـة وحـسرة. وحـده وجـه أمـي باكيـة وهـي تودّعـني ليلـة رحيـلي ظـل ثابتـا في ذهـني، فألهمـني اللـه دعـاء أخـيرا: اللهـم ارحمـني مـن أجلهـا.

ثـمّ شـعرت بجسـدي يرتفـع عـن الأرض في مسـار عشـوائيّ، ويحلّـق في الهـواء مـع انقـلاب المركـب. واحـد مـن قطـع الصلصـال الكثـيرة الـتي تلهـو بهـا الريـح في معـرض هبوبهـا. طوفـان مـن الميـاه المالحـة اجتـاح فمـي وأنفـي وأشـبع رئـتيّ. ظـلام مبهـم غمـر حـواسّي، وضبـاب كثيـف غلّـف وعـيي.. في حـين بـدأ جسـدي رحلـة تهـاوٍ إلى أغـوار سـحيقة البعـد.

facebook.com/groups/exchange.book

النهايـة يـا ولـدي ليسـت ملـك البـشر. لسـنا المتصرّفـين في حياتنـا. حـين يقول اللـه «كُـنْ»، تكـون مـن العـدم! جبـال الأمـواج الـتي قلبـت المركـب، والملوحة اللاذعـة الـتي أحَسَّـتْ بلسـعها شـفتاي المتشـققتان وحلقـي الملتهـب، كل ذلك لـم يكـن حلمـا.. رحلـة الغـوص اللانهائيّـة إلى القعـر، والصّرخـات المتسرّبـة مـن الجحيـم لأرواح تـودّع الدّنيـا.. كان ذلـك واقعـا محضـا.

كان هنـاك ظـلام كثيـف، وبـرودة لاذعـة، ولطمـات ترمـي بي في كلّ اتّجـاه. وذراعـي تتشـبّث بلـوح عريـض تشـظّى عـن المركـب الـذي حطّمتـه العاصفـة. مـن حسـن طالـع أبيـك يـا بـنيّ أنّ بنيتـه متينـة ونفَسـه طويـل، فراحـت أطـرافي تتخبّـط واسـتمرّ جسـدي يقـاوم متمسّـكا برمـق الحيـاة الـذي أوشـك أن يغـادره. كنـت أحسـن السـباحة وغريـزة البقـاء كانـت قويـة في داخـلي. لكـنّ المعركـة طالـت، وعزيمـتي فـترت. كان عـليّ أن أستسـلم أخـيرا. لـم يكـن هنـاك مفـرّ.. بـدا أنّـني سـأقضي، مـن دون جنّـتي. فهـل مـا زال لي أمـل في جنّـة اللـه؟ أكـذب إن قلـت إنّـني فكّـرت في الجنّـة والنّـار في تلـك الآونـة. كلّ مـا شـغلني هـو مـوتي المرتقـب، وتبخّـر أحلامـي الأوروبيّـة إلى غـير رجعـة.

لكنّني لم أمت. من لطف الله بي أني لم أمت.

هـل مـررت يـا بـنيّ، بذلـك النـوع مـن اللحظـات؟ لحظـة واحـدة قصـيرة هيّنـة لا اعتبـار لسـنّها في تعـداد الأحـداث، لكنّـك تشـعر بهـا بـكلّ جوارحـك وتتمثّلهـا دهـرا، فتحياهـا ببـطء وتـؤدة، كأنّ كلّ حواسّـك قـد احتشـدت وجُنّـدت لتمتـصّ تلـك اللحظـة وتخزّنهـا في الذّاكـرة.. فتسـترجعها في مـا بعـد كأنّـك تعيشـها مـن جديـد؟ هكـذا عشـت لحظـة «قيامـتي» مـن عالـم الأمـوات.

استسـلمت لـلأذرع الـتي انتشـلت جسـدي المنهـك وقـد اسـتوعبت عمليـة التنفـس كل تركـيزي، أسـتمع للهـواء الـذي يعـبر فتحـات أنفـي حفيفـا رقيقـا.

facebook.com/groups/exchange.book

أحسّ بانسيابه عبر المسارات الهوائية لينتشر عبر الأنسجة ويحمل الحياة إلى كل الخلايا التي كانت في سبات. أحسست بدفقات الأكسجين تصل إلى أطرافي، وكل قطعة من جسدي تستيقظ من موت مؤقت. حين اطمأننت إلى عودتي إلى الحياة، تسرّبت أوجاع رهيبة إلى دماغي. صداع يشقّ رأسي نصفين. انتبهت حينها إلى الضمادة العريضة التي أحاطت جبيني. كنت قد تعرّضت لإصابة بليغة في أثناء صراعي مع الموج.

لعلّك تسألني، كيف نجوت؟ لكنّ ذاكرتي قاصرة عن استحضار وقائع جليّة. لعلّي حين استسلمت، كنت على مقربة من السّفينة العابرة؟ أو لعلّ سعار الموج هدأ أخيرا فطفوت؟ حين انتشلتني السّفينة الفرنسيّة، كنت فاقدا للوعي، أطفو على لوح خشب في بقعة مقفرة من امتداد البحر الشاسع، بعد أن أخذني الموج مسافة أميال بعيدا عن موقع المركب الغارق.

لم أكن الناجي الوحيد الذي أنقذته السّفينة الفرنسيّة. كان هناك ثلاثة عراقيين وسودانيّ واحد. لم يكن أحدهم من رفاق رحلتي الأولى. حكى لي أحدهم تفاصيل مغامرتهم. انطلق مركبهم من ضفاف قبرص قبل أسبوع كامل. مضوا ينتقلون من مركب إلى مركب. غيّروا الرّاحلة ثلاث مرّات، وفي كلّ مرّة كان الحجم أصغر وعدد الرّكاب يتزايد. المشرفون الموزّعون على مرافئ التهريب يتعاونون مشكلين شبكة تغطي سواحل المتوسّط. مراكب صيد قديمة تنطلق من الميناء بحمولة معقولة، تتواعد مع مراكب أخرى على اللقاء في عرض البحر، تفرغ حمولتها ثمّ تعود أدراجها لتأخذ حمولة أخرى.. وهكذا. حين غدا المركب الأخير غاصّا إلى درجة لا تحتمل، أقدم الرّكاب على التمرّد. رفضوا الانتقال إلى المركب الرّابع. عندئذ، عمد الربّان إلى صدم القاربين أحدهما بالآخر! صنع الاصطدام ثقبا عملاقا تدفّقت منه المياه إلى داخل المركب الأوّل وأغرقته خلال دقائق قليلة. أمّا المركب الثاني، فقد كثر فيه الهرج: الرّجل يقفز من المركب المنكوب فيحطّ على رجلين من المركب الناجي، فيدفع بهما معه إلى الماء، ويهلك

facebook.com/groups/exchange.book

جميعهـم! يتمسّـك واحـد بآخـر فيغـرق الاثنـان! البعـض تشـبّث بعـوارض خشـب محطّمـة تناثـرت قطعهـا المهشـمة عـلى سـطح المـاء، والبعـض الآخـر بأطـواق نجـاة انفلتـت وطفـت، بينمـا غـاص الجـزء الأكـبر مـن السـفينة إلى الأعمـاق. في الأثنـاء، ابتعـد المركـب السّـليم عـلى جنـاح اللهفـة وقـد صـار إنقـاذ الغارقـين عبئًـا لا يمكـن احتمالـه.

كان صاحـبي مـن الذيـن سـقطوا في البحـر. تشـارك طـوق نجـاة مـع ثمانيـة أشـخاص، كلّ يتعلّـق بـذراع واحـدة. بعـد سـاعات مـن الانتظـار لنجـدة لا تـأتي، تراخـت العضـلات وتخلّـت عـن الأطـواق طواعيـة، فمـا عـادت بهـا طاقـة ولا أمـل للنجـاة. كانـت الأجسـاد تتهـاوى واحـدا إثـر الآخـر، وتغيـب في المـاء بـلا رجعـة. شـاهدهم ينهـارون في مزيـج مـن الخـوف والطمـع. كل ذراع تستسـلم تـترك مسـاحة خاليـة سرعـان مـا يتنافـس الصّامـدون للاسـتحواذ عليهـا مـن دون الآخريـن! كانـت لحظـات تـتردّى فيهـا النفـس البشريّـة إلى أدنى منازلهـا، فتتجـلّى وحشـيّة بهيميّـة، همّهـا الأوحـد الاسـتمرار والبقـاء. حـين وصلـت السـفينة الفرنسـيّة إلى مـكان الحادثـة، كان أربعتهـم آخـر الصامديـن.. كتـب لهـم عمـر جديـد. يتسـاءل محـدّثي في شـماتة لا يـكاد يواريهـا عـن القـارب الـذي خلّفهـم في عـرض البحـر.. هـل تـرى ركّابـه قـد نجـوا أم أنّ العاصفـة حصدتهـم عـن آخرهـم؟ كان مـن حظّـه ورفاقـه أن تـمّ إنقاذهـم قبـل أن تهـبّ ريـاح الشـمال.

حين سألني ربّان السّفينة من أين أتيت، أجبت من دون تردّد: العراق!

العـراقيّ يمكنـه طلـب اللجـوء، الإنسـانيّ أو السّـياسيّ، بينمـا لا مسـوّغ للجزائـري! العـدوان الأمريـكي عـلى العـراق كان حديـث العهـد في ذلـك الوقت، وقـد تواصـل توافـد العراقيـين بـرّا وجـوّا وبحـرا إلى فرنسـا وألمانيا بعـد الموقف المـشرّف الـذي اتخذتـه قيـادات البلديـن تجـاه تدخّـل دوليّ في بلادهـم، وكان تهديـد الرئيـس الفرنـسيّ باسـتعمال حـقّ «الفيتـو» لمنـع التدخّـل أمـرا يجلّـه العراقيّـون بشـكل خـاصّ، لمسـته في حـرارة الصـوت وابتهـاج القسـمات حـين يـرد ذكـر فرنسـا في أحاديثنـا العابـرة. وقـد كان وقوعهـم عـلى سـفينة فرنسـيّة

facebook.com/groups/exchange.book

حسـن طالـع لا شـك فيـه، فقـد كانـوا يمضـون إليهـا عـلى كلّ حـال. لذلـك قـرّرت الاندسـاس بينهـم والبقـاء برفقتهـم إلى أن يقـضي اللـه أمـرا.

خـلال بقيّـة الرّحلـة، اسـتمريت في الدّردشـة مـع رفـاقي الذيـن قـرّرت أن أشـاركهم المصـير. اسـتمعت طويـلا إلى حكاياتهـم عـن الحـرب والويـلات الـتي فـرّوا منهـا، بعـد أن أصبـح موطنهـم جحيمـا لا يطـاق. أعـرف الحـرب جيّـدا.. عشريّـة بـلادي السـوداء إرث أحفظـه بإخـلاص في ثنايـا ذاكـرتي. تتدفّـق الكلمات عـلى ألسـنتهم بسـخاء وتفيـض عـلى مسـامعي، الدّمـاء والجثـث والقنّاصـة.. أتمثّلهـا في ذهـني، وتتماهـى الصّـور بـين واقعـي وروايتهـم.. النّسـاء والشـيوخ والأطفـال، الثـكالى واليتامـى.. وأولئـك الفـارون مـن جحيـم المحتـلّ، تغـصّ بهـم المـرافئ.. فمـا أدراك بجحيـم الوطـن، حـين ينهـش أبنـاؤه بعضهـم بعضـا؟

أسـمع حكايـات عـن مراكـب ضاعـت في عـرض البحـر، والتقمهـا القراصنـة.. وأخـرى نفـد منهـا الوقـود، فقطّـع ركابهـا ثيابهـم وأحذيتهـم وأحرقوهـا في الخزّانـات لتواصـل الرّحلـة، قبـل أن تعـثر عليهـم دوريـات حـرس الحـدود وتقودهـم إلى بـرّ النّجـاة. أمّـا الغـرق، والغـرق، والغـرق.. فأمـر متكـرّر بشـكل مفجـع. عـشرات الأشـخاص يقضـون كلّ يـوم، وتضيـق أسـماك البحـر بالدّخلاء فتدفـع الأمـواج إلى لفـظ الأشـلاء عـلى الشـواطئ المقفـرة.. حيـث يعـثر عليهـا بعـد ردح مـن الزّمـن.

بعـد سـاعتين مـن وصـول السـفينة إلى المرفـأ، سـمح لنـا بمغادرتهـا باتجـاه مركـز مفوّضيّـة اللاجئـين. رافقتنـا حراسـة لصيقـة، إلى حيـث أجريـت علينـا فحوصـات روتينيـة شـاملة. فحـص للأذنـين، العينـين، الحنجـرة، والصّـدر.. تحليـل للـدّم وصـور أشـعة. وطلـب لي عـلى نحـو خـاصّ صـورة مقطعيّـة للجمجمـة، نظـرا للإصابـة العميقـة الـتي نالـت مـن جانـب رأسي. كان احتمـال حصـول ارتجـاج دماغـيّ واردا، بعـد العاصفـة الـتي عبرتهـا. ثـمّ نقلنـا إلى مسـاكننا المؤقتـة. كان العراقيّـون يحظـون بمعاملـة مميّزة، والتّوصية بشـأنهم جليّـة. أقمـت في شـقة واحـدة مـع العراقيّـين الذيـن لقيتهـم في السـفينة.

facebook.com/groups/exchange.book

تقاسم كلّ اثنين غرفة وحماما، وتشاركنا قاعة الجلوس الفسيحة ومطبخها المفتوح. من شرفتنا، كناّ نطلّ على الجانب الآخر من السّور الشّائك، حيث يتكدّس مغاربة وأفارقة بأعداد وفيرة داخل مساكن أشبه بالزّنازين، يطاردهم الحرس ويسوقونهم دخولا وخروجا كالبهائم، فتنهال الهراوات وأعقاب البنادق على جنوبهم وظهورهم حين يتلكؤون.

بعد الفحوصات التي خضعنا لها، تم استدعاؤنا إلى المركز الطبي مرّة ثانية. بعد دقائق طويلة من الانتظار، ظهر الطبيب بوجه متجهّم. سلّم كلّ منّا ملفه الطبيّ، ثمّ أشار إليّ وحدي أن أتبعه! تحرّكت وراءه وقد غمرني الشك. هل تكون صورة الجمجمة قد أعلنت عن إصابة ما؟

جلس الطبيب وراء مكتبه وأخرج صور الأشعة من الظرف. تكلّم بصوت شديد الوضوح كأنّه يتهجى المقاطع:

- هل تفـهم الفرنـــسية؟

هززت رأسي بعلامة الإيجاب في حركة سريعة متكرّرة.

- هنا..

أشار إلى شكل مخروطي مدبّب الطرف يظهر في الصّورة المقطعيّة لجمجمتي.

- منذ متى وهذه الرّصاصة هنا؟

توقّف الزّمن في تلك اللحظة، وظهرت علامات البله على وجهي. أحاول جاهدا أن أصل الألفاظ بالمعاني المناسبة.. فلا أفلح. رصاصة؟ في رأسي؟ أصابتني رصاصة؟ ولم أمت؟ متى؟ كيف؟ أحاول استرجاع صور من ذاكرتي، ولا أرى إلا صفحة بيضاء. دماغي يعجز عن لفّ الشّريط إلى الوراء. متى بالله عليكم أصابتني رصاصة؟ في الجزائر؟ في السّفينة؟ في البحر؟ أزيز متواصل يشغل الموجة.. أربط في لحظة إلهام بين نوبات صرع كانت تصيبني قديما والرّصاصة. منذ متى.. تلك النّوبات؟ يتعطل تفكيري ويكاد خافقي يعزف عن ضخّ الدّماء إلى رأسي، بينما تشرع شاشة الذاكرة في

facebook.com/groups/exchange.book

عـرض مشـهد مـن ملفاتهـا القديمـة.

أراني، محتميـا بالبـاب المـوارب، متعـرّق الكفّـين نـديّ الجبـين.. وأسـمع صـوت الضابـط يرتفـع في الخـارج مهـدّدا:

- أين تخبئ الإرهابيين؟

- لا أحد هنا! لا أخبّئ أحدا!

هـذا أبي يتحـدّى القـوّة العسـكريّة. يقـف شـامخا في شرفـة المـنزل قاطعـا الطريـق عـلى المقتحمـين. أعجـب بـه في تلـك اللحظـة، وأفخـر بشـجاعته. أبي كان مقداما منـذ شـبابه، عـرف الحـروب والنوائـب ورأى الكثـير في حياتـه. وقـد بقـي في صوتـه شيء مـن الشـدّة رغـم سـنواته السـتين ونيـف. زعيـق الضابـط يرتفـع مجـدّدا، يشـتم ويتوعّـد، وأبي يرفـض التنحـي أمامـه:

- هناك حريم بالدّاخل!

في الغرفـة الدّاخليّـة تختبئ أمّـي وأخـواتي مذعـورات، وأنـا لا دخلـت الغرفـة معهـنّ - حـتّى لا أبـدو مثـل الحريم - ولا وقفـت في ثبات إلى جوار أبي لاسـتقبال رجـال الجيـش المقتحمـين. أقـف في منتصـف المسـافة، يفصلـني بـاب خشـب عـن سـاحة المعركـة. ينتابـني خـزي مـن جُبـني. مـن فرجـة البـاب الضيّقـة، ألمـح البـدلات العسـكرية القاتمـة، وأبقـى متواريـا عـن الأعـين. يغمـرني عـاري، وتتصاعـد موجـة نخـوة إلى رأسي. أنـا المراهـق ذا الخمسـة عـشر عامـا.. كان يجـب أن أبقـى واقفـا إلى جـوار أبي. أنـا ولـده الوحيـد وعضـده.. كيـف أختـبئ مثـل الحريـم؟ في الثانيـة الـتي غلبـت فيهـا الشـجاعة، حرّكـت دفّـة البـاب أهـمّ بفتحـه والـبروز.. لتُفتـح نـيران جهنّـم في الخـارج.

في المستشفى الفرنسيّ، يواصل الطبيب شرحه وأنا في شبه غياب:

- هنـاك كتلـة ورميّـة تكوّنـت في محيـط الرّصاصـة، وقـد غـدت نهاياتهـا قريبـة مـن مركـز البـصر، ومحاولـة إخراجهـا قـد تتسبّب في فقدانـك للحاسّـة.

في ذاكـرتي، أسـمع ولولـة أمّـي وعويلهـا، وأنـا ممـدّد عـلى الأسـفلت البـارد، تبقيـني برودتـه واعيـا، بعـد أن تلقيـت ضربـة مجهولـة المصـدر في مؤخـرة

facebook.com/groups/exchange.book

رأسي. ألمح من زاويتي الضيّقة جسد أبي مسجّى غير بعيد عني، وبركة دماء تتسّع تحته. وابل رصاص أصابه في صدره ورأسه وأرداه قتيلا على الفور.. بينما اخترق سرب من الرصّاص الباب واستقرّ على الأرض من حولي. لعلّ رصاصة واحدة وجدت طريقها إلى رأسي؟ عبرت الحاجز الخشب الذي أبطأ سرعتها وخفّف أثرها، فنفذت إلى الدّاخل ولم تحدث ضررا باديا للأعين؟ لا شكّ أنّ ذلك ما حدث. أمّي وأخواتي انشغلن بفقيدهنّ، في حين جلست أفرك مؤخرة رأسي في وجع، وألم الفقد قد غطّى على ألم الجسد. لم يكن هناك ساعتها دم كثير عليّ.. لطخة ضئيلة، مقارنة ببركة أبي، مسحتها على عجل واستويت واقفا، كرجل البيت الجديد. لم أعرف أن رصاصة قد أصابتني.. ولم يعرف أحد من حولي. رجال الجيش انسحبوا مكتفين بما أحدثوه من فوضى، وأنا نهضت لأشيّع جثمان أبي الذي قتلته شجاعتي المتأخّرة. لم أخبر أحدا عن تفاصيل ما جرى. قلت إنّني فقدت الوعي مبكّرا.

كادت تنتابني نوبة ضحك هستيري. رصاصة أبناء وطني، خائنة ولو بعد حين !

- من الأفضل أن يراك الطبيب المختصّ.. سيحدّد بشكل أدقّ ما يمكن فعله بشأن الرّصاصة.

خرجت من الزّيارة الطبّية وقد ازداد رأسي ثقلا على حين غرّة.. تخيّلت نفسي على طريق العودة من فرنسا، لا بخفي حنين، بل برصاصة صدئة وعصا مكفوفين!

بتُّ تلك الليلة في سكن المفوّضيّة، في انتظار أن يُنظر في أمر طلبي اللجوء. بدا كلّ شيء سرياليا تلك الليلة.. السكن الفاخر والأكل الأفخر، ورصاصة علمت بعد خمسة عشر عاما أنّها كانت تساكنني! انشغلت عن التّرف المادّي المحيط بي بتجاربي العمليّة: أميل رأسي إلى اليمين ببطء فتقترب أذني من كتفي، أختبر إن كانت الرّصاصة ستتحرّك مع حركتي..

facebook.com/groups/exchange.book

ثـم أديـر عنقـي بسرعـة مثـل المخبـول، عـلّي أسـمع رنينهـا أو شقشـقتها! أتلمّـس بأصابعـي موضـع جـرح قديـم قـد اندمـل في مؤخـرة رأسي.. أحـاول أن أدسّ أصابعـي بـين خصـلاتي الكثيفـة، أتخيـل ثقبـا مخروطيـا يمتـدّ إلى موضـع الجسـم المعـدن، ربّمـا هـو بسـمك إصبعـي! عبثـا حاولـت أن أميّز لوجودهـا أثـرا حسـيّا يعرّفـني بمكانهـا. كنـت أسـتعجل مـا سـيحصل في مـا بعـد، تدريجيـا وتصاعديّـا.. لأعيـش جحيمـا أتمـنى معـه المـوت!

بعـد يومـين، تـمّ اقتيادنـا إلى المركـز مـرّة أخـرى، حيـث سـتجرى معنـا لقـاءات شـخصيّة للتعـرّف عـلى دوافعنـا ومسـوّغات طلبنـا اللجـوء. كنـت أحسـب لذلـك اللقـاء ألـف حسـاب.. فهـو الموعـد الـذي سيُفضح فيـه أمـري! كنـت واثقـا أنّ كذبـتي ستكشـف عاجـلا غـير آجـل. هـي مسـألة أيـام، حـتى يتبـيّن الاسـم الـذي قدّمتـه مزيّفـا، والهويّـة الـتي أدّعيهـا مختلقـة. سيكتشـف الموظّـف سريعـا أنّـني لا أعـرف شـيئا عـن تفاصيـل الشـأن العـراقيّ وظـروف الحيـاة اليوميّـة في ذلـك البلـد القـصيّ، الـذي لـم أفكـر يومـا في زيارتـه، وسـيهتمّ ولا شـكّ في تمحيـص شـأني أكـثر مـن الآخريـن. وإذا مـا جلـس قبالـتي مترجـم يتقـن اللهجـة العراقيّـة، فسيسـقط القنـاع عـنّي منـذ الكلمـة الأولى.

أخـذت طـوال فـترة الانتظـار الـتي سـبقت أشـحذ ذهـني وأسـترجع تفاصيـل نـشرات الأخبـار، الـتي غالبـا مـا شـاهدتها في سرحـان! لشـهور خلـت، كانـت الفضائيـات تعـرض عـلى مـدار اليـوم صـور سـقوط بغـداد والغـزو الأمريـكي للبـلاد.. لكـن مـا شـأني أنـا بأخبـار العالـم؟

كانـت قاعـة الانتظـار فضـاء مفتوحـا. مـن مجلـسي ألمـح موظفـي الإدارة يسـعون في كلّ الاتجهـات وبـين أذرعهـم ملفـات مختلفـة. الحـرس يتحرّكـون، يرافقـون رهائنهـم المؤقتـة، فـإذا مـا صـدر بشـأنهم السّـماح والـسّراح،

facebook.com/groups/exchange.book

خلّفوهم على العتبات أحرارا. حرسنا يقفون عند المدخل، فقد كنت والعراقيون الثلاثة نعتبر زمرة واحدة. أرقبهم من طرف خفيّ وأتساءل متى تتراخى أعينهم السّاهرة فأجد فرصة النّجاة. ولم أكن أتخيّل أن تساق إليّ الفرصة بذلك اليسر.. لكنّ الله قدّر وفعل.

صاحبنا السّودانيّ الذي لم يملك حضور بديهتي في الادّعاء، صدر بشأنه حكم الترحيل الفوريّ. انقضى لقاؤه الشخصيّ بسرعة البرق، واقتيد خارجا مع ملف الترحيل، والقيود في معصميه. رأيته يتملّص من حارسه ويتخبّط على الأرض محدثا فوضى عارمة عند الاستقبال. كان ضخم الجثّة قويّ العضد، فما تمكّن الحارس من تثبيته منفردا.. هتف طالبا المآزرة، فاندفع حرّاس آخرون لنجدته. رأيت أحد الحارسين على بابنا يبتعد في خطى ثابتة، في حين انشغل الآخر بمراقبة ما يجري.. كنّا هادئين ومسالمين وفرص قبولنا وافرة، لذلك لم يبد من الخطر أن نوهب مساحة من الحريّة.

لم يكن هناك مجال للتردّد. كان عليّ أن أتحرّك على الفور قبل فوات الأوان. إن لم أتحرّك حينها فقد لا تهدي إليّ الظروف فرصة مماثلة مجدّدا. بحركة حادّة انطلقت عدوا في اتجاه المخرج وساقاي تسابقان الرّيح. خلال ثوان كنت قد عبرت الأمتار القليلة التي تفصلني عن باب الحجرة وتجاوزت الحرس. لم تعد تفصلني عن الشارع إلا مسافة قصيرة. حانت منّي التفاتة إلى الوراء. كان الحارس قد انتبه إليّ متأخّرا.. وهبّ في عقبي. لكنّني كنت قد حصلت على الأسبقية، ولم أكن أحتاج إلى أكثر من إثارة الموقف الرّاهن لأنطلق بأسرع مما تسمح به أطرافي الكسولة.

لم ألتفت مرّة أخرى. عبر الشوارع المزدحمة بالخلق، ركضت من دون أن أتوقف أو أستردّ أنفاسي. لدقائق عدّة، استمريت في عدوي المحموم تذكي حماستي غريزة البقاء. حين توقفت أخيرا لأستجمع قواي، كنت قد ابتعدت بضع مئات من الأمتار عن مبنى المركز.. استندت إلى جدار قريب وأخذت ألهث بشدّة. التفتُّ إلى الشارع الخالي وأنصتُّ في انتباه.

facebook.com/groups/exchange.book

لـم أكـن متبوعـا. تنهـدت وأنـا أجلـس عـلى الأرض وأمـدّ سـاقيّ في إعيـاء. لقـد نجحـت في الفـرار.. تنفّسـت بعمـق وأغمضـت عيـنيّ لبضـع ثـوان، ثـم انفجـرت ضاحـكا بصـوت ردّدت الأزقـة الخاليـة صـداه.

كنت حرّا طليقا في شوارع مرسيليا.

facebook.com/groups/exchange.book

الأحد ١٦ ديسمبر ٢٠٣٥، السّاعة الحادية عشرة ليلا،

سكتت أمّ خليل، ووضعت الرسائل جانبا لترشف من كوب الماء على مهل. لثلاث ساعات متواصلة، استمرّت تقرأ وتترجم، متوخّية ما أمكنها من الدّقة. تُشكل عليها بعض العبارات التي تتجاوز معجمها اللّغوي المحدود، فتقاربها بما تجود به قريحتها من بدائل، وتشحذ الذّاكرة لتستحضر معنى لفظ مرّ عليها منذ زمن طويل وسقط من دفاترها، لتقادم عهدها باللغة العربيّة قراءة وممارسة. بلّلت ريقها وأذهبت جفاف شفتيها، ثمّ حانت منها التفاتة إلى خليل الذي يجلس قبالتها، يُنصت في انتباه. هذا الاكتشاف المتأخّر لتاريخ أبيه، أيّ أثر يتركه في نفسه؟ نشأ طفلا وحيدا، في كنف أمّ رقيقة يغلب حنوّها على حزمها. لا يذكر كيف كان حضور أبيه في حياته، في تلك الطفولة البعيدة، لكنّه كان مكتفيا بعاطفة أمّه وحدها.. مثل كلّ الأمور التي تجهلها، فلا يسعك افتقادها.

قال خليل بعد ثوانٍ من الصّمت، متجاوزا ذهولا مؤقتا سيطر عليه مع السّطور الأخيرة:

- الرّصاصة.. إنّها تلك التي وصلت مع الظّرف؟

هزّت أمّه رأسها مؤيّدة، فزفر في شبه ارتياح. فكّر أن يسأل، كيف خرجت من رأسه ومتى، وما كانت التّبعات.. لكنّه أحجم. جوابها لن يتغيّر مع كلّ مقاطعة واستفسار. انتظر وستعرف. يتمنّى أن يستعجلها ويعبر المراحل كلّها بقفزة إلى خطّ النّهاية، لكنّها تبدو متأنيّة مترفّقة، كأنّما تخشى أن يُفلت حرف واحد من ترجمتها، فتكون قد خانت النصّ!

أطرق وقد طُبع الوجوم على ملامحه. إذن هذا هو أبوه.. واحد من أولئك الذين عبروا حدود الموت. جزء من ذاكرة البحر المتوسّط التي تدوّن سجّلات العابرين، الغرقى منهم، والنّاجين والمفقودين الذين قُدّموا

facebook.com/groups/exchange.book

وليمـة للأسـماك.. كأنّهـم قربـان أو إتـاوة يفرضهـا البحـر ليسـمح لآخريـن بالوصـول سـالمين، ليسـتقرّوا عـلى ضفـاف العـذاب!

للمـرّة الخامسـة ربّمـا، تظهـر إشـارة ضوئيّـة متكـسّرة عـلى شاشـة هاتفـه. سـيلين تتّصـل.

- عليك أن تردّ.. إنّها قلقة.

يهـزّ رأسـه بحركـة آليّـة، ولا يـردّ. ليـس في مـزاج يسـمح بالحديـث. يسـتمرّ الصّمـت حـتّى تخفـت الإشـارة وتتـلاشى. بينمـا ترقبـه أمّـه في قلـق. ألـم تُخـفِ عنـه الحقائـق رحمـة بـه؟ ألـم تؤجّـل المكاشـفة خوفـا عليـه؟ صـار رجـلا الآن، يسـتعدّ لمعركـة البرلمـان. رجـل مـن طينتـه لـن تكسره مجـرّد رسـائل.. ليسـت إلّا فسـحة عـبر التّاريـخ، سـيعود بعدهـا ليسـتكمل مهامّـه. لقـد حمتـه مـن تأثـير المـاضي في وعيـه وتفكـيره. فنشـأ كمـا تريـد.. لـمَ القلـق الآن؟

- تأخّـر الوقـت.. يجـب أن ترجـع إلى بيتـك حـتّى لا تقلـق سـيلين. نسـتكمل القـراءة صبـاح الغـد.. مـا رأيـك؟

راقبهـا خليـل متمعّنـا. كان شيء غريـب يمـلأ نظرتهـا وحركاتهـا. لقـد أخفـت عنـه كلّ تلـك الحكايـات المؤلمـة، لكنّهـا اليـوم تبدو متّقـدة الحيويّة، منتعشـة بشـكل لا يفهمـه. كلّمـا قـرأت، تدفّـق الـدّم في وجنتيهـا وغـدت أكـثر نضـارة. كأنّمـا تحـرّرت مـن ثقـل كان يكبّـل أطرافهـا ويلجـم ضحكتهـا. لـم تنـس. رغـم تسـتّرها وكتمانهـا، لـم تنـس. كانـت الذّكريـات تعيـش داخلهـا، والآن وهـي تبـوح وتنـشر خبايـا روحهـا تبـدو منطلقـة ومتفتّحـة. للحظـة، أشـفق عليهـا. تراجـع عـن فكـرة خرقـاء بإلقـاء الرّسـائل إلى النّـيران. كانـت تلـك القـراءة المرهقـة شـفاءً لهـا.. وربّمـا كان فيهـا شـفاء لـه أيضـا، مـن تسـاؤلات كثـيرة تشـغله مـذ كان مراهقـا؟ مـن يـدري، لعـلّ توطيـد معرفتـه بـأب لـم يعرفـه إلا في صـورة وحيـدة تتصـدّر صالـة الشّـقة القديمـة الـتي لـم تغادرهـا أمّـه منـذ ثلاثـين سـنة، يخفّـف شـيئا مـن مرارتـه؟ ربّمـا وجـب أن ينتظـر.. ليعـرف النّهايـة. لعـلّ الأمـور آلـت إلى غـير مـا بـدأت عليـه؟

facebook.com/groups/exchange.book

هـزّ رأسـه موافقـا. كان ذلـك مناسـبا. وليذهـب الخطـاب إلى النّسـيان حـتّى إشـعار آخـر. كان عليـه أن يجتـاز تجربـة المـاضي حـتّى يقـف عـلى عتبـات المسـتقبل بثبـات ووضـوح رؤيـة.

ركـب سـيّارته وقـاد عـبر الشّـوارع المقفـرة حـتّى منزلـه ذي السّـقف القرميـديّ الدّاكـن في ضاحيـة باريـس الغربيّـة. ارتقـى السّـلم الخشـب ودلـف إلى غرفـة ابنتـه مريـم عـلى أطـراف أصابعـه. كانـت الصّغـيرة تغـطّ في النّـوم، ومصباحها الزّهـريّ ذو النقـوش يرسـل إضـاءة باهتـة تؤنـس وحدتهـا. تنـام قريـرة العـين مـن دون أن يسـاورها أدنى ريـب في حقيقـة مـاضي جدّهـا. رفـع الغطـاء الـذي دفعتـه عنهـا في شـقلباتها الليليّـة وطبـع قبلـة حانيـة عـلى جبينهـا، ثـمّ تسلّل باتّجـاه غرفـة نومـه.

زفـر مهمومـا وفـكّ أزرار قميصـه. ارتـدى منامتـه عـلى عجـل ثـمّ انـدسّ إلى جـوار سـيلين في السّريـر الـدّافئ. تقلّبـت وفتحـت عينيهـا، ثـمّ اسـتقامت لتواجهـه بنظـرة عتـاب قاسـية:

- أين كنت؟ لماذا لا تردّ على اتّصالاتي؟

طبع قبلة سريعة على خدّها وقال متحاشيا نظراتها:

- أنا متعب الآن.. ما رأيك في أن نتحدّث صباحا؟

رمقتـه في غـير رضـا وهـو يولّيهـا ظهـره ويرفـع الغطـاء حـتّى كتفيـه، ثـمّ نفخـت في تسـليم وعـادت إلى نومهـا. وسرعـان مـا غرقـت في النّعـاس كأنّمـا لـم تسـتيقظ البتّـة.

أغمـض خليـل عينيـه وتنفّـس بانتظـام متوسّـلا نومـا عميقـا وسريعـا. لكـنّ جفونـه اليقظـة لـم تسـعفه. حـدّق في الظـلام وقـد سـكنه شـيطان الرّسـائل. بعـد سـاعات مـن السّـهاد، ران الكـرى عـلى عينيـه، فـراح في سـبات متقطّـع تتخلّلـه الكوابيـس. حـينَ تسـلّلت خيـوط الفجـر الأولى عـبر السّـتائر المسـدلة، بـارح سريـره وقـد قـرّر ألا خـير يُرجـى مـن محاولاتـه العبثيّـة تلـك. كان الإرهـاق يثقـل عينيـه، والتّسـاؤلات تمـلأ رأسـه. وقـد غلـب توقُـه إلى معرفـة المزيـد

facebook.com/groups/exchange.book

حاجتَـه إلى الرّاحـة.

عـلى السّـاعة السّـابعة صباحـا، وصلـت سـيّارته عنـد البنايـة القديمـة الـتي تقطنهـا والدتـه. ركنهـا كيفمـا اتّفـق، وهـرول في اتّجـاه المصعـد. لـم تتأخّـر أمّ خليـل مـع رنّـة الجـرس الأولى. رنـت إلى ولدهـا بابتسـامة صغـيرة:

- لم تنم كثيرا؟

- ولا أنت.

كان الإجهـاد ظاهـرا عـلى سـحنتها الباهتـة. تنهّـدت حـين جمعهمـا الصّالـون الصغـير في ركـن المطبـخ الـدّافئ. كانـت قـد جهّـزت القهـوة وقطـع التوسـت، وآثـار دمـع قريـب تبلّـل رموشـها. ومـن دون مقدّمـات أو اسـتطرادات لا طائـل مـن ورائهـا، أمسـكت الرّسـالة التاليـة واسترسـلت في مهمّـة الأمـس.

facebook.com/groups/exchange.book

أن يكـون بلـدك «عميـد» المسـتعمرات الفرنسـيّة، فذلـك يعـني أنّـك تملـك حقـا مشروعـا في قصاصـك مـن فرنسـا. هـو ثـأر تقـرّه لنفسـك وتـبرّر بـه نزعتـك الأنانيّـة إلى هجـران أرضـك وأهلـك إلى غـير رجعـة. كأنّـه ليـس مـن معـنيّ بالثـأر سـواك، وكأنّ نعيمـك بجنّـة فرنسـا سيسـدّد شـيئا مـن دينهـا تجـاه قومـك أجمعـين، وتتشـدّق بذلـك وأنـت تضـع قنـاع الفـارس المغـوار.

وإنّي يا فرنسا قد جئتك فاتحا!

تسـكعت في شـوارع مرسـيليا مـن دون وجهـة طيلـة الليـل. مشـيت في اعتـداد وغـرور، كأنّي ملـك يتفقّـد ربـوع مملكتـه. أتبخـتر في ثيـابي الرّثـة متناسـيا أزمـتي الماليـة، بعـد أن ذهـب كيـس نقـودي - مـع السـترة الـتي نزعـت عـنّي عـلى متن السـفينة واسـتبدلت بهـا أخـرى جافـة - أدراج الرّيـاح! لكنّـني كنـت ثملا برحيـق الحريّـة، أرمـق بأعـين حالمـة قـوس قـزح وهميّـا يزيّـن سـمائي، وعصافـير سـحريّة تزقـزق في صفـاء، فـلا يسـمع لحنهـا غـيري! حـين أنهكـني التعـب، تمـدّدت عـلى الأرض وراء شـجيرات كثيفـة في حديقـة عامّـة ونمـت عميقـا حـتى الصّبـاح. حـين قرصـني الجـوع، فتحـت عينـيّ. كنـت قـد أخـذت كفايـتي مـن النّـوم فاسـتلمت معـدتي المشـعل. تجنّبـت الميناء ومركـز المفوّضيّـة حيـث يمكـن أن أقـع عـلى أعـين تعرفـني، وتوغلـت في الاتجـاه المعاكـس، فقادتـني قدمـاي إلى أحـد الأحيـاء الشـعبية القصيّـة عـن وسـط المدينـة.

هل جرّبت أن تتخيّل الجنّة؟

هنـاك جنّـة.. وجنّـة. جَنّـة اللـه الـتي أعدّهـا لعبـاده المؤمنـين، مـا لا عـين رأت ولا أذن سـمعت ولا خطـر عـلى قلـب بـشر. وجنّـة البـشر عـلى الأرض. في خيـالي وخيـال شـبّان حـيّ العاطلـين، كانـت أوروبـا هـي الجنّـة. فألقينـا بأجسـادنا في اليـمّ نـروم المـوت، لعـلّ المـوج يلفظنـا، فنُبعـث عـلى شـواطئ

facebook.com/groups/exchange.book

شـمال المتوسّـط، في الجنّـة الـتي نبغـي. الجنّـة الآن. فهـل كانـت؟

حـين كنـت أتهيّـأ للسّـفر، جمّعـت عـددا مـن أرقـام الهواتـف، خيـوط تواصـل مـع مـن سـبقني مـن الجـيرة ورفـاق البطالـة. كان مـن المفـترض أن أجد ملجـأ مؤقتـا عنـد أحدهـم لـدى وصـولي، فـلا أضطـرّ إلى مرحلـة التيـه تلـك. لكـنّ القائمـة ضاعـت مـع بـاقي الحاجيـات الـتي ابتلعتهـا العاصفـة، فتبخّـرت الحلـول الجاهـزة، وصـار مـن المحتّـم الارتجـال!

وأنـا أتسـلق متمهـلا الرّبـوة المطلـة مـن عـلٍ عـلى الميناء والأبنيـة القديمـة، كنـت أكتشـف مشـهدا جديـدا لـم يخطـر ببـالي عـلى الإطـلاق. ذابـت الصّـور المشرقـة الـتي رسـمتها في ذهـني للحضـارة الغربيـة تحـت أشـعة الشـمس، حالمـا التقطـت عينـاي أكـوام الأوسـاخ والأتربـة المكدّسـة عـلى حاشـية الطريـق، وتوقفـت نظـراتي عـلى الجـدران الـتي تسـاقط طلاؤهـا الأصـلي، وتشـوّهت مسـاحاتها برسـوم ثائـرة متمـرّدة صاخبـة الألـوان، والتقـط أنفـي الروائـح العطنـة. خلـف واجهـة المدينـة السّـياحيّة الناصعـة، اكتشـفت بؤسـا مدقعـا لـم أكـن أتوقـع وجـوده عـلى الضفـة الأخـرى مـن المتوسّـط.

ولـم يكـن ذلـك كلّ شيء. انحـسرت الأحـلام أكـثر حـين طالعتـني وجـوه الصّبيـان الدّاكنـة وهـم يتحلقـون في جماعـات أمـام مداخـل العمـارات. وجـوه مشـتتة ضائعـة تشـبه كثـيرا الوجـوه الكئيبـة المحفـورة في ذاكـرتي. وجـوه الفقـر. وجـوه الجـوع. الوجـوه الـتي فـررت مـن عنّابـة حـتى لا ألمحهـا مجـدّدا، فـإذا بهـا تحـاصرني هنـا! تحـدّق فيّ بأعـين زائغـة عدائيـة تسـتغرب توغـلي في ثنايـا عالمهـا. تراقصـت في رأسي صـور بعيـدة قريبـة لشـبان أنصـاف عـراة يقرفصـون عـلى ناصيـة الشـارع في عـزّ ظهـيرة الصّيـف، أو يمـدّون سـيقانهم النحيلـة خـارج حـدود المقاهـي في تكاسـل ولا مبـالاة مسـتفزة. لمـاذا أتذكـر شـباب حـيّي بهـذا الإلحـاح؟ أليـس الشـبه واضحـا؟ وهـل يتسـكع في وضـح نهـار عمـل طبيعـي غـير العاطلـين؟

أرّقـني أن أواجـه الفاقـة وأنـا أقصـد هـذه البـلاد طالبـا الـرزق. تطلعـت

facebook.com/groups/exchange.book

إلى المزيـج العـرقي الغريـب الـذي تمثـل في الوجـوه الملونـة مـن الحنطـة إلى الأبنـوس. أفارقـة ومغاربـة وأوروبيّـون. قبـل أن تبـدر عـنّي أيّ محاولـة تواصـل، وجـدت أحدهـم يـبرز أمامـي، بـين أصابعـه مديـة حـادّة، يلهـو بهـا في نـزق، يديرهـا بـين أصابعـه في رشـاقة لا تخلـو مـن تهديـد، ويهتـف في غلظـة:

- أيها الغريب، ماذا تريد؟

لم أكن أجهل غربتي حتّى يذكرني بها.

- ارحل من هنا.. إن كنت لا تريد أن تتأذى.

بينمـا أخـذت في التراجـع في ارتبـاك، ظهـرت دراجـة ناريـة تهـدر مـن آخـر الشـارع. خـلال ثـوان قليلـة، صـار راكبهـا قبالـتي. تلفـظ بكلمـات فاحشـة، قبـل أن يرفـع العجلـة الأماميـة لدراجتـه في الهـواء ثـم يـدور حـول نفسـه في حركـة استعراضيّة لـم يخـف علـيّ الغـرض منهـا. حثثـت الخطـى نحـو الشـارع الرئيـسي لا ألـوي عـلى شيء، وحاشـية مـن الصبيـة العابثـين ترافقـني عـلى بعـد أمتـار قليلـة، كأنمـا يطمئنـون إلى خروجـي مـن مجالهـم الأرضي. ركضـت لمسـافة كافيـة وأنـا لا أكـفّ عـن التلفـت في جـزع، وإحسـاسي بالغربـة يتنامـى داخـلي مـع كل خطـوة.

لاحقـا، وأنـا أراقـب حركـة السـير مـن أعـلى الجـسر في شرود، حدّثـني أحـد المتشرديـن -الذيـن أصبحـت أقاسـمهم الفضـاءات العموميـة للنـوم وقضـاء الحاجـات- عـن حقيقـة الوضـع. تبـيّن لي أنّ تلـك الأحيـاء الشـعبية -«الغيتـو»- سـجون مغلقـة عـلى أهلهـا. عفـوا، سـجون؟ بـل هـي حصـون منيعـة تحمـي أهلهـا، مغلقـة في وجـه الغربـاء والدّخـلاء. أغلـب سـكانها مـن المهاجريـن أو الفرنسـيين مـن الطبقـة الكادحـة. لا أحـد يتجـرّأ عـلى دخولهـا مـن دون «حمايـة». والحمايـة لا يمكـن الحصـول عليهـا إلا مـن سـكان الحـيّ أنفسـهم. حـتّى رجـال الشرطـة لا يجـرؤون عـلى اقتحامهـا لا ليـلا ولا نهـارا. ومـن يغامـر منهـم بالترجـل عـن سـيارته عنـد مشـارف الحـيّ، فإنـه يلقـى ترحيبـا مـن نـوع خـاص لا يفكـر بعـده في تثنيـة الزيـارة.

facebook.com/groups/exchange.book

حـين تبتعـد عـن الأحيـاء الراقيـة وتتوغّـل في المنطقـة الشـعبية، تكـون قـد عـبرت الحـدود نحـو مرسـيليا أخـرى لا يـأتي الإعـلام الرّسـمي عـلى ذكرهـا إلا لماما، وبكثـير مـن التحفّـظ. كل حـيّ تحكمـه المافيـا الخاصّـة بـه، تصفـي حسـاباتها بنفسـها. تنصـب المحاكـم وتنفـذ الأحـكام مـن دون أيّ تدخـل خارجي. قـد يُسـمع في سـكون الليـل دويّ رصـاص حـيّ يعلـن تنفيـذ حكـم مـا بالإعـدام. حكـم تـمّ إيقـاف العمـل بـه في فرنسـا منـذ ١٩٨١ مـن قبـل الرئيـس «فرانسـوا ميتـيران»، ومـا زال سـاري المفعـول في غياهـب الشـوارع القاتمـة. المهنـة السّـائدة في تلـك المنطقـة هـي تجـارة الأسـلحة والمخـدّرات بأنواعهـا. ومـن لـم يتـورط في القـذارة حـتى النخـاع فهـو يشـارك في الجريمـة بالحراسـة أو التسـويق، أو عـلى الأقـل بالصّمـت والتّسـتر. طبعـا، مـن بينهـم أفـراد يتوقـون إلى حيـاة شريفـة، لكنّهـم يدفعـون ثمـن نشـأتهم في ذلـك الجحيـم كلّ يـوم. يمشـون ملتصقـين بالجـدران ويعانـون ليدفعـوا عـن أنفسـهم وصمـة جـرم اقـترن بهـم مـن دون ذنـب. حـين يـرزح ربـع سـكان المدينـة تحـت خـطّ الفقـر، يصبـح الخـبز اليومـي أهـمّ مـن الفضيلـة.

في تلـك الليلـة، حـين أرحـت رأسي أخـيرا طالبـا بعـض النـوم، ظللـت مفتـوح العينـين لبرهـة أتسـاءل في مـرارة. مـا الـذي جئـت أفعلـه في هـذه البـلاد؟

قضيـت بضـع ليـال في العـراء، أتكـوّر عـلى نفـسي تحـت جـسر يحمـل طريقـا سـيّارة. لـم يكـن الوقـت شـتاءً بعـد، لكـنّ الـبرد يشـتدّ في المسـاء حـين يهـبّ نسـيم البحـر الـلاذع عـلى المدينـة السّـاحلية، منـذرا بفصـل صقيـع باكـر، وفي سـويعات الصّبـاح الأولى، قبـل أن تمـدّ الشـمس خيـوط النّجـاة المشـبعة بالحـرارة.

أمّـا مـأكلي ومـشربي، فقـد انتحيـت مـن أجلهمـا المسـار الأقـسى. كنـت مثـل

facebook.com/groups/exchange.book

فـأر المخـازن، أتسـلّل إلى محـلّات المـواد الغذائيّـة. أتـوارى بـين الرّفـوف أو خلـف الـبرّادات، أتقـصّى الزّوايـا الـتي لا تطالهـا عـين كامـيرا المراقبـة، وأفـكّ بأصابـع مرتعشـة مغلّفـات الخـبز المقطّـع إلى شرائـح، ألـواح الشـيكولاتة أو قطـع البسـكويت، أقضـم فيهـا بشراهـة المحـروم وفوضويّـة المطـارد اللذيـن كنتهمـا، حـتّى تنطفـئ لهفـتي. أتلفّـت في قلـق محمـوم، وأتحـرّك في عجلـة مضطربـة. يمـوت فيّ الضمـير كلّ يـوم مقـدار شـعرة، حـتّى تـلاشى صوتـه تمامـا بعـد مـضيّ شـهر مـن العبـث والضّيـاع. بعـد شـهر مـن وصـولي إلى الأراضي الفرنسـيّة، كنـت لا أزال ألبـس الثيـاب ذاتهـا، أجـترّ الألـم ذاتـه، وينمـو بداخـلي حقـد مدمّـر عـلى الدّنيـا والظـروف والآخريـن الذيـن ينعمـون بالهـدوء وراحـة البـال.

ها قد عبرت المتوسّط، فأين الجنّة؟

غـير بعيـد عـن ملجـئي أسـفل الجـسر، كانـت مجموعـة مـن المشرّديـن تسـهر كل ليلـة. ألمحهـم بطـرف عيـني تحـت ضـوء فانـوس الشـارع الخافـت. قواريـر المشروبـات الكحوليـة لا تنفـد في مخازنهـم، وحناجرهـم تنطلـق بالضحـك والغنـاء في كل سـاعة.. كأنّهـم لا يحملـون هـمّ شيء في الدنيـا. يكفيهـم مـا يجـود بـه عليهـم بعـض المـارّة مـن قطـع نقديـة وبقايـا الأطعمـة. أمّـا البقايـا فيقتاتـون بهـا ويطعمـون الـكلاب الـتي تعيـش بينهـم كأنهـا بعـض أهلهـم، وأمـا النقـود فهـي للمشروبـات والسـجائر، وحـين تُفـرج تضـاف إليها الحشـائش المخـدّرة الـتي تلهيهـم عـن العالـم بـأسره!

أجلـس عـلى مسـافة منهـم بحيـث تصلـني أصواتهـم وأسـتأنس بحركتهـم، لكنّـني أبيـت الاختـلاط بهـم ومشـاركتهم المأدبـة. عجـوز أشـيب وصديقتـه المسـنة، يجوبـان الميناء للاسـتجداء، وكلبهمـا الكبـير المترهّـل لا يفارقهمـا. تتقاطـع طرقنـا في أثنـاء النهـار، حـين ينطلـق كل منـا للبحـث عـن رزقـه. وعـلى الجانـب الآخـر مـن الرّصيـف، كهـل قـد اقـترب مـن الخمسـين. آلـة الأكورديـون لا تفـارق ذراعـه. يطـوف السـاحات ليجمـع بعـض القطـع النقديـة مـن المـارة نظـير المعزوفـات الـتي يقدّمهـا بسلاسـة المحـترف.. نفـس تلـك المعزوفـات

facebook.com/groups/exchange.book

الـتي يؤديهـا ليـلا أمـام رفـاق سـهرته، مـن دون مقابـل. هـو الآخـر يصحـب كلبـا ضئيـلا قصـير السّـيقان، لا يفـارق قدميـه حـتى في أثنـاء النـوم.

كنـت أجـوب الشـوارع كل صبـاح عـلى غـير وجهـة. لا أدري مـن أيـن أبـدأ. تسـاءلت، كيـف تـصرّف الآخـرون، وقـرّرت أن أسـتعير تفكـير أحدهـم، علّـه يسـعفني بطـوق النجـاة. كلّ شيء كان سـهلا في خيـالي. ورش البنـاء والأسـواق والمطاعـم، كلهـا وجهـات كان مـن المفـترض أن تتوافـر فيهـا مواطـن شـغل كثـيرة بأجـور ذهبيـة. لكنّـني أينمـا توجهّـت كنـت أقابـل بالرفـض والطـرد، وأحيانـا كنـت أسـمع أقـذع السّـباب. كنـت أشـعث ومتسـخا وذا هيئـة باليـة. يـراد مـنّي أن أكـون في هيئـة محترمـة حـتى أحصـل عـلى عمـل.. وأنـا أحتـاج إلى العمـل حـتى أغتسـل وأشـتري ثيابـا نظيفـة. وجـدت نفـسي عاجـزا أمـام تلـك الحلقـة المفرغـة.

مـا هـي السّـبل المتاحـة إذن للمشرّديـن أمثـالي؟ حسـن، هنـاك التسـوّل طبعـا. وهـو أمـر أفضّـل المـوت جوعـا عـلى اقترافـه، فضـلا عـن نظـرات الاحتقـار الـتي لا أتحمّلهـا. مـاذا إذن؟ حـتى لا نبالـغ، فلنقـل إنّ هنـاك بضعـة خيـارات أخـرى.. شركات الأدويـة مثـلا! نعـم، شركات الأدويـة توظـف المشرّديـن.. لاختبـار عقاراتهـا قبـل طرحهـا في الأسـواق! بعـد التّجـارب المخبرية عـلى الفـئران البيضـاء، تعتمـد الـشركات الخاصّـة عـلى المشرّديـن والمعدمـين. يوقعـون عـلى تصريـح يخـلي الشركـة مـن كلّ مسـؤولية، فتنقدهـم أجـرة تُسـيل اللعـاب، ثـم تتابـع تجرّعهـم لسـموم لـم تثبـت نجاعتهـا.. وقـد لا تثبـت أبـدا! عـازف الأكورديـون، دفـع الثمـن فادحـا، حـين أخـذت أصابعـه تخذلـه بارتعـاش مزمـن، بعـد أن جـرّب حبوبـا لمـرضى القلـب. كان محظوظـا.. البعـض يقـضي في صمـت. يعـثر عليـه منظفـو البلديـة صباحـا متكـوّرا وقـد تقيّـأ دمًـا.

ثـمّ هنـاك فرصـة العمـل كمخـبر سريّ لصالـح الشرطـة! تراقـب ليـلا محـورا معيّنـا حـتى يتمكـن الضابـط المعـني بـه مـن الغـط في النـوم مـلء جفونـه. تبلّـغ عـن حـوادث السّرقـة والخطـف وتشـهد بمـا رأيـت بمـا يفيـد في

facebook.com/groups/exchange.book

التحقيقات الجارية.. وتتجسّس على بعض المحلاّت أو الأشخاص. طبعا لم أكن مرشّحا صالحا لمثل هذا العمل.. وأنا الذي فررت من الحرس! ماتيو «الأجرب» يفعل ذلك.. و«الأجرب» صفة أطلقها عليه بقيّة سكّان الشّوارع من المشرّدين، نفورا منه واحتقارا. فكرامة المتشرّد لا تسمح له بالعمالة للشرطة!

أما الطّريق الأيسر والتي استمرّت تراودني في إلحاح، فهي طريق الانحراف. إن أردت أن تتردّى في مسالك غير شريفة، فستجد من يغريك ويرشدك! كان بيدرو الإسبانيّ يظهر في المساءات السّاكنة التي تخفّ الحركة خلالها. يتسلّل في رشاقة قطّ، يقفز عبر الأسوار وينطّ في الحديقة العامّة التي يجتمع في أركانها المظلمة بعملائه. كانوا مشرّدين، مهاجرين مثلي، أميّزهم من بشرتهم شديدة الحمرة التي تفضح حفلات الشواء التي تعرّضوا لها على متن مراكب الموت، أو فرنسيّين خانتهم الفرص في وطنهم. وكان يزوّدهم بالمخدّرات. هيروين وكوكايين وحشيش، لائحة متكاملة من الخيارات تناسب ذوق كلّ مستهلك. كان ضميري في النّزع الأخير في تلك الفترة، وكنت أتوقّع وفاته بين لحظة وأخرى. لذلك لم يكن من الصّعب أن أستسلم للإغراء، لأصبح واحدا من عملاء بيدرو وموزّعيه.

ترّقبته تلك الليلة عند بوّابة الحديقة. رمقني بنظرة شاملة، ثمّ تصافحنا علامة الاتّفاق. خلال لحظات، أحطت علما بآليات العمل وحفظت القواعد. في الغد، سيسلّمني كميّتي الأولى. شطارتي في تسويقها ستحدّد العمولة والمكافآت. كان يجب أن يجرّبني قبل أن يضبط الأرقام ويحدّد أسس الحسابات بيننا. بتّ متيقّظا، مفتوح العينين. أزن تبعات قراري بموازين المصلحة والمخاطر. لم تراودني هواجس أخلاقيّة. لم أكن نفسي. كنت ذاتا أخرى غاضبة تخلّقت في رحم الغربة.

في تلك الليلة، كان غناء جاري العجوز يصل إلى مسامعي متقطعا. صوته فيه بحّة أعرفها. سببها تدخين مكثف لسنوات طويلة. أبي كانت لديه البحّة نفسها. ينقطع الغناء حين يداهمه سعال مضن يرتجّ له

facebook.com/groups/exchange.book

جسـده الهزيـل ارتجاجـا. فجـأة، تناهـى إلى مسـامعي صـوت فرملـة سـيارة مندفعـة، تلتهـا صرخـة مكتومـة وارتطـام عنيـف. فتحـت عيـنيّ في ذهـول والتفـتّ إلى حيـث كانـت المجموعـة المرحـة. في لحظـات، لـم يعـد للمـرح أثـر في المـكان. رأيـت مقدّمـة سـيارة سـوداء رياضيّـة وقـد توغلـت في الرصيـف مـن دون اسـتئذان، حـتى داهمـت عمـود الإنـارة وطـوت قائمتـه في مسـتوى القاعـدة. تحـت الإضـاءة الخفيفـة الـتي يبعثهـا مـا تبقـى مـن الفانـوس بعـد الحادثـة، رأيـت جسـدا مسـجى بـلا حـراك تحـت العجـلات. سـمعت العويـل الـذي أطلقتـه المـشرّدة المسـنّة وهـي تهـوي بقبضتهـا الضّعيفـة عـلى مقدّمـة السـيارة، تلاهـا هديـر محـرّك السـيارة ذاتهـا وعجلاتهـا الأماميـة تـدور عـلى محورهـا في ضراوة، منتهكـة بـلا رحمـة حرمـة الجسـد الـذي داسـته للتـوّ.. نـدّت عـنّي صرخـة فـزع وجريـت باتجـاه موقـع الحادثـة وقـد اسـتفقت عنـوة مـن ذهـول أصابـني، ونويـت إجبـار السـائق عـلى الـنزول. لكـنّ العربـة تحركـت قبـل وصـولي وتجـاوزت جسـد الرجـل العجـوز بعـد أن تداولـت عـلى فرمـه العجـلات الأماميـة والخلفيـة، وانطلقـت مجـدّدا بأقـصى سرعتهـا. انتبهـت في الوقـت المناسـب وقفـزت لأبتعـد عـن مسـارها متحاشـيا حادثـة ثانيـة. تركتهـا تفلـت وتابعتهـا ببـصري حـتى اختفـت خلـف المنعطـف في حـسرة. لـم يكـن أمامـي شيء أفعلـه.. لـم يكـن بإمـكاني إنقـاذ حيـاة الرجـل أو إيقـاف السـائق المجنـون. كنـت بـلا حـول ولا قـوة وأنـا أسـمع أنـين المـرأة منحنيـة الجـذع فـوق جثـة رفيقهـا الـتي فارقتهـا الحيـاة. سـمعت صـوت عـازف الأكورديـون وهـو يركـض في اتجـاه الشـارع القريـب ثـم يوقـف سـيارة عابـرة وهـو يهتـف:

- اطلبوا الإسعاف.. اطلبوا الشرطة..

لـم أسـتطع أن أدفـع نظـراتي عـن بركـة الدّمـاء القاتمـة، الـتي ظهـرت تحـت رأس الجثـة وأخـذت في الاتسـاع. رأيـت المـوت كثـيرا منـذ بـدأت رحلـتي. رأيـت أشـخاصا يموتـون أمـام عيـنيّ في البحـر مـن دون أن يبـكي عليهـم أحـد. وهـذا الرجـل أيضـا، لـن يبـكي عليـه الكثـيرون. لـو كان هنـاك مـن يهتـمّ لشـأنه لمـا عـاش مـشرّدا في الشـوارع.. لمـا مـات وحيـدا هكـذا. انتابـني جـزع مفاجـئ. كنـت

facebook.com/groups/exchange.book

شريكا له في الوحدة والتشرّد. تخيّلتني أقضي من الجوع أو البرد ذات ليلة، متكوّرا على نفسي على قارعة الطريق، لا أحمل أيّ ورقة ثبوتيّة. قد يمضي زمن طويل قبل أن يصل نعيي إلى الجزائر..

ارتفعت أصوات صافرات الشرطة وأخذت في الاقتراب. أخيرا قام أحد المارة بالاتصال بالأمن. لكن ما الفائدة؟ السّيارة فرّت من المكان ونجا القاتل بجريمته. لم أتمكن من تسجيل رقم لوحة السّيارة، فالظلام كان حالكا والإضاءة رديئة. ما فائدة الشرطة؟ انتبهت فجأة وقد عاد إليّ تركيزي. الشرطة! كان عليّ أن أختفي قبل وصولها. إن تقدّمت للشهادة على الحادثة فسيتم القبض عليّ لا محالة. أتاني صوت العازف وهو يقترب من موقفي:

- أنت هناك.. هل رأيت لوحة السيارة؟

استدرت بحركة مفاجئة وانطلقت أعدو في الاتجاه الآخر، تتبعني شتائم العازف البذيئة ولعناته الحانقة.

- أين ماتيو الأجرب؟ ألا يمكنه أن يكون مفيدا مرّة واحدة؟!

تابع وصلته الفرديّة بلا مجيب، بينما كنت أركض كالمحموم بلا وجهة. في تلك اللحظة، غدت الجنّة المرجوّة مجرّد البقاء على قيد الحياة.

oo
facebook.com/groups/exchange.book

facebook.com/groups/exchange.book

هـل جرّبـت أن تركـب قطـارا لا تعـرف وجهتـه؟ أنـا فعلـت. راقتـني فكـرة أن أتـرك لقـدري اختيـار وجهـة عـني. لـم أكـن أتـوق إلى زيـارة مـكان محـدّد، ولـم أكـن أملـك تـرف التخطيـط لمسـار مـا لحيـاتي. ركبـت القطـار في الصّبـاح الباكـر. تسـلّلت إلى المحطـة تحـت سـتار الظـلام، وانتظـرت في ركـن رطـب وعفـن حـتّى بـدأ المسـافرون في التّوافـد. حـين امتـلأت المحطّـة بالحيـاة، حـشرت جسـدي بـين الأجسـاد المترقبـة وانتظـرت القطـار.

دخلـت عربـة الدّرجـة الأولى مـن دون أن أدري. انتبهـت إلى ذلـك حـين لامـس كفـيّ مسـند المقعـد الجلـد، ووقعـت عينـاي عـلى ربطـات العنـق المتأنقـة المتصـدّرة للمشـهد عـلى معظـم الياقـات المحيطـة بي. بحثـت بعيـنيّ عـن مـكان شـاغر، فانتبهـت إلى فتـاة شـابة تضـع حقيبتهـا عـلى المقعـد المجـاور. جولـة أخـرى في أرجـاء العربـة أنبأتـني بأنـه المـكان الوحيـد المتبقّـي، فتقدّمـت بـتردّد:

- من فضلك.. هل يمكنني الجلوس هنا؟

رفعـت نظراتهـا إليّ في عجـب، ثـمّ رأيتهـا تنكمـش وتـنزوي قريبـا مـن النافـذة بعـد أن أزاحـت حقيبتهـا عـلى مضـض. أسـمالي الباليـة الـتي لـم أغيّرهـا منـذ دهـر أثـارت نفـور جـارتي. أحسسـت بنظراتهـا ترقبـني خلسـة فحاولـت -عبثـا- السّـيطرة عـلى اضطـرابي لأبـدو طبيعيّـا. رأيتهـا تشـيح عـنّي وتنغمـس في مطالعـة جريدتهـا، فـرارا مـن رائحـتي المزريـة حتمـا. تشـمّمت كـمّ سـترتي متفقّـدا فتراجـع رأسي مـن هـول مـا وجـدت. لـم أكـن قـد خالطـت العالـم المتحـضّر منـذ فـترة!

بعـد أن اسـتقرّ بي المقـام في العربـة، وتحـرّك القطـار مغـادرا المحطـة، انتابـني فضـول بمعرفـة وجهـتي. تلفّـتُّ مـن حـولي علّـني ألمـح لافتـة مـا أو

facebook.com/groups/exchange.book

لوحـة إعلاميـة، بـلا جـدوى. اسـتدرت حينهـا تجـاه جـارتي وتجـاسرت عـلى مقاطعـة تركيزهـا المزعـوم عـلى الجريـدة.

- معذرة.. إلى أين يتجه القطار؟

رفعت إليّ وجها شاحبا. رمقتني بنظرة مستنكرة، ثم قالت في حذر:

- إلى باريس.. ألم تحجز مكانا قبل الصعود؟

هـززت رأسي نافيـا وقـد انتابـني التوجّـس. هـا إنّ سـؤالي قـد زاد الطـين بلّـة. رأيتهـا تتراجـع في صمـت حـتى التصقـت بالنافـذة أو كادت، وزاغـت نظراتهـا عـبر الزجـاج. إنّهـا تفكّـر الآن بهويّـة الرّجـل الجالـس إلى جوارهـا، رثّ الثّيـاب، في مقصـورة الدّرجـة الأولى، مـن دون تذكـرة سـفر، ومـن دون معرفـة لوجهـة القطـار! إنّهـا تقلّـب الاحتمـالات في رأسـها. أسـوأها حتمـا. أيكـون مـن قطـاع الطـرق؟ أو لعلـه سـجين هـارب؟ استشـعرت عـن بعـد دقـات قلبهـا المتسـارعة، كأنهـا تـضرب صـدري أنـا، وراقبـت عنقهـا المتصلّـب وهـي تـزدرد ريقهـا بصعوبـة بالغـة. لقـد أثـرت رعبهـا في تلـك الدقائـق القليلـة، وخمّنـت أنّهـا قـد تنهـض لتغـيّر المقعـد والعربـة في أيّ لحظـة.. لـولا أنّ القطـار كان مزدحمـا ذلـك الصّبـاح.

حاولـت النّـوم فـرارا مـن إحسـاس غريـب بالذنـب تجـاه جـارتي المسـكينة الـتي أقلقـت راحتهـا. كنـت أنـوي أخـذ قسـط مـن الرّاحـة لأسـتيقظ مـع وصـول القطـار إلى المحطـة النهائيـة. أغمضـت عيـنيّ وتفكّـرت في مزيـج عجيـب مـن الحـسرة والارتيـاح في موعـدي مـع بيـدرو الـذي فوّتُّـه. إذن لـم يكـن ضمـيري قـد رقـد رقدتـه الأخـيرة بعـد. ولـم يكـن مقـدّرا أن أنحـرف بتلـك السّرعـة. لـم يكـن قـد غلبـني النعـاس بعـد حـين، سـمعت صوتـا قويـا يعلـن مـع دخولـه العربـة:

- سـيداتي، سـادتي، صبـاح الخـير! سـنقوم الآن بعمليـة المراقبـة.. لذلـك الرجـاء إظهـار بطاقـات السـفر.

نزلـت الكلمـات عـلى رأسي كالصاعقـة. انتهـى أمـري! هـل فـررت مـن أمـن

facebook.com/groups/exchange.book

المفوّضيّـة وشرطـة مرسـيليا لأقـع لقمـة سـائغة بـين فـكيّ مراقـبي التذاكـر؟ تكـوّرت في مـكاني متوتّـرا أقلّـب الإمكانيـات المتاحـة. هـل أتظاهـر بالنـوم؟ لكـنّ المراقـب سـيوقظني لا محالـة. لـم يكـن بـين يـديّ مـن حـلّ إلا ملازمـة الصّمت. لـن أتكلـم. حانـت مـنّي التفاتـة إلى جـارتي الشـابة.. لقـد تحدّثـت معهـا منـذ قليـل، ولعـلّ غيرهـا مـن الـركاب قـد سـمعني. هـل يكشـفون أمـري؟

- سيدي، تذكرة السفر من فضلك.

اسـتدرت ببـطء لأواجـه المراقـب بابتسـامة مهـتزّة مـن دون أن أتفـوّه بكلمـة واحـدة.

- سيدي، التذكرة.

هززت كتفيّ كأنّني لا أفهم أو لا أسمع، ولم أردّ.

أخذ المراقب يتفرّس في هيئتي وقد بدأت الشكوك بشأني تساوره.

- سيدي، هويتك!

بنفس البلادة، استمررت أطالعه بابتسامة متشنجة.

رفـع المراقـب صوتـه وهـو يشـير بسـبابته إلى بطاقـة هويتـه الـتي علقهـا عـلى صـدره:

- هل لديك بطاقة مثل هذه تحمل اسمك؟ ما هو عنوانك؟

حـين لـم يأتـه ردّ هـذه المـرّة، نـادى زميلـه الـذي كان قـد تقـدّم لمراقبـة تذاكـر بقيـة المسـافرين:

- لسـت أدري إن كان أصمـا أم مـشردا أم مجنونـا.. لكنـه لا يجيـب، ولا يحمـل تذكـرة أو بطاقـة هويـة. سـأقف هنـا إلى حـين وصـول أمـن القطـار.

هزّ الآخر رأسه متفهما وابتعد في اتجاه العربة التالية.

جلسـت في صمـت أنتظـر مـا سـتؤول إليـه الأمـور. أرقـب في قلـق جـارتي الـتي وصلـت علامـات التوتّـر عـلى وجههـا أقـصى مسـتوياتها، ومراقـب التذاكـر الـذي يتّصـل عـبر لاسـلكيّه كل فـترة لاسـتعجال أمـن القطـار. تنحـدر قطـرات

facebook.com/groups/exchange.book

العـرق عـلى جانـب وجهـه المكتـنز وتتحـرّك أصابعـه بشـكل لإراديّ واشـية باضطرابـه. لـم أكـن وحـدي أعـاني وقتـا عصيبـا.

«بعد دقائق قليلة سيتوقف القطار في محطة ليون».

جـاء النـداء عـبر مكـبّرات الصـوت ليحمـل الفـرج لـكل منّـا. كنـت صاحـب الفكـرة ومنفّذهـا. انتظـرت اللحظـة المواتيـة، حـين اهـتزّ القطـار فترنّـح المراقـب الـذي أنهكـه الوقـوف في مكانـه لدقائـق طويلـة. رأيتـه يـدوس عـلى قـدم أحـد المسـافرين فينحـني ليعتـذر وقـد تزايـد منسـوب عرقـه. لحظـات قليلـة ابتعـدت خلالهـا نظراتـه عـنّي، فوقفـت في هـدوء وتسـلّلت مبتعـدا قبـل أن ينتبـه إليّ. قطعـت الأمتـار المعـدودة الـتي تفصلـني عـن بـاب الـنزول بخطـوات واسـعة وأنـا أبتهـل إلى اللـه أن يكـون الحـظّ حليفـي مـرّة أخـرى. حـين رفـع المراقـب رأسـه، كان الممـرّ مكتظـا مـع اسـتعداد الـرّكاب للـنزول. كان زحـام القطـار ذلـك الصّبـاح مـن حسـن طالعـي. سـمعته يـصرخ في غيـظ:

- من فضلكم، دعوني أمرّ..

حـشر جسـده الممتـلئ في الفراغـات بـين المسـافرين وهـو يحـاول اللحـاق بي. الثـواني تنقـضي وأنـا أقـف أمـام بـاب القطـار المغلـق وأنتظـر توقّفـه في المحطـة. لـم يكـن الحـظ ليواتيـني أكـثر ممّـا فعـل. المسـافة بيننـا تتقلّـص والقطـار مـا زال يتحـرّك. فلأصنـع حظـي بنفـسي إذن. حرّكـت مقبـض الطـوارئ وشـددت عـلى البـاب بـكل مـا أوتيـت مـن قـوّة حـتّى فتحتـه. هبّـت ريـح مـن خـلال الفتحـة مذكيـة حـسّ المغامـرة داخـلي. البـاب مفتـوح. القطـار يتحـرّك مبطئـا مـع اقترابـه مـن المحطـة، كـفّ المراقـب تمتـدّ باتجاهـي لتمسـك بتلابيـبي. أقفـز. أقفـز ملقيـا بجسـدي إلى الفـراغ. تتماهـى الصّـور في ذهـني. أمـواج البحـر والمركـب المنقلـب، والقطـار بسـعيه الحثيـث عـلى سـكة الحديـد، وموج الحـصى الـذي حططـت فوقـه متعـثّرا متكـوّرا. أتدحـرج بعشـوائيّة وتخـز حبّـات الحـصى جلـدي فأسـتفيق مـن خيـالاتي. لعـلّ المـاء كان أكـثر طـراوة، لكـنّ أمواجـه لـم تكـن أرفـق.

facebook.com/groups/exchange.book

أقـف عـلى قدمـيّ وقـد لقيـت مـا لقيـت مـن سـقطتي الحـرّة عـلى فـراش الحـصى. القطـار يمـضي ووجـه المراقـب المربـدّ يطـلّ مـن البـاب في سـخط. لـم يجـرؤ عـلى القفـز ورائي. ألمـح قطـاري يتوقـف عنـد المحطـة بعـد بضـع مئـات مـن الأمتـار، فأحـثّ الخطـى مبتعـدا، أبحـث عـن حظـي الـذي واعدتـه عـلى اللقـاء في هـذه الأرض الجديـدة.

وإنّي يا ليون قد وصلتك صدفة!

facebook.com/groups/exchange.book

facebook.com/groups/exchange.book

الاثنين ١٧ ديسمبر ٢٠٣٥، العاشرة صباحا،

كانت جفون خليل مثقلة بالإرهاق، وهو يتوسّد كفّه ويتابع التفاصيل التي واصلت أمّه سردها. تجلّى التعب في سحنتها هي الأخرى، وفي فتور شفتيها وهي تتعثّر في الترجمة، وتتوقف لثوان بين جملة وجملة. لم يحظَ أحدهما بنوم كافٍ، وبدت المهمّة المستأنفة مجهدة أكثر ممّا توقّعا. تثاءب بعد أن فشلت القهوة في تعديل مزاجه الخامل، وقال في تثاقل:

- هذا لا ينفع.. سآخذ الرّسائل إلى مترجم محترف، وستكون جاهزة خلال يومين.

- لا!

كانت شاحبة في رفضها القاطع، كأنّما هي طفلة لا تريد أن تفرّط في لعبتها الأثيرة.

- اذهب إلى مكتبك، وسأعمل على التّرجمة في غيابك، فتكون القراءة سلسة مساءً. ما رأيك؟

بدا عليها التّصميم، والرّجاء. لن تترك المهمّة لأحد. يهمّها أن تقضي أطول ساعات ممكنة في حضرة رسائل الزّوج الغائب. لعلّها تطرد الملل عن ساعات يومها الرّتيبة. فكّر أنّه ليس من حقّه أن يحرمها من متعتها التي جاءت بعد سنوات من الجفاف العاطفيّ.

- لك ذلك.

دخل مكتبه بعد أن اجتاز بمشقّة دوّامة الزّحام الصّباحيّ. السّاعة تشير إلى الحادية عشر صباحا، والحركة فاترة مثل أيّام الاثنين الاعتياديّة. تنهّد، وبوابة المصعد تغلق مصراعيها خلفه. هل يمكنه التّركيز الآن على مشاغله الأخرى؟ سيغوص تدريجيّا في قضاياه المعلّقة، حتّى تصل الأعمال

facebook.com/groups/exchange.book

إلى ذروتها على قرابة الثانية بعد الظهر. نبّهته رنّة المصعد مع وصوله إلى الطّابق الرّابع. ما أن تجاوز العتبة حتّى لمح الفتاة عينها، تجلس في قاعة الانتظار وعيناها ترقبان المدخل في صبر. لقد نسي أمرها! تجاوزها مسرعا في اتّجاه غرفة مكتبه، من دون نظرة عابرة حتّى. يتصرّف مثل شخص مهمّ، محامٍ مشغول أو مرشّح برلمان تعوّد على ابتزاز العامّة.

دخلت السكرتيرة بعد لحظات، وضعت كوب قهوة ساخنة على سطح المكتب، وقالت في لامبالاة وهي تهمّ بالمغادرة:

- الآنسة تنتظر منذ ساعتين.

لم يكن ينقصه غيرها هذا الصّباح! تلكّأ وهو يفتح أجهزته، يتفقّد ملفّاته، يرتشف قهوته ببطء وسرحان. بعد نصف ساعة، قال عبر الهاتف الدّاخلي: دعيها تدخل.

رغم سلوكها الصّبور، فقد تراءت في عينيها غلالة ضيق وغضب. ربّما تتجاوز عن ساعتي الانتظار قبل وصوله إلى المكتب، لكن الدّقائق الثلاثين التي تلت كانت إذلالا متعمّدا. لم يكلّف نفسه غير ابتسامة مداهنة وهو يقول بنبرة جافة لم تبلغها ذرة ندم:

- آسف لجعلك تنتظرين..

كانت نظرتها حادّة، ولم تبد عليها أدنى رغبة في البكاء. كأنّما ازدادت صلابة عمّا كانت عليه مساء السّبت، وهي تكاد تستجديه المرافعة في قضيّتها. هل فعلت؟ تبدو ذكرياته مشوّشة، بعد نهاية الأسبوع غير الاعتياديّة هذه. يحصل معه ذلك غالبا حين يشاهد شريطا بأبعاد خمسة، فيتقمّص الدّور ويعيش الأحداث، فيصعب عليه بعد الفراغ منه أن يستوعب أبعاد الحياة الحقيقيّة لبضعة دقائق. لكنّ ما اختبره ليس شريطا خياليّا.. بل تاريخا يخصّه.

- ذكّريني، ما الذي نحن بصدده؟

- البيت، يحاولون طردنا منه.. وشقيقي محتجز بعد صدامه مع رجال

facebook.com/groups/exchange.book

الأمـن.

مختـصر وجـيز للقضيّـة، بصـوت يـكاد يكـون لامباليـا. لحظـات مـن الصّمـت. حـاول أن يقيّـم الوضـع. هـل يمكنـه أن يعتـذر الآن ويطلـب منهـا أن تقصـد غـيره؟ هـل سـيبدو ذلـك مجحفـا في حقّهـا بعـد سـاعتين ونصـف السـاعة مـن الانتظـار؟ ربّمـا لـو كانـت نبرتهـا ذليلـة ونظرتهـا منكسرة، لشـعر بنفسـه محاصرا وراغبـا في التملّـص من مسـؤوليّة لا يريدهـا. لكـن هـذا البـرود المتباعـد يدعـو إلى الشـكّ، كأنّمـا ليسـت القضيّـة قضيّتهـا! كأنّمـا لـم يعـد الأمـر يهمّهـا. يثـير الأمـر فضولـه بشـكل لا يقـاوم، يـكاد يسـألها، مـا الـذي حـلّ بهـا يـوم الأحـد؟

- لا أظـنّ أنّ هنـاك الكثـير لعملـه بالنّسـبة إلى البيـت. وشـقيقك.. حسـن، لـم يكـن عليـه التهـوّر بمجابهـة رجـال الأمـن.. ومـع ذلـك، أتوقّـع أن يتـمّ إخـلاء سـبيله خـلال وقـت قصـير. لـن يحتـاج الأمـر إلى جهـود محامـي جنايـات. أنـت تفهمـين؟

ظهرت ابتسامة ساخرة على شفتيها وقالت بنبرة متعالية:

- طبعا.. فهمت.

ثـمّ وقفـت مغـادرة مـن دون كلمـة احتجاج واحـدة. تسـاءل في حـيرة إن كانت حقّـا الفتـاة نفسـها؟ هـل تكـون شـقيقتها؟ شـبيهة لهـا؟ كلّهـن يتشـابهن حـين يغطـين رؤوسـهن. بعـد دقائـق مـن انصرافهـا، كان لا يـزال مبهوتـا ومشـتّتا. هـل كان عليـه حقّـا أن يرفـض القضيّـة؟ بالتّأكيـد، لـن يـورّط نفسـه والمكتـب في قضيّـة تعطيـل لمسـار القانـون وهـو يتأهّـب للمعركـة الحاسـمة. عـاد إلى مطالعـة ملفّاتـه مـن دون تركـيز. تسـاءل بعـد برهـة، هـل كان ليقبـل بهـا في ظـروف أخـرى؟ لـم يكـن واثقـا.

ليست قضيّة تعنيه.

بلى، تعنيه، ولكنّه ينكر.

مـاذا لـو كانـت أمّـه تواجـه موقفـا مماثـلا؟ مـاذا لـو رفـع جيرانهـا شـكوى وطالبـوا بطردهـا مـن الحـيّ الـذي لا تنتمـي إلى أهلـه عرقـا وثقافـة؟ هـل كان

facebook.com/groups/exchange.book

ليدافع عنها؟ أم لعلّه سيحثّها على الاستجابة في صمت؟ إنّها مجرّد سيّدة عجوز مسالمة لا تكاد تغادر شقّتها في كلّ الأحوال. هل ستشكّل مصدر ضيق لأحد؟

لم يدر كم دام شروده حين اقتحمت السكرتيرة المكتب في حالة فزع قصوى.

- أستاذ دانيال، الحافظة الإلكرتونية اختفت! لا أجد لها أثرا!

وقف في اهتمام وقال مهدئا من روعها:

- هل بحثت جيّدا؟ لا شكّ أنّها في مكان ما.

- إنّها محفوظة على الدّوام في درج المكتب العلويّ، وهو مغلق دائما والمفتاح معي. لكنّها ليست هناك الآن!

- متى رأيتها آخر مرّة؟

- هذا الصّباح. أخرجتها قبل وصولك، وقمت بتحديث الملفّات وتصنيفها كما تعوّدت دائما. عملت عليها قرابة السّاعة قبل وصول الزّبائن، لم يكن هناك غير...

توقّفت فجأة وقد تذكّرت الزّائرة الصّباحيّة التي أمضت ساعتين ونصف الساعة في قاعة الانتظار.

- تلك الفتاة! لقد غادرتُ المكتب لدقائق قليلة، حين أدخلت إليك القهوة! إنّه وقت كاف لتفتح الدّرج وتأخذ الحافظة ثمّ تخفيها في حقيبتها من دون أن أنتبه! لا شكّ أنّ ذلك ما حصل!

- دعينا لا نتسرّع في الاستنتاج.. سنبحث عنها معا في كلّ أرجاء المكتب. قد تكونين نقلتها من موضعها ونسيت الأمر.

بعد نصف ساعة من التفتيش الدّقيق، كان احتمال السّرقة قد راح يتّخذ معنى واقعيا. راجع في ذهنه نبرتها وسلوكها. لامبالاتها، كانت توحي بشيء ما لم يستطع التكهّن به. انتقمت لنفسها؟ حافظة ملفّاته، إنّها أثمن ما

facebook.com/groups/exchange.book

يمتلكه المحامي. من دونها، يقف في قاعة المحكمة خالي الوفاض، مقفر الذّهن من التحليلات والمعطيات التي تصنع مرافعته وتنسج خيوطها. لقد أحسنت انتقاء وسيلة الانتقام.

قال في شحوب وهو ينفض يديه بعد رحلة البحث الفاشلة:

- هل أخذت بياناتها؟

سارعت السكرتيرة إلى جهاز التّسجيل الذي يدوّن عليه المراجعون هويّاتهم وعناوينهم، ثمّ ما لبثت أن رجعت ممتقعة الوجه وهمست في خيبة:

- لقد تركت هويّة وهميّة! دوّنت اسم رجل!

رفع حاجبيه في شكّ. اسم رجل؟ لو كانت تقصد هويّة وهميّة، لماذا لم تختر اسم أنثى؟ لماذا قد تدوّن اسم رجل؟ هتف في اهتمام:

- أريد الاسم والعنوان.. حالا.

تناول معطفه وهرول إلى الخارج من دون أن تستوعب السكريتيرة شيئا. ما أن استقرّ أمام عجلة القيادة، حتّى رنّ الهاتف معلنا عن رسالة. طالع البيانات. الاسم، محمد رستم. وعنوان في قلب باريس، الدّائرة السّابعة. أدخل العنوان على جهاز الملاحة الخاصّ بالسيّارة وانطلق. لو كان توقّعه صحيحا، فهي ليست هيّنة أبدا. ما كان عليه أن يستهين بها.

رنّة أخرى على الهاتف أعلنت وصول رسالة أخرى. رقم والدته. ملف صوتي! وصل الهاتف بجهاز البثّ الخاصّ بالسيّارة وأخذ يستمع إلى صوتها الهادئ في اهتمام. ابتسم وهو ينعطف عبر شوارع باريس في اتّجاه بغيته. لقد أحسنت استثمار صباحها، بينما يزداد هو تشتّتا وضياعا.

facebook.com/groups/exchange.book

facebook.com/groups/exchange.book

ليتـك رأيتـه معـي.. ظهـر أمامـي فجـأة، كأنّمـا نبـت مـن الجـدار، مـن العـدم. كنـت منهـكا أكاد أمـوت مـن الجـوع، فنزلـت عـلى عيـنيّ غشـاوة مـن الضّبـاب غالبـا مـا تسـبق الإغمـاء. خـلال المشـاهد المهـتزّة، ظهـر ذلـك الرّجـل ذو السـاق الواحـدة، والـذراع الواحـدة، والعـين الواحـدة! بعينـه السّـليمة، حدجـني بنظـرة جانبيـة مشـبعة بـالازدراء، وقـال بالفرنسـيّة:

- مثير للشفقة.

لـم أعـترض. كنـت مثـيرا للشـفقة بالفعـل. لبثـت أرقـب في تشـوّش النهايـات الاصطناعيّـة الـتي تكمّـل مـا نقـص مـن أطرافـه البشريـة، السـاق الخشـب، المخطـاف المعـدن، والرّقعـة السـوداء الـتي تتـدلّى عـلى جانـب وجهـه مخفيـة عينـه العـوراء. شـكل القرصـان طبـق الأصـل مـن أفـلام الكرتـون! مـع كومـة مـن الثيـاب المهلهلـة غـير المتناسـقة، تخفـي بقيّـة جسـده. زمجـر شيء ضخـم غـير بعيـد عنـه، فالتفـتُّ ناحيتـه. لـم يكـن قرصـاني يصطحـب ببغـاء أو طائـرا مـا، بـل كلبـا مخيفـا كثيـف الشـعر متلبّـده. نظـرت مبـاشرة في عيـني الحيـوان المحمـرّة، فزمجـر مـن جديـد.

- اتبعني.

لـم أمـيّز في البدايـة إن كان يخاطبـني أم يخاطـب كلبـه. رأيتـه يبتعـد، يجـرّ سـاقه الخشـب، والكلـب يحاذيـه. اسـتدار ليقـول مـرّة أخـرى في نفـاد صـبر.

- ألن تأتي؟

لـم تكـن دعـوة لبقـة. لكنّـني وقفـت مـن دون تـردّد. مـا الـذي جعلـني أستجيب لطلبـه؟ سرت وراءه عـلى مهـل وهـو يسـبقني بحـوالي مترين. أسـتند عـلى الجـدران مقاومـا ضعفـي. أرفـع رأسي كلّ حـين لأتأكـد مـن بقائـه في مجـال بـصري. «زومـبي» يقتفـي أثـر قرصـان، يسـيران بتـؤدة بـين البـشر، ولا أحـد

facebook.com/groups/exchange.book

يهتمّ بالمشهد! لا أدري كم مشينا على تلك الوتيرة. كنت على قدر من الاضطراب حال بين إدراكي حدود الزمان والمكان. انتهينا بعد برهة إلى زقاق ضيّقَ ومظلم. اختفى الرّجل عبره وغاب عن ناظريّ. تبعته متلمّسا طريقي في السّواد، حتّى لاحت ذؤابة خافتة في نهاية الممرّ. حين وصلنا، ارتفعت رؤوس صغيرة كثيرة من انهماكها وتطلعت إلينا. أعداد غفيرة من أطفال الشوارع، لم أملك حصرها، مجتمعون على وليمة من بقايا المطاعم، يتقاسمونها فيما بينهم ويتخاطفون قطع العظام التي علق بها قليل من اللحم. تتطاير القطع من كفّ الصّبيّ المكلّف بالقسمة، فيلتقطونها بخفّة وينهشونها بأسنانهم الصغيرة في لحظات.

ازدردت لعابي الذي سال قدر منه على جانب فمي، وأقعيت إلى جوار الكلب، متلهفا لنصيبي من المأدبة. حالما طارت قطعة الخبز باتجاهي، عادت الدّماء إلى وجهي، فتلقفتها بكلتا يدي، كأنّي أخشى تسرّبها من بين أصابعي، وطفقت أمضغ لقماتها في صمت ورع. الجوع كافر يا ولدي. ما من آفة تورث الإنسان ذلا وهوانا أشدّ منه، ولا توحّشا وحيوانيّة أكثر منه، حين تتعارك البطون الخاوية على كسرة لا تسدّ الرّمق. كان من حسن حظّي أنّ المأدبة كفت الجميع.

نمت بعد ذلك نوما عميقا. تكوّرت على الأرض، في وضعيّة الجنين، وغلبني النّعاس. حين أفقت، لم يكن هناك أحد. القرصان، الأطفال، الكلب، كلهم اختفوا.

في الصباح، سرت في الطّرقات على غير هدى. أمرّ بين النّاس، فلا يرونني، كأنّ جسدي شفاف خفيّ. على قارعة الطرقات وعند إشارات المرور، يتوزّع أشخاص على شاكلتي، يفترشون الرّصيف ويتسوّلون اللقمة. وقفت في زاوية بين شارعين وراقبت المشهد. يمرّ بهم النّاس مسرعي الخطو، لا يكادون يلمحونهم. قد تمتدّ كفّ من حين إلى آخر، تندسّ في جيب سترة وتخرج قطعة نقدية أو اثنتين، تلقي بها إلى المتشرّد وتمضي من دون أن تتخلّى الخطوات عن نسقها السّريع. كأنّ البشر ينقسمون إلى عالمين، عالم

facebook.com/groups/exchange.book

طبيعيّ يعيش حياته في ضوء الشمس، ينساب في حركيّة شديدة، وعالم موازٍ يزحف في الظل، يجرّ أقدامه في ترهل لا تسعفه القوى، يقتات على فتات العالم الأوّل ويستهلك بقاياه.

حين بدأ الظلام في الهبوط، عدت إلى الزّقاق الذي قادني إليه القرصان بالأمس. جلست القرفصاء في زاوية قصيّة ولبثت أنتظر. أنتظر. أنتظر. كانت الساعات تمرّ والضجيج في الشارع الرّئيسي يخفت معلنا نهاية نهار حافل، ورفاق الأمس لا يظهرون. فتحت عينيّ بعد غفلة قصيرة، فألفيت الزقاق مكتظا! كيف ومتى جاؤوا؟ كانوا هناك، متفرّقين على الأسفلت في فوضى منسجمة، وموزّع الحصص في نفس مكان الأمس، يرمي بقطع البقايا فتطير فوق الرؤوس حتى تستقرّ في وجهتها.

- أخيرا استيقظت.

بادرني القرصان بغلظة، ثمّ انحنى ليلقي بين كفيّ عظمة دجاج التصقت بها نتف لحم، كان يلوك قضمة منها. تلقيتها بلهفة، فقد كنت أترقّب تلك اللقمة طوال النهار.

- ما الذي تجيد فعله؟

بادرني على حين غرّة بعد أن فرغت من قطعة اللحم الهزيلة وكسرتي خبز جافّتين. فكّرت للحظات في ما أمتلكه من مواهب. أحسبني قادرا على التواصل مع الآخر، ملمّا بالأساليب البيداغوجية. متحصّل على الأستاذية في اللغة العربيّة، لكنّني أجيد الفرنسيّة، ويمكنني مثلا أن ألقّن هؤلاء الأولاد أبجديّات النحو والصّرف...

- الشحاذة أم النشل؟

بترت عبارته أفكاري الجامحة. لم أكن أفكّر في المواهب المناسبة.

- قف، أرني ما يمكنك فعله.

وقفت في ارتباك. لم أدر ما المطلوب منّي بالضبط. فتطوّع أحد الأولاد وقدّم عرضا توضيحيا. طوى ذراعه وألصقها بعضده ليلامس كفه

facebook.com/groups/exchange.book

كتفه، ثم حشر كوعه داخل كمّ القميص من دون صعوبة تذكر، وربط قماش الكمّ عند نهاية الطرف المطويّ لتبدو ذراعه مقطوعة! ثمّ قام آخر بالشيّء نفسه مع ساقه. نزع البنطلون وبقي في سرواله الدّاخلي، ثمّ طوى الساق إلى الوراء في ليونة وحشر ركبته في ساق البنطلون! كانوا يفعلون ذلك بسلاسة ومرونة، كأنّهم اعتادوا تلك الحركات منذ الأزل، ثمّ مضوا يتحرّكون كأنّ تغييرا في أجسادهم لم يكن! عدت أحدّق في القرصان وقد صرت أرمق عاهاته بشكل مختلف. ما أدراني بأنّه قد فقد ساقا أو ذراعا؟ ما أدراني بعينه المختفية خلف القناع، لعلّها تكون سليمة؟

تخبّطت محاولا دسّ كوعي في كمّ قميصي، لكنّ الكمّ تمزّق قبل أن أفلح. لم أجرّب الأمر مع ساقي، فقد كان الوقوف على ساق واحدة معضلة لم أستطع تجاوزها. استسلمت بعد دقائق من المحاولة. لم أكن بالمرونة المطلوبة.

- النشل إذن.

قالها القرصان بلهجة من يعلن قرارا. إن كنت أريد أن أقتات من موارد المجموعة فعليّ أن أقدّم مشاركة ما. راقبت الأولاد وهم يتقدّمون تباعا ليفرغوا محتويات جيوبهم المكتنزة في جراب القرصان، وتساءلت، هل تستحقّ وليمة البقايا تلك أن يتنازل كلّ منهم طواعية عن محصول يومه؟ تراكمت القطع النقدية في الكيس محدثة رنينا معدنيّا محبّبا اشتقت إليه. لم يقم القرصان بعدّها، بل اكتفى بجسّ الكيس من الخارج في حركة تقييميّة، ثمّ ابتسم في رضا. ربح وافر.

- حاول أن تأخذ مني الكيس، وتركض.

ابتعد عنّي مقدار ثلاث خطوات، ثمّ راح يمشي مأرجحا الكيس إلى جانب ساقه في لامبالاة. تردّدت لحظة، ثمّ اندفعت. لوهلة خامرتني فكرة شديدة الجرأة. أن أختطف الكيس وأعدو بكل قوتي حتى أختفي عن الأنظار.. فينطلق جيش من الفئران الصغيرة بقيادة القرصان خلفي، فيُنهش لحمي

facebook.com/groups/exchange.book

حيّـا! فقـدت الفكـرة معناهـا بعـد ذلـك مبـاشرة. قفـزت لأمسـك بالكيـس، فتحـرّك القرصـان بخفّـة ليرفعـه بعيـدًا عـن متنـاول يـدي. كـدت أسـقط.

- مرّة أخرى.

تكـرّرت المحاولـة، وفشـلت في كلّ مـرّة. وفي غمـرة انغمـاسي في تنفيـذ أوامـر القرصـان مـن دون مقاومـة، انتبـه ضمـيري فجـأة وتسـاءلت عـن جـدوى مـا أقـوم بـه. هـل يمكنـني أنـا نـادر الشـاوي أن أقـدم عـلى السّرقـة؟ اختـلاس مـا يسـدّ الرّمـق مـن محـلّ أغذيـة شيء، ونشـل المـارّة وسـلبهم أرزاقهـم شيء آخـر تأبـاه عـزّة نفـسي وأنفـتي. إن كان للأمـوات أن يتعذبـوا لمـا يفعلـه الأحيـاء، لـكان أبي يتقلّـب في قـبره حـسرة وكمـدا، وربّمـا يشـنق عمّـي نفسـه أعلى شـجرة، هربـا مـن العـار الـذي سـيلحقه ويلحـق العائلـة كلهـا!

ولـدت، يـا بـنيّ، في عائلـة زاخـرة بالإنـاث. أبي وعمّـي كانـا ذوي ذريّـة وافـرة لا ذكَـر فيهـا. أبي الأخ الأكـبر، أنجـب ثـلاث بنـات قبـل أن أجـيء إلى الوجـود. أمّـا عمّـي، فقـد كانـت بناتـه الخمـس كلّ أثـره في الدّنيـا. امتنـع عـن الـزّواج بعـد أن قضـت زوجتـه وهـي تضـع ابنتهـا الخامسـة. أعـرض عـن كلّ التحريضـات عـلى زواج ثـانٍ يمنحـه الذكـر المنشـود، ورضي بمـا قسـمه اللـه لـه، وربّى بناتـه وحيـدا. لذلـك، حـين جئـت إلى الدّنيـا، هـام أبي وعمّـي بي حبّـا، وسـمّياني بـ«نـادر»، فقـد كنـت النطفـة النـادرة الـتي سـتضمن اسـتمرار نسـل عائلـة «الشـاوي». وحـتّى تكتمـل الفرحـة، فقـد عاهـد أبي عمّـي في مشـهد مؤثـر مـا زالـت أمّـي تذكّـرني بـه كلّ حـين، عـلى أن يـزوّج ابنـه بكـبرى بنـات أخيـه «عاليـة». كان الأمـر يفـوق مجـرّد اتفـاق بـين الكبـار، يذرّيـه الصّغـار مـع الرّيـح حالمـا يشـبّون عـن الطـوق، أو اتباعـا أعمـى للعـادات سرعـان مـا يتـلاشى مـع اقتحـام مظاهـر المدنيّـة لبلدتنـا الجبليّـة. كان يمثّـل بالنسـبة إلى الأخويـن أغـلى عطيّـة قـد يقدّمهـا الأخ لأخيـه، ابـن مـن غـير صلبـه يحمـل اسـم أجـداده ويـربّي أحفـاده. وكان عـليّ أن أفي بالعهـد وأحقّـق الوعـد.

لكنّني في تلك اللحظة، كنت كأبعد ما يكون عن تحقيق آمال العائلة.

facebook.com/groups/exchange.book

- حسن. هذا كاف.

أوقف القرصان محاولاتي البائسة بإشارة من مخطافه المعدن، وظننت أنّ توظيفي في سلك النشل انتهى عند ذلك الحدّ. لكنّ ما تلا من أحداث أثبت كم كنت مخطئا في تقديري.

اكتشفت لاحقا في كثير من الدّهشة، أنّ عصابة القرصان مجتمع اقتصاديّ مصغّر يخضع لتنظيم وقواعد شديدة الاحترافيّة. فيشغل كلّ فرد الوظيفة التي يبرع فيها أكثر من غيرها، بما يفيد المجموعة ككلّ. فهناك فرقة النشالين وفرقة الشحاذين، اللتان تعملان بتخطيط واضح. تتقاسمان الفضاءات العموميّة بالتداول، فلا تتعدّى إحداهما على مجال الأخرى بطريقة قد تثير الرّيبة أو تعطل سير العمل! ثمّ هناك فرقة الموارد الغذائيّة وخبرتها منقطعة النظير في التعامل مع حاويات المطاعم وفرزها بدقّة في وقت قصير، وفرقة الموارد الكسائيّة التي تتعامل مع دور الرّعاية لتوفير الملبس المناسب لكلّ فرد، بما يلائم الطقس الحاليّ. وفي النهاية، هناك فرقة التصرّف المالي التي يرأسها القرصان بنفسه ومعه خاصّة الخاصّة من أعضاء العصابة. ما دام اختار كلّ فرد أن يعيش في كنف المجموعة، فعليه أن يلتزم بتسليم كلّ ما يجنيه من النشل أو الشحاذة إلى الخزينة الجماعيّة. فتكون بمثابة صندوق احتياطيّ.

بين أصدقاء الزقاق، كانت هناك الصغيرة كارمن. فتاة بكماء في الحادية عشرة من عمرها، فقدت صوتها بعد أن أصيبت بصدمة الافتراق عن والديها في أثناء رحلة هجرتهم غير الشرعية من الشيشان للعمل على الأراضي الفرنسيّة. لم تكن تجيد حديث الإشارات لحداثة إصابتها بالبكم، لكنّ ابتسامتها الوضّاءة كانت أبلغ من كل الكلمات. وجدتني أنشدّ إليها وإلى رفقتها في الأوقات التي تجتمع فيها العصابة في نهاية الزّقاق، نتبادل

facebook.com/groups/exchange.book

الأحاديث، أنا بالكلام وهي بالرّسم والكتابة بطرف إصبعها على تراب الأرضية. لم تكن تجيد الفرنسيّة بشكل كامل. فقد تعلّمت مفرداتها بالسّماع. كانت تمضي ساعات يومها مقرفصة في مدخل نفق المترو، تتسوّل.. وتصغي إلى كل همسة من حولها. يتطلّب منا تبادل عبارتين من قبيل «هل أعجبك الطعام؟» و«ما زلت جائعة»، قرابة الدّقائق العشر، بين كلمات شفهيّة مبعثرة ورسم على التّراب. لكن الوقت كان متاحا أمامنا، فما من داع للعجلة.

لم تكن الشيشان مرغوبا فيها في الاتحاد الأوروبي، لذلك كانت معظم حالات الهجرة إلى بلدان أوروبا الغربيّة غير قانونيّة. كارمن كانت كبرى إخوتها الأربعة. قرّرت عائلتها الهجرة بعد أن فاض بهم اليأس مع التضييق الشيوعي والتنكيل بالمسلمين في بلدها. عرفت على صغر سنّها حربين داميتين، الحرب الشيشانية الأولى والثانية اللتين شنتهما روسيا على خصم غير مكافئ. الدّمار الذي أحاق بالبلاد أدّى إلى حركات هجرة وتهجير مستمرّة منذ ١٩٩٤. بعد عشر سنوات، وصلت كارمن إلى فرنسا.

مع الممارسة، اكتسبنا بعض الخبرة، هي في فهم اللغة وأنا في التعامل مع رسومها، ما سمح بقدر أوفر من التّبادل في وقت أقصر. فتجرّأت على سؤالها عن والديها وهجرتها. فهمت من رسمها وإشاراتها أنّ أفراد عائلتها «ناموا تحت عجلات شاحنة». ظننت في البداية أنّها عنت تعرّضهم لحادثة سير إذ داستهم شاحنة، فلما رأت أجسادهم الميتة حسبتهم نائمين.. لكن بعد توضيح وتقصّ تبيّن أنّها كانت شديدة الدّقة في وصفها. كانت العائلة قد هاجرت في نهاية الخريف وبداية شتاء العام الماضي. قطعوا مسافات طويلة سيرا على الأقدام. فقد كانت الخطة تقتضي توفير كلّ قرش لمستلزمات الفترة الأولى من الغربة.

كان من الصعب عليهم إيجاد سيّارات تقلّهم لكثرة عددهم. لكن بعض سائقي شاحنات البضائع الضخمة كانوا يتكرّمون عليهم بتوصيلهم لمسافة ما. وحين يتوقّف السائق للنوم والراحة، ينامون على الأرض

facebook.com/groups/exchange.book

-توفيرا لكلفة الفندق- تحت الشاحنات، ذات القاع المرتفع والعجلات الهائلة، بحثا عن الدّفء قرب محرّكاتها وعوادمها! في ذلك الصّباح، لم ينتبه السّائق إلى العائلة التي افترشت الأسفلت وجعلت شاحنته سقفا لها، يقيها من الثلج الذي تساقط طوال الليل، فتحرّك إلى الوراء على حين غفلة ليدهس الأم والأب وأبناءهم الثلاثة في لحظة واحدة. وحدها كارمن كانت مستلقية في الفراغ بين العجلتين الخلفيتين. انتبهت مع أزيز العجلات وهي تسحق عظام عائلتها. أطلقت صرخة، ثمّ سكتت مرّة واحدة.

كارمن وصلت الأراضي الفرنسيّة بمفردها، بعد أن دفنت جثث أفراد عائلتها في الثلوج في مكان ما قرب حدود ألمانيا والنمسا. طفلة يانعة مثل فلقة القمر، كبرت سنوات في لحظات، وغدت مسؤولة عن قوتها ومستقبلها. لم تكن تدرك بعد أنّ عصابة القرصان تحميها من أقسى ما قد يواجه طفلا يتيما في أرض غريبة.. العنصريّة.

في ذلك الوقت، كانت العنصريّة تجاه السّود والعرب قد أضحت موضة قديمة. مع تزايد أعدادهم بشكل يمثل قرابة خُمس سكان البلاد، لم يعد وجودهم يلفت الانتباه كثيرا، وإن كانت مظاهر العنصريّة ما زالت قائمة في المفاضلة أمام فرص العمل أو عقود الإيجار.. لكنّ قضاياهم ومشكلاتهم كانت تغفل -بقصد أو من دون قصد- كأنّ حضورهم في المشهد الفرنسيّ قد بات أمرا مسلما به والحديث به غير مجد. لذلك فإنّ سهام العنصريّة توجّه الآن إلى الموضة الجديدة، الأحدث فالأحدث. في الفترة الأخيرة، بدا أنّ المهاجرين الصّينيين والشرق أوروبيّين يجلبون الانتباه إليهم أكثر. وإن كان وجود الصينيين محبّبا، أولا لأنّ قدومهم مرتبط بالدّراسة أو العمل في البحث العلميّ، ثمّ لأنّ وجوههم المستديرة وأعينهم الضيّقة تثير الفضول، فإنّ المهاجرين من رومانيا وبلغاريا وبقية بلدان شرق أوروبا وقعوا في مصيدة العنصريّة.

facebook.com/groups/exchange.book

لـوكا، الولـد المسـؤول عـن توزيـع وجبـات الطعـام، لـم يحبّـني قـط. في الحقيقـة ألتمس لـه العـذر، فعـدا كـوني العـربي الوحيـد في المجموعـة، فقـد كنـت عالـة عليهـم. لـم أفلـح في تعلّـم أسـاليب النشـل أو الشـحاذة، لكـنّ القرصـان قـضى ببقـائي ضمـن العصابـة والاسـتفادة مـن مواردهـا. كلّمـا جـاء موعـد توزيـع الوجبـات، لمحـت نظـرة غيـظ وحقـد في عينيـه، يعـبّر عنهـا برميـة شـديدة القـوّة تجعـل نصيـبي يسـقط أرضـا أو يصيـب رأسي، مـع أنّـه يحسـن التسـديد غالبـا.

عرفـت لاحقـا أنّـه ولـد لقيـط. تركتـه أمّـه عنـد مدخـل ملجـأ للأيتـام، فكـبر هنـاك حـتّى سـنّ السّادسـة. ثـمّ هـرب مـن الملجـأ. كان بداخلـه نفـس ثـوريّ عصامـيّ منـذ طفولتـه. تـشرّد باختيـاره وفضّـل عيـش الشـوارع عـلى ميتـم تسـتباح في جنباتـه كرامتـه بكلمـات أو إيحـاءات. في الشـارع لا أحـد يذكّـره بكونـه لقيطـا أو يتيمـا أو منبـوذا مـن طـرف عائلتـه، فالـكل كذلـك. لكـنّ رفاقـه يشـيدون بحذقـه للمهـارات الحسـابيّة وتفوّقـه في تنظيـم الغـارات الخاطفـة عـلى حاويـات المطاعـم.. وجـد كيانـه في الشـارع. وبعـد خـبرة أكـثر مـن عـشر سـنوات، يقـترب موعـد تقاعـده مـن الخدمـة. خـلال أيـام قليلـة يبلـغ السـابعة عـشرة، فيتسّـلم نصيبـه مـن المدّخـرات، وينطلـق في اتجـاه مسـتقبل جديـد.

لـم أظـنّ أنّـني سـأبكي، لكنـني فعلـت. حـين وقـف لـوكا في الزّقـاق، يشـدّ عـلى ايـدي افـراد العصابـة واحـدا واحـدا، يحتضـن بعضهـم ويكتفـي بمصافحـة آخريـن، يمسـك دمعـه بمكابـرة طفـل تـربّى عـلى الجلـد، وعـلى ألا يـذرف عـبرة أمـام الغربـاء. لكنّـني بكيـت. بكيـت بحرقـة كأنّـني أودّع بعـض أفـراد عائلـتي. لم أدرك حينهـا إن كنـت بكيـت مـن أجلـه، أم عـلى نفـسي. لـوكا اللقيـط المـشرّد العصامـيّ ذو السـبعة عـشر عامـا، سيتسـلّم حصّتـه وينطلـق. سـيتمكّن مـن الاغتسـال واشـتراء ملابـس جديـدة ونظيفـة، ثـمّ قـد يجـد وظيفـة لائقـة في مطعـم أو حرفـة في سـوق، يسـتأجر شـقّة وينـام عـلى فـراش ناعـم وثـير، يـأكل وجبـات دسـمة ومتوازنـة.. وأنـا، نـادر الشـاوي، الجامعـيّ ذو الشـهادة،

facebook.com/groups/exchange.book

قـد بلغـت الثلاثـين عامـا ونيـف، ولا شيء في الأفـق يوحـي بـأنّ مسـتقبلي سـيكون أكـثر إشراقـا.

بعـض الأطفـال ينضجـون قبـل الأوان، تمرّسـهم الخطـوب وتسـبغ عليهـم التجربـة رداء الوقـار.. في حـين يشـيب بعـض الرّجـال عـلى غفلـة ويرحلـون عـن الدّنيـا بصحائـف بيضـاء مـن ذرة حكمـة.

facebook.com/groups/exchange.book

الاثنين ديسمبر ٢٠٣٥، الواحدة ظهرا،

هـذا ممتـاز. مذهـل حقّـا. والـده يتعلّـم النّشـل مـع عصابـة مشرّديـن، وهـذه العربيّـة اللّعينـة تـسرق حافظـة ملفّاتـه الثمينـة لتبـتزّه! لا يمكـن ليَوْمِـه أن يكـون أكـثر روعـة وإلهامـا!

ترجّـل عنـد العنـوان الـذي يومـض عـلى شاشـته. هـذا هـو. قـرأ اللافتـة العريضـة الـتي تتصـدّر البنايـة: السّـجن المـدني. لا عجـب أنّ العنـوان بـدا لـه مألوفـا. سـار في اتّجـاه مكتـب الاسـتقبال ذي الكـوّة الخارجيّـة الضيّقـة، وقـال في ثقـة مخاطبـا الموظّـف:

- محمّد رستم. أنا محاميه.

أخـذ الموظّـف عنـه بطاقتـه المهنيّـة ومرّرهـا عـبر القـارئ الآليّ، ثـمّ انفتـح الحاجـز المعـدن بشـكل تلقـائيّ وسُـمح لـه بالعبـور إلى داخـل المبـنى. بعـد إجـراءات روتينيّـة أخـرى في مكتـب آخـر بالدّاخـل، دُعـي إلى غرفـة الزّيـارات الواقعـة في قبـو المبـنى. مـرّت دقائـق مـن الانتظـار والترقّـب قبـل أن يُفتـح البـاب عـلى القـادم الجديـد. دفـع السـجّان ولـدا مكبّـل المعصمـين، ثـمّ انسـحب وقـد أوصـد الغرفـة مـن الخـارج. اسـتدار خليـل في اتّجاهـه، ثـم حـدّق فيـه مبهوتـا. بعـد فـترة صمـت مرتبكـة سـأله متشـكّكا:

- أنت محمّد رستم؟

هزّ الولد رأسه علامة الإيجاب، فبادره على الفور:

- كم عمرك؟

- ثمانية عشر عاما.

- وأنت تعيل والدك وشقيقتك؟

هزّ محمّد رأسه مرّة أخرى، ثم قال موضّحا:

facebook.com/groups/exchange.book

- اضطـررت إلى تـرك الدّراسـة حـين فقـد والـدي بـصره. انفجـرت في وجهـه ماســورة ميــاه، فأصابــت عينيــه شــظايا المعــدن. وشــقيقتي، لا يمكنهــا أن تعمــل، بســبب...

أكمل خليل عنه وهو يرسم دائرة وهميّة بالسبّابة حول وجهه:

- نعــم، بســبب غطــاء رأســها! وهــذا مــبرّر لتــترك ولــدا مثلــك يضيّــع مســتقبله ويــترك دراســته؟

- كلّا لـم تفعـل، لقـد حاولـت مـرارا أن تجـد عمـلا لا يتطلّـب التواصـل المبـاشر، لكـنّ المسـألة متعـثّرة، ومـا تجنيـه غـير كافٍ.. وكان عليهـا أن توافـق عـلى عمـلي مضطـرّة لا مخـيّرة..

- مؤكّـد. مـع أنّ الحـلّ بيدهـا. مـاذا لـو تركـت عنهـا غطـاء رأسـها سـاعات العمـل، هـل سـتهلك بذلـك؟

هتف محمّد محذّرا:

- أرجوك، لا تطرح هذا الاقتراح أمامها، فإنّها قادرة على قتلك بسببه!

نـدّت عـن خليـل ضحكـة سـاخرة، في حـين لـم يبـد عـلى محمّـد أدنى أثـر للمـزاح. راقـب خليـل ملامحـه الجـادّة، ثـم تنحنـح وهـو يقـول مسـتعيدا هـدوءه:

- شكرا لتنبيهي!

أومأ محمّد برأسه ثمّ هتف بلهجة مشحونة بالامتنان:

- شـكرا لقبولـك القضيّـة! لا تـدري كـم عانينـا طـوال شـهرين مـن أجـل أن نجـد محاميـا، مـن دون جـدوى!

- الشّكر لشقيقتك! لقد فعلت ما بوسعها لتكسب موافقتي!

لم ينتبه محمّد إلى نبرة التهكّم في صوته، فاستطرد في رجاء:

- ما الذي سنفعله الآن؟

مـا الـذي سـنفعله؟ كان سـؤالا منطقيّـا ومحوريّـا. أوّلا يسـترجع حافظتـه

facebook.com/groups/exchange.book

الإلكترونيّة، ثمّ.. لا يدري بعد. لقد أربكه سنّ الولد الذي يخاله الناظر مراهقا في المدرسة الإعداديّة. ما الذي يمكن أن يعمله ولد في مثل سنّه؟ همّ بسؤاله ثمّ أحجم. لا يودّ أن يتورّط عاطفيّا مع هذه العائلة. ستفلت الأمور من السّيطرة لو نجح الولد في استدرار شفقته. لفتت انتباهه كتابات تملأ ظهر كفّه وذراعيه، لعلّها معادلات حسابيّة، بقلم جاف أزرق.. مثل ذاك الذي كان يستعمل منذ عقد من الزّمن. لم يعد استعماله منتشرا مثل ذي قبل.. لعلّ الورق والقلم قد أصبحا حكرا على الطبقة الكادحة، حتّى إنّه لم يلمس ورقة واحدة منذ سنوات، قبل أن تصله تلك الرّسائل. رغم فضوله، تجاهل الخربشات المبهمة وسأله بشكل مباشر:

- أحتاج عنوان منزلك. شقيقتك لم تترك وسيلة للتواصل.

دوّن العنوان ورقم الهاتف اللّذيْن ذكرهما محمد ثمّ اعتذر. كان من العبث أن يمضي مزيدا من الوقت مع صبيّ ظريف يرقّ له القلب، بينما حافظته المسروقة مع شقيقته! لم يكن قلقا بشأن الحافظة. لم يكن من الحكمة أن تتلفها أو تعبث بمحتوياتها، إن كانت تطمع في تعاون منه بشأن القضيّة. ما أن أصبح في سيّارته حتّى بادر بالاتصال بوالدته. رغم مزاجه السّيّئ وساعات صباحه الضائعة، وجد نفسه يهتف مشاكسا ما أن بلغه صوتها:

- لا أدري حقّا.. كيف أمكنك الزّواج برجل بمثل هذه التّعاسة؟

ضحكت، رغم الدّهشة التي اعترتها، وكان ردّها سكونا طويلا. تمثّلها مضرّجة الوجنتين بحمرة حييّة، تعود شابّة في العشرينات مرّة أخرى، وتسترجع ذكريات وأحاسيس عفا عليها الزمن. زوى ما بين حاجبيه وهتف عابسا:

- غيّرت رأيي. لا أريد أن أعرف!

ضحكت من جديد، وقالت مترفّقة:

- لم أكن أنوي أن أقول شيئا.. الرّسائل ستقول ما تحتاج أن تعرفه.

facebook.com/groups/exchange.book

لكنّه لم يكن تعسا طوال الوقت. كانت له أيّام مشرقة أيضا.. تستحقّ أن تقرأ عنها.

- أرجو ذلك!

كان يدفع بالسّخرية إحساسا آخر لازمه منذ الصّفحات الأولى. كلّ الآلام التي تنضح بها الكلمات المكتوبة والمترجمة، كانت تترك بصمات داكنة في قلبه. ما كان ذلك الشعور المرّ الذي يسكن أقصى حلقه؟ لم يكن تعاطفا مع صاحب الرّسائل وذكرياته المضمّخة بالوجع، بقدر ما كان ضيقا وغضبا! ها إنّ الماضي المستور برداء النّسيان والتّناسي يكشف عن نفسه في أسوأ توقيت ممكن. تخيّل أنّ يد أحدهم تقع على تلك الرّسائل، فيواجهه بها في الحوار التّلفزي. كيف يردّ حينئذ إذا ما وُصف بالانتهازيّ والدّخيل والمواطن من الدّرجة الثانية؟ ألم يكن والده مهاجرا غير شرعيّ، دخل البلاد خلسة، سرق وتسوّل وتسكّع مع المشرّدين؟ أيّ تاريخ مجيد يواجه به الناخبين والمنافسين!

أصيبت كرامته في مقتل.

زفر، مثقلا بالهموم التي تحيق به من كلّ جانب هذه الأيّام، وتمنّى حقّا أن تحمل الرّسائل شيئا مشرقا، فتدفعه إلى التّفاؤل بشأن الأسابيع المقبلة. استفسرت في اهتمام لانطفاء مرحه:

- تبدو قلقا.. هل كلّ شيء على ما يرام؟

- إنّها حافظة ملفّاتي.. لقد أضعتها.

- هل بحثت جيّدا في المكتب؟ لا شكّ أن السّكرتيرة غيّرت مكانها..

- معك حقّ، لعلّها فعلت ذلك.

آثر ألا يقحمها في تفاصيل لا صلة لها بها، فأغفل ذكر قضيّة الأخوين. على كلّ حال، هو في طريقه لاسترجاع الحافظة، وسيعود كلّ شيء إلى وضعه المعتاد. فاجأته بهتافها المبتهج:

facebook.com/groups/exchange.book

- لقـد أنهيـت تسـجيلا آخـر.. دقائـق وأرسـله. أرجـو أن يكـون أكـثر متعـة مـن سابقه.

ابتسـم متهكّمـا. مـن الصّعـب أن يتخيّـل شـيئا أكـثر تعاسـة ممّـا اسـتمع إليـه ظهـر ذلـك اليوم.

- هذا ممتاز. سأستمع إليه وأنا في طريقي لرؤية بعض العملاء..

facebook.com/groups/exchange.book

facebook.com/groups/exchange.book

بعـد رحيـل لـوكا، كانـت هنـاك محاولـة لدمجـي ضمـن وحـدة المـوارد الغذائيـة، لأسـدّ بعـض الفـراغ الـذي خلّفـه زعيـم الوحـدة، ليـس باحتـلال مكانـه -إطلاقـا!- إنّمـا بتعزيـز المجموعـة بكفّـين إضافيّتـين تسـاعدان عـلى جمـع المخلّفـات الصالحـة وحملهـا إلى الزّقـاق. أمّـا الزّعامـة فقـد تولتهـا صبيّـة بلغاريّـة، اسـمها تينـا. إذن فقـد عملـت تحـت إشراف تينـا الـتي لـم تكـن تحبّـني أكـثر مـن لـوكا، لكنّهـا قبلـت تأطـيري وتدريـبي عـلى المهمّـة المحفوفـة بالمخاطـر.

الجديـر بالذكـر هـو أنّ أصحـاب المطاعـم الفاخـرة -والـتي غالبـا مـا تحتـوي حاوياتهـا عـلى قـدر أكـبر مـن البقايـا، بعكـس المطاعـم الشـعبيّة الـتي يكـون روّادهـا شـبه معدمـين مـن الطبقـة الكادحـة الذيـن لا تختلـف حياتهـم عـن حياتنـا كثـيرا- يفضّلـون أن ترمـى بقاياهـم إلى الـكلاب أو في مكّبـات النّفايـات عـلى أن تسـلّم إلى المشرّديـن أمثالنـا! لذلـك فقـد كانـت السّرعـة والدّقـة عاملـين شـديدي الأهميّـة، إضافـة إلى تجنّـب لفـت الانتبـاه حـين نتسـلّل مـن المداخـل الخلفيّـة للنبـش في أكيـاس القمامـة.

لكنّـني رغـم التدريـب، كنـت بطيئـا وفوضويّـا! تفلـت أغطيـة الحاويـات مـن يـدي فتسـقط محدثـة قرقعـة مخيفـة تنبّـه موظفـي المطعـم إلى وجودنـا، فنهـرب عـلى الفـور مـن دون أن تحـوي أكياسـنا شـيئا. وأسـأل في كلّ لحظـة في ارتبـاك وتـردّد «هـل تنفـع هـذه القطعـة»؟ بشـكل يثـير تحامـل رفـاقي ونفـاد صبرهـم مـني! وقـد أنـسى عـلى عـين المـكان كيسـا ممـا جمعنـاه، متسـبّبا في أضرار جسـيمة للمجموعـة الـتي تتقلّـص حصّتهـا في وجبـة المسـاء.. لذلـك، بعـد ثلاثـة أيّـام مـن العمـل الميـدانيّ، اشـتكتني تينـا إلى القرصـان.

أعلـن القرصـان اسـتجابة لاحتجـاج تينـا ورفاقهـا، أنّـني يجـب أن أجـرّب

facebook.com/groups/exchange.book

نشاطا آخر حتى أنفع في شيء ما، ولو اقتضى الأمر أن أمرّ على وحدات العمل كلها واحدة إثر الأخرى. لذلك، خرج معي بنفسه ذلك الصّباح وقد قرّر أنّني يجب أن أتعلّم النشل! من دون كلّ المهام الممكنة، كانت السّرقة أبغضها إلى قلبي، أنا نادر الشاوي، الجامعي المحترم، سليل القبيلة العريقة والعائلة المحترمة، محطّ آمال الآباء والأجداد، والذكر القادر على حفظ تاريخ العائلة وتخليد اسمها.. كتب عليّ أن أخوض غمار التجربة، مكرها، وفي النفس ذلة وهوان.

نقطة البداية كانت محطة المترو. أدخل القبو المليء بالخلق وأدسّ جسدي في الزّحام. أقف بين المسافرين مخفيا كفيّ المتّسختين في جيوب سروالي. أطرق برأسي متجنّبا الأعين. كان القرصان قد تدبّر لي ثيابا نظيفة لا تثير الرّيبة، ثياب عمل. راودني تردّد كاد يدفعني إلى الانسحاب والفرار. لكنّ القرصان الملازم لي مثل ظلي في دورتي التدريبيّة الأولى، استمرّ يهمس في أذني بتعليماته. انظر إلى هذا، راقب حركاته، جيوب بنطاله الخلفية تحوي محفظة جلدية، لو كان طرفها بارزا من الأعلى لسهل التقاطها. تلزمك موسى حادّة لقطع جانب الجيب في هدوء. تلك السّيدة.. حقيبتها تتدلّى في إهمال، يمكنك أن تدسّ كفك عبر الفتحة في خفّة.

لم نفعل شيئا طوال الصباح عدا المراقبة والتحليل. لا يمكن لمبتدئ مثلي أن يبادر من دون قدر محترم من التكوين. لكن تبقى النظرية شيئا والتنفيذ شيئا آخر. ثمّ جاء دوري لأحلّل وأقرّر. أجيل بصري عبر المكان، بكلّ ما أمكن من حذر، فجلب الانتباه إلينا يعني النزول من العربة واستئناف الصيد في عربة أخرى. أراقب المسافرين بعين واحدة، حسب تقنية معلّمي، وأتعرّف إلى الضحايا المناسبين. لم يسلم ضميري من وخزات متباعدة، سرعان ما تلاشت مع ارتفاع نداء معدتي في نهاية النهار، فقد أعلن القرصان أنّني لن أشارك في المأدبة ما لم أرجع بصيد ما.

في تلك الظروف، شاء القدر أن ألتقي الدكتور عمر. واحد من الأشخاص الذين تركوا بصمة في حياتي. كان الشاهد الأول على انحداري الأخلاقي،

facebook.com/groups/exchange.book

وأوّل من خجلت من نفسي أمام نظرة احتقار منه كنت أستحقها. كنت قد انتظرت أن تمتلئ المحطة بالمسافرين في وقت الذروة، بحثت عن الفريسة المناسبة، وما أن حدّدت موقعها حتى رحت أتتبعها في سكينة وحذر. سيّدة عجوز تهتزّ ركبتاها فتنوءان بحملهما، تمسك حقيبة يد جلدا في تراخ يخلو من كلّ حرص. سيمرّ كل شيء بسرعة. التنفيذ بين محطتين. حين يصل المترو إلى المحطة التالية، أنقضّ على هدفي وأطلق ساقيّ للريح.. الآن.

قفزت وأنا أضمّ غنيمتي تحت ذراعي وتجاوزت باب المترو الذي كان مفتوحا على مصراعيه، وقد تدافع المسافرون للنزول بعد أن تملك الفزع معظمهم. أحاول أن أشقّ طريقي في الزّحام. أتلفّت حولي فلا أرى القرصان. لم يكن ذلك مهمّا. القاعدة الأولى، وقت الهرب كلّ ينفد بجلده. لم أنتبه إلى الرّجل الذي اندفع ورائي من بين كلّ الركّاب السلبيين الذين أفسحوا لي الطريق من دون تردّد، ونظراتهم المرتعبة تعبّر عن شيء واحد.. نفسي نفسي، إذا سلمتُ فليحمل الطوفان الآخرين! وحده الدكتور عمر اقتفى أثري في إصرار، كأنّه يقول: قف، فلقاؤنا مقدّر. تعطّلت حركتي على الرّصيف فتمكّن في لحظات من اللحاق بي. رأيته يقفز في الهواء وينقضّ عليّ ليطيح بي أرضا ويسقط فوقي. ارتطم جسدي بالأرض في خبطة عنيفة، ووجدتني مقيّد اليدين فجأة. كان الدكتور عمر قد استعاد توازنه بسرعة واقعى على ركبتيه فوقي مكبلا معصميّ وراء ظهري، مثبتا إياي على الرصيف ووجههي إلى الأسفلت. جلس فوق ظهري يستردّ أنفاسه، فتناهى إليّ لهاثه. كنت مشلول الحركة لا محالة، فلم أحاول المقاومة. أفلتُّ الحقيبة المسروقة طواعيّة وقد أدركت هزيمتي. القرصان اختفى. بينما اقتربت صاحبة الحقيبة التي كانت قد نزلت من المترو على أثرنا بأوصال مرتجفة. بادرها عمر وهو يقدم إليها حاجتها:

- سيدتي، خذي حذرك في المرّة المقبلة.

أخذتها منه ولسانها يلهج بكلمات شكر مرتبكة، في حين كان نصيبي

facebook.com/groups/exchange.book

معـين شـتائم لا ينضـب. سـمعته يقـول:

- سأسلمه بنفسي إلى الشرطة..

وقـف وشـدّني بغلظـة ليجـبرني عـلى الوقـوف. أمسـكني مـن ياقـة قميـصي بكـفّ وسـحبني إلى خـارج المحطـة، بينمـا حافظـت الكـفّ الأخـرى عـلى معصمـيّ مقيّديـن. الشرطـة؟ تلـك الكلمـة كانـت تثـير رعـبي إلى الدّرجـة القصـوى. مهاجـر بصفـة غـير شرعيـة، هـرب مـن أمـن المستشـفى ثـم مـن أمـن القطـار.. والآن حـاول سرقـة حقيبـة امـرأة عجـوز. هـل مـن المتوقـع أن أستبشر بذكـر الشرطـة؟ محاولـتي الأولى للنشـل بـاءت بفشـل ذريـع. لعـلّي لم أخلـق لأنحـرف وأسرق. لعـلّ مـن المقـدّر لى أن أكـون شريفـا بعـد كل شيء؟ لعـلّ الدكتـور عمـر كان مسـخّرا مـن اللـه تعـالى ليبعـدني عـن الطريـق الخطـأ قبـل أن أتمـادى وأنجـرف مـع التيّـار؟ انتابـني أمـل غريـب في تلـك الظـروف. مـاذا لـو كان لقـائي بـه خـيرا؟ نظـرت في وجـه جلادي/منقـذي في ضـوء النهـار -لـم تكـن صفتـه قـد تحـدّدت بعـد في ذهـني- فتبيّنـت ملامحـه العربيّـة. كلمتـه بلغتنـا المشـتركة في توسّـل:

- أنت عربي أليس كذلك؟

التفت إليّ فرأيت الشرر يتطاير من عينيه، وهتف في ازدراء:

- أنـا عـربي، ولا أتـشرّف بالعـرب أمثالـك! مرّغتـم رؤوسـنا في الوحـل بتصرفاتكـم غـير المسـؤولة! بعضنـا يجاهـد ليشـق طريقـه بـشرف وكرامـة، في حـين أن البعـض مـن أمثالـك يسـيؤون إلى العروبـة والإسـلام كل يـوم.. يعطـون فرصـة إلى كل مـن يريـد الطعـن في عزّتنـا وفي ديننـا ويغـذون الكراهيـة والاحتقـار تجـاه المهاجريـن العـرب! لذلـك لا تخاطبـني باسـم عروبتـك المزعومـة!

أطرقـت في ألـم. لمـس بكلماتـه عـين الحقيقـة. نعـم أنـا كذلـك. كنـت عالـة عـلى والـدتي في وطـني، عاطـلا عـن العمـل وعديـم الفائـدة، وعالـة حـتّى عـلى عصابـة القرصـان المتـشرّدة. لـم أصنـع شـيئا في حيـاتي يسـتحقّ الفخـر، ولعـلّي

facebook.com/groups/exchange.book

لـن أفعـل في القريـب وكلّ خطـوة تقرّبـني أكـثر مـن الهاويـة. كنـت وصمـة عـار إضافيّـة عـلى وجـه كل عـربي ومسـلم شريـف، ولا شيء غـير ذلـك.

انفجـرت باكيًـا فجـأة، وقـد اجتمـع كلّ احتقـاري لنفـسي قطـرات احتقنـت في غـددي الدّمعيّـة ثـمّ أفرجـت عـن نفسـها مـن دون اسـتئذان. انتابتـني رجفـة هـزّت جسـدي الهزيـل كلـه. كأنّ قدمـيّ لـم تعـودا قادرتـين عـلى حمـلي، انهـرت عـلى الرّصيـف وقـد ازداد نحيـبي قـوّة وقـد شـغلت برثـاء لنفـسي عـن كلّ مـا حـولي. كان الدكتـور عمـر قـد تـرك معصمـي ووقـف يرقبـني في ارتبـاك، ثـم مـا لبـث أن قرفـص إلى جـواري عـلى الرّصيـف. قلـت أخـيرًا بعـد أن سـكبت أقداحـا مـن الدّمـع:

- لـم أرد أن أكـون كذلـك. لـم أرد أن أسيء إلى أحـد. أعيـش عـلى الفضـلات وبقايـا المطاعـم منـذ أكـثر مـن أسـبوعين.. أنـام في العـراء، مـن دون لحـاف أو فـراش. أشرب مـن الميـاه الآسـنة ومـن النافـورات العموميـة.. كيـف يمكنـني أن أعيـش مـن دون أن أسرق أو أخطـف؟ هـل أنتظـر المـوت عـلى قارعـة الطريـق؟

اسـتأنفت البـكاء بقـوّة أكـبر، وقـد هيّـج وصـف حـالي بالكلمـات مشـاعري. لقـد كنـت بائسـا، أقـصى مـا يمكـن أن يصيـب الإنسـان مـن البـؤس.. أو هكـذا ظننـت حينهـا. طبعـا، لـم أشر بكلمـة إلى القرصـان وعصابتـه. القاعـدة الثانيـة، إذا قبـض عليـك أو أمسـكت متلبسـا، تحمّـل مسـؤوليتك كاملـة. أنـت بـريء مـن العصابـة والعصابـة بريئـة منـك.

سـاد الصّمـت لبرهـة، لـم يسـمع خلالهـا غـير نشـيجي المتقطـع حـتى تمالكـت نفـسي واسـتعدت إدراكي بمـا حـولي. كان الرّجـل لا يـزال جالسـا إلى جـواري يرقبـني برأفـة ورقـة. قـال بصـوت هـادئ:

- حسن.. لن آخذك إلى الشرطة. لكن عدني بألا تعاود الكرّة.

التفـتُّ إليـه في دهشـة وأنـا لا أصـدّق أذنيّ، وهمسـت بصـوت مخنـوق مـن التأثـر:

facebook.com/groups/exchange.book

- أعدك.

وقف عمر ونفض كفيه ثم وضعهما عند خصره. جال ببصره في المكان وهو يزمّ شفتيه. ثم قال بلهجة آمرة:

- حسن.. اتبعني.

رفعت رأسي إليه في دهشة ولم أتحرّك. انتابتني نفس البلادة التي ظهرت حين طلب منّي القرصان أن أتبعه في المرة الأولى. لكن لهجة الدكتور عمر كانت مطمئنة خالية من كل عجرفة:

- أنا ذاهب إلى المسجد.. تعالَ معي.

حين وصلنا إلى المسجد لم تكن الشمس قد اختفت بالكامل وراء الأفق. كنّا قد توقّفنا في الطريق لتناول وجبة ساخنة بطعم الجنّة، نزلت على معدتي الخاوية فأشاعت الدفء في أوصالي في دفقة واحدة. بعد أسابيع من الطعام البارد الكريه، كان الأمر بمثابة حلم. جلت ببصري في المكان أستكشفه. لماذا لم يخطر ببالي منذ البداية أن ألجأ إلى المسجد؟ بيت الله هو بيت المسلمين جميعا. كنت لأجد فيه يد المعونة حتما مثلما وجدتها من الدكتور عمر الذي جاء بي إلى هنا. أو هذا ما حسبته في لحظة سذاجة مفرطة. غسلت أطرافي بالماء البارد وتوضأت كما لم أتوضأ من قبل، ثم دخلت قاعة الصلاة. جلست على الأرض في خشوع وسكينة. يا الله، لماذا لم ألجأ إليك منذ البداية؟ أنت رحمتني وأنقذتني من موت محتم في عرض البحر، أنت الأرحم بعبادك من الأم الحانية على فلذة كبدها.. لماذا سهوت عن دعائك؟ مع ارتفاع صوت الأذان في باحة المسجد، ارتفعت شهقاتي الباكية من جديد. لم أكن قد صليت صلاة واحدة منذ مغادرتي أرض الجزائر.

كانت صلاة المغرب قد قضيت منذ دقائق، لكنّني لم أغادر مكاني. لبثت مطرقا في استسلام غريب. أحسّ بارتياح نفسي مهيب لا عهد لي به منذ بدأت هذه الرّحلة. رفعت رأسي بهدوء، فلمحت عمر وقد جلس

facebook.com/groups/exchange.book

يتحـدّث إلى شـيخين طاعنـين في السـن. أحدهمـا كان الإمـام الـذي صـلى بنـا الجماعـة منـذ حـين. أتـراه يحدّثهمـا بأمـري؟ راقبتهـم للحظـات علّـني أستشـف شـيئا مـن حديثهـم، لكنّـني لـم أفلـح. فاكتفيـت بالانتظـار في صمـت. بعـد حـين، لمحـت الدّكتـور عمـر يتقـدّم باتجاهـي وقـد بـدا عليـه التفكـير. تسـارعت نبضـاتي وتعلّقـت عينـاي بشـفتيه، كأنّ مصـيري مرتبـط بكلمـة منـه.

- قم بنا. ستبيت عندي الليلة.

وقفـت عـلى الفـور وتبعتـه مـن دون تـردّد وأنـا أخفـي غبطـتي. اسـتجاب اللـه لدعـائي مـرة أخرى.

لعلـك تتسـاءل يـا بـني كيـف تبعـت الرّجـل طواعيّـة، كأنّـني لـم أتعلّـم مـن تجربـتي السّـابقة مـع القرصـان؟ لكـنّ الدكتـور عمـر كان شـخصا مختلفـا. نظـرة واحـدة إلى محيّـاه تـورث بداخلـك ارتياحـا عميقـا. ينتمـي إلى ذلـك النّـوع النـادر مـن الأشـخاص الذيـن يحملـون همـوم الآخريـن. في الغربـة، اللقـاءات الطيبـة نـادرة وثمينـة.. لكنهـا اسـتثناء، فـلا تعـوّل عليهـا كقاعـدة. كان هـو مـن تكبّـد الجـزء الأكـبر مـن المغامـرة حـين أخـذني معـه. فـإنّ أسـوأ مـا قـد يحصـل معـه هـو أن يُدخـل لصّـا إلى مسـكنه. فمـا بالـك بـأن يـترك لصّـا في شـقته ويخـرج مطمئنـا إلى عملـه!

تلـك الليلـة في مسـكن الدّكتـور عمـر كانـت واحـدة مـن أهنـأ لياليّ زمـن الغربـة. حـين فتحـت عينـيّ في الصّبـاح، كانـت الابتسـامة ولأوّل مـرّة منـذ زمـن بعيـد، تمـلأ وجهـي. ابتسـامة حالمـة.. بطعـم الأحـلام الزاهيـة الـتي راودتـني في المنـام. تمطيـت وأنـا لا أزال مسـتلقيا عـلى ظهـري وظللـت محدّقـا في السـقف لبرهـة قبـل أن ألـفّ الغطـاء عـلى جسـدي مـن جديـد. تسـاءلت حينهـا، هـل صـار بإمـكاني أن أتفـاءل بمسـتقبل أقـلّ قتامـة؟ هـل صـار بإمـكاني أن أعيـش.. وقـد حسـبت المـوت يتربـص بي عنـد كل منعطـف، كأنـني فريسـته القادمـة وضالتـه الوحيـدة؟

شـكرت في سرّي صادقـا الرجـل الـذي أهـداني الأمـل. وتمنّيـت لـو أمكنـني

facebook.com/groups/exchange.book

أن أردّ جميلـه ولـو بقـدر مـا. كانـت الشـمس قـد ارتفعـت إلى كبـد السـماء وغمـرت أشـعتها الغرفـة عـبر النافـذة الـتي أزيحـت سـتائرها. كنـت قـد نمـت طويـلا. اسـتويت جالسـا وتلفّـتّ حـولي. رأيـت السريـر القريـب مرتبـا فتيقنـت مـن أنّ صاحـب الشـقة قـد انـصرف إلى عملـه. تثاءبـت في تكاسـل ثـم قمـت مـن مـكاني متثاقـلا. رتّبـت فـراشي بـدوري، احترامـا لمضيفـي، وأنـا الـذي لـم أفعـل ذلـك يومـا في مـنزل والـديّ. والآن، أيـن المطبـخ؟ أحتـاج إلى وجبـة دسـمة لأتأكـد أنـني لا أحلـم. لـم تكـن الشـقة كبـيرة. تتكـوّن مـن غرفـة واحـدة واسـعة تحتـوي سريـرا ومكتبـا مـن جهـة، وأريكـة وجهـاز تلفـاز مـن الجهـة الأخـرى. سرت باتجـاه المدخـل حيـث كان بابـان إضافيـان، أحدهمـا يفـضي إلى المطبـخ والثـاني إلى الحمـام.

توجهـت إلى المطبـخ رأسـا، وإلى الثلاجـة بالتحديـد. لكـنّ نظـرة جانبيّـة خاطفـة جعلتـني أتوقـف بغتـة كأنّ مسّـا كهربائيّـا أصابـني. سـجادة الصـلاة المفروشـة عـلى الأرض في اتّجـاه القبلـة كانـت تناديـني. ألـم أكـن قـد عزمـت عـلى المواظبـة عـلى الصـلاة؟ تحولـت وجهـتي إلى الحمـام لأتوضـأ. يكفيـني أنّي قـد نمـت عـن صـلاة الفجـر.. وهـو أمـر دارج واعتيـاديّ في حيـاتي السّـابقة، لكـن ولسـبب غريـب أحسسـت لـه تأنيبـا مـن ضميري الـذي اسـتفاق فجـأة. تـراءت صـور أمـام عيـني. هـل حـاول عمـر إيقاظـي؟ كانـت صـورا باهتـة كأنهـا جـزء مـن الحلـم. لا أسـتبعد أن أكـون قـد رميتـه بالوسـادة ليتركـني أنـام في سـلام.. تمامـا كمـا كنـت افعـل في المـاضي، حـين تحـاول إحـدى شـقيقاتي إيقاظـي. ابتسـمت لتلـك الذكـرى البعيـدة. كل شيء يدعـوني إلى الابتسـام ذلـك الصبـاح. صليـت صلـواتي الفائتـة بسرعـة -والمقصـود بالفائتـة هـو الفجـر والظهـر، باعتبـار توبـتي الحديثـة في المسـاء السـابق- ثـم قمـت وفي داخـلي الكثـير مـن الارتيـاح. يمكنـني الآن أن أبـدأ يومـي في اطمئنـان مـا دمـت قـد أدّيـت حـق ربّي عـليّ.

قبـل أن أتوجـه إلى المطبـخ مـن جديـد، توقفـت نظـراتي عنـد جهـاز الهاتـف المسـتقرّ عـلى المنضـدة. تسـارعت نبضـاتي بشـدّة وتوجهـت إليـه بخطـوات

facebook.com/groups/exchange.book

مضطربـة. مـن دون تفكـير كثـير أمسـكت سـماعة الهاتـف بلهفـة وأخـذت أكـوّن رقمـا أحفظـه عـن ظهـر قلـب. أدركـت حينهـا أنـه حـين لا أكـون عـلى وشـك المـوت مـن الجـوع، هنـاك أشـياء كثـيرة قـد تشـغلني عـن التفكـير في الطعـام. لـن يعاتبـني عمـر عـلى اسـتعمال الهاتـف مـن دون إذنـه، أليـس كذلـك؟ انتظـرت في انتبـاه وتوتـر أن يأتيـني ردّ مـن الطـرف الآخـر. يـا إلهـي، كـم بـدت تلـك الثـواني الوجـيزة ثقيلـة ومنهكـة. أمسـكت أنفـاسي حـين جـاءني صوتهـا:

- ألو...

لـم أسـتطع أن أتكلـم. اختنـق صـوتي مـع تناثـر العـبرات مـن عينـيّ تباعـا. أردفـت في نفـاد صـبر:

- من هناك؟

فقلت بصوت متهدّج خشية أن تقطع الاتصال:

- أمي...

ساد الصمت للحظات قليلة قبل أن تهتف المرأة في عدم تصديق:

- نادر؟ هذا أنت يا بني؟

- هذا أنا يا أمي.

أحسست بالدموع تملأ صوتها. وارتفع النشيج من الجانبين.

- لمـاذا تركتـني في حـيرة كل هـذا الوقـت؟ لمـاذا لـم تتصـل قبـل الآن؟ ظننتــك.. ظننتــك..

انقطعت كلماتها مع احتباس أنفاسها. فأغمضت عينيّ في ألم:

- أنـا آسـف يـا غاليـة.. لكنـني لـم أسـتطع أن أتصـل قبـل الآن.. الظـروف صعبـة..

«يا ميمتي الغالية.. يا عين من عينيا..

مشتاق لك مشتاق.. مشتاق لك مشتاق..»

في الخلفيّـة، يتناهـى إليّ صـوت شريـط تضعـه في المسـجّل. أغنيـة شـعبيّة

facebook.com/groups/exchange.book

تونسيّة أعرف إدمانها لها منذ رحيل جدّتي في تونس من دون أن يتسنّى لها وداعها. لعلّها تصغي إليها اليوم لأسباب أخرى. تعدّدت المآسي، والفقد واحد. تساءلت، كم مرّة في اليوم تعيد لفّ الشريط لتكرّر الأغنية نفسها؟

«بعدك يا عزيزة عليّ.. الأيام لعبت بيّ..

وكواني الفراق.. وكواني الفراق..»

- بني.. أنت بخير؟ لم يصبك شيء؟

لا شك أن أخبار المراكب التي تحطمت في عرض البحر قد وصلت أصداؤها إلى البلدة. ولا شك أن عائلات الكثيرين من رفاق سفري قد تلقت نعيهم منذ فترة ليست بالقصيرة. قلت مطمئنا:

- أنا بخير.. بخير. آكل جيدا وأنام جيدا.. وتعرفت على أشخاص جيدين ساعدوني.

لم أكن أكذب. أكلت جيدا مساء أمس ونمت على فراش مريح أيضا. لا حاجة إلى سرد تفاصيل الأسابيع الماضية. وحدها الأخبار السعيدة يجب أن تقال في الاتصالات مع العائلة.

«طال غيابي طال.. تعبني الترحال..

ندمت على هالحال.. دمعة سخية..

وحرّاقة الأشواق.. وحرّاقة الأشواق..»

- لماذا تركتنا في قلق كل هذا الوقت؟ لماذا تركت الهواجس تلعب بنا؟

- العمل يا أمي.. العمل كثير. والاتصالات الهاتفية مكلفة جدا..

كتمت تنهيدة حرّى ضاق بها صدري. كان يجب أن أكذب هذه المرّة. لكن لا بأس، إحساسي يخبرني بأنّ الأوضاع ستتحسن من الآن فصاعدا. سأجد عملا، وسأتمكن من الاتصال باستمرار. هكذا ظننت في اندفاع ساذج.

facebook.com/groups/exchange.book

- يجب أن أذهب الآن.. العمل ينتظرني..

أغمضت عينيّ بقوّة حتى أوقف سيل العبرات، وأنا أستمع إلى الدّعاء الذي أخذ لسانها يلهج به من دون توقف. تنهّدت في حرارة بعد أن أنهيت المكالمة. كم كنت في حاجة إلى دعائها. كم كنت في حاجة إلى شحنة المشاعر الدافئة تلك. وقفت من مكاني وتوجهت إلى المطبخ مدندنا ببقيّة كلمات الأغنية، بصوت حزين ذابل.

«مكتوب لي في كتابي.. يامّه نذوق عذابي..

خايف غصن شبابي يشيح في يديا.. وتذبلي الأوراق..

لو تعرفي آش نقاسي.. مع ناس ماهم ناسي..

وآش رات عيني أغيار.. وآش رات عيني أغيار..»

facebook.com/groups/exchange.book

facebook.com/groups/exchange.book

الاثنين ١٧ ديسمبر ٢٠٣٥، الواحدة ظهرا،

وهـو يعـبر ممـشى الحديقـة المـؤدّي إلى مـنزل عائلـة رسـتم في الضّاحيـة الجنوبيّـة، فكّـر خليـل في شـكّ.. هـل يمكـن أن يحملـه بـكاء الفتـاة واسـتعطافها إلى العفـو والصّفـح، كمـا صفـح الدّكتـور عمـر عـن أبيـه؟ لعلّـه يتفهّـم يأسـها وقلّـة حيلتهـا، لكنّـه لا يستسـيغ عـلى الإطـلاق أسـلوب الابـتزاز وليّ الـذراع.

بعـد رنّتـين للجـرس، انفـرج البـاب، ليطالعـه وجههـا. مـرّت لحظـات متوتّرة، تجلّـت خلالهـا أمـارات الصّدمـة عـلى ملامحهـا، ثـمّ مـا لبثـت أن اسـتفاقت وهتفـت غـير مصدّقـة:

- يـا إلهـي، لقـد وصلـتَ إلى هنـا.. إذن فقـد ذهبـت لرؤيتـه! كيـف هـو؟ أخـبرني أرجـوك، كيـف حالـه؟ هـل يبـدو بصحّـة جيّـدة؟

تجاهل لهفتها لمعرفة أخبار شقيقها وقال في جفاف:

- أليس هذا ما أردته، حين كتبت اسمه وعنوان السّجن في السّجلّ؟

امتقع وجهها وقالت في مرارة:

- وضعـت اسـم أخـي وعنـوان سـجنه، لأنّهـا المعطيـات الوحيـدة الثّابتـة. كلّ ليلـة، نبيـت ونحـن لا نـدري إن كانـت شـمس النّهـار سـتطلع علينـا في هـذا المـنزل.. أم في غـيره!

حبـس أنفاسـه. هـا قـد عـادت إلى اسـتدرار عطفـه، هـي وأخوهـا! قـال مسـتعجلا:

- دعك من هذا الآن. أين الحافظة؟

- عفوا؟ أيّ حافظة؟

- حافظتي الإلكترونيّة. ملفّات المكتب. تلك التي سرقتها!

- ماذا؟!

facebook.com/groups/exchange.book

صرخت في استنكار شديد أمام اتّهامه المباشر، في حين حدّق فيها غير مصدّق. هل ستنكر الآن؟ لعلّها لم تحقّق أهدافها بعدُ وتريد الاحتفاظ بها لوقت أطول لتضمن تعاونه؟ تغضّنت ملامحه وهمّ بالتلفّظ بكلمات عنيفة، حين قاطعه نداء من الدّاخل:

- مريم.. من بالباب؟

- إنّه المحامي!

ظهر في نهاية الممرّ كهل في نهاية الخمسينات، يمشي ببطء ويتحسّس الجدران في طريقه.

- لماذا هو بالباب؟ فليتفضل..

كان خليل يهمّ بالكلام، حين التقت عيناه بنظراتها الصّارمة والرّاجية في آن. مريم. اسمها مثل اسم ابنته. ونظرتها المعتدّة المشحونة بالكبرياء لا تدع له مجالا للاعتراض. ليس الآن، سيؤجّل حسابه معها احتراما للرّجل الكفيف.

- لم أصدّق حين بلّغتني مريم يوم السّبت أنّها وجدت محاميا قبل بتولّي القضيّة! فضل منك أن تشرّفنا في منزلنا المتواضع..

قال الرّجل بعد أن استقرّ بهما المقام في غرفة المعيشة المؤثثة بنمط شرقيّ للغاية.

- إنّه منزل جميل.

قال خليل وهو يكتشف بعينين مبهورتين النّقوش الدّقيقة على خشب الأرائك، والألوان المتموّجة التي تزخر بها المفروشات والسّتائر. لم تكن تشبه في شيء الفخامة الغربيّة التي تعتمد الحدّ الأدنى من الزّخرفة، لكنّها حميميّة ودافئة. ربّما تحمل على كاهلها عشرات السّنين من التعايش مع هذه الجدران، ومع أنفاس السّكان وبصماتهم، لكنّها تحتفظ برونق فريد، مثل القطع القديمة في المتاحف.. على أنّها قريبة المنال. لوهلة، تخيّل نفسه مسافرا إلى الشّرق العربيّ، قبل أن يقطع تأمّلاته صوتها،

facebook.com/groups/exchange.book

مريـم، بنكهـة مـرّة أفسـدت متعـة الرّحلـة:

- شكرا لتعزيتك.. ما دمنا سنفقده عمّا قريب!

- مريم.. حضّري لنا الشّاي رجاء.

انسـحبت إلى الدّاخـل بخطـوات عصبيّـة، بينمـا اعتـذر الرّجـل بابتسـامة باهتـة.

- لديك أولاد؟

- ابنة واحدة. اسمها مريم أيضا.

- آه! هذا فأل طيّب! فأل طيّب!

لـم يقـاوم رغبـة خفيّـة في مشـاركة لحظـة وجدانيّـة صادقـة مـع الكهـل المنهـك. ينتبـه في كلّ مـرّة إلى قواسـم مشـتركة مـع هـذه العائلـة الغريبـة. يتسـاءل لمـاذا سـمّاها مريـم، اسـم السـيّدة العـذراء عنـد العـرب؟ لمـاذا لـم تكـن مـاري؟ يذكـر الآن أنّ سـيلين اقترحـت الاسـم. صـارت موضـة عنـد الفرنسـيين أن يهبـوا أولادهـم أسـماء شرقيّـة. نـوع مـن مواكبـة العولمـة وتحطيـم للحـدود الجغرافيّـة الـتي تـصرّ دولتهـم عـلى حمايتهـا بأسـلاك شـائكة. غـزت الأسـماء الهنديّـة والكوريّـة والتركيّـة أسـماء المواليـد الجـدد، فمـا عـادت الأسـماء المألوفـة تـرضي الآبـاء الشـباب.

عـلى أنّ اسـم ابنتـه يُنطـق «ميغيـام» عـلى الطّريقـة الفرنسـية، بينمـا يحتفـظ لهـا والدهـا بليونـة الـرّاء رغـم الفرنسـيّة الصّرفـة الـتي يتبـادلان مفرداتهـا. يُـدرك فجـأة أنّـه يتقـدّم خـلال حقـل ألغـام لا يـدري إن كان سـينفجر في وجهـه في أيّ لحظـة. بارحـه هـوس الكاميرا والمقلـب الخفـيّ الـذي راوده يـوم السّـبت، لكنّـه مـا زال يخـشى تبعـات الألفـة الـتي تتحـرّك داخلـه تجـاه العائلـة وقضيّتهـا. قـاوم بعنـت. ليسـت هنـاك أيّ ألفـة، إنّهـا شـفقة عابـرة. سـينهض الآن مـن مكانـه، يعتـذر عـن سـوء الفهـم، لأنّـه لا ينـوي أبـدا اسـتلام القضيّـة، ثـمّ ينـسى الأمـر برمّتـه.

مهلا، سيحدث ذلك بعد أن يستعيد حافظته.

facebook.com/groups/exchange.book

- أخشى أنّي لم أكن أبا جيّدا للولدين..

كانت كفّه تحتضن كوب الشّاي النحاس الذي قدمته مريم وانصرفت، بينما تتلألأ في عينيه الخاويتين عبرات نديّة. تابع خليل الرجفة التي ألمّت بأصابعه النحيلة المتغضّنة بينما واصل نجواه:

- مريم كانت دوما أمّا لأخيها، بعد أن رحلت عنّا أمّها مبكّرة.. والآن هي تحمل عبء أبيها أيضا، بدل أن أحمل عنها همومها وأكون لها عونا ورفيقا. إنّها مجرّد فتاة في الثالثة والعشرين، لكنّها تعلّمت كيف تكون صلبة وقويّة. ومحمّد.. ذلك الولد الشقيّ، هل تصدّق أنّ طفلا مثله يترك مقاعد الدّراسة ليغسل الصّحون في مطابخ المطاعم، ويحمّل الصّناديق في مخازن المحلّات؟ بينما يجلس والده عالة عليه، لا يسعه أن يفعل شيئا ليهوّن عليه مصيبته؟!

أطرق خليل في صمت. لم تكن هناك من كلمات تواسي الأب الموجوع في عزّة نفسه وكرامته. فكّر للحظة. لو كان والده موجودا الآن، هل كان ليشبه هذا الكهل الخمسيني الكفيف؟

- شكرا على الشاي.

نهض بعد أن أفرغ المشروب الدّافئ في جوفه، فصافحه الرّجل بحرارة وهو يشدّ على ذراعه.

- أملنا فيك، من بعد الله سبحانه وتعالى!

مطّت مريم شفتيها ورفعت عينيها إلى السّقف في حركة هازئة وهي تتابع المشهد المسرحيّ المؤثّر، في حين تمتم خليل ببضع كلمات مجاملة قبل أن يعبر الممرّ في اتّجاه المخرج. تبعته مريم بخطوات بطيئة. وقف مولّيا إياها ظهره أسفل الدّرج المؤدي إلى الحديقة، وكفّاه في جيوبه. كان عليه أن يتّخذ قرارا فوريّا، أن يحسم بين عقله ذي المنهجيّة العلميّة الثابتة والدّقيقة، وعاطفة غبيّة لا تُطعم خبزا ولا تصنع مستقبلا. لم يدم تردّده طويلا. استدار على حين غرّة ليواجهها وهمس بفحيح حادّ

facebook.com/groups/exchange.book

وخفيـض حـرص عـلى ألا يصـل إلى مسـامع أبيهـا:

- أمامـك أربـع وعـشرون سـاعة لتكـون الحافظـة عـلى مكتـبي! هـل هـذا واضـح؟

لـم ينتظـر ردّهـا، واندفـع باتّجـاه السـيّارة. إن كانـت تفكّـر في الإنـكار، فعليهـا أن تعيـد النّظـر، لأنّ بيـده الكثـير ليفعلـه، ولـن يكـون في صالحهـا وصالـح عائلتهـا. أدار المحـرّك وانطلـق عـبر الشّـوارع عـلى غـير هـدى. لـم تكن بـه رغبـة في العـودة إلى المكتـب. كلّ شيء يبـدو كئيبـا في عينيـه، ويـزداد كآبـة كلّ لحظـة. هـام عـلى وجهـه حـتّى الرّابعـة عـصرا.. موعـد اجتمـاع الـشّركاء. كان يجـب أن يرجـع مـن أجـل هـذا عـلى الأقـلّ. رنّ الهاتـف، وجـاء صـوت السّـكرتيرة قلقـا:

- أستاذ دانيال، الشّركاء يسألون عنك. هل ستتأخّر؟

- أنا في طريقي إلى المكتب.

بعـد دقائـق، كان يتنهـد وهـو يتأمّـل سـحنته المتعبـة في مـرآة المصعـد. بعـض الهمّـة. إن لـم يكـن مقنعـا أمـام الـشّركاء، فهـل سـيكون أمـام جمهـور النّاخبـين العريـض؟ مـرّن شـفتيه عـلى الابتسـامة المحترفـة، ومسّـد صدغيـه لإزالـة بقايـا التّوتّـر ثـمّ خطـا في اتّجـاه غرفـة الاجتماعـات.

- ها قد وصل مرشّحنا الفذّ!

صافـح زمـلاءه الذيـن اسـتقبلوه بابتسـامات مرحـة وتربيتـات قويّـة عـلى الظهـر والعضـد، ثـمّ اسـتقرّ بينهـم حـول طاولتهـم المسـتديرة. كلّ شيء بـدأ حـول هـذه الطاولـة نفسـها منـذ أسـابيع قليلـة. جـاءت تلـك الفكـرة العابـرة، ألقاهـا زميلـه برونـو بـلا مبـالاة تامّـة في إحـدى الأمسـيات الـتي جمعـت شـلّة الـشركاء لمناقشـة خطـة إسـتراتيجيّة لتطويـر المكتـب. «ليسـت هنـاك دعايـة لنـا أفضـل مـن دخـول أحدنـا البرلمـان!». ضجّـوا بالضحـك، كأنّمـا ألقيـت عـلى أسـماعهم نـادرة. لكـنّ الفكـرة شـغلت خليـل، حـتّى أصبحـت هاجسـه الدّائـم. سيسـعى إلى دخـول البرلمـان!

facebook.com/groups/exchange.book

إذن هـذا كلّ مـا في الأمـر. دعايـة للمكتـب، تحقيـق سـمعة وتسـليط ضـوء عـلى شـخصه.

لا.. لـم يكـن ذلـك مقصـده. كان يثبـت لنفسـه أنّـه نـدّ لهـم، أولئـك الذيـن يتربّعـون عـلى المقاعـد الوثـيرة، ويتحكّمـون في مصائـر النّـاس. يمكنـه أن يكـون منهـم، ولـن يكـون الاسـم عقبـة مـدى الحيـاة. مـا بـدأ عـلى سـبيل الدّعابـة، انتهـى في منتهـى الجـدّ. حملـة انتخابيّـة وتحديـد رؤيـة سياسـيّة، أهـداف وإنجـازات يرمـي إلى تحقيقهـا مـن خـلال صوتـه في المجلـس.

- هل خطابك جاهز من أجل السبت المقبل؟

- تقريبا..

غمغـم في غمـوض والابتسـامة ذاتهـا لا تفـارق محيّـاه. لـم يتقـدّم خطـوة واحـدة منـذ وصلتـه رسـائل والـده. ويـوم عملـه الأقـلّ ضغطـا ذهـب هبـاء بسـبب قضيّـة تافهـة لـن تـدرّ عـلى المكتـب نفعـا. لكنّـه سـيكون جاهـزا في الموعـد. سـيضطر إلى بعـض السّـهر والمزيـد مـن الوقـت المقتطـع مـن نصيـب العائلـة مـن حضـوره. لكـنّ الظـروف تفـرض ذلـك. سـيلين سـتقدّر. ومريـم.. لعلّهـا لـن تتفهّـم بسـهولة.

- هـل رأيـت اللاّفتـات الجديـدة الـتي صمّمتهـا مارغريـت؟ إنّهـا آيـة في الإبـداع.

- نعم إنّها كذلك..

يعتمـد عـلى المكتـب بشـكل كامـل لتمويـل حملتـه الانتخابيّـة. كلّ الإعلانـات الـتي تشـغل شاشـات المدينـة تحمـل توقيـع «مكتـب دوبـون Dupont وشركائـه للمحامـاة». مـا زال الاسـم النّبيـل يثـير اهتمـام العامّـة ويسـتجلب ثقتهـم رغـم إلغـاء الملكيّـة منـذ قـرون طويلـة. بـل لعلّـه لـم يكـن يومـا أكـثر أهميّـة وموضـع حسـد ممّـا هـو عليـه اليـوم، في زمـن أصبـح فيـه الانتمـاء الفرنسيّ الحـقّ والأصيـل مـيزة لا يسـتهان بهـا، فمـا بالـك بمـن انتمـى أسلافه إلى طبقـة النبـلاء ذات الحضـوة؟ لذلـك لـم يعـترض أحدهـم عـلى اختيـار

facebook.com/groups/exchange.book

اسـم زميلهـم «دوبـون» ليتصـدّر لافتـة المكتـب ويكـون اسـم شـهرته، لأنّ النّفـع سـيعود عليهـم جميعـا. وقـد أدرك خليـل دانيـال الشـاوي، أنّ مصـير اسـمه أن يُكتـب إلى الأبـد بخـطّ دقيـق أسـفل اللافتـات.. كان ذلـك قبـل أن يترشّـح لمنصـب عـامّ.

- أستاذ دانيال.. معذرة على المقاطعة.

التفـت إلى السّـكرتيرة الـتي اقتحمـت الاجتمـاع وعلامـات الاضطـراب واضحـة عـلى وجههـا.

- ما الأمر؟

- هل يمكنك الخروج إلى هنا.. لحظة واحدة؟

اعتـذر مـن زملائـه ولحقهـا إلى الممـرّ. كانـت تقـف مرتعشـة كأنّ أمـرا جلـلا قـد وقـع.

- أنا آسفة جدّا.. لا أدري كيف أمكن لهذا أن يحصل.. أنا مرتبكة للغاية..

- ما الأمر جانيت، تكلّمي؟

أخذت نفسا ثمّ قالت في نبرة اعتذار:

- الحافظة، لقد عثرت عليها..

- ماذا؟! أين؟

- دخلـت إلى المطبـخ لأحـضّر القهـوة مـن أجـل الاجتمـاع، فوجدتهـا هنـاك عـلى الطاولـة. لا أدري كيـف حصـل ذلـك، أنـا لا آخذهـا معـي إلى أيّ مـكان، لا تغـادر الـدّرج أو المكتـب.. لكـن يبـدو أنّـني أخذتهـا بيـدي اليـوم حـين حـضّرت قهوتـك في الصّبـاح.. ونسـيتها هنـاك!

- حسن.. هذا جيّد.. جيّد أنّنا وجدناها.

- سأكون أكثر انتباها أستاذ دانيال، أعدك.. لن تضيع منّي مرّة أخرى.

- لا بأس جانيت.. عودي إلى عملك.

ابتعـدت خطـوات السـكرتيرة حـتّى اختفـت داخـل مكتبهـا، بينمـا تسـمّر

facebook.com/groups/exchange.book

مكانـه في شرود، ثـمّ زفـر بقـوّة. كان ينبغـي أن يكـون أكـثر ارتياحـا الآن وقـد عـادت الحافظـة. لكنّـه ليـس كذلـك.

دام الاجتمـاع قرابـة السّـاعتين، وشـغل موضـوع الانتخابـات الحـيّز الأكـبر منـه. لـم يكـن مسـموحا لـه بالكثـير مـن الحريّـة في انتقـاء مفرداتـه وخططـه المعلنـة ضمـن البرنامـج الانتخـابيّ. سـيكون عليـه التقيّـد بالبنـود الـتي يحدّدهـا المكتـب، لأنّ المصلحـة العامّـة للمكتـب تبقـى الأولويّـة الكـبرى. مـن الممنـوع التحـيّز في المواضيـع الشّـائكة، عليـه أن يبقـى فضفاضـا وغامضـا مـا أمكنـه ذلـك. فليركّـز عـلى الثوابـت الـتي تدغـدغ الحـواسّ وتضمـن الأمـان. إن لـم يعجبـه سـؤال المحـاورة التلفزيّـة، يمكنـه أن يلقـى نكتـة أو يتظاهـر بالتّعقيـب عـلى نقطـة سـابقة. مـن أجـل ذلـك، عليـه أن يعـدّ سـلّة مـن الإجابـات الجاهـزة والمراوغـة الـتي يمكنـه أن يسـتظهر بإحداهـا وقـت الحاجـة. أمّـا الخطـاب، فينبغـي أن تعـرض النّسـخة المبدئيـة منـه عـلى الشّركاء ليضعـوا التعديـلات والتنقيحـات المناسـبة.

حـين غـادر المكتـب، تفقّـد هاتفـه. لـم يكـن قـد وصلـه أيّ تسـجيل صـوتيّ آخـر. مـن الطبيعـي أن تصـاب أمّـه ببعـض الوهـن بعـد سـاعات قضّتهـا في الترجمـة. فكّـر أنّ بإمكانـه زيارتهـا وإمضـاء جـزء مـن السّـهرة معهـا. هـل هـو فضـول لمعرفـة المزيـد عـن أبيـه، أم ضيـق مـن تسـاؤلات سـيلين الـتي لـن يجـد ردّا عليهـا في الوقـت الحـالي؟

سـجّل رسـالة صوتيـة لأمّـه «أنـا قـادم»، وأخـرى لسـيلين «سـأمرّ عـلى أمّـي. لا تنتظريـني عـلى العشـاء». فكّـر أنّ عليـه إرسـال رسـالة اعتـذار أخـرى، لتلـك الفتـاة الـتي اتّهمهـا بالسّرقـة. لكـنّ مزاجـه لـم يكـن مناسـبا. سـيؤجّل النّظـر في الأمـر إلى الغـد.

facebook.com/groups/exchange.book

طـوال سـنواتي الاثنتـين والثلاثـين، كانـت حيـاتي عاديّـة جـدا. بعـد تحصيـل روتيـني عـلى مقاعـد المـدارس الابتدائيـة والثانويـة، حظيـت بمجمـوع متوسّـط مكّنـني مـن الالتحـاق بقسـم اللغـة العربيّـة. كان مـن الطبيعـي أن أنتقـل بعـد الجامعـة مـن مقاعـد الدراسـة إلى مقاعـد المقاهـي. فقـد كان عـدد مـدرّسي اللغـة العربيّـة يفيـض عـن الحاجـة. كان كل شيء بـاردا وخاليـا مـن الإثـارة حـتى تلـك اللحظـة الـتي قـرّرت فيهـا التمـرّد عـلى مسـاري المحبـط وصنـع شيء خـارق يحـرّرني مـن جحيـم الفـراغ. منـذ وضعـت قدمـي اليمـنى في القـارب الخشـب المتراقـص عـلى الشـاطئ في ليليـة خريفيّـة غـاب قمرهـا، أصبحـت حيـاتي تتابعـا مرتجـلا لحـالات اسـتثنائية. خضت المغامـرة تلو الأخـرى وعرّضت حيـاتي للخطـر أكـثر مـن مـرّة. اقتربـت مـن حـدود المـوت غرقـا، جعلـت نفـسي طريـد العدالـة، وكـدت أنحـدر إلى عالـم الجريمـة. وجدتـني مـرارا أتمـنّى لـو عـدت إلى حيـاتي الرتيبـة الخاليـة مـن الإثـارة. خفـت أن أمـوت وحيـدا وشريـدا في ركـن منـسيّ.

خفت أن أكون قد قايضت حياتي العاديّة باللاشيء!

اسـتمرّت إقامـتي عنـد عمـر.أكـثر مـن أسـبوع، لـم أحـاول خلالـه أن أفكّـر في حـل بديـل أو أن أناقـش الوضـع مـع مضيّفـي. كان التدبـير القائـم قـد راقـني. يـا للعجـب، أن يكـون أقـصى طموحـي في تلـك الفـترة سـقفا يؤويـني وطعامـا يشـبعني! ألـم أكـن أحظـى بذلـك وأنـا آمـن مطمـئن إلى جـوار أمّـي؟ لكـن إغـراء الجنّـة الأوروبيـة الوهميّـة كان مـا يـزال يدغدغـني، ونفـسي تحدّثـني بـأني أحتـاج قسـطا مـن الرّاحـة بعـد مغامـرة التـشرّد، قبـل اسـتئناف غـزوتي!

كان لذلـك الوضـع أن يسـتمرّ - مـا لـم يطـردني عمـر- لـولا الأحـداث غـير المتوقعـة الـتي تلـت. في تلـك الأمسـية الدافئـة وأنـا أمـدّ سـاقيّ فـوق الطاولـة

facebook.com/groups/exchange.book

المنخفضة وأسترخي على الأريكة المريحة، كنت أفكّر للمرّة الأولى منذ مغادرتي عنّابة في الحديث الطويل الذي سأقصّه على رفاقي حين أعود إلى الوطن. حين شعرت بالأمان أخيرا، أصبحت عذابات الأيام الماضية مادّة غنيّة لأقاصيص مثيرة قد أحكيها وأنا أقف عند ناصية الشارع أو أتربّع في شرفة المقهى، محاطا بجمهور من الشباب المحروم المتعطّش للمغامرة. وحدهم العائدون يمكنهم فعل ذلك. وقد بدأ أمل يحدوني منذ أيّام قليلة بأنني لن أكون في عداد المفقودين.. في عرض البحر أو في أعماق المجاري الموحلة.

في تلك الليلة، لم يعد عمر إلى الشقة في الوقت المعتاد. لم أكن قد عرفته إلا منذ وقت قصير، لكنّني قلقت بشأنه وشغلني التفكير في سبب تأخره. لم يكن من النوع الذي يسهر في الحانات أو العلب الليلية. لعلّه كان على موعد للسهر ونسي أن يخبرني؟

في حوالي الساعة التاسعة، أحسست برجّة أرضيّة خفيفة تزامنت مع انفجار مفزع. لوهلة، ظنّنته نوعا من الألعاب النّارية.. لكن الشرر المتطاير الذي أضاء سماء ليون كان يوحي بشيء مختلف. لم يدم اهتمامي بالأمر إلا بضع دقائق، فلم أكن ألمح شيئا من نافذة الشقة، والنيران التي ظهرت اختفت بعد لحظات ليعود الظلام الدّامس بالخارج. ما حدث -مهما كان- كان بعيدا عن موقعي.

سيمرّ عليّ يومان وحيدا في الشّقة من دون أن يظهر صاحبها.

قضيت الوقت ممدّدا على الأريكة في ملل. كنت قد استوفيت كل الأنشطة الممكنة في فضاء الشّقة الضيّق. أعدّ الوجبات، أنظّف المطبخ وأكنس أرضيّة الغرفة، أمسح الغبار عن قطع الأثاث القليلة، ثم أجلس بقية النهار أشاهد برامج تلفزيّة سمجة. من حسن حظي أنّ عمر ترك ما يكفي من المؤونة في الثلاجة وعلى رفوف المطبخ، لذلك لم أحتج إلى مغادرة الشقة. كل شيء كان متوافرا. لم أكن أشكو من شيء. لكنّ قلقي

facebook.com/groups/exchange.book

من غياب صاحب الشقة غير المبرّر كان يتنامى. بالتأكيد هناك خطب ما.

وفي اليوم الثالث، تعالت فجأة دقات قوية على باب الشقة جعلتني أنتفض واقفا.

- عمر، هل هذا أنت؟

أُطلّ بحذر من العين السّحرية فألمح رجلين متجهّمين يقفان في صلابة عزّزتها البزّات الرّسميّة. جاء صوت أحدهما وهو يصرخ مرافقا الدّقات العنيفة:

- افتح... نحن من الشرطة.

تراجعت إلى الخلف في فزع كأنّما أصابني مسّ كهربائي. يا للهول، الشرطة! كيف علموا بأمري؟ مستحيل، لا يمكن أن يكون عمر قد أبلغ عنّي. ماذا عن تلك العجوز التي حاولت خطف حقيبة يدها؟ لا يمكن أن تعرف مكان الشقة. كلّ ما فكرت به هو أنّهم قدموا من أجل القبض عليّ. ابتعدت عن الباب على أطراف أصابعي وأنا أفكر بسرعة واضطراب. كأنّ إخفاء وقع خطواتي سيرجع الزّمن إلى الوراء ويسحب ندائي إلى أعماق حلقي! تلفتُّ حولي في توتر، ثم توجهت مسيّرا إلى النافذة. فتحتها على مصراعيها وأطللت برأسي نحو الأسفل. كانت الشقة واقعة في الطابق الثاني، على ارتفاع ستة أو سبعة أمتار عن الأرض. لم تكن هناك حراسة على المدخل الخلفي. لم أكن قد حسمت أمري بعد حين ارتفع صوت رجال الشرطة من جديد.

- إن لم تفتح سنكسر الباب..

قلبي يقفز خلف جدار صدري في ضربات موجعة. يملأ صدى نبضاته أذنيّ فأنعزل عن بقيّة الأصوات في قوقعة مغلقة عمادها الأفكار. جنون ما فكّرت به في تلك اللحظة. وهل سيغيّر جنون إضافيّ من حقيقة كلّ الجنون الذي خضته في رحلتي منذ عنّابة؟ التقطتُ حقيبة ظهر كانت لعمر. نفضت ما في جوفها من أوراق بحركة عشوائيّة، وركضت في هستيريا

facebook.com/groups/exchange.book

نحـو المطبـخ. فتحـت الثلاجـة وأخـذت في إفـراغ محتوياتهـا في الحقيبـة مـن دون تميـيز. خـضراوات طازجـة وفواكـه، طعـام معلّـب، عصائـر ومشروبـات غازيـة. أيّ شيء سـيفي بالغـرض، حـتى لا أمـوت جوعـا في الأيـام المقبلـة. في الأثنـاء كانـت الضربـات تتابـع عـلى البـاب محاولـة تحطيمـه. تحركـت وأنـا ألهـث. أخـذت سـترة إضافيـة لعمـر وزوجـا مـن الأحذيـة ثـم عـدت إلى النافذة. تسلّقت الحاجـز بصعوبـة لأجلـس عـلى الإفريـز المطـل عـلى الشـارع وحمـلي بـين يـديّ. ألقيـت نظـرة مسـتطلعة نحـو الأسـفل. يجـب أن أقفـز. يجـب أن أقفـز.

فجأة ظهرت أمامي.. كارمن!

رأيتهـا تقـف عنـد المنعطـف، وتشـير إليّ بكفّهـا أن: اقفـز! هـل كنـت في حاجـة إلى تحريضهـا؟ في تلـك اللحظـة، سـمعت تكّـة معدنيّـة تـؤذن بانكسـار القفـل. التفـتُّ لألمـح ذراع رجـل تظهـر مـن الفرجـة وتعالـج القفـل لتنهـي فتـح البـاب. لـم يعـد أمامـي خيـار.

قفزت.

مـع اندفـاع رجـال الشرطـة داخـل الشـقة، كنـت أعـرج مبتعـدا عـن المبـنى بـكلّ السّرعـة الـتي تتيحهـا قدمـي المصابـة عـلى إثـر الهبـوط الـكارثي.

حـين وصلـت إلى مأمـن، تذكـرت كارمـن. هـل كانـت أسـفل البنايـة حقـا؟ هـل أشـارت إليّ بكفهـا تحرّضـني عـلى القفـز، أم أنّـني تخيّلتهـا؟ تلـك الصغـيرة، لشـدّ مـا فكـرت بأمرهـا منـذ مـنّ اللـه عـليّ بلقـاء عمـر. كنـت قـد اتخـذت قـرارا بـأن آخذهـا تحـت جناحـي وأحميهـا حـين تفـرج الأمـور. بـأيّ صفـة؟ لـم أعايـن المسـألة ولـم أكـترث. إن وافقـت عـلى مرافقـتي، فسـأعتبرها ابنـتي، أخـتي الصغـرى، أيّ شيء. لكنّـني لـن أتـرك صبيّـة يتيمـة في براءتهـا تواصـل

facebook.com/groups/exchange.book

التـشرّد إلى الأبـد. كأنّـني أسـدّد ديـن عمـر بتلـك الطريقـة.

ذلـك المسـاء، سرت بـلا هـوادة، أجـرّ رجـلي المصابـة وأفتـش عـن زقـاقي القديـم، بـلا جـدوى! لـم أعـد أدري في أيّ قسـم مـن المدينـة هـو. كنـت قـد ركبـت المـترو مـع عمـر وانتقلـت إلى حـيّ جديـد، فمـا عـاد بإمـكاني أن أرجـع عـلى عقـبيّ! ضـاع كلّ شيء. الشـقة والزقـاق. فمـا أفعـل مـن دونهمـا؟ بعـد انسـحاب الأدرينالـين وعودتـه إلى مسـتواه الطبيعـي، بانقضـاء الإثـارة وركـوني إلى إحسـاس مؤقـت بالأمـان، اشـتعلت قطعـة مـن العـذاب عـلى مسـتوى كاحـلي الأيمـن. كنـت متأكّـدا مـن حصـول كـسر أو تمـزّق مـا.

انهـرت داخـل زقـاق منعـزل، وغلبتـني الحمّـى. سـأغيب عـن الوعـى ليومـين، لا أكاد أمـيّز شـيئا مـن حـولي. أفتـح عيـنيّ عـلى رؤيـة ضبابيّـة لكارمـن، ثـمّ أنغمـس في هـلاوسي. حـتّى انحـسرت الحمّـى أخـيرا. حـين انقشـعت الغيـوم وفتحـت عيـنيّ بثبـات لا لُبـس فيـه، رأيـت أوّل مـا رأيـت ابتسـامة كارمـن الوضّـاءة الـتي عهدتهـا والفرحـة في عينيهـا. حكـت لي برسـمها وإشـاراتها كيـف لازمتـني في غيبوبـتي، تكمّـد جبيـني وتسـقيني المـاء. كنـت مدينـا لهـا بحيـاة جديـدة كُتبـت لي. هـي، مجـرّد طفلـة في العـاشرة، تعلّمـت في سـنة تشرّدهـا مـا يعـادل عمـرا كامـلا لأمثـالي.

أخرجـتُ مـا في حـوزتي مـن طعـام مـن حقيبـة عمـر، وتقاسـمت معهـا قطـع الفاكهـة. التهمـت حصّـتي عـلى عجـل لأطفـئ جـوع معـدة لـم تسـتقبل طعامـا منـذ يومـين، ثـمّ قصصـت عليهـا مـا جـدّ بشـأني. سـألتها في حـذر عـن القرصان وعصابتـه. اكفهـرّ وجههـا وأظلمـت قسـماتها وهـي تشـيح بنظراتهـا. شرحـت لي بصعوبـة وضيـق أنّهـا قـد تركـت العصابـة! كانـت قـد اقتفـت أثـري والدكتـور عمـر يـوم الحادثـة. كانـت تتسـوّل عنـد مدخـل النفـق كعادتهـا ذلـك اليـوم، لكنـني لـم أنتبـه لوجودهـا لاضطـرابي وقـد وقعـت متلبّسـا. سـارت وراءنـا في حـذر، إلى المطعـم والمسـجد وحـتى الشـقة! عجبـت لاهتمامهـا، فسـألت في شـك:

facebook.com/groups/exchange.book

- هل طلب منك القرصان ذلك؟

هـزت رأسـها بقـوة لتنفـي شـكوكي. رسـمت قاطعـا ومقطوعـا عـلى الأرض في غضـب. لـم تعـد لهـا علاقـة بالقرصـان. عجبـت للأمـر وحاولـت الاستفسـار منهـا، لكنهـا احتفظـت بأسـبابها في إصرار غريـب، كأنّ سرّا مـا في الأمـر تحـاول حمايتـه باسـتماتة. سـلّمت بالأمـر ولـم ألـحّ، لكنّـني أيقنـت بـأنّ العـودة إلى العصابـة الآن لـم تعـد ممكنـة.

حياتنـا في الأيّـام التاليـة اعتمـدت عـلى مـا يلقيـه إلينـا المـارّة مـن قطـع نقديّـة، وعـلى مخـزون المعلّبـات الـذي أخذتـه مـن شـقة عمـر. اسـتمررنا نفـترش الأرض في المسـاء، ونتقاسـم مـع مشرّديـن آخريـن مدخـل النفـق. نطـرد منـه عـلى السـاعة الواحـدة والنصـف، حـين تغلـق المحطـة في وجـه المسـافرين، ونتسـلّل إليـه كالـكلاب الضّالـة ملتمسـين الـدّفء، حـين تفتـح البوابـات المعـدن عـلى مصراعيهـا مـع السـاعة الخامسـة، لاسـتقبال يـوم جديـد.

وفي إحـدى الليـالي، بعـد أن طردنـا مـن محطّـة المـترو تسـكّعت وكارمـن عـبر الشـوارع الهادئـة. كنـت قـد ربطـت كاحـلي بإحـكام بخرقـة سـميكة لأتحمّـل مسـافات السّـير الـتي كثـيرا مـا نضطـرّ إليهـا دفعـا للتجمّـد بـردا. كانـت السّـاعة قـد تجـاوزت الثانيـة صباحـا، حـين خطـر لي الأمـر. لـم تكـن خطـوة طائشـة. ولا مدروسـة. كانـت محاولـة بائسـة تحـت وطـأة اليـأس والمـرارة. عبرنـا أمـام بنايـة ذات سـور قليـل الارتفـاع. كان مـن الممكـن أن ألمـح النوافـذ الخشـب القديمـة للطابـق الأرضي خلـف البـاب المعـدن للسّـور. وصلنـا إلى نهايـة الشـارع، ثـمّ أشرت إلى كارمـن بالعـودة أدراجنـا. مـررت هـذه المـرّة متمهّـلا، أقيّـم دفاعـات الشـبابيك ودرجـة مقاومتهـا لمحاولـة خلـع مـا. نظـرت إلى عينـي كارمـن، أستشـيرها في صمـت. كانـت هادئـة، وعيناهـا الصافيتـان الناعسـتان تحثّانـني عـلى المبـادرة. نظـرة حـذرة إلى الجـوار الخـالي، ثـمّ قفـزة واسـعة لأتسـوّر الجـدار وأصبـح مـن الناحيـة الأخـرى، صاحبهـا ألـم مميـت في قدمـي. لكـنّ الجائـزة كانـت تسـتحقّ. كان الأمـر أيـسر ممّـا توقعـت. هزّتـان يتيمتـان

facebook.com/groups/exchange.book

من ذراعي الصلبة، وانهارت نافذة المطبخ في قبضتي. التفتُّ صوب كارمن التي التصقت بثقوب الباب المعدن ترقبني وطلبت انتظارها ريثما ألقي نظرة على داخل الشقّة.

تجوّلت على أطراف أصابعي بين الغرف الثلاث، المطبخ والحمّام. لم يكن هناك أحد. عدت أدراجي إلى النافذة، ورفعت إبهامي علامة النجاح، فلحقت بي كارمن في لحظات. خلال دقائق، كنّا نتربّع على الأريكة العريضة يتدثّر كلّ منّا بغطاء سميك، والمدفأة الكهربائيّة تبثّنا موجات دفء غامرة، ونغرق في ضحك هستيريّ. خلال أسبوعين تليا، ستكون تلك الشقة الخالية مأوى وكارمن، نلوذ بها حين يهبط الليل وتسكن المدينة. نتسلّل إلى مخبئنا الهادئ من دون جلبة، فأتحامل ما استطعت على ألمي الممضّ إبّان اعتلاء السّور، ونركن إلى زاويتنا المريحة في غرفة المعيشة. لم نجرؤ على فتح الخزانات أو تفتيش الأغراض. لم تكن السّرقة هدفا في ذاته، بل المأوى. نحضر معنا من الشارع قوتنا ثم نغسل عنّا تراب الأزقّة، ونأوي إلى نوم هادئ تهدهده الأحلام الناعمة. نستمتع بإحساس النظافة المنعش والفراش الوثير، ثمّ ننتزع أنفسنا قسرا خارجا قبل أن تدبّ الحياة في الشارع. ما عدا تلك المرّات التي نوفّر فيها مؤونة كافية لأيّام عدّة، فقد كان علينا طلب الرّزق بالأساليب المعتادة في مداخل أنفاق المترو. ولم نكن لنغامر بأن يلمحنا بعض الجيران ونحن ندخل أو نخرج في وضح النهار.

وفي إحدى الصّباحات التي آثرنا فيها إطالة متعة الاستغراق في المرح، تعالت طرقات على باب الدار. كان ضجيجنا قد أثار انتباه الجيران. تحرّكنا في هلع نحو شبّاك المطبخ الذي تسلّلنا منه دائما، وخلال ثوانٍ كنّا نعبر الحاجز ونلهث مبتعدين. وسرعان ما ابتلعتنا زحمة الشارع اليقظ، ورجعنا نهيم في الشوارع مثل الأيام السّالفة.

facebook.com/groups/exchange.book

facebook.com/groups/exchange.book

جـدّك رحمـه اللـه خـاض غمـار الحـرب العالميـة الثانيـة وهـو فـتى غـرّ لـم يتجـاوز الثامنـة عـشرة. تطـوّع اختيـارا علّـه يعـثر عـلى ذاتـه في خضـم المعركـة. مـع أنّ الحـرب ليسـت خـيرا مطلقـا، فإنّهـا لـم تكـن شرّا مطلقـا أيضـا.. أو هكـذا تبـدو غالـب الأمـر للمنتـصر. جـدّك عـاش تجربـة الحـرب بطيـش الشـباب ونزقـه، كأنّـه لا يبـالي بحياتـه مـن موتـه. مـضى بقدميـه إلى الهـلاك ورجـع سـالما. لـم تقتلـه جيـوش الحلفـاء أو المحـور.. لكنّـه قـضى عـلى أيـدي أبنـاء بلـده والحـسرة في قلبـه.

كان أبيـض البـشرة، أزرق العينـين، مشربـا بحمـرة ونضـارة تجعـل الناظـر يتـوه في أصلـه وانتمائـه. وقـد اسـتغلّ مظهـره الحسـن أيّمـا اسـتغلال في تلـك الظـروف الحالكـة. كانـت وجبـات الطعـام الـتي تقـدّم إلى المتطوّعـين والمهجّريـن العـرب والأفارقـة كريهـة غـير مستسـاغة. يملـؤون بهـا البطـون كرهـا كمـا تمـلأ الأكيـاس بقطـع الحجـر، حـتى لا يغـشى عليهـم مـن الجـوع. وكان جـدّك يتسـلّل خلسـة إلى طابـور المقاتلـين الأوروبيّـين، حيـث الوجبـات الدسـمة الشـهيّة. ينـدسّ بـين الأوكرانيـين والـصرب والكرواتيـين، فـلا يميّز مـن بينهـم. يلتهـم أكلـة سـاخنة تسـيل اللعـاب، بينمـا يرقبـه الجزائريّـون والمغاربة والتونسـيون والسـنغاليّون بأعـين الحسـد، وصـل بهـا الحـدّ إلى الحقـد. فقـد سـعى بعضهـم إلى الوشـاية بـه إلى قائـد فرقـة المشـاة.

وصـل القائـد عـلى حـين غـرّة في فـترة توزيـع الطعـام، سـار بـين الصّفـوف مفتّشـا والـشرر يتطايـر مـن عينيـه، ومـا لبـث أن عـثر عـلى جـدّك. أمسـك بتلابيبـه وجـرّه أمـام نظـرات الجنـود المدهوشـة. أرداه أرضـا وسـحق وجهـه بحذائـه العسـكريّ الغليـظ، ثـمّ اسـتلّ مديـة حـادّة وغرسـها بـكلّ قوّتـه في سـاق جـدّك الملقـى مـن دون مقاومـة، ثـمّ خلخـل النصـل بعنـف ليتّسـع

facebook.com/groups/exchange.book

الجرح قدر الإمكان، قبل أن يسلّ المدية. مسح الدّم العالق بها في سترة جدّك ببرود، ثم أعادها إلى غمده وصاح في شماتة:

- هذا سيكون عقاب كلّ من تسوّل له نفسه السّخرية من أسياده.

يحكي جدّك أنّه وقف من مكانه من دون مساعدة، ومشى يجرّ ساقه من دون أن يطلق صرخة ألم واحدة، والدّماء التي ملأت الحذاء العسكريّ ذا السّاق العالية تبقبق مع كلّ حركة. فحتّى تلك الإصابة العميقة في العظم التي تسبّبت في عرجه الدائم لم يكن سببها الحرب في حدّ ذاتها، إنّما دسيسة مؤذية من أبناء جلدته.. وقد كنت رغم ذلك أبحث عن الإحسان في أبناء وطني، وافترض الخير في من يحمل ماضيا يشبه مستقبلي.

وهكذا، ورثت عرج أبي، كما ورثت جينات المغامرة!

لوقت غير قصير، حسبت نفسي منسيّا من رحمة الله. الرّزق يوزّع على البشر، ولا أنال نصيبي منه. كأنّي ما عدت آدميّا.. حتّى الطيور والسّباع والشّوارد من الدّواب رزقها على الله.. تغدو خماصا وتروح بطانا! وأنا أفترش الأرض وألتحف السّماء، وقد نسيتني الأرض ومن عليها. لم يكن بي سخط أو تمرّد، بل مرارة لا حدود لها، ويأس ألصقني بالأرض ونكّس رأسي حتّى ما عدت أرفع عينيّ إلى وجوه المارّة. غمرني قنوط مميت، أذهب كلّ الطمأنينة المؤقتة التي عرفتها في شقة عمر.

لم أفكّر مطلقا في تلك الفترة أن أقصد بيتا من بيوت الله، فقد رأيت بعينيّ كيف ردّ الشيخ طلب عمر! ولم أشأ أن أجرّب حظي في مسجد آخر.. كأنّي قد قنعت بكوني منبوذا، مطرودا.. منسيّا من رحمة الله والبشر. ولم أرفع يديّ بالدّعاء مرّة واحدة! كما أنّي بعد أن عاهدت نفسي على عدم ترك الصّلاة لم أسجد لله سجدة واحدة في مرحلة التشرّد

facebook.com/groups/exchange.book

الجديدة. مسوّغات كثيرة كانت تبرّر جحودي.. الماء، لم أكن أعثر على الكثير منه.. وما يتوافر، جوفي أولى به! والنافورات العموميّة، ما أدراني بطهارة مائها؟ أمّا التيمّم، فلم أكن أعلم كيف يبدأ وكيف ينتهي! وأين أجد الصّعيد الطيّب، والكلاب تلفظ فضلاتها على قارعة الطّريق؟ أرأيت كم كنت متشدّدا في التنقيب عن الأعذار! وهب أنّي بعد جهد متكرّر خمس مرّات في اليوم، تطهّرت.. فأين أصلّي؟ وكيف سيكون شكلي في ثيابي المهلهلة تلك، وأنا أقف في الشّارع أركع وأسجد؟ طبعا هناك نوعان من المبرّرات كلاهما وجيه، أولهما شخصيّ.. إعلاني انتمائي الدّيني في بلاد تعلي من شأن اللائكيّة سيقلّص حظوظي في الحصول على لقمة تسدّ رمقي.. وثانيهما جمعيّ يبلغ مصلحة الأمّة! لم أكن «السفير» المناسب للتعريف بالإسلام.. كنت لأسبّب حرجا للمسلمين قاطبة إذا رآني الشعب الفرنسي أصلّي! مشهد مشرّد يسجد في الطّريق العامّة هو أفضل دعاية للإسلاموفوبيا!

إلى أن واتت تلك اللحظة التي رفعت فيها رأسي إلى السماء بعد طول تنكيس، وقلت بشكل لاشعوريّ: يا ربّ! وتركت صدري ينفّس عن آهة عصيّة أثقلته.

يقول تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، ومع أنّي ذكرت الله بلسان غافل لا يفقه ما يقول، فقد أراني في التّوّ واللحظة عجائب قدرته. أرسل إليّ فرجا لم أكن أرجوه. لكنّه كان نبذة محتشمة، لمحة خفيفة.. ترضية واعدة بالكثير، إن أنا رطّبت لساني بذكر الله وعرفت طريقه.. لكن أنّى لقلبي اللاهي أن يدرك الرّسالة!

ما أن خفضت بصري حتّى وجدته يقف على مقربة منّي، كأنّه جنديّ من جند الله، يترقّب تلك الهمسة السّاهية من شفتيّ ليمدّ كفّه باتجاهي، بأمر من الله وحده. لقيته عند محطة المترو، حيث أتربّع بلا حول ولا قوّة معظم الوقت. لم يكن شكلي مغناطيسا جاذبا للصّدقات أو التعاطف، لكنّ الرّجل انحنى عليّ فجأة وقال بعربيّة واضحة:

facebook.com/groups/exchange.book

- يا أخي، ما الذي تفعله هنا؟

لعلّـه لمحـني بشـكل متكـرّر، في تلـك البقعـة، مطأطـئ الـرّأس مخـذول الحـواس، فدنـا مـنّي بعـد طـول مراقبـة. قـال مـن دون اندفـاع، بلهجـة مـن سـبق لـه دراسـة الاقـتراح بـتروّ:

- تعال معي.

سرت وراءه بـلا تفكـير، فاقـد الإرادة.. كأنّـني غـدوت أسـير كلّ مـن يمـدّ إليّ كـفّ الإحسـان. حـين ابتعـدت مسـافة كافيـة لأسـتفيق مـن غيبوبـة الأمـل، تذكرتهـا. كارمـن! لقـد تركتهـا مـرّة أخـرى وحيـدة في الشـارع. توقّفـت، واسـتدرت إلى الخلـف. أخـذت أتلفّـت في اضطـراب، لعـلّي ألمحهـا، والرّجـل يسـتحثّني في عجـب.

- هل أضعتَ شيئا؟

- انتظر.

قلـت، وأنـا أعـرج في الاتّجـاه المعاكـس. قطعـت عـشرة أمتـار، ثـمّ التفـتُّ إلى الرّجـل الـذي وقـف يـضرب كفّـا بكـفّ متحـيّرا. رأيتـه يواصـل سـيره، وقـد زهـد في أمـري، فركضـت في اتّجاهـه.

- رويدك، لا تذهب!

كان يجـب أن أتبعـه. الفـرص لا تـأتي مرّتـين. إن تجاهلتهـا مـرّة فلـن تمكـث مكانهـا تنتظـر منـك الرّضـا. لكـن كارمـن، كيـف لي أن أرحـل مـن دونهـا؟ عللـت نفـسي بأنّـني أعـرف مكانهـا. يمكنـني أن أرجـع مـن أجلهـا. سـتكون في مدخـل النفـق، مثـل عادتهـا. سـأجدها. بقناعـة مهـزوزة وضمـير مكمّـم، تبعـت جابـر، المحسـن الجديـد. سأسـتوثق مـن الأمـر ثـم أعـود.

لـم يكـن جابـر دكتـورا مثـل عمـر، ولا موظفـا مسـتقرّا، بـل بنـاءً بأجـر يوميّ، يكـدح اثنـتي عـشرة سـاعة في اليـوم، حـين يجـد مُشـغِّلا! جزائـريّ مثـلي، كهـل قـد اقـترب مـن الخمسـين، تقرّحـت كفّـاه مـن سـنوات الكفـاح المضنيـة. أفـنى عمـره في تشـييد بيـوت لـن يسـكنها ورفـع أسـوار سـيُمنع مـن اجتيازهـا.

facebook.com/groups/exchange.book

تبعته إلى القبو المظلم الذي يتخذه مأوى مع نفر من العمّال الأجانب. تونسيّون ومغاربة وجزائريّون أيضا. غرفة صغيرة مساحتها تسعة أمتار مربّعة، يتقاسمها ستة رجال، أنا سابعهم! قبر رطب تكتسحه الظلمة، ربّما كانت زنازين السّجون الفرنسيّة أوفر منه راحة. بالكاد يتّسع فضاؤه ليفرد الرّجل منا طوله ويتمدّد على بعد شبر من جاره الأقرب، حتى يستوعب الجزء الآخر من الغرفة الأمتعة القليلة التي تتراصّ في غير نظام، وتختلط مع أدوات صنع الشاي وأطباق الأكل المتسخة.

كانت ظروفا مختلفة كل الاختلاف عن الإقامة في شقة عمر.

وضّح لي جابر القانون الجاري العمل به. لن تكون الإقامة من باب الإحسان. إيجار القبو يكلّف خمسمئة يورو، يتقاسمها الشباب باليورو والسنتيم! نصيبي في الإيجار والمصاريف اليومية سيكون دينا في رقبتي أسدّده حالما يتوافر مورد الرّزق. فهمت في ما بعد أن ساكنا سابقا قد ارتحل منذ أيّام، ما تسبّب في اختلال ميزانية كلّ منهم.. ودوري هو أن أعيد التّوازن! لم يكن في الأمر مجاملة أو مداهنة. هكذا هو الوضع، فلا داعي لتجميله.

كانت هناك مسألة إصابتي التي يجدر بي النّظر في أمرها قبل التفكير في إيجاد مورد رزق. عاين جابر قدمي المتورّمة ثمّ زمّ شفتيه من دون تعليق، وفعل من بعده عزّوز وبركات وسمير وعبد الحفيظ وقاسم نفس الشيء. لم يكن التمريض من مهارات أحدهم. قال بركات بعد حين:

- اقصد مركز الرّعاية.. لديهم طبيب يقدّم استشارات مجّانية يوم الأربعاء!

ففعلت.

كان مركز الرّعاية عبارة عن شقّة صغيرة في عمارة سكنيّة قديمة، يتقاطر عليها المتشرّدون يوميّا للحصول على وجبة ساخنة، ملابس شتويّة دافئة، وخدمات أخرى تخصّ النظافة الشخصيّة والرّعاية الصحيّة. لم يكن هناك

facebook.com/groups/exchange.book

مكان للمبيت. على السّاعة الثالثة ظهرا، ينفضّ الزوّار وتغلق الشقة أمام روّادها. كنت مرتبكا في زيارتي الأولى، وتساءلت، كيف لم أعرف بشأن هذا المركز منذ البداية؟ كان ليخفّف عنّي قسطا من عذابات الأيّام الماضية. فكّرت. يجدر بي إحضار كارمن إلى هنا. سيهتمّون بها، يسرّحون شعرها الذي استطالت خصلاته المشعثة، ويضعون لها أشرطة ملوّنة وأقراطا لامعة. ليتها تستردّ طفولتها الضائعة.

انتظرت في طابور طويل ليفحصني الطبيب. كانت عيادته المرتجلة طاولة صغيرة وكرسيّا خشبا في ركن مكتب المشرفة على المركز. ورغم الزّحام، فقد حافظت المشرفة على النظام ووفرت لكلّ منّا قدرا من الخصوصيّة إبّان الفحص. كانت سيّدة ربّما في السّتينات من عمرها. سيّدة مجتمع كما ينبغي أن تكون، لا تفارق ابتسامة ودودة تعابير وجهها. لعلّها أفنت عمرها في وظيفة حكوميّة مرموقة وتقاعدت منذ سنوات قليلة، ثمّ اختارت ألا تقتل حيويّتها بخلود إلى الرّاحة، بل استمرّت تخدم المجتمع بتفانٍ، حتّى لو اقتضى الأمر أن تخالط أراذل النّاس الذين يستنكف غيرها مجرّد النّظر إليهم.

حين جاء دوري، جلست على استحياء، أرقب بعين الفضول والامتنان وجه الطبيب الشاب الذي اختار أن يقضي صباح استراحته الأسبوعيّة بين أتعس خلق الله، من دون مقابل. شرخ في العظم. هذا ما كان قد لحق بكاحلي إثر القفزة المتهوّرة. لفّ الطّبيب قدمي وكاحلي بضمادة مشبعة بالكحول، كحلّ مبدئيّ. وفي زيارة ثانية، أحضر المعدّات اللازمة لدعم العظم. راقبته بعين مبهورة وهو يحيط كاحلي بجبيرة بيضاء ناصعة، ثمّ مكّنني من عصا بلاستيك أتوكّأ عليها. خرجت من عنده وإحساس غريب منعش يملؤني، مثل طفل صغير تدهشه القطعة الجديدة التي ألحقت بجسده فتنسيه ألم الإصابة وأذاها.

facebook.com/groups/exchange.book

بعد شهر واحد من الرّاحة القسريّة، بدأ مشوار البحث عن عمل. كان كاحلي قد تعافى في الأثناء، وتخلّصت من الجبيرة. وفي تلك الفترة، اعتمدت على مركز الرّعاية بشكلّ كلّيّ، حتى لا أكون عالة على رفاق السّكن. تبخّر الحياء والارتباك، وأصبحت من روّاد المركز المعروفين. كنت أدخل من دون استئذان، وألقي التحيّة على موظّفة الاستقبال. صرت أعرف مسبقا من ستكون وراء المكتب في كلّ يوم. بيريت أو كلودين أو كريستين. كلّهنّ من السيّدات المسنّات المتطوّعات. كنّ يسمحن لي من حين إلى آخر باستخدام الهاتف، للاطمئنان على أمّي، ومكتبة الروايات والأقراص المضغوطة تحت يدي في كلّ حين. أمضي ساعات في القراءة والمشاهدة، حتّى يحين موعد الغداء، فأنضمّ إلى مائدة «عائلة المركز»، ثمّ أنسحب قبيل إغلاق الأبواب لأقضي ساعات أخرى من الفراغ حتى إياب العملة من ورشاتهم.

ولم يمض يوم لم أفكّر فيه بكارمن. أتمنّى أن أصادفها على قارعة الطّريق فأبّشرها بما جدّ وآخذ بيدها إلى مركز الرّعاية. لكنّها كانت قد اختفت. لعلّها كانت تجدّ في البحث عنّي هي الأخرى. لعلّها ابتعدت عن موقعنا السّالف حتّى تاهت عنه؟ أو لعلّها عادت إلى عصابة القرصان بعد أن يئست من العثور عليّ؟ أو لعلّها حسبتني تخلّيت عنها ومضيت فمضت في حال سبيلها؟ آلمني التفكير في كلّ الاحتمالات الممكنة. لكنّني لم أيأس. كانت قد غدت بالنّسبة إليّ أكثر من طفلة يتيمة صادف تشرّدي تشرّدها، بل رفيقة كفاح من نوع مختلف. صديقة يُعتمد عليها. وكان جزء منّي يؤمن بأنّ قصّتي معها لن تنتهي عند ذلك الحدّ. كان يجب أن أجدها.. يوما ما.

مثل كلّ جيراني في السّكن، بدا من البديهيّ أن أبحث عن وظيفة في ورشة بناء. فتلك المهنة الوحيدة التي يمكنهم تقديم النصح والمشورة بشأنها. لأسابيع تلت، استمريت في الخروج كلّ صباح مع زمرة العمّال لنحتلّ السّاحة الخلفيّة لأكبر محلّ يبيع مواد البناء في المنطقة. مع

facebook.com/groups/exchange.book

بعـض جـيراني أولا، ثـمّ منفـردا. هنـاك، ومنـذ سـاعات الصّبـاح الأولى، يحتشـد رجـال بيـض وملوّنـو البـشرة، رؤوسـهم محشـورة في قلنسـوات صـوف وشـالات خشـنة تحجـب أنصـاف وجوههـم، في حـين تكشـف القمصـان مثنيـة الأكمـام عـن أذرع نافـرة العـروق مفتولـة العضـلات، غطّـت مسـاحات بعضهـا وشـوم خـضراء مبهمـة. كأنّ الرّجـل منهـم يقـول في صمـت: لا تنظـر إلى شـكلي ولـوني، بـل عايـن قـوّة سـاعدي ومـا أنـا قـادر عـلى إنجـازه مـن عمـل!

يقول لي جابر في مرارة:

- ولّى زمـن اليـد العاملـة المتطلّبـة. لـم يعـد ربّ العمـل يجـوب الشّـوارع يتصيّـد العمّـال.. الآن، يتقـرّب العامـل مـن صاحـب العمـل، يتمسّـح بـه ويـكاد يسـتجديه، مـن أجـل عمـل قـد يـدوم أيّامـا قليلـة.. ثـمّ يرجـع ليقـف في السّـاحة ويسـتجدي عمـلا آخـر.

جيـل أبي وعمّـي عـرف معاملـة مختلفـة، ولعـل جابـر وصـل متأخّـرا عـن العـصر الذهـبيّ لليـد العاملـة. في وقـت مـا مـن منتصـف القـرن المـاضي، كانـت الـشّركات الكـبرى ترسـل مندوبيهـا إلى المسـتعمرات لاسـتيراد اليـد العاملـة البخسـة. يوقـع الواحـد منهـم عقـد الخدمـة في وطنـه - المحتـلّ - ويسـافر عـلى جنـاح الرّاحـة حيـث عمـل جديـد ينتظـره. لكـنّ اليـد العاملـة اليـوم تسـعى عـلى رجليهـا، تعـبر البحـار، وتـراوغ السـلطات، وتقـف في القـرّ والحـرّ تتوسّـل عمـلا.

كل بضعـة أيّـام، يظهـر ديميـتري، كهـل روسيّ مكتـنز، في بدايـة الأربعينيـات مـن عمـره، كـثّ اللحيـة والشـاربين أشـقرهما، فـكّاه عريضـان صارمـان، تفـوق وشـومه المرعبـة - كخلقتـه- في امتدادهـا ودقتهـا كلّ الوشـوم الـتي سـبق أن رأيتهـا في حيـاتي! عرفـت مـن الرّفـاق أنّـه جنـديّ سـابق في الجيـش الـرّوسي، نجـا بأعجوبـة بعـد أن أصيـب بطلقـة في صـدره، في حـرب الشيشـان الأخـيرة. حـين وصـل إلى فرنسـا منـذ خمـس سـنوات، بـدأ مشـواره أسـفل السّـلم كعامـل بسـيط. اسـتأجر عربـة نـوم متنقلـة مـن بعـض الغجـر لقـاء ثلاثمئـة يـورو في

facebook.com/groups/exchange.book

الشـهر واتخذهـا مسـكنا، وتمـرّس عـلى المهنـة تحـت رعايـة معلّـم إيطـالي.

يوقـف شـاحنته عنـد المدخـل ويتهـادى في مشـيته متفحّصـا الوجـوه القديمة والجديـدة، فأتمثّلـه في خيـالي سـفّاحا يبطـش بكارمـن الصّغـيرة. مـن دون وعـي منّي، تنفـر مـن عيـنيّ نزعـة عدائيّـة لا أملـك احتجازهـا داخـلي، فأشـيح بـرأسي عنـه كأنّي لا أهتـمّ بحضـوره مـن عدمـه!

لوقـت طويـل، ظـلّ يمـرّ بي غـير عـابئ، لا يلقـي عـليّ نظـرة واحـدة، كأنّنـا نتناصـب عـداءً خفيّـا لا يعـرف لـه أحدنـا مسـوّغا يذكـر.. غـير كـوني عربيّـا بـلا فائـدة، وكونـه روسـيّا وحشـيّا مسـؤولا عـن مجـازر لـم أشـهدها! رغـم أنّـني لـم أتعـوّد العمـل الشّـاق أو أتمـرّس عـلى البنـاء والتحميـل، فقـد كنـت قـويّ القبضـة متـين البنيـة. مثـل سـائر شـباب جيـلي، كنـت قـد دأبت لسـنوات خلـت عـلى تمارين الرّفـع والضغـط الـتي كان مـن شـأنها أن تصقـل عضـلات عضـدي وتـبرز حسـن تكوينهـا. كنّـا نـربّي العضـلات كمـا تـربى الحيوانـات الأليفـة، ونتباهـى فيمـا بيننـا بحجمهـا وارتفاعهـا عنـد الشـدّ. كنـت أوفـر صحـة وأكـثر متانـة مـن معظـم الواقفـين في السّـاحة. لكـنّ هيئـتي لـم تكـن مقنعـة. تنسـدل عـلى ذراعـيّ أكمـام القميـص الـدّافئ متجنّبـا لسـعة الـبرد الصبّاحـي، وتفضـح نظـرتي المرتبكـة ثقـة مضعضعـة الأركان. لـم أكـن الرّجـل الصّلـب الـذي قـد يتحمّـل أيّ شيء مـن أجـل لقمـة العيـش.

بعـد أيّـام، كان جابـر ورفاقـه قـد انخرطـوا في ورشـات البنـاء، وصرت أسـعى وحيـدا إلى سـاحة التجنيـد. حصلـت المعجـزة بعـد أسـبوعين، حـين توقّـف ديمـتري أمامـي ونظراتـه تسـتوعبني وتعتـصرني. أشـار إليّ بكفّـه فاقتربـت. انتحـى بي جانبـا وسـألني بلهجـة الخبـير:

- للحصول على طبقة تغليف بسمك سنتيمتر واحد، ماذا تستعمل؟

- الخرسانة.. لا، الإسمنت!

- ولخلـط كيـس إسـمنت يـزن خمسـة وثلاثـين كيلوغرامـا، كـم دلـو رمـل تحتـاج؟

facebook.com/groups/exchange.book

- دلوان.. لا، ثلاثة؟

جاءت إجاباتي متلعثمة مرتجّة. حدجني بنظرة سحقتني مكاني:

- ثمانية!

ثمّ خطا مبتعدا معلنا فشلي في اختبار التشغيل الأوّل. اقترب من كهل أوكرانيّ يظهر في السّاحة للمرّة الأولى، وأشار إليه أن يتبعه من دون أن يعرّضه لاختباري السّريع. خلال لحظات، كانت الشاحنة تبتعد مخلّفة إيّاي على القارعة، بينما ارتفع صوت كلوديو الرومانيّ يضحك منّي ملء شدقيه: «أنهيت البناء إذن؟».

كان ديمتري يعتبر أحد المشغّلين المعتبرين. لم تكن لديه ورشته الخّاصّة، لكنّه مزوّد محترف، يتقصّى احتياجات المقاولين ويتعهّد بتوفيرها. غالبا ما يتعامل مع ورشات مقاولات ضخمة تمتدّ لأسابيع أو شهور، ما يضمن دخلا مستقرّا لفترة طويلة، وهو ما يأمله كلّ عامل يقف في السّاحة. إذا حظيت برضا ديمتري، فقد وفّرت أيّاما وأسابيع من البطالة. لكنّه كروسيّ أصيل، يفضّل الأوكرانيين والروّمانيين والمولدوفيين.. فإذا ما انعدم هؤلاء، كان البرتغاليون من يلونهم في الحظوة، ثمّ بلدان شمال إفريقيا، في حين يأتي مواطنو إفريقيا السّوداء في المراتب الأخيرة. وغالبا، كان لكلّ جنسيّة اختصاص تعرف به. فالأوروبيون يعملون في مواقع الإشراف، والمغاربة في البناء، بينما تعهد الأعمال الشاقة إلى الأفارقة.

لم يكن ديمتري المشغّل الوحيد. كان هناك أرباب العمل من الخواصّ، وهؤلاء لم تكن لديهم خبرة الرّوسي ولا اختباراته الخاطفة لتمييز الغرّ من المحنّك، ومتعهدو ورشات ذوو احتياجات مختلفة ومتنوّعة، لا تهمّهم كثيرا التّجربة والمهارات الحرفيّة.. لولاهم كنت بقيت في السّاحة بقيّة عمري بلا أمل في تحصيل عمل ما! في الأثناء، كانت ديوني لدى جابر ورفاقه تتضخّم، وما من سبيل لتسديدها من دون عمل.

خلال الشهر الذي شهد بحثي الحثيث عن مورد رزق، كنت ألمح رجال

facebook.com/groups/exchange.book

الشرطة يحومون حول المكان باستمرار. كانت البزّة الرّسميّة الزرقاء لا تزال تثير قشعريرة تنتصب من جرّائها كلّ شعرة تغطي جلدي. لكنّهم يغمضون أعينهم عنّا حين تكون عروض الشّغل متوافرة، فلا يعيقون أصحاب الورش الذين يرغبون في استخدامنا. حين تترك الشاحنات المواقف واحدة إثر الأخرى مع اقتراب منتصف النّهار، يصبح من الضروري أن ينفضّ جمعنا حتّى لا نجبرهم على التّدخل. لم يقتربوا منّا إلا مرّتين. في المرّة الأولى، ظهرت سيّارة الشرطة عند مدخل المحلّ، ونزل منها ثلاثة رجال شرطة. على وقع تقدّمهم في السّاحة تراجعت مجموعتنا بخطى سريعة نحو البوابة الخلفيّة وانفرط عقدنا عبر المنعطفات القريبة. لم يطاردنا أحد. طاردتنا مخاوفنا وهواجسنا. بعد دقائق، كنّا نستعيد مراكزنا.. بحذر في البداية، ثمّ بثقة متنامية. تنتفخ الصّدور من جديد، وتتندّر الألسن بلحظة الفزع السّابقة في خلوّ بال.

في المرّة الثانية، كان كلوديو، الشّاب الرّوماني أكثرنا شجاعة. أشار إلينا بغمزة من عينه أن اطمئنوا، واقترب من رجل الأمن الذي توغّل عبر السّاحة حتّى كاد يصل إلينا. تابعنا بنظرات قلقة صديقنا كلوديو وهو يحاور الرّجل بلكنته الشّرقية:

- هل يمكننا البقاء هنا؟ نحن لا نفعل شيئا سيّئا.. نبحث عمّن يستخدمنا لا غير..

ولم ينس في عرض الحديث أن يحدّد كونه «أوروبي» الجنسيّة. لكنّ الرّجل كان عدائيّا بشكل غير متوقّع، كأنّما ينفّس عن ضيق ألمّ به بعد شجار مع زوجته أو تأنيب من رئيسه! فكّ قنبلة مسيلة للدموع من حزامه وأشهرها في اتجاهنا:

- لا يهمني ما تفعلونه.. انفضّوا وحسب!

تفرّقنا من دون تأخير، بينما وقع كلوديو المسكين في المصيدة. كبّله الشرطيّ بعد أن دفعه ناحية الجدار وأخضعه لتفتيش دقيق، ثمّ

facebook.com/groups/exchange.book

اصطحبه إلى مركز الشرطة حيث ترك في زنزانة الحجز مدّة ساعة واحدة. حين ظهر في الغد في السّاحة، صافحه الرّفاق بحرارة تحيّة لشجاعته، بينما تعلّقت بشفتيه ابتسامة بلهاء.

حصلت معجزة أخرى، حقيقية هذه المرّة، حين وقع عليّ اختيار متعهّد إسباني، كان يحتاج إلى عدد من العمّال للتحميل بشكل خاص، وفي هذه المهمّة لا اعتبار للخبرة والمهارة. وقف في السّاحة وألقى نظرة صارمة، ثمّ أشار بسبّابته آمرا: أنت وأنت وأنت.. تخيّر الشّباب الذين تبدو عليهم العافية، وكنت من بينهم. ارتجف خافقي في صدري، ولم أصدّق. مشيت مبهور الأنفاس وتسلّقت حاجز الشاحنة الخلفيّ لأحشر نفسي بين عمّال آخرين سبقوني إلى الصّندوق. لبثت أهتزّ في مكاني من الإثارة والحماسة وابتسامتي الواسعة البليدة تفضح خبلي في تلك اللحظة.

بعد ثوان كنت قد أفقت من نشوتي وبدأت أهتم بالتفاصيل، فهمست مخاطبا جاري الأقرب:

- كم يدفعون لكم من الأجرة؟

- عشرون يورو في اليوم.. إضافة إلى وجبتين. العمل كامل أيام الأسبوع من السابعة صباحا حتى السابعة مساء.

ابتسمت في سرور، كأنّ صاحبي يزفّ لي أخبارا تدعو إلى البهجة. طعام نظيف يسدّ رمقي، وعمل كريم يمتصّ طاقتي وأوراق نقدية تملأ جيوبي.. وهل كنت أطمح إلى أكثر من هذا؟ لم أهتم إلى شروط العمل المجحفة ولا إلى الأجرة الزهيدة التي لا تتجاوز نصف الأجر الذي يدفعه ديميتري لعمّاله. تلك الشروط تمكن مستخدمي، المتعهد الإيطالي والمقاول الذي وكّله، وصاحب المشروع، من تقليص المصاريف وتوفير كلفة اليد العاملة بما يفوق النصف. فليكن. لكنها تمكنني من العمل أخيرا.. ومن عيش يقترب من الكرامة. وهذا يكفيني.

facebook.com/groups/exchange.book

لـم أكـن أتقـن شـيئا مـن أعمـال البنـاء، لذلـك اقتـصرت مهمـتي عـلى التحميـل والنقـل مـن مـكان إلى آخـر. أسـتاذية العربيّـة تجلّـت مـن دون فائـدة تذكـر في مغامـرتي الفرنسـيّة. لـم يكـن لـديّ شـكّ في ذلـك منـذ البدايـة، فآخـر مـا قـد يحتـاج إليـه الفرنسـيّون هـو تعلـم العربيّـة! لكـنّ المؤهـلات المطلوبـة في سـوق الشـغل كانـت صادمـة ومربكـة.. ولعلـه كان مـن حسـن حظـي أن مـررت مـن «مهـارات النشـل» إلى «مهـارات البنـاء»، فهـذه الأخـيرة لـم يكـن هنـاك مـن حاجـز نفـسيّ يجعلـني أستنكف تعلمهـا. بينمـا أنحـني لألتقـط كيـس الإسـمنت الثقيـل وأرميـه فـوق كتفـي ثـمّ أتقـدّم بجهـد إلى داخـل الورشـة، أراقـب مـن طـرف خفـيّ العمـال المكلفـين بغربلـة الرّمـل وخلـط الإسـمنت وترصيـف الآجـر ليرتفـع جـدارا، أحـاول استشـفاف أسرار المهنـة.. فـإذا مـا وجدتـني أقـف في سـاحة التجنيـد مـن جديـد، انتقيـت منهـا مـا يسـهل عـليّ ممارسـته ويخفـف عـن ظهـري حملـه القاصـم!

غريـب أمـر تلـك الحـرف الـتي كنـت أترفـع عـلى مزاولتهـا في بلـدي وبـين أهـلي بأنفـة، لأنّهـا لا تليـق بشـابّ جامعـيّ مثـلي، لكنّـني أتلهّـف عليهـا وأتـوق إلى إتقانهـا في بـلاد الاغـتراب كأنّهـا سـترفعني إلى قـدر أعـلى! فهـل بلغـت مـن الانحطـاط الـدّرك الأسـفل حـتى غـدت مهنـة «عامـل البنـاء» منتهـى أمـلي؟ بـين خبطـة وخبطـة مـن خبطـات الزمـن الـذي يهـوى صفعـي في الفـترة الأخـيرة، أقـف متدبّـرا أمـري.. هـل كان اليـأس أم الطمـع أم الملـل مـا دفعـني إلى التخـلّي عـن حيـاة الدّعـة والاسـتقرار بـين أهـلي، لأخـوض المهالـك وروحـي عـلى كفّـي في بلـد لا تعرفـني ولا أعرفهـا؟ أم لعلّـه الجهـل، أصـل كلّ داء، مـا حـدا بي إلى أن أسـتبدل بمـا هـو دنيء مـا هـو أدنى؟

قبـل طلـوع الشـمس أبـدأ بإفـراغ أكيـاس الإسـمنت مـن الشـاحنات، ثـمّ أنقـل الأعمـدة الحديـد وقطـع الآجـر الأحمـر أو الحجـارة البيضـاء إلى أسـفل البنايـة، أرصفهـا عـلى الحامـلات الخشـب ثـم أشـدّ الحبـال لأرفعهـا إلى الطوابـق العليـا، وفي أوقـات أخـرى أدفـع العربـات ذات العجلـة الواحـدة

facebook.com/groups/exchange.book

المحمّلة بالرّمل أو الحصى الصغير.. أستمرّ على تلك الوتيرة كامل النّهار من دون انقطاع. فترة استراحتي الوحيدة كانت حين يدخل علينا مشرف الورشة صاحب الكرش، ينادي الجميع بـ«مامادو» على اختلاف أصولهم، ويوزّع شطائر هزيلة نلتهمها في ثوان قليلة ثم يصرخ فينا ليعلن انتهاء القيلولة.

في المساء أعود أدراجي إلى القبو الكئيب، فأجد بعض الرّفاق قد سبقوني، ويتوافد الباقون واحدا إثر الآخر.. فنتهالك على الفرش القديمة المتّسخة في استسلام. يكون تعب النهار قد أخذ كل طاقتنا فما عادت بنا قدرة على احتجاج أو تذمّر. في تلك الظروف، لم تكن الصداقات تنشأ بسهولة. رغم المشاركة في المحنة، وهو ما يصنع عادة نوعا من التآلف، لم ألمس اللحمة التي توقعتها بين المهاجرين. القانون السائد من دون منازع هو «كلّ لنفسه»، و«هاك نصيبك من العذاب»! الكلّ يتوق إلى رؤيتك تمرّ بعذاباته ومآزقه، كأنّ بينك وبينه ثأرا قديما. أو كأنّ القادم الجديد سيفتك جزءا من حظوظ الآخرين في تحقيق «الحلم الفرنسي». من يقدر على التوسّع في مجال نوم جاره لن يتردّد، ومن تسنح له الفرصة لافتكاك لقمة إضافية فسيفعل أيضا. كان عالما بغيضا من التّنافس القذر، حيث تحاصرك النظرات المترصّدة وينضح العداء من أدنى الحركات. لم تكن هناك قوانين للّعبة، ولم يكن هناك دستور يحمي المستضعفين. كنت أحتاج إلى القوّة والسطوة لأجد لي مكانا في ذلك الوسط، بين رجال جعلتهم الفاقة أكثر توحّشا وأقلّ رحمة. ولم يفتني أنّ حذائي الجديد وسترتي الجلد الدافئة يسيلان لعاب أكثر من واحد.

لكنّ جابر وضعني تحت جناحه منذ اليوم الأول وأعلن أنّني تحت حمايته، ويعلم الله كم كنت أحتاج تلك الحماية، مع أنها لن تكون حماية مجانيّة! سأدفع له جزءا من أجرتي اليوميّة مقابل ضمانه لمكان نظيف ودافئ في القبو ولن أتعرّض للسّرقة أو المضايقة، وهما أمران يتكرّران بشكل أكبر مع الوافدين الجدد، قبل أن يستقرّ بهم المقام.

facebook.com/groups/exchange.book

هكـذا كان الاتّفـاق.

جابـر مثـل أغلـب العمّـال كان مهاجـرا بصفـة غـير شرعيّـة. مـضى عـلى وصولـه إلى فرنسـا عـشر سـنوات كاملـة. لـم يرجـع خلالهـا إلى الجزائـر إلا مرّتـين اثنتـين منـذ أن حصـل عـلى الإقامـة القانونيـة. كان متزوّجـا ولـه طفـلان يبلـغ أصغرهمـا الثانيـة عـشرة مـن عمـره. وكان يحتـاج إلى العمـل مـن دون هـوادة ليواصـل إعالـة عائلتـه الصغـيرة، أو هكـذا يوهـم نفسـه. لـم يكـن يبقـي شـيئا يذكـر لحاجتـه الشـخصية ويرسـل كل مـا يجنيـه إلى أهلـه. يعلـم أن زوجتـه تخونـه. يعلـم ذلـك مـن دون يقـين، لكنـه يشـعر بـه كمـا يشـمّ القـطّ رائحـة اللّحـم النّـيّئ. ويعلـم أن أولاده بالـكاد يتعرّفـون عليـه. لكنـه يتعلّـق بذلـك العمـل البائـس كأن لا حيـاة لـه مـن دونـه. حـين أنهـى اعترافاتـه الكئيبـة، أوصـاني بصـوت يقطـر مـرارة:

- لا تترك خلفك يوما امرأة ولا ولدا.. خذهم معك، أو مت إلى جوارهم!

فتذكرت كارمن، ابنتي التي تبنيّتها شياعا، وتخلّيت عنها!

عرفـت في مـا بعـد أن معظـم الرجـال مـن حـولي هـم أربـاب عائـلات. لـم يكـن وضـع جابـر شـاذّا، بـل يـكاد يكـون القاعـدة. ومع ذلـك فمعظمهـم يرفض أن ترافقـه عائلتـه إلى فرنسـا حـتّى بعـد حصولـه عـلى الأوراق القانونيـة، لأنـه لا يريـد أن يغـيّر نمـط حياتـه باسـتئجار شـقة مكلفـة تؤويـه وعائلتـه ويفضّـل توفـير المبلـغ لمسـتقبل لا يـدري إن كان سـيتمتّع بـه يومـا، أو لخوفـه عـلى زوجتـه وأولاده مـن فتنـة بـلاد الغـرب وخشـيته مـن تأثرهـم بهـا وانبهارهـم بترفهـا الـذي لا تطالـه يـداه. القلّـة القليلـة ممّـن اسـتقرّوا مـع عائلاتهـم في مسـاكن نظيفـة ومسـتقلّة هـم مـن ضحـك القـدر في وجوههـم وحصلـوا عـلى عمـل محـترم، بعـد أن خضعـوا لتدريـب في السـبّاكة أو الحـدادة..

- وما يمنعك أن تحذو حذوهم؟

أسأله في حيرة، فيردّ في تشتّت.

- لـم تعـد سـنّي تتحمّـل تعليمـا مـن جديـد.. هـذا أنـا، عشـت بنّـاءً وسـأموت

facebook.com/groups/exchange.book

بنّاءً.

في كل مـرّة رجـع فيهـا جابـر إلى أهلـه، كان يضـع ثيابـا جديـدة ونظيفـة، يشـتري بدلتـين أو ثلاثـا ليظهـر بهـا أمـام أقاربـه وجيرانـه، يمـلأ حقائبـه ثيابـا وألعابـا وهدايـا لزوجتـه وولديـه. يمـرّ شـهر الإجـازة كل مـرّة بلمـح البـصر. يتربّع في مقهـى الحـيّ نافخـا ريشـه ويقـصّ حكايـا تسـيل لعـاب الشـباب الغافـل عـن حياتـه في أوروبـا. حكايـا بعضهـا مختلـق، وبعضهـا الآخـر سـمع عنـه مـن زميـل مـا أو شـاهده بـأمّ عينيـه في أوقـات راحتـه القليلـة. وكانـت السلسـلة الذهبيـة الـتي تتـدلى عـلى صـدره أبلـغ تأثـيرا مـن أيّ قصّـة.

وفي كلّ مـرّة رجـع فيهـا إلى أهلـه، كانـت زوجتـه تتعلّـق بأسـتاره وتترجّـاه باكيـة ألا يسـافر مـن جديـد. لكنـه كان يفعـل. ورغـم شـكه المزمـن في سـلوكها فإنـه يشـهد لهـا بالأمانـة. لـم تمـرّغ سـمعته في الوحـل، بـل حرصـت عـلى أن يكـون ذكـره ناصعـا بـين الرجـال. كان يلحـظ مـسرورا أنّهـا لـم تبـذر الأمـوال الـتي دأب عـلى إرسـالها إليهـا كلّ شـهر. رمّمـت المـنزل القديـم وشـيّدت غرفـا إضافيـة لـلأولاد وجهّزتهـا بأثـاث جديـد. والحقيقـة أن بلدتـه الصغـيرة كانـت مليئـة بنسـاء مجاهـدات مثلهـا. حـين يسـافر الرّجـل إلى بـلاد بعيـدة مـن أجـل الـرّزق، تصبـح المـرأة رجـل العائلـة وحاميهـا، تصبـح الأمّ الحانيـة والأب الحـازم لأبنائهـا، تصبـح بطـلا منسـيّا مدحـورا وغـير ذي شـأن.

أعـرف جيّـدا ذلـك النـوع مـن النسـاء. بعـد مقتـل أبي رحمـه اللـه تحمّلـت جدّتـك مسـؤوليتي وشـقيقاتي بصـبر وجلـد كبيريـن. لـم يكـن معـاش والـدي كافيـا، فاضطـرت إلى أعمـال الخياطـة والتّطريـز لترفـع المدخـول الشّـهريّ. وفي المسـاء حـين يهبـط اللّيـل، كانـت ترصـف أمـام المدخـل أحذيـة جـدّك القديمـة الـتي دأبـت عـلى تلميعهـا حـتى بعـد وفاتـه، لتوهـم كل مـن تحدّثـه نفسـه بأذيّـة أهـل البيـت بـأن للـدّار رجـلا يحميهـا. حـين حاولـت تـرك مقاعـد الدّراسـة والعمـل في دكّان الحـلاق، وقفـت لي بالمرصـاد واعترضـت بشـدّة. أصرّت عـلى أن أنهـي تعليمـي وأدخـل الجامعـة. لـم تـرض أن يشـاركها حملهـا أحـد، ويعلـم اللـه كـم مـرّت بهـا مـن ليـال مسـهدة وهـي تفكّـر كيـف توفّـر

facebook.com/groups/exchange.book

إيجـار سـكني الجامعـيّ في العاصمـة ومـصروفي اليومـيّ، أو كيـف تنهـي جهـاز شـقيقاتي وتزوّجهـن. مـلأت عقـلي بالأحـلام والطّموحـات حـتّى مـا عـاد دكّان الحـلاّق يرضيـني وأنـا صاحـب الشـهادة الجامعيّـة. لكـن النّتيجـة خيّبـت آمالهـا جميعـا.

سألت جابر على استحياء:

- أليس لديك حلم، تنهي غربتك حين تحققه؟

ضحك ملء شدقيه، وامتلأت عيناه بذكريات بعيدة:

- كان لي حلـم.. محـلّ بيـع أثـاث قديـم أفتتحـه في قريـتي، وأقـف خلـف مكتـب الاسـتقبال أعقـد الصّفقـات. أجّلتـه باسـتمرار حـتّى مـا عـاد لـه معـنى، إلا في قامـوس الأمـاني! الآن لـم أعـد أريـد غـير تقاعـد مبكّـر، وشـيخوخة وديعـة مسـالمة..

حـين اسـتقرّت الأوراق النقديّـة الأولى في جيـبي بعـد انتهـاء أسـبوع العمـل الأول، سرت إلى البيـت كأنّي أطـير، لا أكاد أشـعر بـالأرض تحـت قدمـيّ، أحلّـق وحـالي حـال مـن ملـك الدّنيـا وكنوزهـا. كان يومـا تاريخيـا، في حيـاة نـادر الشـاوي. أن أقبـض للمـرّة الأولى مـالا كسـبته بعـرق جبيـني. طـوال الطّريـق، كنـت أتحسّـس الورقـات ذات الملمـس المميّز، كأنّي أخـشى تبخّرهـا، كأنّهـا قـد تسـتحيل رمـادا إذا غفلـت عنهـا لحظـة، أو تتحـوّل ورق كتابـة أو ورق تغليـف! لعـلّي بـدوت أحمـق يسـير عـلى الطريـق، ولعـلّ جابـر وجيرانـه رأفـوا بحـالي وأنـا أعـدّ أمامهـم الوريقـات وأعيـد في حـرص محمـوم.. لعـلّي كنـت مثـيرا للشـفقة، لكـنّي كنـت رجـلا شريفـا يكسـب قوتـه بكـدّ ذراعـه.. وفخـورا بذلـك.

facebook.com/groups/exchange.book

في فرنسا، وخلال أسابيع قليلة من وصولي، عشت أولى تجارب الدّيمقراطية: خرجت في مظاهرة! لم أكن قد شهدت مظاهرة واحدة في بلدي.. وحتى تلك التي تطالعنا مرّة في السّنة، فهي أشبه بمسرحيّة هزليّة من إخراج الدّاخليّة، ليس الغرض منها الاحتجاج أبدا، بل مباركة شعبية للسّياسة الحكيمة لرئاسة الجمهورية! لكنّ الأمر مختلف في بلد الحقوق والحريّات. فالمظاهرات رياضة وطنيّة يمارسها الفرنسيّون -وضيوف البلاد أيضا تأسّيا بثقافة مضيّفيهم- بضع مرّات في الشهر، وتعدّ مقياسا لوعي الشّعب بواجب المواطنة.. إن لم تحتجّ فأنت حتما لا تتابع الشّأن العام ولا تهتمّ للصحّة السّياسية لبلادك!

لكن دعنا من الفرنسيّين، فتلك المظاهرة لم تكن تهمّهم. خرجت في مظاهرة للمهاجرين غير الشرعيين! هل سمعت بوقاحة كهذه؟ في فرنسا، هناك جمعيّات تُعنى بالدّفاع عن حقوق المقيمين من دون أوراق رسميّة، تضغط على الدّولة لتسوية وضعيّاتهم القانونية، وإن لم ترض الجهات المعنيّة، تخرج المظاهرات!

إن شئت الصّراحة، القانون الفرنسيّ ملتبس جدّا، في ما يخصّنا نحن المتسلّلين عبر الحدود. أنت لا تملك حقوق المواطن والمقيم، لكنك تخضع لواجباتهم. أنت تدفع مساهمات لصندوق الضمان الاجتماعي، لكنك لا تتمتع بحق العلاج في المستشفيات العمومية، أو باسترجاع المصاريف! أنت تدفع مساهمة لصندوق التقاعد، مع أنّه لا يحقّ لك التمتع بمنحة التقاعد! بل أدهى، أنت تدفع ضريبة على المداخيل، لكن لا يحقّ لك العمل، وإن قُبض عليك متلبسا بجريمة العمل، فسيتمّ الزجّ بك خلف القضبان! والمفارقة، هي أنّه سيسمح لك بالعمل داخل السّجن، باعتبار أنّ قوانين الإقامة لا تنطبق على الزنازين.. فتجد نفسك تصنع بطاقات جولان السّيّارات، أو تطلي جدران السّجن، لقاء بضع يوروات في اليوم!

جابر أقام في السّجن مرّتين. في كلّ مرّة، كان يقضي أسبوعا أو أقلّ، ثمّ

facebook.com/groups/exchange.book

يُفرج عنه من دون أيّ ضمانات أو تعهدات. لم يكن هناك الكثير ليفعله. يستمرّ في لعبة الاختباء مع رجال الشّرطة، فتهجر ساحة محلّ أدوات البناء لبضع دقائق حين تتوقف سيّارة الأمن عند المدخل، ثمّ تعمر بسكّانها من جديد حين يختفي طيف الشرطة عند المنعطف. يستظهر ببطاقة إقامة زميل حين تشنّ حملة تفتيش مفاجئة في الورشة، ويسير ملتصقا بالجدران في الشوارع متجنّبا المراقبة العشوائيّة للأجانب. حين استجابت السلطات أخيرا لطلبه المتعلق بتسوية وضعيته القانونية، كان يوم عيد حقيقي، احتفل به سكان القبو جميعا، كأنهم معنيّون شخصيا، فقد غذى في نفوسهم أملا كانوا على وشك نسيانه.

تلك البطاقة الزهرية المغلفة بشريط بلاستيك شفاف، هي منتهى آمال كلّ من سلك مسلك الاغتراب الطائش. حين تستقرّ البطاقة في حافظة أوراقك، تصبح الأماكن العامّة والشّوارع المزدحمة والأسواق مناطق آمنة، يمكنك التّجوال عبرها بحريّة. تصبح إنسانا. فمن لا يملك أوراقا قانونية، نصف إنسان.. أما النّصف الآخر فلا أدري ما طبيعته! حتّى الحيوان في فرنسا يحظى بحقوق تضاهي حقوق البشر.. أما أنت.. أنا.. أيّها المشرّد المنتهك لقانون البلاد، لست إلا رقما في تعداد المتجاوزين!

أمّا المظاهرة يا ولدي، فتجربة فريدة جديرة بالعيش! صفوف متلاصقة من الرّجال الشعث الغبر، تتعانق أكفهم بقوّة، وتتقدّم خطواتهم على نسق محموم. وأنا وسطهم مبهور الأنفاس، غائم النظرات، تتصاعد الحماسة في داخلي، وأتخيلني أصرخ ببعض الشعارات المؤثرة.. «تحيا فلسطين» أو «يسقط المحتلّ»! لكنّ المسيرة تتقدّم في صمت، ووقع الأقدام وحده يدير الأعناق باتجاهنا. كنا بضع مئات.. ربما ألفا. معظمنا من الأفارقة والمغاربة، لوّحت وجوهنا سمرة داكنة من جرّاء العمل في الأماكن المكشوفة من شروق الشمس إلى غروبها. نحتفظ بأصواتنا الغليظة سجينة حناجرنا، حتى لا نتّهم بإثارة الشغب. كانت تلك تعليمات الجمعيّة الصّارمة. سرعان ما تحفّ بنا سيّارات الشّرطة ورجال الأمن.. يسيرون

facebook.com/groups/exchange.book

بمحاذاتنـا عـلى أهبـة الاسـتعداد، متسـلّحين بالهـراوات، وفي الموقـع الـذي يتخيّرونـه مناسـبا لفـضّ جمعنـا، يسـدّون الطريـق ويجهّـزون قنابـل الغـاز.. وحـين يقـرّرون أنّنـا احتججنـا بالقـدر الـكافي، يطلقونهـا فتتفـرّق سـبلنا.

بكيت يومها من دون مواربة، انتابني إحساس بأني غدوت شبيها بالبشر!

facebook.com/groups/exchange.book

الثلاثاء، ١٨ ديسمبر ٢٠٣٥، الواحدة صباحا،

بينما يندمج نادر الشّاوي في مجتمعه الجديد ويتلمّس طريقه نحو حياة كريمة، يغرق خليل دانيال الشّاوي في إحساس مفزع بأنّ أيّامه السّهلة المطمئنّة قد ولّت إلى الأبد.

حين أنهت أمّه ترجمة الرّسالة التي بين يديها، قبّل جبينها ونفض سترته المجعّدة، ومضى من دون نقاش. كان مجهدا. زفر مهمومًا حين اختلى بنفسه في سيّارته. في البيت، ستكون سيلين متسلّحة بنظرات الخصام. لم تكن به رغبة في نقاشها أو الاستماع إلى عتابها، بعد أن أهدر عطلة يوم الأحد وغاب عن السّهرات واحدة إثر الأخرى. ليست سيلين وحدها من يخاصمه. إنّه يخاصم نفسه من أجل ذاكرة يأبى أن يتقبّلها جزءا منه. لم تحاول أن تتصل به اليوم. خفّف عنه غياب إلحاحها بعض الضغط، لكنّه يشعر بالقلق الآن وهو يقود السيّارة عبر الشوارع المقفرة. إعراضها يعني أكثر من مجرّد خصام.

هل يمكنها أن تتفهّم ما يمرّ به؟

مسّد بأصابع متوتّرة تعرّجات تجاعيد مبكّرة تعلو حاجبيه، ومرقت في ذهنه فكرة عبقريّة وليدة اللحظة. هل يمكن لجذوره العائليّة المكتشفة أن تكون ذات فائدة انتخابيّة؟ يحاول أن يرى الفرصة في تلافيف كلّ حدث. وتعود تفاصيل خطاب الحصّة التلفزيّة لتشغل حيّزا من تفكيره.

يراجع كلّ الإجابات الملتوية التي درسها وصاغ عباراتها ردّا على السّؤال المتوقّع: هل تمثّل بترشّحك كلّ الفرنسيّين أم العربَ فقط؟ فحوى الرّسائل التي وصلته يدفعه بحماس إلى مسح كلّ الرّدود التي سبق له تخيّلها والتدرّب عليها، والعمل على إستراتيجيّة جديدة. يتخيّل نفسه وهو يدسّ كفّه في جيبه ويخرج الرّصاصة! ثمّ يشرع في خطاب مؤثر

facebook.com/groups/exchange.book

عـن الوحـدة الوطنيـة رغـم اختـلاف الأصـول والتوجّهـات، وعـن المـآسي الـتي تصيـب أبنـاء الوطـن الواحـد حـين ينسـون قاسـمهم المشـترك ويركّـزون عـلى الاختلافـات.. كـم سـيكون خطابـا مؤثـرا! سـتدمع عينـا مقدّمـة البرنامـج، وسـيبكي الحـاضرون، وسـيذرف هـو نفسـه دمعـات سـخيّة في ذكـرى أبيـه، ضحيّـة الحـرب الأهليّـة.

مـرّة أخـرى، يتسـلّل إلى منزلـه عـلى أطـراف الأصابـع. كأنّمـا يخـشى إيقـاظ الوحـش النائـم. ألقـى نظـرة عـلى غرفـة نومـه، ثـمّ انـصرف إلى غرفـة ابنتـه. مـرّة أخـرى، كانـت مريـم قـد أوت إلى سريرهـا حـين عودتـه. يشـتاق إليهـا بحـرارة. مـن عادتـه أن يعوّضهـا في عطلـة الأحـد عـن احتجابـه عنهـا أيّـام الأسـبوع، بسـبب سـاعات العمـل الممتـدّة إلى سـاعة متأخـرة في المكتـب. لكـنّ طبقـة إضافيّـة مـن المشـاغل ألغـت كلّ التخطيطـات المزمعـة. نـزع سـترته وفـكّ ربطـة عنقـه، ثـمّ اسـتلقى إلى جوارهـا. تململـت الصّغـيرة وفتحـت عينيهـا. دهشـة مبتهجـة ظهـرت في نظرتهـا حـين اكتشـفت زائرهـا الليـلي. أحاطـت عنقـه بذراعيهـا ثـمّ غفـت مـن جديـد. اسـتكان إلى عناقهـا المريـح، ومـا لبـث أن غـطّ في النّـوم بـدوره.

حـين اسـتيقظ صباحـا، كان ألـم شـديد يفتـك بمؤخـرة عنقـه. تمطّـى في كسـل، ثـمّ همـس لمريـم الـتي تنـام ملتصقـة بـه:

- صغيرتي.. حان وقت المدرسة.

ووقت عمله أيضا.

انضـمّ إلى سـيلين ذات السّـحنة العابسـة في المطبـخ، بعـد أن اغتسـل وغـيّر ملابسـه. قبّـل وجنتهـا سريعـا وتمتـم ببضـع كلمـات اعتـذار، لا يظنّهـا أقنعتـه أو أقنعتهـا، ثـمّ جلـس يتنـاول إفطـاره في صمـت. لـم يكـن مـن عادتـه ألا يحدّثهـا بمـا يؤرقـه، لكنّـه موسـم الصّباحـات غـير العاديّـة. حـين يرجـع إلى صوابـه ويتعـرّف مـن جديـد إلى نفسـه في المـرآة، سـيكون بوسـعه أن يرصـف أفـكاره أمامهـا بعنايـة. أمّـا الآن، فليبتلـع غصّـة روحـه ويلـذ بالسّـكون.

facebook.com/groups/exchange.book

بعـد دقائـق، كانـت تركـب سـيّارتها برفقـة مريـم. توصلهـا إلى مدرسـتها ثـمّ تلتحـق بمكتبهـا. لـوّح لهمـا بمـا اسـتطاع مـن مـرح، ثـمّ توجّـه إلى عملـه بـدوره.

أمـضى سـاعات الصّبـاح في قاعـة المحكمـة. الثلاثـاء يومـه الأكـثر غـزارة مـن حيـث منسـوب الـكلام المتدفّـق مـن فيـه! ورغـم سـاعات السّـهر الطويلـة والمرهقـة، والمسـامرة مـع تاريـخ والـده البديـع، فقـد أدّى مرافعاتـه بحماسـته المعتـادة وأكـثر. لعلّـه كان أكـثر حـدّة وأمـضى لسـانا؟

حـين أنهـى دوامـه في قاعـة المحكمـة، ابتسـم للرّسـالة الصوتيّـة الـتي كانـت في انتظـاره. أصبحـت تلـك الرّسـائل ترسـم مسـار يومـه، تتحكّـم في مزاجـه، تسـتنفد طاقتـه أو تبثّـه مخزونـا منهـا، حسـب محتواهـا. وقـد كان في حاجـة إلى دفعـة منهـا وقـد اسـتنزفته مرافعـات الصّبـاح.

facebook.com/groups/exchange.book

facebook.com/groups/exchange.book

لـم أنـس كارمـن حـتى مـع انهمـاكي الشـديد في العمـل، وكنـت أتحـيّن فرصـة مواتيـة للتسـلل خـارج القبـو والبحـث عنهـا. حـين يرخـي الليـل سـتارته السـميكة، أنسـحب خلسـة تـاركا جـيراني غارقـين في عميـق النـوم.

أقول لم أنسها.. لكنّي نسيتها!

ألـم أمـض مـن دونهـا حـين امتـدّت إليّ كـفّ جابـر وقـد غيّبتهـا عـني فـورة الأمـل المفاجئـة؟ ألـم أتكاسـل عـن البحـث عنهـا متعلّـلا بإصابـتي؟ كلّ ليلـة، أتسكّع في الشّـوارع محدّقـا في الوجـوه، أبحـث عـن وجههـا. أتفـرّس في معالـم الشـوارع وأحفـظ خارطـة المدينـة. حـين توشـك الشـمس عـلى الطلـوع أعـود أدراجـي خائبـا. ألـم أكـن أحتـاج قسـطا مـن النّـوم؟ بـلى كنـت! لكـنّ صداعـا مريـرا أصبـح يلازمـني في الأسـابيع الأخـيرة.. وقـد كنـت أدرك جيّـدا مأتـاه.

في هـدأة ليـالي القبـو، بـدأت أستشـعر ذلـك الوجـود الدّخيـل بداخـلي. كان الجسـم المخروطـي المعـدن قـد اسـتيقظ مـن سـبات سـنوات. في رأسي رصاصـة.. لا بـل عـشر رصاصـات. أصبحـت أسـمع طنينهـا مـن حـين لآخـر، وشقشـقتها حـين أهـزّ رأسي. لقـد أعلنـت عـن نفسـها أخـيرا! وحـين أضـع رأسي باحثـا عـن النّعـاس، تنشـط حركتهـا فجـأة، تمثّلهـا لي تهيـؤاتي دودة تحفـر في تلافيـف دماغـي وتتجـوّل في ثنايـا جمجمـتي! وكلّمـا انكفـأت عـلى نفـسي أكـثر كلّمـا تزايـد إحسـاسي بحضورهـا المقيـت.. مؤلمـة حـدّ الخـدر، مزعجـة حـدّ الجنـون. كان الهـدوء صديقهـا الحميـم. في حضـوره تغـدو يقظـة ونشـطة. لذلـك كنـت مضطـرا إلى حركـة مسـتمرّة بالليـل والنّهـار.. والبحـث عـن كارمـن كان ذريعـة مناسـبة. عنـد الفجـر، أجـرّ قدميّ حـتى القبـو الذيـن غـطّ سـكانه في نـوم أصحـاب الكهـف. أوسّـع لجسـدي المنهـك مكانـا بـين الأجسـاد المسـجّاة كأنّ الحيـاة قـد فارقتهـا، وأنهـار مثـل القتيـل. أغيـب لسـاعتين، بـلا أحـلام أو

facebook.com/groups/exchange.book

رصاصـة.. ثـمّ أفيـق لأسـتقبل نهـار عمـل جديـد.

دأبـت عـلى الخـروج كل ليلـة، حـتّى تعـوّدت عـلى شـوارع المدينـة وألفتهـا، ومـا عـدت أتـوه بسـهولة. وألفـت سـكون الليـل وكرهتـه، فأختـصر سـاعاته بالتّسـكع حـتّى تـدبّ الحيـاة في شـوارع ليـون. عرفـت طريـق محطـة المـترو، فـصرت أقصـد كل مـرّة محطـة مختلفـة، علـني أعـثر عـلى كارمـن متكـوّرة عـلى نفسـها مثـل جـرو صغـير في مدخـل أحـد الأنفـاق المظلمـة. لكـن الخيبـة كانـت حليفـي لوقـت طويـل.

في عتمـة شـوارع ليـون، تـراني هائمـا عـلى وجهـي.. مثـل شـبح بعينـين غائرتـين وهـالات سـوداء محفـورة تحفّهـا، وسـحنة رماديّـة قاتمـة. خلايـا دماغـي تـصرخ طالبـة راحـة لـم أكـن لأطالهـا! نظـام حيـاتي لـم يعـد بشريّـا.. بـل قصاصـة مـن حكايـا الرّعـب الـتي أدمنتهـا مراهقـا. ألـم أكـن أريـد أن تشرّفـني الرّصاصـة بحضورهـا؟ فهـا إنّهـا قـد كفـت ووفّـت!

وفي إحـدى الليـالي، بينمـا كنـت أسـير في الشـارع عـلى غـير وجهـة، ظهـر أمامـي وجهـه عـلى حـين غـرة. القرصـان! كان الوجـه وجهـه، النظـرة نظرتـه، العـين اليمـنى ترمـش في توتـر كعادتهـا، أمـا العـين اليـسرى، فسـليمة معافـاة تحـدّق فيّ عـلى غـير عادتهـا! طالعتـه لبرهـة متفرسـا. كان يلبـس بذلـة أنيقـة وربطـة عنـق، وأطرافـه كاملـة تتحـرّك في رشـاقة. كـدت أجـزم بأنـه شـبيه أو تـوأم، لـولا نظـرة المفاجـأة الـتي ارتسـمت عـلى ملامحـه وحسـمت الشـك باليقـين. كنـت أمـام الوجـه الآخـر للقرصـان. وجـه يشـع عافيـة، يتأبـط ذراع فتـاة تلبـس كعبـا عاليـا وفسـتانا قصـيرا ضيقـا يكشـف عـن مفاتنهـا. لـم أتعـرّف عليهـا للوهلـة الأولى، وقـد شـكّلت لهـا الأصبـاغ وجهـا غـير الـذي عرفتـه.. كارمـن!

في لحظـة، تبـدّت لي الحقيقـة واضحـة كعـين الشـمس. كارمـن الصغـيرة البريئـة كانـت الضحيـة التاليـة لمشـاريع القرصـان الليليـة. كانـت المـادة الخام المناسـبة، عـذراء مرتبكـة، بكمـاء متفتحـة الأنوثـة. أسـبل عليهـا لبـاس الإغـراء

facebook.com/groups/exchange.book

ومضى بها إلى حيث ينتظرها زبون ما. هذا ما كانت تخفيه الصغيرة ولا تجرؤ على البوح به. فرّت من مكمن العصابة حين تجلّت لها نواياه تجاهها، لكنه ما لبث أن عثر عليها بعد أن غفلتُ عنها ومضيت باحثا عن رزقي من دونها. فارت الدماء في رأسي وتملكتني الحميّة، كأنّ الصبيّة بعض أهلي. انقضضت على القرصان - الذي لم يعد قرصانا - في غيظ، ألكمه وأركله.

تصارعت مع الرّجل برهة من الزّمن وقد أبدى مقاومة وبأسا لا يستهان بهما. لم يلفت مشهدنا انتباه أحد في الشّارع. نتدافع ونتجاذب ثمّ نسقط على الأسفلت وترتطم أطرافنا بالجدران أو بقبضات بعضنا البعض، ولا أحد يحاول إيقاف مشاحنتنا الضارية، كأنّنا بعض السّكارى المتهوّرين.. لا نثير حفيظة أحد أو اهتمامه. في ظروف عاديّة، كنت لأصمد وأمنّي خصمي بهزيمة نكراء.. لكنّني كنت قد غدوت مجرّد بقايا، أشلاء رجل تذوي شعلته خلال ساعات عمل طاحنة، وليل يقظ لا نصيب فيه للرّاحة. على حين غفلة، عاجلني بضربة قاصمة كادت تقسم ظهري نصفين. هويت على الأرض أتلوّى، ورأيته يقف عنّي متراجعا، يمسح ما سال من دماء وجهه وكرامته. لقد كُشف أمره ولم يعد من الآمن له الوجود في الجوار. زمجر محذرا:

- إن كانت الفتاة تهمّك، خذها.. وحذار أن أرى وجهك مجدّدا..

لمحته بطرف عيني المتورّمة ينسحب مبتعدا، في حين انحنت عليّ كارمن باكية، من دون صوت. ابتسمت مهوّنا، متجاهلا أنين عظامي المسحوقة. لقد أنقذت الصّغيرة، وهذا كافٍ. ساعدتني على الوقوف بكفيّها الصغيرتين وسارت تسندني بقامتها النحيلة. كانت أطول ممّا عهدتها.. الكعب العالي كان يجعل رأسها يصل إلى كتفي. بعد بضع خطوات، وقفت متردّدا.. ما الذي سأفعله بها؟ أين يمكنني أن آخذها؟ لم يعد من الممكن أن أخلّفها في الشارع، بشكلها المغري ذاك، فتنهشها الكلاب البشرية، ولم يكن واردا أيضا أن آخذها معي إلى القبو، حيث رجال لم تدخل عليهم أنثى منذ

facebook.com/groups/exchange.book

دهـر! شـعرت الفتـاة بحـيرتي فشرعَـت فجـأة بالبـكاء. لـم تكـن ترغـب حتمـا في البقـاء وحدهـا مجـدّدا.

- لا تبكي.. لن أتخلى عنك!

أقعينـا مثـل جروبـن عنـد نافـورة عامّـة.. أنـا أغسـل جراحـي وهـي تغسـل أصباغهـا. ثـمّ نثرنـا رذاذ المـاء في شـغب. تأمّلتهـا مأخـوذا وهـي تعـود طفلـة، بعـد أن تجلّـت امـرأة لبعـض الوقـت وهـي تتأبـط ذراع القرصـان. مـن دون تفكـير، نزعـت عـنّي السـترة الجلـد الـتي لـم أكـن أتركهـا قـط في نومـي ويقظـتي، وألقيتهـا عليهـا. فكّـرت أنّ عمـر لـو كان حـاضرا معنـا لـكان فعـل الـشيء نفسـه. كنـت راضيـا عـن نفـسي، وأنـا أراهـا تضمّهـا حـول جسـدها الضئيـل وتسـتعيد ابتسـامتها. جلسـت بعـد ذلـك عـلى الأرض وقـد ثقـل رأسي فجـأة. أسـندته إلى جـدار النافـورة المنخفـض وأغمضـت عينـيّ لوهلـة.. أفكّـر في مـا سـأفعله، ثـمّ غفـوت.

حـين فتحـت عينـي، لـم يكـن هنـاك أثـر لكارمـن. كنـت قـد نمـت لوقـت طويـل.. طويـل جـدّا.. أطـول ممّـا فعلـت الأسـبوع المـاضي كامـلا! حـتّى رصاصـتي لـم تحـدث ليلتهـا طنينـا يسـلبني النّعـاس. وكانـت تلـك الصغـيرة الشـقية قـد اختفـت مـن دون أن تعلمـني بمكانهـا مـن جديـد.

تماسـكت ليومـين.. ثـمّ عـادت الأعـراض السّـالفة. الرّصاصـة، ذلـك الكائـن الطفيـلي السّـاكن فيّ.. كانـت آلامهـا تفاجئـني مـن حـين إلى آخـر. ألـم ملـحّ مثـل أزيـز يقطـع التيّـار عـن أطـرافي، فتستسـلم فجـأة وتنهـار بـلا حركـة، ليقـع مـا بـين يـديّ في الحـال، سـواء كان كيـس رمـل أو إسـمنت أو قطعـة آجـر! وتخونـني رجـلاي فـلا أقـوى عـلى الاسـتمرار واقفـا.. فأتربّـع عـلى الأرض في قلـة حيلـة حـتّى تنقـضي النّوبـة.

facebook.com/groups/exchange.book

وكلّما تهاويت، كان المشرف السّمين يظهر من خلفي على حين غفلة مثل مارد القمقم، يصرخ ويعنّف:

- تحرّك يا حمار! تحرّك يا بغل!

أتمالك نفسي، وأجبر أطرافي على لملمة خلاياها العصيّة، وأتحامل لأبدو كتلة واحدة لم تتقطّع أوصالها. أطبق أسناني بقوّة لأطرد الألم، وأهزّ رأسي علّ الأشواك التي غرزت في جنباته تفلته! خارطة الألم تختلف حسب وقت النّهار.. تبدأ أعلى العنق في الصّباح، ثمّ تسرح مثل دبيب النمل، لتغمر فروة الرأس كاملة، وفي آخر النهار تأخذ في الحفر عميقا نحو تلافيف الدّماغ، تتقدّم وتنهش، مثل قارض يلتهم رأسي! لو كتبت جملة واحدة لأصف كلّ ساعة ألم مرّت بي، لتكدّست الأوراق إلى ما لانهاية! ولمللت أنت من سيمفونيّة الألم التي تمضي على لحنها حكايتي.. ولست ألومك! فحديث الألم مقيت حتّى عند قارئه.. وحديث الألم لن يخفّف شيئا من عذاب صاحبه.

في ذلك اليوم، هوى رأسي من عليائه ولم أقو على رفعه مرّة أخرى. ملأ فمي مذاق التّراب وسالت قطرات دم مالح من جرح شفتي. كنت أسمع حفيف الإسمنت وهو ينهمر في سخاء من ثقب الكيس الورق الذي تمزّق مع سقطتي، ووقع الخطوات المضطربة التي تتحرّك حولي، أصوات بعيدة عميقة تنادي باسمي، والمشرف يرعد ويزبد في سخط لا حدود له:

- ماذا فعلت يا غبي؟ ستدفع ثمن الإسمنت المهدور!

ثم فقدت الوعي.

facebook.com/groups/exchange.book

بعـد أن فقـدت الوعـي بلحظـات، فقـدت عمـلي! المـشرف أعلـن وأنـا في غيـاب كامـل أنّي لسـت صالحـا للتحميـل، ومـن الأفضـل ألا أطـأ أرض الورشـة مجـدّدا. تعـاون بعـض العمّـال عـلى نقـلي جثـة هامـدة مـن مـكان الحادثـة، وحاولـوا بشـتّى السّـبل إيقاظـي مـن غفـوتي.. حـتّى صحـوت عـلى أزيـز يشـغل موجـة أذنيّ. جمعـت شـتاتي ومضيـت إلى القبـو مطـرودا. قبعـت لصـق الجـدار أنتظـر المـوت، أو رفـاق السّـكن، أيّهمـا يصـل أوّلا!

اسـتمرّت رصاصـتي تؤنـس وحـدتي بنفـس عنتهـا الصّفيـق، يطغـى وجودهـا عـلى كلّ حـواسّي. هـززت رأسي بقـوّة محـاولا صرف حضورهـا الدّخيـل، مـن دون جـدوى. احتضنـت رأسي بـين كفـي وأخـذت أدلكـه بأطـراف أصابعـي في حركـة دائريـة. سـاورني بعـض الارتيـاح حـين تسـلل الخـدر إلى فـروة رأسي بفعـل التدليـك المسـتمرّ. لكـن مـا أن اسـتقرّت حركـة أصابعـي، حـتى شرعـت الرّصاصـة في الانتقـام! أشرعـت مخالبهـا في دماغـي وراحـت تنهـش بـضراوة. فقـدت عقـلي، وسـيطر عـليّ هـوس فتـح جمجمـتي وإخراجهـا! قـد أمـوت، لكنّـني سـأخرجها أوّلا! فلأمـت إذا كان المـوت هـو سـبيل الخـلاص الوحيـد! أخـذت أضرب جبهـتي عـلى الجـدار بقـوة مطّـردة، حـتّى شـججته، ومـا همّـني مشـهد الدّمـاء الـتي سـالت حـتّى مـلأت وجهـي وأغشـت عينـيّ!

دخل عليّ جابر وعزّوز وقاسم وأنا على تلك الحال المفجعة.

- ما باله؟ هل جنّ؟

طوّقتـني الأذرع وأبعدتـني عـن الجـدار ولـم تهـدأ نوبـة جنـوني العنيفـة. كنـت أهـزّ رأسي في جميـع الاتجاهـات وألهـث مثـل كلـب مسـعور. وصـوت جابـر يعلـو بالـصّراخ ولا يتسرّب شيء مـن كلماتـه إلى فهمـي! ثـمّ قبـض عـلى فـكّي ليوسـع مـا بـين لحـييّ، ودسّ حبّـة بيضـاء دائريّـة وأطبـق عليهـا لتـذوب عـلى لسـاني.. بعـد لحظـات، كنـت أهـدأ وأغـرق في عالـم النّـوم.

- هل تشعر بتحسّن؟

بعـد بضـع سـاعات، كنـت أفتـح عينـيّ، حيّـا.. وقـد اسـتعدت شـكلي الآدمـيّ.

facebook.com/groups/exchange.book

كان جابـر قـد مسـح دمـائي وضمّـد جرحـي. التفـتّ إلى مصـدر الصّـوت، لأمـيّز في الظـلام وجـه عـزّوز. شـابّ تونـسيّ يكـبرني ببضـع سـنوات. هـززت رأسي علامـة الإيجـاب، وتنهّـدت.. ثـمّ ران الصّمـت مـن جديـد. سـكت الرجـل قليـلا ثـم همـس:

- الحبوب المنوّمة ليست حلّا.. يجب أن تدرك مكمن الدّاء وتعالجه..

لم أعلّق. كنت أدرك مكمن الدّاء جيّدا.

- ربّما تكون ممسوسا؟

نعـم، أنـا كذلـك. لقـد مسّـني الـضّرّ.. لكـن ليـس بالمعـنى الـذي قصـده صاحـبي.

- هـل رأيـت كيـف كنـت تتخبّـط بجنـون؟ أكاد أجـزم أنّ مـا بـك مـسّ.. أعـرف شـخصا قـد يسـاعدك. شـيخ يعالـج بالقـرآن الكريـم، يسـافر إليـه النـاس مـن كل مـكان.. هـو الوحيـد القـادر عـلى شـفائك.

هززت رأسي من دون أن أعلّق.

منـذ سـنوات خلـت، كانـت تفاجئـني مـن حـين إلى آخـر نوبـات صرع. أهـتزّ عـلى الأرض وتتخبّـط أطـرافي، وتتـسرّب رغـوة بيضـاء مـن جانـب فمـي، وأكاد أفقـد الوعـي. ثـمّ أهـدأ تدريجيّـا وتذهـب عـنّي الرّعشـة. وفي كلّ مـرّة، كانـت أمّـي تأخـذني إلى شـيخ البلـدة، فيرقيـني ويتلـو القـرآن بينمـا أجلـس عنـد قدميـه. ثـمّ تغيـب النّوبـة شـهورا، وربّمـا سـنوات.. قبـل أن تعـاود الظهـور عـلى نفـس الهيئـة والتّفاصيـل. قـال الشّـيخ إنّ صدمـة مقتـل أبي أمـام عيـنيّ بلبلـت روحـي.

لكنّني بتُّ أعتقد الآن أنّ الرّصاصة قد فعلت.

facebook.com/groups/exchange.book

أدمنت الحبوب المخدّرة.

كنت مدمن سجائر في سابق أيامي. أدخّنها بشراهة، مثل مدفأة قديمة تلتهم الحطب طوال الليل، فلا تبقي ولا تذر. أفني كلّ ما تطاله يدي من نقود في سبيلها. اكتشفت منذ أيام الغربة الأولى كم كان من السّهل الإقلاع عنها في غيابها. كلّ الأمور الصّغيرة التي بدا لي سابقا أنّ حياتي تتوقّف عليها، أثور وأعربد إذا ما استعصى حضورها، أصرخ في وجه أمّي وأعتزل أخواتي، حتّى يرضخن ويقتطعن من مصروف بيوتهن لأنال مطلبي، أنا رجل البيت المدلّل.. كم كانت ثانوية وضئيلة الشّأن في لحظات الألم التي تتساوى فيها الحياة بالجحيم.

حصلت على علبة حبوب من جابر. كان يستعملها بشكل متقطّع، كلّما جافاه النّعاس.. لكنّني لم أكن مقتصدا في استهلاكها. حبّة وأحيانا اثنتان مع كلّ وجبة. حين تدحرجت الحبة الأخيرة حتى استقرّت في راحة يدي تملّكني الفزع، لم يبق معي غيرها! يجب أن أحصل على المزيد. لم أكن قد دفعت ثمن العلبة بعد، لكنّني استنفدتها بسرعة رهيبة.

- أريد الحبوب..

عاجلته في لهفة ما أن ظهر خياله عند مدخل القبو.

- أيّ حبوب؟ لقد أعطيتك كل ما عندي. وأذكرك بأنك لم تدفع ثمنها بعد!

- سأدفع.. سأدفع.. لكنني أحتاجها.. أحتاجها الآن!

زفر جابر في نفاد صبر ثم قال وهو يخرج علبة من جيبه:

- أنت تسير نحو الإدمان. سأعطيك حبتين الآن، لكنها ستكون المرّة الأخيرة.

وضع الحبتين في كفّي فحملتها إلى شفتيّ على الفور وابتلعتها من دون انتظار.

facebook.com/groups/exchange.book

- لا يمكنني أن أعطيك غيرها بعد الآن.. لا تعتمد عليّ.

تنهّدت ما أن خلوت بنفسي. لم تعد الحبوب تنفع. الألم غدا أكبر وأعتى من بضع حبوب مخدّرة. كان عليّ إجراء الجراحة التي قد تفقدني البصر. بين فقدان بصري وفقدان حياتي، كانت الكفّة ترجح بسهولة.. بدت حياة الكفيف فجأة مغرية بشكل لم يخطر لي ببال من قبل! لكن حتّى ذاك الخيار ما عاد متوافرا.. من أين لي بتكلفة العمليّة؟ كان عليّ أن أغتنم الفرصة وأنا في مركز المفوّضية. لم أكن أدرك حينها أنّ الأمور قد تسوء بهذا القدر.

هل تعرف ما مشكلة هذه الحياة؟ أنّنا نعيشها مرّة واحدة! أخطاؤك وهفواتك، سقطاتك وذنوبك.. قد تكرّرها عن غباء وسفاهة أو تكبّر وجهل.. لكنّك لا تملك الرجوع إلى الوراء في خطّ الزّمن لتمحوها وتغيّر أثرها. آلة الزّمن حلم راود البشرية منذ عقود. لم يكتب له التحقق في زماني.. ربّما يكون جيلك أوفر حظا!

الفرج لاح على غير موعد، حين كرّر عزّوز اقتراحه ذاك المساء:

- الشيخ المختار طيّب القلب، سخيّ مع الغرباء.. بيته عامر ورزقه وافر. سيؤويك حتّى ينتهي علاجك.. وقد يعالجك مجانا بعد أن تتبيّن له حقيقة حالك..

لم يخف عليّ أنّي قد غدوت عالة على رفاق السّكن من جديد. ما أن سدّدت الدّيون القديمة، حتّى بدأت الدّيون الجديدة تتراكم.. والفرص ضئيلة هذه المرّة في تدبّر أمر العمل. كان لا بدّ من أن أرحل.. مهما كانت الوجهة. برقت الفكرة في رأسي. الشيخ.. لعلّه لن يشفيني من مسّ موهوم، لكنّه قد يدفع كلفة عمليّة استئصال الرّصاصة! وماذا بعد أن أغدو كفيف البصر؟ أقصد الحرس مستسلما ليتمّ ترحيلي إلى وطني؟ غمرني التفكير بالكآبة.

facebook.com/groups/exchange.book

facebook.com/groups/exchange.book

الثلاثاء ١٨ ديسمبر ٢٠٣٥، الثانية بعد الظهر.

دلف خليل إلى المكتب بخطوات متثاقلة، وأفكار منهكة تتوغّل في عقله وتشغل وعيه. نادر الشاوي يهوي نحو منحدر جديد، ومزاج خليل الشّاوي يُفلت من السّيطرة. كان في حاجة إلى شيء يرفع معنويّاته وينعش يومه. ليس هذا! ليس هذا! ها إنّ الرّجل قد خسر وظيفته، وعاد إلى خانة البداية. أليس هناك من أمل تزفّه إليه هذه الرّسائل؟ حالما لمح الحافظة بين يدي السكريتيرة، تذكّر أمر الفتاة. مريم. عبس وهو يتجاوزها في اتّجاه مكتبه. ليس مستعدًا للاعتذار.

- أستاذ دانيال.. وصل أوّل موعد.

رنّ صوت جانيت عبر الهاتف الدّاخلي.

- نعم، دعيه يدخل.

ينغمس في الأعمال التي يجيدها ويألفها، ويشغل ذهنه عن هواجسه الجديدة. مضت ساعات الظّهيرة على الوتيرة المعتادة ذاتها، مقابلة العملاء وتحضير المرافعات، اتّصالات مع الفنّيين والخبراء. أكثر من مرّة، في فترات خلوّ المكتب من الزوّار، كان يتوقّف عمّا يفعله ويتأمّل الرّقم المدوّن على الشاشة، يفكّر في الاتّصال، ثمّ سرعان ما ينحّي الفكرة من رأسه بإصرار. لقد جلبت الشّكوك لنفسها بتصرّفها المتغطرس وهويّتها المزيّفة. ثمّ ما الذي سيعنيه اتّصاله؟ هل سيكون عليه التكفير عن سوء ظنّه وقبول القضيّة؟ يعلم أنّ اتّصاله سيورّطه في أكثر من مجرّد اعتذار. ستجد الكلمات المناسبة لتغرقه في إحساس مقيت بالذّنب، فيرضخ لابتزازها العاطفيّ!

لم تصله أيّ رسائل صوتيّة إضافيّة. تساءل إن كانت أمّه قد زهدت في التّرجمة، أم أنّ الإنهاك قد نال منها أخيرا بعد أيّام من العمل الحثيث

facebook.com/groups/exchange.book

عـلى الرّسـائل؟

زفــر حــين أنهــى الموعــد الأخــير، ارتــدى معطفــه وســار باتّجــاه صالــة الاســتقبال، مبكّــرا عــلى غــير عادتــه. رمقتــه جانيــت في دهشــة.

- أنت بخير أستاذ دانيال؟

- أعاني من بعض الإرهاق.. سأنصرف مبكّرا اليوم.

أومأت في تفهّم، بينما توجّه إلى المصعد في وجوم.

تحرّكـت أمّ خليـل أمـام موقدهـا، تحـضّر وجبـة العشـاء الـتي لـن تتناولهـا منفـردة هـذا المسـاء أيضـا، بينمـا انغمـس خليـل في تدويـن كلمـات مطمئنـة لسـيلين الـتي -لا شـكّ- تتقـد غضبـا مـن سـلوكه الغامـض والمتباعـد هـذه الأيّـام. سـهرة أخـرى يمضيهـا خـارج البيـت. نمّـق الرّسـالة بمـا أمكنـه مـن عبـارات الـودّ، علّهـا تخفّـف ثورتهـا.

«عزيزتي.. سأتأخّر عند أمّي.. لا تقلقي بشأني.. أحبّك».

وقـف مـن مكانـه، وألقـى نظـرة عـلى أمّـه الـتي تعمـل بهمّـة في مطبخهـا. نـدّت عنـه تنهيـدة عفويّـة مـن دون انتبـاه، فالتفتـت إليـه بنظـرة مجهـدة. تسـاءل، هـل كانـت تشـعر مثلـه، بتجويـف في الـرّأس، يرتـع عـبر مسـاحته مقـذوف رصاصـة مـا؟ كان مأخـوذا بتلـك الفكـرة، رصاصـة نائمـة لا يـراودك أدنى شـكّ في وجودهـا، ثـمّ تسـتيقظ يومـا عـلى أصواتهـا الصّاخبـة! أيّ جحيـم هـذا؟

مـاذا الآن؟ هـل تحـرّك تعاطفـه أخـيرا مـع هـذا الأب المنكـوب؟ يـزمّ شـفتيه فاصـلا بـين خيـوط المشـاعر المتضاربـة الـتي تتنازعـه. لـو كان النـصّ يخـصّ شـخصا آخـر، أيّ شـخص كان، فإنّـه لا شـكّ يثـير الشـفقة ويسـتدرّ الدّمـع.

facebook.com/groups/exchange.book

فلماذا يضنّ على رجل من المفترض أنّه سبب وجوده في هذا العالم بمشاعر مماثلة، أو بالقليل منها؟

يشرع في ترتيب الأفكار في ذهنه بدقّة ووضوح، كما يفعل في قضاياه: قد تكون الهجرة غير الشرعيّة وما تبعها من تجاوزات محلّ لوم.. لكن تلك الرّصاصة الغادرة، لا ذنب له فيها. ثمّ ماذا لو لم يعبر المتوسط ولم يخض تلك المجازفة، هل كان هو ليصل إلى الضّفة الأخرى؟ هل كان ليعيش الحياة المرفّهة نفسها؟ يمتهن المحاماة، يفتتح مكتبا ويترشّح لانتخابات البرلمان الفرنسيّ؟ أم كان ليرث تعاسة أب قابع على ناصية المقهى وتُزيّن شهادة جامعيّة بلا قيمة جدران حياته؟ يُسكت الأصوات التي تُدين قسوته، ويردّ عليها بضراوة: كان ليعيش حياة متّسقة مع نفسها، تتماشى فيها هويّته مع محيطه وظروفه. لم يكن ليتساءل لماذا يحمل هذا الاسم المختلف، ويُسأل باستمرار عن «أصله» كأنّه فرنسيّ مزيّف!

- أدرك كيف تشعر.

يلتفت إليها غير قادر على قمع انفعاله وردّه إلى داخله. ينفجر:

- أحقّا تُدركين؟ لأنّني لا أعرف ما الذي أشعر به الآن حقّا! أعلم أنّ العالم لا يُحكم بالعدل. هناك أشخاص تُعساء يعيشون في جنوب الكرة الأرضيّة.. بينهم حروب أهليّة وحياتهم دمار.. وأناس في شمالها، مستقرّون وهانئو البال. وأنا لا أعرف إلى أيّهم أنتمي! لقد عشت طيلة حياتي أحاول أن أجد لي مكانا بين أهل الشّمال، متجاهلا الجذور التي تشدّني إلى الجنوب. كنت أقنع نفسي بأنّ الخيط الذي يربطني بذلك الأصل قد انقطع وتلاشى. أنا فرنسيّ كما يجب أن يكون الفرنسيّ الحقّ.. ثمّ تأتين بعد كلّ هذه السّنوات، لتقولي لا. أنت لست كذلك. جذورك حقيقة. معاناة أبيك، حربه الأهليّة، هجرته وتشرّده، كلّ هذا ميراثك الذي لا فكاك منه! وما الذي أفعله بهذا الميراث، هاه؟ أعلّقه في صالة المكتب؟

facebook.com/groups/exchange.book

أؤلـف بشـأنه شـعرا ونـثرا؟ هـل يختلـف إحسـاسي بمـن أكـون حـين أعـرف أنّ أبي كان عـلى غـير مـا ظننـت؟

سـكت مـن دون أن تهـدأ الثـورة في عينيـه. لـم تكـن إلا البدايـة، ومـا يختفـي في الأعمـاق أعظـم.

- أعلم فيمَ تفكّر..

رفع كفّيه إلى السّماء غير مصدّق. مرّة أخرى. إنّها تعلم، هاه!

- أنـت لا تصـدّق، ولكنّـني أعلـم. سـتدرك أنّـني أعلـم.. حـين ننتهـي مـن الرّسـائل كلّهـا. أمّـا مـا سـتفعله بميراثـك وتاريخـك.. فهـذا مـا سـتقرّره أنـت. لـن يكـون الأمـر هيّنـا. ليسـت شـكّة دبّـوس تتـلاشى خـلال ثـوان. لكـنّ شـيئا مـا بداخلـك سـيدفعك باتّجـاه مـا.. سـينبعث الطريـق مـن تلقـاء نفسـه ويشـدّك إليـه. لا تنظـر إليّ هكـذا.. لقـد عشـت تجربـة مشـابهة، وقـد كان هنـاك صـوت وشـوش في أذني، فاتّبعـت الطريـق. حصـل ذلـك مـرّات عـدّة. وفي كلّ مـرة كان هنـاك اختيـار جديـد. حـتّى وصلـت إلى هنـا، إلى هـذه الجلسـة بيـني وبينـك، ونحـن نقـرأ رسـائل عمرهـا ثلاثـون سـنة.

تنهّـد. لـم يكـن يفهـم. لكنّـه سـيحاول أن يصـل إلى مرحلـة الفهـم في نهايـة الرّحلـة. تنـاول الهاتـف وسـجّل رسـالة جديـدة لسـيلين. «سـأبيت عنـد أمّـي الليلـة، إنّهـا متعبـة قليـلا. أحبّـك». ثـمّ التفـت إلى أمّـه الـتي راقبتـه مشـدوهة وقـال في تصميـم:

- فلننه هذه الرّسائل اللّيلة، ما رأيك؟

facebook.com/groups/exchange.book

أراني مجـدّدا، أتّخـذ مجلسـا نائيـا في نهايـة الحافلـة الخاصّـة الصغـيرة وقـد أجلسـت كارمـن إلى جـواري في حـرص. كانـت الطفلـة قـد ظهـرت ليلـة رحيـلي، كأنّمـا أدركـت بغريـزة مـا أنّـه الوقـت المناسـب. حـين خرجـت ذلـك المسـاء أقتفـي أثـرا ممكنـا لمرورهـا، انبثقـت في الظـلام وشـدّت كـمّ قميـصي. فانضممـت وإيّاهـا في عتمـة الليـل إلى سرب الطيـور المهاجـرة خلسـة في اتّجـاه الشـمال.

حـين اسـتقرّ ركاب الحافلـة العـشرة في مقاعدهـم، ضغـط السّـائق عـلى دوّاسـة الوقـود. سنسـافر طـوال الليـل، كأننـا نفـرّ عـلى غفلـة مـن الأعين. يشـقّ عـليّ ذاك الرّحيـل الشـبيه بالطـرد! رحيـلي يعـني نهايـة العمـل في الورشـات وتفريطـا لا رجعـة فيـه في مسـكن القبـو. وتبـدّى لي القبـو العفـن الـذي آواني في الشـهور الماضيـة نعمـة غاليـة في تلـك اللحظـة.. نعمـة لـم أسـتطع المحافظـة عليهـا!

حـين طلبـت مـن عـزّوز أن يدلّـني عـلى الشـيخ المعالـج، أخـبرني بأمـر الحافلـة الخاصّـة الـتي يؤمّـن صاحبهـا رحـلات دوريّـة إلى المـكان المقصـود. لـم يشـكّل فرقـا أنّ يكـون الرّجـل مهرّبـا محترفـا، لا يعنيـه الترخيـص الحكومـيّ وزبائنـه عـلى شـاكلته، يتجنّبـون خطـوط السـفر المبـاشرة تفاديـا لدوريّـات الشرطـة! وكان ذلـك يناسـبني.. فكلّنـا في مراوغـة القانـون سواسـية.

فتحـت عينـيّ عـلى ملمـس كـفّ كارمـن وهـي تشـدّ أصابعـي في إلحـاح. كانـت الحافلـة قـد قطعـت مسـافة لا بـأس بهـا وشـارفت عـلى الوصـول إلى وجهتهـا النهائيّـة. كنـت متوتـرا ومرهـق الأعصـاب، لكـن الآلام كانـت خفيفـة وحفيـف الرّصاصـة فاتـرا تلـك الليلـة. نظـرت مـن النّافـذة الجانبيـة حيـث أشـارت كارمن. كان ضـوء النهـار قـد بـدأ يتسـلل وأخـذت معالـم المبـاني الـتي تحـفّ الطريـق

facebook.com/groups/exchange.book

تتضح. تعلقت عيناي بلافتة عريضة تعلو الطريق السيّارة التي تقطعها الحافلة. باريس. لم تمرّ دقائق قليلة حتى سمعت صوت السائق الأجش وهو يوقظ الركاب:

- وصلنا إلى باريس. وصلنا يا أهل الخير.

ومع ارتفاع الشمس ببطء في الأفق، دبّت الحياة في ركّاب الحافلة ثم بدؤوا النّزول تباعا، كل في العنوان الذي يريد.

عندما توقفت الحافلة في محطتها النّهائية، تبعت السّائق إلى خارجها، أحمل متاعي القليل الذي استقر في بطن حقيبة عمر السوداء، تتبعني كارمن بخطواتها الخجولة. قطعنا الشارع ثم مشينا واحدا إثر الآخر، عبر حديقة نضرة تحفها بنايات قديمة متطاولة. كانت مظاهر الحياة العائليّة اليومية قد أخذت تدبّ في المكان بشكل ممتع لعينيّ، وقد كدت أنسى أنّ هناك مجتمعا يعيش ويتنفّس خارج أسوار الورشة وفوق غياهب القبو. أطفال رضّع يتسلّل صياحهم عبر الأبواب المغلقة، وحبال غسيل ما زالت تقطر ماء في شرفات الشقق المرتفعة، وروائح الخبز المحمّص والقهوة السّاخنة تعبق من مطابخ أرباب عائلات يستعدّون لبدء نهار عمل جديد. شعرت بكفّ كارمن تمتدّ لتتشبّث بذراعي. استدرت لتطالعني بابتسامة جذلة. كانت سعيدة بما ترى هي الأخرى.

عند مداخل البنايات، لمحت مجموعات من الشبّاب والمراهقين العاطلين، يتجمّعون في تلك السّاعة الصباحيّة لتدخين سيجارة ولعب الورق.. هالات أعينهم توحي بأنّ أحدهم لم يأو إلى فراشه تلك الليلة. راقبتهم في حذر وأنا أتذكّر اقتحامي السّابق للحيّ الشعبيّ في مرسيليا. لم يطاردنا أحدهم بالسّباب هذه المرّة ولم يحاول أيّ منهم إخافتنا بحركة أو إشارة. بل بدرت عنهم تحيّات مسالمة ونظرات متواطئة تبادلوها مع مرشدي. حين وصلنا إلى العمارة الأخيرة في آخر الحديقة، قادنا الرّجل إلى مدخل خلفي يفضي إلى سلّم حجري ينزل تحت الأرض وقال:

facebook.com/groups/exchange.book

- هذا هو المكان.

وقفت لبرهة متردّدا بعد أن انصرف الرّجل. لم أقدر على مواجهة عيني كارمن، لكنها فهمت تردّدي. أشارت إلى الغابة الكثيفة التي ترتفع حشائشها مشرفة على سور المجمع السكنيّ، ففهمت مقصدها. ستختبئ هناك ريثما أخاطب الشّيخ. تمنيت أن أملك القدرة على ثنيها عن عزمها، لكنّني عجزت. فكّرت أنّ اقتراحها مناسب للوضع. فلتختبئ في الغابة لبعض الوقت، حيث يمكنني أن أجدها وأمدّها بوجباتها خلسة، ريثما أمهّد للأمر مع الشّيخ.. إن لمست منه كرما وسماحة حدّثته بشأنها، وإلا فلتكن الأولوية لرصاصتي!

لوّحت لي كارمن بكفّها الصغيرة بعد أن رفعتها فوق الجدار، ثمّ قفزت إلى الجانب الآخر لتغيب في الظلال. التصقت بالجدار وإحساس بالذنب ينهشني. طرقت الحائط بقبضتي، فردّت الطرقات من الجانب الآخر تطمئنني.. إنّها متعوّدة على حياة الشارع. تستطيع الاهتمام بنفسها. همست راجيا:

- لا تذهبي بعيدا.. ابقيْ عند الجدار. سأعود قريبا.

ردّت عليّ بطرقتين خفيفتين.

لقائي بالشيخ المختار كان من اللحظات النورانيّة النّادرة.. أن تلقى شخصا يضيء وجهه بكلّ تلك السّماحة وتنطوي نظراته على كلّ ذلك الحبّ والعطف تجاه البشريّة، كان أمرا استثنائيا. أدخلني عليه أبو أحمد، ناظر أملاكه والقائم بشؤون زوّاره، من دون استئذان. كان بابه مفتوحا لقضاء حاجات النّاس كلّ صباح من الفجر حتّى صلاة الظهر. أجلسني على الحصير المتقشف الذي فرشت به الغرفة. لم يكن بها من مريدين غيري. كنت قد وصلت مبكرا جدا.

على بصيص المصباح الخافت التقت عيناي بتلك السّحنة الهادئة والهيئة المعمّمة. كان الشيخ يقرأ في مصحفه غير عابئ بالعتمة، ولحيّته

facebook.com/groups/exchange.book

الكثّة المشوبة بعروق بياض تتخلّلها تهتزّ مع تمتمته غير المسموعة. لعلّ الإضاءة الضعيفة كانت تمنحه مناخا مناسبا للتأمل وتصفية الذهن. حين أنهى ورده أخيرا، عاين بنظرة أبويّة شكلي الأشعث ثمّ سألني:

- هل أنت قادم من سفر؟

فرنسيّته مشوبة بلكنة شرقيّة، ربّما كان أصيل اليمن، أو الحبشة، أو ما جاورهما. بشرته ذات سمرة خفيفة وملامحه دقيقة قريبة من القلب، وابتسامته دواء للنفوس السّقيمة. قلت في ارتباك وفرائصي ترتعد دونما سبب أعيه:

- سافرت ليلا من ليون...

- إن لم تكن بك حاجة ملحّة، فخذ نصيبا من الرّاحة ثمّ ننظر في حاجتك.

احترت هل أقبل ضيافته مؤجلا طلبي، أم أعجّل بالطلب مغامرا بضياع الضّيافة؟ قبل أن أتكلّم، انحنى الشيخ حتّى لامست كفّه ركبتي فتوقف جسدي عن الارتجاف على الفور.

- أنت تتألم.

قالها بلهجة المتيقّن، فتخدّرت حواسي. هل أدرك بلمسة مكمن دائي؟ وهل شفيت بتلك اللمسة؟ كان صوت الشيخ العميق الرقيق يتسلل إلى قلبي دونما مقاومة مني ويشدّ نظراتي إلى وجهه كالمغناطيس. كان في حضوره سحر ما.

- لا تخف، لقد وصلت إلى برّ الأمان.

لم أنبس ببنت شفة، بينما واصل الشيخ تشخيصه لحالتي. وضع كفّه على رأسي، كأنه قد أدرك بطريقة أجهلها أن الألم هناك، ثم أخذ يتمتم بصوت خافت كأنه يرتل ما يشبه الآيات القرآنية. أغمضت عينيّ في سكينة تاركا جسدي بين يديه. حين فتحتهما مجدّدا، كان الشيخ يمدّ إليّ بوعاء يحوي مستخلصا من الأعشاب.

facebook.com/groups/exchange.book

- أنت متعب يا بني. اشرب هذا واخلد إلى النّوم. يا عليّ...

فتح الباب فجأة وظهر شاب يصغرني سنّا، كأنّما كان يتنصّت عند الباب، أو يلتقط بحاسّة سابعة همسات الشيخ مثل جنيّ ما. وقف في تأدب منتظرا أوامر صاحبه.

- خذ أخانا إلى شقة الضيافة ليرتاح قليلا.

تجرّعت المشروب الدافئ بجرعات كبيرة متلهّفة، غير مبال بالبقبقة المزعجة التي أصدرتها، ثمّ مسحت شفتيّ بكمّ ثوبي، وانتظرت المعجزة. كلّ ما يحيط بي كان يوحي بأنّها ستحصل لا محالة. الجوّ الروحاني، وحضرة الشيخ المهيبة، والهمسات القرانية، والمذاق العسليّ الصّافي.. كانت علامات شفاء صدّقتها. خلت للحظة أنّني ممسوس فعلا، ونسيت أمر الرّصاصة مصدر بلائي! أو لعلّي حسبت لمسة الشيخ ومشروبه العجيب قادرين على إذابتها فينسال المعدن المصهور من أذني مثل الصديد.. كنت قادرا على تصديق أيّ شيء في تلك اللحظة!

غادرت الشيخ برفقة عليّ حتى دخلت الشقة المعنيّة. كان الخدر قد سرى في أوصالي المتشنّجة حتّى تمكّن منّي بالكليّة، فاستسلمت للنّعاس على سرير فرديّ في ركن الغرفة وكلّي تفاؤل وانبساط.

حين فتحت عينيّ، كانت الغرفة غارقة في الظلام. تحسّست المكان من حولي متعرّفا، لكنّ حركاتي المرتبكة جعلتني أتعثّر بقطع الأثاث وأحدث جلبة مزعجة. امتدّت يد من العدم وأزاحت الستائر السميكة عن النّافذة فتبدّدت الظلمة. ظهر عندئذ وجه عليّ الذي جاء بي إلى الشقة منذ ساعات خلت، وقد غلب الودّ في ملامحه على الجدّية التي كسته في حضور الشيخ. كان رقيق العود، يسبح في قميصه الأبيض الواسع الذي يصل إلى ركبته، ويخلّل لحيته القصيرة النابتة بأصابعه وهو يتكلّم، كأنّما يهمّه أن تبدو أطول ممّا هي عليه.

- أخيرا استيقظت! لقد برد الطعام.. سأقوم بتسخينه بينما تقضي

facebook.com/groups/exchange.book

الصلـوات الفائتــة.

لـم يكـن استفسـارا بقـدر مـا هـو إقـرار لمـا يجـب عـليّ فعلـه، فانصعـت دونمـا تـردّد وسرت في اتّجـاه الحمّـام الـذي أشـار عـليّ إلى موقعـه مـن الشـقّة. حـين تخطّيـت عتبـة الغرفـة انتبهـت إلى أزواج الأعـين الـتي كانـت ترقبـني. ربّمـا كان عـليّ يجلـس إلى أصحابـه في انتظـار صحـوتي. حيّيتهـم بإشـارة محتشـمة فألقـوا عـليّ السـلام في نغمـة موحّـدة. أدّيـت صلـواتي كيفمـا اتّفـق وأنا أتسـاءل عـن آخـر مـرّة صلّيـت فيهـا فرضـا. انقطعـت عنهـا منـذ عـدت إلى التـشرّد ولـم يكـن جحيـم الورشـات والقبـو وآلام الرّصاصـة رادعـا كافيـا لأجـدّد توبـتي!

رحم الله أيام الدكتور عمر.. تهت من بعده قلبا وقالبا.

حـين عـدت إلى المجلـس بعـد الصّـلاة، كان بقيّـة الشـبّاب قـد انصرفـوا ولـم يبـق سـوى عـليّ ينتظـرني مـع صحـن شـوربة حـارّة يتصاعـد بخارهـا. غطّـى جوعـي عـلى خجـلي فجلسـت عـلى الأرض المفروشـة مـن دون تـردّد، وأخـذت أغـترف الملعقـة إثـر الأخـرى حـتى قضيـت عـلى الشـوربة كلّهـا، تحـت نظـرات عـليّ الراضيـة.

- أعجبتك؟

هــززت رأسي علامــة الإيجــاب، وأنــا أشــكر مضيّفــي بابتســامة تخالطهــا العـبرة. أن يطبـخ أحـد مـا وجبـة منزليّـة مـن أجـلي، يعيـد إليّ بإلحـاح ذكريـات مـنزل العائلـة وطبخـات أمّـي الـتي لا تضاهـى! إنّ الأطعمـة الـتي نـتربّى عليهـا في صغرنــا تصبــح في أعيننــا -حــين فقدهــا- ألــذّ مــن موائــد أشــهر الطهــاة العالميّـين. بـل هـي الجنّـة ذاتهـا، وإن بـدا طعمهـا عاديّـا أو قليـل النكهـة عنـد متـذوّق آخـر! فالطعـم الـذي تلتقطـه موجـات القلـب خـارج عـن نطـاق حليمــات اللســان، ومتّصــل بينابيــع الذكريــات الــتي تتفجّــر مياههــا حلــوة تملأنــا مــن الدّاخــل إلى حافّــة البــكاء، حــين ينجــح الطعــم في فــكّ شــيفرة الحنـين. وقـد غلبـني الحنـين وأنـا أتـذوّق شـوربة عـليّ، حـتّى دمعـت عينـاي عـلى مـرأى مـن نظراتـه الحائـرة.

facebook.com/groups/exchange.book

- والآن أخبرني ما قصّتك؟

أضاف بلهجة مطمئنة تسلقت أسوار ريبتي وعبرتها إلى الضّفة الأخرى:

- يبدو أنّك قادم من بلاد بعيدة وقد تبقى بيننا لفترة حتّى تتعالج.. لذلك نحتاج معرفة ظروفك حتّى نساعدك.

أوجزت حكايتي منذ وصولي إلى الأراضي الفرنسيّة، متجاوزا فقرة لقائي بعمر، وعلاقتي بعصابة القرصان، ولم آت أيضا على ذكر كارمن. حين انتهيت إلى نوبات الألم التي وأدت أحلامي وطموحاتي الفرنسيّة في المهد، هتف عليّ بلهجة أحسبها صادقة:

- أبشر يا أخي! اعتبر نفسك منذ اليوم ضيفا علينا وفي حماية الشيخ المختار شخصيّا، ولعلّك لا تعلم ما تعنيه حماية هذا الرّجل المبارك؟ إنّه لا يتوانى عن تقديم يد المساعدة إلى كلّ من يحتاجها وله شأن عند العباد وربّ العباد بإذن الله -ولا نزكّي على الله أحدا- وانظر كيف وكّلني بأمرك وهو لا يدري عن قصّتك شيئا؟ رجل مبارك ولا شكّ! أنت منذ اليوم ضيف عندنا في هذه الشّقة، والغرفة التي استقبلت متاعك غرفتك الخّاصّة!

لم أتمالك نفسي من فرط التأثّر، فقمت من فوري أقبّل رأس عليّ وأشكر فضل الشيخ المختار، ثمّ حمدت الله كثيرا وقد تعاظم في داخلي يقين بأنّ مشكلاتي كلّها ستحلّ على يد الشيخ المبارك!

في اليوم التالي، أرسل المختار في طلبي. ناولني المشروب الدّافئ ذاته، فتسلّمته في امتنان. كنت أدرك أنّ له تأثيرا بالغا على جسدي. في الليلة الماضية نمت هانئ البال، ولم تظهر الرّصاصة في منطقة الوعي لحظة واحدة. كدت أنساها. حين رأى الشيخ أنّني أهمّ بتجرّعه دفعة واحدة،

facebook.com/groups/exchange.book

أشـار إليّ مبتسـما وقـال:

- ترشّفه على مهل.. ولنتحدّث قليلا..

أومأت في خجل، وأبقيت الكأس بين كفيّ، أمتّعهما بدفئها.

- أخبرني عليّ بشأن إصابتك.. إنّه لأمر محزن.

حرّكـت رأسي وهمهمـت بكلمـات شـكر متداخلـة، كأنّي لا أجـد في معجمـي لفظـا يفـي فضلـه حـقّ الامتنـان، فواصـل المختـار:

- أنـت الآن بـين أهلـك يـا ولـدي.. سـنهتمّ بأمـرك. تدبّرنـا أمـر سـكنك بحمـد اللـه.. وسـنجد لـك وظيفـة تكسـب بهـا عيشـك. خـبّرني، مـا الـذي تجيـده؟

تداعـت في خيـالي ذكريـات لمشـاهد مماثلـة.. القرصـان وهـو يسـألني عـن خـبرتي في النشـل والشـحاذة، وديميـتري يسـتجوبني بشـأن البنـاء. تلعثمـت وارتبكـت.. أيّ الخصـال يقصـد الشـيخ الجليـل؟ قلـت بعـد برهـة:

- عملت في ورشة بناء بعض الوقت...

توقّعـت أنّ الشـيخ لـن يكـون مهتمّـا بـدورتي التدريبيّـة مـع عصابـة القرصان. رأيتـه يقطّـب حاجبيـه تقطيبـة خفيفـة، فخمّنـت أنّ ردّي لـم يـسرّه. سـألني بشـكل غـير متوقـع:

- كيف هو مستواك في اللغة العربيّة؟

اتّسـعت عينـاي في غـير تصديـق. هـل يعقـل أن يطـرح عـليّ هـذا السّـؤال بالـذّات؟ هتفـت في لهفـة:

- أنا مجاز في اللغة العربيّة يا سيّدي!

- ممتـاز! لمـاذا لـم تبـدأ بهـذا إذن؟ جمعيّتنـا المحلّيّـة في حاجـة إلى علمـك ومعرفتـك.. معظـم الشّـباب هنـا يحتاجـون تعلّـم العربيّـة، وحـتّى المسـنّون. بعضهـم أسـلم حديثـا، والبعـض الآخـر ذو أصـول عربيّـة لكنّـه نشـأ في فرنسـا منـذ نعومـة أظفـاره ولـم يهتـمّ والـداه بتلقينـه اللغـة الفصيحـة.. والمدرّسـون قلّة..

facebook.com/groups/exchange.book

اشـتعل وجهـي حماسـا وقـد عـثرت أخـيرا عـلى مهنـة تناسـبني وتثمّـن شـهادتي الجامعيّـة الـتي أضنيـت أمّـي مـن أجلهـا. شرح لي المختـار بسرعـة نوعيـة العمـل ومواعيـده والأجـر المترتّـب، ثـمّ تصافحنـا في حـرارة معلنـين الاتّفـاق. حـين وقـف الرّجـل مؤذنـا بانتهـاء اللقـاء، كنـت سـعيدا ومسـتبشرا، وفاتـني أنّـه لـم يـأت عـلى ذكـر العمليّـة الجراحيّـة.

ولم يفعل خلال لقاءات كثيرة تلت.

مـرّت الأيـام التّاليـة هادئـة رتيبـة. حافظـت عـلى موعـدي الصّباحـيّ مـع الشـيخ المختـار. فأنـال نصيـبي مـن الأذكار وتـلاوة القـرآن، ثـمّ أزدرد المحلـول العجيـب الـذي لـه عـليّ مفعـول المخـدّر، فأسـتغرق في النـوم حـتى الظهـيرة، قبـل أن يفـد عـليّ مـن عملـه فيقاسـمني غـداءه. أمّـا كارمـن، فقـد فقـدت أثرهـا مـذ فارقتهـا عنـد الجـدار. كنـت أتسـلّل يوميّـا إلى حـدود الغابـة، أتسـلّق حـتّى أبلـغ أعـلى الحائـط وأمسـح بنظـرة شـاملة مسـاحة الأشـجار الممتـدّة إلى الأفـق، ثـمّ أتنهّـد. أحيانـا، أجلـس هنـاك مقرفصـا، أتفكّـر وأنتظـر، علّهـا تظهـر مـن دون موعـد. وغالبـا مـا كنـت ألقـي نظـرة عابـرة وأمـضي متعجّـلا، حـتى لا يضبطـني حـرّاس المختـار بجـرم لا أدري نـوع العقـاب الـذي يسـتحقّه. التزمـت بالعهـد الـذي قطعتـه عـلى نفـسي بحفـظ نصيـب مـن وجبـتي مـن أجـل الصغـيرة. ألفّهـا جيّـدا في ورق الجرائـد وأتـرك اللفافـة تنزلـق بلطـف إلى الجهـة الأخـرى أسـفل السّـور، علّهـا تجدهـا وتقتـات عليهـا. لكنّهـا لـم تـردّ قـط عـلى طرقـاتي. وقـد آثـرت أن ألومهـا عـلى تجاهلهـا تعليمـاتي بعـدم الابتعـاد عـن الجـدار، عـلى أن أعـترف بفشـلي الذريـع في أن أكـون أبـا بديـلا!

أمـا في فـترة مـا بعـد الظهـر، فقـد كنـت أدخـل قاعـة الـدّرس، أمسـك قطـع الطباشـير الأبيـض والملـوّن، أرسـم عـلى السّـبّورة خطوطـا متعرّجـة ونقاطـا..

facebook.com/groups/exchange.book

وأشرح لرجـال ينافسـونني في القامـة وغـزارة الشـاربين أبجديّـات اللغـة العربيّـة. وقـد وجـدت في ذلـك متعـة لا تضاهـى!

أقول، ويكرّرون خلفي: خاء.. خخخخ.. خاااء.. من أعماق الحلق.

فتخرج منهم: غغغغ.. مثل بقبقة غريق!

أقول: خخ.. مثل «فخنسي» (كلمة «فرنسي» بالفرنسيّة).

فتتهلـل الأسـارير وتسـتجيب الألسـن وتعـوجّ لتعـثر عـلى درجـة الصّـوت المناسـبة. فأصفّـق لهـم ويشـاركونني التّصفيـق.

- المشـكلة هنـا.. في الـرّأس، أمّـا اللّسـان فمطـواع قـادر عـلى النطـق بمـا يأمـره الدّمـاغ بـه.

أشـير إلى رأسي بسـبّابتي، كأنّـني أخاطـب رصاصـتي. أتحـدّى كلّ أسـباب العجـز وأمـارس حيـاة طبيعيـة أو تـكاد.

بعـد سـاعتين مـن الـدّرس، أقـف أوّدعهـم عنـد بـاب القبـو تحـت الأرضي الـذي يسـتقبل فصلنـا، فيصافحونـني بامتنـان. لا يدركـون أنّـني الممـتنّ لحضورهـم.. وإعطائهـم معـنى لحيـاتي. شـقيقان تركيّـان، وعـدد مـن الفرنسـيين حديـثي الإسـلام إضافـة إلى شـيخ مغـربيّ طاعـن في السّـنّ يتمـنّى أن يفـكّ شـيفرة مصحفـه ويتعـرّف إلى مقاطعـه، يكتـب عـلى لوحـة مدرسـيّة بـدل الورقـة لضعـف بـصره، ويناديـني بـ«سـيّدي» كمـا ينـادي طـلاب المـدارس معلمهـم!

أسـتقبلهم كلّ يـوم بعـد انتهـاء سـاعات أعمالهـم الرّسـميّة، وأشـغل بقيّـة اليـوم في أعمـال تنظيـف وصيانـة لـم يطالبـني أحـد بهـا. كنـت أحـبّ أن أكـون مفيـدا.. بعـد فـترة بطالـة طالـت، فوكّلـت نفـسي بكنـس السـاحة مـن أوراق خريـف طمـرت ممشـاها فاسـتحال بسـاطا تتمـاوج عليـه درجـات البرتقـالي والأصفـر.

بعـد أسـبوع، كان جسـدي قـد أخـذ يتعـوّد عـلى الـدّواء، ومـا عـاد الخمـول يصيبـني فـور تجرّعـه، فطلبـت مـن عـليّ أن أرافقـه في جولـة بالخـارج. كان

facebook.com/groups/exchange.book

صباح سبت لا عمل لكلينا فيه، وكانت مسالك الحديقة المحيطة بعمارات الشيخ السكنيّة تضجّ بالحياة. وألفيت نفسي آنس معالمَ تلك الحياة العائلية الدّافئة وأبحث لنفسي عن مكان فيها. توقّفنا عند دكان بقّال وأخذ عليّ يتخيّر قطع الفاكهة النّاضجة. جاءنا صراخ البقّال وهو يزمجر منفلتا من داخل المحلّ في احتجاج:

- ألف مرّة قلت لك إن فاكهتي كلّها طيّبة. لا تكثر التقليب فتفسد مظهرها الحسن!

ابتسم عليّ متلطفا وتجاهل كلمات الرّجل الغاضبة، وهو يمدّ إليه الكيس ليزن ما استقر في جوفه من قطع متخيّرة، ثم همس لي:

- أبو صالح رجل طيّب، لكن مزاجه ناريّ سهل الاشتعال.. ستتعوّد عليه.

ظهر الرّجل من جديد وفي يده كيس الفواكه بعد أن وزنه بالدّاخل، وقال في جفاف وهو يرمقني بنظرة جانبيّة مستطلعة:

- ثلاثة يوروات...

ثم أضاف بلهجة استخفاف:

- مجنّد جديد؟

زفر عليّ وهو يمدّ يده بالمبلغ المطلوب، وتمتم كأنه يتراجع عن نعته البقال بالطيبة منذ لحظات:

- أستغفر الله العظيم.. يا رجل يا خرف ألا تكفّ أذاك عن النّاس؟ إنّه ضيف علينا وعلى الشيخ المختار ولا شيء أكثر من ذلك!

هزّ أبو صالح كتفيه وهو يتابع بنفس اللهجة السّاخرة:

- كلّهم يكونون كذلك في البداية! قبل أن يلعب عجوزك الخرف بعقولهم !

غلى دم عليّ لمّا سمع أبا صالح يتجرّأ على شيخه الحبيب فهتف في

facebook.com/groups/exchange.book

غيـظ:

- استغفر ربّك وتب إليه من الخوض في أعراض النّاس!

رمقــه أبــو صالــح بنظــرة اســتخفاف، ثــم مــا لبــث أن حــوّل نظراتــه إلى مدخــل المحــلّ حيــث وقفــت سـيّدة تمــلأ أكياســها خــضراوات، وانقلبــت لهجتــه السّــاخطة إلى ليونــة مدهشــة تحمــل في طيّاتهــا غــزلا صريحــا:

- حــتّى الشـيخة ليليـان أكـثر بركـة مـن شـيخك هـذا.. مسـاؤك فـل وياسـمين يـا شـيخة!

اســتقبلت ليليــان الفرنســيّة الخمســينيّة دعابتــه بابتســامة دمثــة، لامباليــة بغمزاتــه اللّعــوب وهــي تواصــل مَــلء أكياســها. في حــين غــضّ عــليّ بــصره متجنّبــا المــرأة الأجنبيّــة.

قال عليّ حالما ابتعدنا بضع خطوات عن دكّان أبي صالح:

- لا تصــدّق كلّ مــا يقــال مــن حولــك. الشــيخ المختــار مثلمــا لــه محبّــون أوفيــاء، لــه أعــداء ينــشرون عنــه الشــائعات والأقاويــل.. مــع أنــه لــم يــضرّ أحـدا يومـا. لكـن تلـك هـي الغـيرة والحسـد، تحمـل النّـاس عـلى ارتـكاب حقـير الأعمـال.

ثم واصل بعد صمت قصير:

- انظــر إليّ.. أنــا مثــال حــيّ عــلى فضائــل الشــيخ. لقــد أخرجــني مــن هــوّة الانحــراف! في الســابعة عــشرة مــن عمــري، كنــت لصّــا محترفــا. مــع بعــض أقــراني كنّــا نكــوّن عصابــة! لكــن منــذ مجــيء الشــيخ إلى هــذا الحــيّ اختلــف الأمـر.. تصيّدنـا واحـدا وحـدا، واسـتمع إلينـا ثـمّ خاطبنـا بهـدوء ورفـق. اهتـمّ بتأطيرنـا النّفـسيّ وتكويننـا الرّوحـيّ. جعلنـا نعـود إلى اللـه ونتعـرّف عـلى ديننـا، ثــمّ ضمــن لــكلّ منّــا مــورد رزق يمنعــه السّــؤال والسّرقــة. لكــن هــل تعــرف مـا هـي معجزتـه الحقيقيّـة؟ لقـد راهـن عـلى كلّ منّـا بشـكل مختلـف. جعلـني أتعلّــم صناعــة الأقفــال وأنــا الــذي كنــت أحطّمهــا! حــين ســألته في دهشــة كيــف يمكــن للنّــاس أن يثقــوا بلــصّ قديــم لصناعــة أقفالهــم؟ قــال لي، أنــا

facebook.com/groups/exchange.book

أضمنك! ضمنني في وقت لم أكن أضمن فيه نفسي. لذلك جاهدت للبقاء على الطريق المستقيم، حتّى لا أخيّب ظنّه فيّ قبل كلّ شيء.

استمعت إليه في دهشة لم تقدر نظراتي المسحورة على إخفائها، فاسترسل عليّ:

- فعل ذلك مع عشرات الشّباب هنا. العمارة التي أسكنها وكلّ العمارات المجاورة هي على ملكيّة الشيخ المختار، وفي كلّ منها عدد من الشقق الموقوفة لله تعالى، يؤوي فيها ضعاف الحال وطالبي العون والعاطلين من الشّباب. وفي ظرف سنتين من وصوله انخفض مستوى الجريمة في حيّنا بشكل لا يصدّق. ملأ فراغ الشبّاب بالعمل والعلم والرّياضة. فتح نادي حراس العقيدة للرياضات القتاليّة ليتمرّن الإخوة فيه على التّنفيس عن مشاعر الغضب بداخلهم، من خلال إطلاق الطاقات السلبيّة خارج الجسد...

- مشاعر الغضب؟

- طبعا! ماذا تظنّ الشباب المهمش العاطل عن العمل يشعر تجاه المجتمع الذي لا يجد مكانه فيه؟ قبل أن يقدر الواحد منّا على صقل شخصيّته الجديدة، يحتاج إلى طرح مخلّفات حياته السابقة خارجه، بما في ذلك الغضب والحقد والحسد.. بعد أن تجتاز دورة التّكوين الرّوحيّ ستشعر ببرد وسلام داخليّ يطفئ كلّ النيران المضطرمة. عندها ستتمنّى أن يخوض كلّ شخص حولك هذه التجربة العميقة المطهّرة للرّوح ليشعر بما تشعر به.

- يبدو ذلك رائعا!

- بل أكثر!

في تلك اللّحظة، خرج أبو صالح ومن ورائه ليليان. رأيته يرصف صناديق خضراوات أمام المحلّ، بينما قالت ليليان:

- دعها هنا. سأرسل أحد أولاد الجيران لإحضارها.

facebook.com/groups/exchange.book

من دون تفكير، اندفعت تجاهها بشكل عفويّ، وقلت:

- عنك يا خالة..

ابتسمت ليليان في امتنان وقالت:

- ربّما كان من الأيسر أخذها على مراحل.. إنّها ثقيلة.

تجاهلت نصيحتها واحتضنت الصناديق كلّها دفعة واحدة مستعرضا قوّة عضلاتي، وسرت خلفها في صمت مزهوّا. حين وصلت إلى مدخل العمارة الرّابعة، أشارت إلى المصعد وهي تقول:

- من هنا.. أرجوك.

حين توقّف المصعد عند الطابق الخامس، سبقتني إلى الشقة، ثمّ أوسعت لي طريقا باتّجاه المطبخ.

في تلك اللحظة، لمحتها.

كانت تجلس على كرسيّ متحرّك عند الشّرفة، وقد انكبّت تطالع كتابا استقرّ في حجرها، متجاهلة فوضى العالم من حولها. ظهرت أمامي مثل حوريّة من الجنّة، يُختزل مفهوم الجمال في طلّتها البهيّة. لو رأيتها في تلك اللحظة لتساءلت، كيف تكون تلك الفتاة التي ترفع شعرها الأصهب فوق رأسها وتعقصه مثل الجدّات، وتخفي عينيها الخضراوين خلف عدسات نظّاراتها وتدفن وجهها بين صفحات كتاب بتزمّت راهبة، هربا من كلّ الأعين المتطفّلة -مثل عينيّ- والتي قد ترغب في بدء حوار ما مع عينيها، كيف تكون حوريّة؟ فقط هي كانت كذلك بالنّسبة إليّ.. فلا تحاول أن تفهم!

كانت لحظة خاطفة سلبتني لبّي، برهة تأمّل قصيرة قبل أن يعيدني صوت ليليان إلى الواقع وهي تقول:

- شكرا لك يا ولدي.

فهمت أنّها لم تعد في حاجتي، فسارعت في اتّجاه المخرج، كأنّي قد

facebook.com/groups/exchange.book

ارتكبت جرما بالتّطفل على المرأتين ولو من قبيل مدّ يد المساعدة. لكنها مسحت عنّي ذاك الانطباع الخاطئ بسرعة حين قالت:

- هل تتناول معنا كوبا من الشّاي؟

غمرتني رعدة باردة، وتنقّلت نظراتي فجأة إلى وجه الفتاة الصّهباء التي لم تبد عليها المبالاة بوجودي من عدمه، فتلعثمت وأنا أردّ في ارتباك:

- مرّة أخرى سيدتي.. مرّة أخرى..

حينئذ، رفعت جميلتي عينيها وابتسمت!

غادرت الشّقة مرغما وقد خلّفت قلبي عند قدميها فاقدتي الحركة. ابتعدت عن العمارة بخطوات مضطربة، وقد انهمكت كلّ خلايا دماغي في مهمّة تسجيل تلك الابتسامة الرّقيقة الّتي خصّتني بها الفتاة المقعدة. في ثوانٍ انتقلت من كآبة التّجاهل إلى نشوة الحظوة! كأنّ كلّ حركة بسيطة تنمّ عنها تولّد عاطفة ما بداخلي! تمنيّت سرّا لو تتحدّثان بشأني، لو تُثني ليليان على صنيعي، فتستحسن ابنتها الأمر وتقول: فلنستفد من خدماته، ﴿إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين﴾. تمنّيت لو أجد مبرّرا، أيّا كان، لأتردّد على تلك الشقّة مرّات أخرى، وترفع رأسها وتنظر إليّ من جديد.

انتفضت حين شدّني عليّ من ذراعي على حين غرّة:

- من الأفضل أن تتجنّب حركات الشهامة مع تلك المرأة في المرّة القادمة.. لا تنسَ أنّها كافرة.

حدّقت فيه مصدوما ولم أعلّق، فاستعجلني صاحبي الذي لم تبدُ عليه أيّ علامات المزاح:

- من هنا.. الشيخ المختار بانتظارنا.

facebook.com/groups/exchange.book

نحـن عائلـة الشـاوي، فينـا هـوى الأجنبيـة. أكاد أجـزم أنّهـا سـمة وراثيـة تتناقلهـا الجينـات. منـذ أجيـال، تختلـط نطفنـا بنطـف مـن شـتى الملـل.

أمـا جـدّك، فقـد كان أوّل عهـده بالإنـاث يابانيـا! تـزوّج بسـاكورا في فرنسـا، ولبـث معهـا مـدّة سـبع سـنين.. لـم تثمـر نسـلا يشـدّ وثاقـه إليهـا. لذلـك، حـين طلبـت السـفر إلى بلدهـا، لـم يجـد صعوبـة في تسريحهـا سراحـا جميـلا. لـم تدمـع عينـاه وهـو يودّعهـا في مطـار باريـس شـارل دو غـول، لكنّـه اسـتمرّ يذكـر أيّامهـا بحـسرة وحنـين حـتّى وفاتـه، بشـكل كان يثـير غـيرة جدّتـك إلى أبعـد الحـدود. لـم يكـن لدينـا شـكّ في حبّـه لهـا، وكثـيرا مـا سألناه في فضـول عـن سـبب طلاقـه منهـا.. فهـل يعقـل أن يتفارقـا لمجـرّد رغبتهـا في رؤيـة أهلهـا باليابـان؟ أذكـر ملامحـه الآن، حـين تغيـم عينـاه وتسـودّ سـحنته، وهـو يقـول بلهجـة قاطعـة: لسـت أركـب طائـرات ولا أتـرك حرمـي تركـب الطائـرات!

ورغـم غرابـة السـبب وبعـده عـن المنطـق، فلـم يكـن بوسـع أحدنـا إلا أن يسـلّم بـه. فجـدّك ظـل وفيـا لعهـده، فلـم يركـب الطائـرة يومـا، رغـم سـفره المتكـرّر إلى فرنسـا ومنهـا. ثـمّ حـين تـزوّج أمّـي التونسـيّة، لـم يُطـرح موضـوع الطائـرة بتاتـا. ورغـم كونهـا تعـود أهلهـا عـبر البـرّ، فإنّهـا لـم يكـن يرافقهـا في رحلـتي الشـتاء والصيـف، حـين تشـدّ الرّحـال إلى «القصريـن» حيـث مسـقط رأسـها. أمـا إن شـئت رأيي، فـإنّي أعتقـد أنّ أبي خـاف أن تهجـره ساكورا أو أن يمنعهـا أهلهـا عنـه، واليابـان بعيـدة الشـقة مجهولـة الثنايـا، ومـا لـه أن يبحـث عنهـا هنـاك أو يلحـق بهـا، ففضّـل قطـع الأمـل عـن طولـه مـع إمكانيـة الخيبـة.

حـين رجـع أبي مـن فرنسـا ليسـتقرّ في تبسـة، دعـاه صديـق تونـسيّ - كان قـد عـاشره طويـلا في الغربـة- لزيارتـه حيـث يقطـن مـع عائلتـه في القصريـن. أثمـرت تلـك الزّيـارة خطبـة وتوطيـد علاقـة بالنسـب. تـزوّج أبي شـقيقة صديقـه الـتي رآهـا ملتحفـة تـكاد تخفـي نصـف وجههـا وهـي تضـع «قصعـة الكسـكسيّ» بلحـم الخـروف أمامـه عـلى أرضيّـة المجلـس المفروشـة. قـال في ثنـاء: نعـم التربيـة ونعـم الطبيـخ، فـردّ صاحبـه مـن فـوره: ونعـم النسـب نسـبكم!

facebook.com/groups/exchange.book

كان ترتيب الزّواج أشبه بمصيدة وقع فيها أبي عن طيب خاطر. كان طلاقه حديثا وجرحه غائرا، لكنّ موضوع الزّواج الجديد لقي استحسانا منه. امرأة أخرى هي كلّ ما لم تكن عليه ساكورا المتحرّرة! كان يكبر أمّي بعشرين سنة أو يزيد. كان قد جاب الدّنيا وخالط الأجانب وعرف النّساء في الشّرق والغرب، وهي كانت قطّة مغمضة العينين! لم تكن قد بلغت الخامسة عشرة، طفلة تلهو في الحوش مع أترابها، وتلتحف كما تقتضي التقاليد حين تدخل على الرّجال الأجانب، فتبدو أنثى كاملة النضج. حين رجع أبي بعد شهور قليلة إلى تونس مع عشيرته لإتمام تراتيب الزوّاج، لم يرحل عمّي إلا وقد خطب شقيقة العروس!

كان طبع أمّي طيّعا مسالما، ومزاج أبي ناريّا متقلّبا.. وكثيرا ما آذى طيبتها وأبكى مقلتيها، فتبيت مكوّرة على ذاتها منكفئة على حزنها، في ركن المطبخ، لا سند تشكو إليه ولا كتف تبكي عليها. أمّا خالتي، فقد كانت قويّة الشّخصيّة، سليطة اللّسان، وعمّي طوع بنانها! فسبحان الذي جعل كلّ واحدة ترتبط بنقيضها! كانت جدّتي تقول إنّ نار أبي تطفئها دموع أمّي، وتسلّط خالتي تبرئه ابتسامة عمّي المتسامحة.. ورغم تعاسة أمّي البادية للعيان، فقد كانت جدّتي راضية عن قسمة أولادها من النّساء. حين انضمّت خالتي إلى عائلة الشّاوي، تكافأت الجبهتان. وطويلا بعد رحيلها، سيظلّ أهل البلدة ينادون عالية وأخواتها «بنات التونسيّة»! رغم كون أمّي تونسيّة أيضا، ونحن أبناءها أبناء التونسيّة، فإنّ البصمة التي تركتها خالتي في بلدتنا الصّغيرة كانت أبلغ من حياة أمّي كلّها بهدوئها الذي يجعلها شبه خفيّة، لا تكاد تلحظ، وحزنها الرّقيق الذي لا يعيره أحد اهتماما.

facebook.com/groups/exchange.book

لـم أسـتطع أن أرفـض الدّعـوة في المـرّة الثانيـة. رغـم تحذيـر عـليّ، فقـد تجـرّأت عـلى مرافقـة ليليـان إلى شـقّتها ذلـك اليـوم.

منـذ تطوّعـت بأعمـال التنظيـف في المجمـع السـكنيّ، صرت أراهـا بشـكل يومـيّ. كانـت تمـرّ بي صباحـا حـين تخـرج لقضـاء حاجاتهـا، فأرافقهـا عـلى استحياء حـتّى بـاب المصعـد حامـلا عنهـا الأكيـاس ثـمّ أعـود إلى مهامـي مسـتعجلا قبـل أن يلمحـني عـليّ أو يـشي بي إليـه أحـد رفاقـه، فيعيـد عـلى مسـامعي نفـس الملاحظـة عـن مخالطـة الكفّـار! ثـمّ أراهـا قبـل الغـروب بسـاعة، حـين تخـرج برفقـة ابنتهـا.. ديانـا. تدفـع كرسـيّها المتحـرّك وتسـير بهـا في جولـة عـبر الحديقـة الظليلـة. تلقـى عـليّ التّحيّـة ثـمّ تمـضي في حـال سـبيلها، لكـن عيـنيّ لـم تكونـا تسـتقرّان وأنـا أعلـم أنّهـا في الجـوار. أظـلّ أتلفّـت في انتبـاه عـلّي ألمحهـا مقبلـة مـن ممـشى أو مـن آخـر. أطيـل المكـوث خارجـا، فـلا أقصـد الفصـل إلا حـين يظهـر أوّل طـلابي. لا، لـم أكـن أراقـب ليليـان الخمسـينية، بـل ديانـا الصّهبـاء الحلـوة الـتي انفكّـت عقـدة ابتسـامتها، فباتـت تكافئـني بهـا كلّمـا تطوّعـت لمسـاعدة والدتهـا. فأحـسّ بحـرارة غريبـة تصعـد إلى رأسي وتلهـب وجنـتيّ، كأنّي عـذراء حييّـة!

لعلّـه ليـس مـن اللاّئـق في عـرف العلاقـة بـين الآبـاء والأبنـاء أن أحدّثـك عـن مغامـراتي العاطفيّـة، لكنّـني أفـترض أنّـك وقـد تسـلّمت رسـائلي قـد غـدوت شـابّا راشـدا.. وأفـترض أيضـا أنّـك تصـارح والدتـك بحكاياتـك مـع الفتيـات منـذ صرت مراهقـا، فمعظـم الأولاد ينفتحـون أمـام أمّهاتهـم حـتى لـو كان آباؤهـم عـلى مقربـة. ولأنّـني أتوقّـع أيضـا أنّ القـدر لـن يمهلـني حـتّى أرقبـك مـن كثـب مراهقـا وراشـدا، فـإنّي أريـد لعلاقـتي بـك أن تكـون مختلفـة عـن العلاقـات الدّارجـة في عرفنـا بـين الابـن وأبيـه.. سـأكون لـك أبـا متفتّحـا، يصارحـك بـكلّ شيء ويتحـدّث في التّفاصيـل الـتي يتجاهلهـا الآبـاء عـادة.

أبي كان مـن النّـوع المغلـق تمامـا. صنـدوق أسـود يبتلـع العواطـف، لا يظهـر محتـواه إلا حـين تطيـح بـه عاصفـة غضـب. كنـت أحترمـه لاحـترام النّـاس لـه، وأخـاف منـه. لكـن هـل كنـت أحبّـه؟ وهـل يملـك الولـد إلاّ أن يحـبّ والـده؟ لا

facebook.com/groups/exchange.book

أدري.. ربّما تغيّرت عاطفتي تجاهه منذ مقتله، فنمت بداخلي عقدة ذنب تحوّلت حبّا جارفا للرّجل الذي مات وهو يحمي عائلته، ودفع ثمن جبن ولده الوحيد. لكنّني أريد لك أن تحبّني! لا عن خوف أو ذنب، ولكن لما أنا عليه.. لما ستعرفه عنّي، ولما سأبادلك إيّاه من أسرار تجمعنا فقط أنا وأنت من خلال هذه الأوراق. أريد لعلاقتنا أن تكون مبنيّة على التفهّم والصّراحة.. إن أمكن لنا أن نطلق على هذا الحوار أحاديّ الجانب علاقة.

إذن فلتعلم أنّ أباك كان قليل الحظّ مع الحبّ! لم تكن أنثى قد ابتسمت في وجهي من قبل. بلى، عالية ابنة عمّي كانت تبتسم. لكن هل عالية أنثى؟ طبعا هي أنثى من حيث تكوينها الجسديّ، لكنّها ليست في أنوثة ديانا. ليست في رقّتها وعذوبتها وحلاوة صوتها.. ليست صهباء منمّشة الوجنتين، ليست بيضاء البشرة إلى حدود الشفافية، ليست ملوّنة العينين. لم تكن الملامح الأوروبية تنتمي إلى مقاييس الجمال لديّ، لأنّني لم أكن أطمع في أن تنظر إليّ أنثى أوروبيّة يوما. لكن ديانا نظرت وابتسمت. الأميرة ديانا. وأشرقت الدنيا في عينيّ منذ ذلك الحين. نعم، كان تقييمي لديانا في بداية الأمر جسديّا بحتا. أسمعك تقول: يا للسطحيّة! ولست أعترض!

أمّا عالية، فقد طاردني خيالها بإلحاح أكبر في تلك الفترة. كأنّ نظرتي إلى غيرها توقظ داخلي ذكراها. عالية كانت دوما «رجل العائلة»، مثلما صارت أمّي رجل العائلة بعد رحيل أبي. عمّي لم ينجب إلا البنات، وعالية كانت كبراهنّ. تعلمت الفروسيّة والصيد بالبندقيّة وتوحّشت نظراتها. لكنّ عالية بنت الجبل، بنت التّونسيّة سليطة اللّسان، كانت تلين وتبتسم إذا رأتني.. لأنّي رجلها. هكذا علموها وعوّدوني. رغم أنّي لم أفعل شيئا يفسّر على هذا النّحو ولا خطوت خطوة واحدة في اتّجاهها. كانت تكبرني بسنتين. يطاردنا عقد شفوي بين أخوين، في بهجة ولادة الذّكر الذي سيخلّد اسم العائلة.

كاد الاتّفاق يذهب أدراج الرّياح حين تعكّر صفو العلاقة بين الشقيقين. الأحداث التي هزّت البلاد رمت شرارة شقاق بينهما. عمّي كان مناصرا

facebook.com/groups/exchange.book

للإسلاميّين.. وأبي يكنّ لهم عداوة ضارية! يستمرّ السّجال بينهما لساعات، كلّما طغت المستجدّات السّياسيّة ورمت أطنابها في عقر حياتنا اليوميّة. حتّى وصل بهما الأمر إلى قطيعة كاملة. بكى عمّي كثيرا حين رحل أبي عن الدّنيا من دون أن يسامحه. ثمّ جدّد العهود القديمة أمام أمّي وأخواتي. أقسم ألا يفرّط فينا، واستحلف أمّي ألا ترحل إلى تونس وتحرمه منّا.. وأن تعطيه الفرصة حتّى يكفّر عن ذنبه تجاه الفقيد. وهكذا عادت عالية خطيبتي بعد فكاك وقتيّ. لكنّ خيبة الفارس المنتظر طالت ولم يفلح في تأمين مستقبله! أمّي قالت إن أحدا لن يخطب عالية لأنّ ابن عمّها أحقّ بها. وأنا أتمنّى أن يتقدّم إليها أحد في غيابي ويريحني من تلك المسؤوليّة تجاهها وتجاه عمّي! ليس لأني لا أطيق عالية، إطلاقا! هي مليحة بالمقاييس المحلّية، حلوة المعشر وصاحبة نكتة. لكنّها امرأة قوية يرهبها الرّجال، فما بالك بي، وأنا ابن المدينة مدلّل شقيقاتي ووالدتي؟ فلأعترف، لم أكن ندّا لها! لم أكن أريد أن أصير مثل عمّي.. زوجا منقادا، رغم أنّه أحبّ خالتي بصدق ورفض الزّواج بعدها.

حين مرّت بي ليليان ذلك المساء، لاحظت حركتها البطيئة التي تنمّ عن التّعب. لا أدري كيف واتتني الجرأة فعرضت عليها أن أدفع عنها الكرسيّ وصاحبته! تركت إليّ المهمّة عن طيب خاطر وجلست تستريح على مقعد حجريّ بالسّاحة.

سرت لدقائق أدفع الكرسيّ في صمت، وأنا أشعر بقلبي يكاد يقفز إلى حلقي. أتأمّل خصلاتها البرتقالية المائلة إلى الحمرة في أصولها وأتساءل كيف يكون ملمسها؟ من حيث أقف كنت أرى شعرها وكتفيها الضئيلين لامرأة رقيقة تحتاج إلى حماية. تراءت أمام عينيّ قامة عالية الفارعة ومشيتها الوئيدة الثابتة التي تدلّ على الاكتفاء الذّاتي، وكفّها الخشنة التي أمسكت بزمام الخيول منذ الصغر، وقلعت الأعشاب وجمعت الزيتون.

- كيف وجدت باريس؟

facebook.com/groups/exchange.book

كانـت هـي مـن بـادرني بالحديـث. مـن حسـن حظّـي أنّهـا لـم تلتفـت. تحدّثـت وهـي تنظـر إلى الأمـام فلـم تلحـظ احمـرار وجنـتيّ الشـديد.

- أمّـي قالـت إنّـك وصلـت إلى المنطقـة منـذ وقـت قريـب.. آمـل أن تكـون قـد وجـدت راحتـك.

تسـارعت أنفـاسي وأنـا أبحـث عـن الكلمـات في رأسي الفـارغ. تحـرّك لسـاني في فمـي وانفرجـت شـفتاي، لكـنّ الارتبـاك قـضى عـلى كلّ أفـكاري. كان يجـب أن أتكلّـم وإلا حسـبتني غبيـا، لكـنّ حالـة مـن الخجـل المكبّـل سـيطرت عـليّ. كنـت طليـق اللّسـان، متمكّنـا مـن اللغـة الفرنسـيّة ملمّـا بقواعدهـا. لكنّـني في تلـك اللحظـة خشـيت ارتـكاب خطـأ نحـويّ واحـد أو نطـق حـرف علّـة بصـورة منحرفـة مـا يجعلهـا تسـخر مـني وأسـقط في نظرهـا! بعـد جهـد وتركـيز شـديدين، خـرج صـوتي جـادّا متكلّفـا بشـكل مجحـف. قلـت باقتضـاب:

- كلّ شيء على ما يرام. شكرا لسؤالك.

في اللحظـة الموالـية، كنـت ألعـن نفـسي في سرّي عـلى اللهجـة الجافـة الـتي غلّفـت كلمـاتي القليلـة. وأدركـت أنّـني أفسـدت كل شيء حـين اختـصرت بدورها:

- هذا جيد.

عـادت لتـسرح بنظراتهـا بعيـدا ولـم تقـل شـيئا بعدهـا. لذلـك، حـين عدنـا إلى نقطـة الانطـلاق حيـث خلّفنـا ليليـان تسـتريح، كنـت مسـتميتا للحصـول عـلى فرصـة إضافيـة تعـوّض عـن غبـائي السّـالف! حـين عرضـت عـليّ ليليـان تنـاول الشـاي معهمـا، وافقـت عـلى الفـور. كان عـليّ أن أصحّـح الانطبـاع الـذي خلّفتـه لديهـا، كأنّ حيـاتي تتوقـف عـلى ذلـك.

- رائحة زكيّة.. تذكّرني بشاي والدتي!

كانـت ليليـان قـد جلسـت قبالـتي بعـد أن وضعـت الشـاي عـلى النّـار. وكنـت قـرّرت أن أكـون لبقـا مهمـا كلّفـني ذلـك.

- أنت ولد طيّب. حفظ الله والدتك وحفظك لها.

facebook.com/groups/exchange.book

غابت ابتسامتها فجأة وهي ترمقني بنظرة متردّدة:

- اصدقني القول يا بنيّ.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟

تراجعت كلّ الثقة المستعارة التي غلّفت حركاتي منذ حين. ألقيت نظرة على ديانا التي تجلس قبالة الشّرفة، منشغلة بتقليب صفحات كتابها. تردّدت لحظة. أحسست بوقع السّؤال الفاصل الذي سيجعل حياتي شفافة أمام عينيها. ثمّ استجمعت شجاعتي وأنا أمضي في سرد حكايتي.. الغرق، الرّصاصة، التشرّد، الألم والإدمان.. ليست سيرة ذاتيّة اعتياديّة يعرضها شابّ يرغب في ودّ فتاته! لم ترفع رأسها ولم تقل كلمة واحدة، لكنّني لمحت حركة كفها وهي تخفي دمعة سالت عند طرف عينها. حافظت على الصّمت لبضع دقائق، تحاول طمس علامات تأثرها، لكنّ صوتها بدا مبحوحا حزينا وهي تسأل بارتباك:

- الرّصاصة.. هل تشعر بها الآن؟

ابتسمت، وأدركت أنّي أحرزت بالصّدق والصّراحة نقاطا أكثر ممّا حاولت تحصيله بالتصنّع والتكلّف. قلت:

- منذ بدأت في العلاج مع الشيخ المختار، أصبحت أعيش حياة شبه عاديّة. لم يظهر شبح الرّصاصة منذ فترة...

قاطعتني ليليان في اندفاع:

- المختار لا يؤتمن جانبه! من الأفضل أن تعرض نفسك على طبيب حقيقي!

حين قرأت علامات التوهان في ملامحي تنهدت ثمّ أردفت موضحة:

- هؤلاء الشباب عرفتهم منذ سنين.. كانوا أطفالا مرحين. يرتكبون الأخطاء، لكنّهم يحبّون جيرانهم ويعاملونهم باحترام. لم ينادني أحدهم بالكافرة قبل مجيء ذلك الشيخ!

همهمت مستنكرا:

facebook.com/groups/exchange.book

- لكن الشيخ المختار.. لو تعلمين كم هو رجل طيب!

- أعلـم جيّـدا فضائلـه. أعـاد الشـباب المنحـرف إلى الطريـق المسـتقيم وأعطـى لـكلّ منهـم مهنـة شريفـة. لكنّـه جعلهـم أيضـا أشـخاصا متعصبـين ومنغلقـين. انظـر إلى مظهرهـم كيـف صـار.. كأنّهـم يتعمّـدون الـبروز بشـكل مختلـف، لتكريـس القطيعـة مـع حياتهـم السّـابقة.. ومـع المجتمـع كلـه!

رفعـت كفّـي في حركـة لإراديّـة لألمـس أطـراف لحيـتي الآخـذة في النمـوّ. لـم أحلقهـا منـذ أسـابيع، ليـس لقناعـة مـا، وإنّمـا لأنّ الفرصـة لـم تسـنح. لاحظـت فجـأة أنّـني أصبحـت أشـبههم. تلـك اللحـيّ النـاشزة الـتي يتعمّـدون تركهـا مـن دون تهذيـب هـي مـن علاماتهـم المميّزة.

تابعت ليليان في شيء من الحزن والحنين:

- ذلـك الشـاب الـذي يشـاركك السّـكن.. عـليّ. كـبر مـع ديانـا ابنـتي في بيـت واحـد. كنـت أعهـد بديانـا إلى والدتـه حـين كنـت أعمـل. عائلتـه كانـت تعـاني بعـض المشـكلات المادّيـة، فكنـت أحـاول أن أمـدّ يـد العـون بتكتّـم.. أشـتري لـه ولإخوتـه الهدايـا والثيـاب في رأس السـنة، وحـتّى في أعيـاد المسـلمين. حـين نـاداني يـا «كافـرة» غلبتـني الصدمـة!

أخرجـت صليبـا فضيّـا مـن طيّـات ثيابهـا، كان يتـدلّى مـن سلسـلة رقيقـة حـول عنقهـا وقبّلتـه في خشـوع قبـل أن تضيـف وعـبرات محبوسـة تتـلألأ في عينيهـا:

- نحن أيضا مؤمنون يا ولدي!

مضـت ربـع سـاعة تجاذبنـا خلالهـا أطـراف الحديـث. اسـتدعيت مـن ذاكـرتي حـوادث شـتّى مسرحهـا الجزائـر ومرسـيليا وليـون. وجـدت العفويّـة طريقهـا إلى لسـاني وتخلّصـت مـن لجـام الخجـل. وانحـسر تحفّـظ ديانـا واسترسـل بيننـا الـكلام. حـين دخلـت ليليـان بعـد أن حـضّرت الشّـاي، كانـت ديانـا تضحـك. وكانـت ضحكتهـا مثـل نوتـة موسـيقيّة هشّـة تربّـت عـلى جـدار قلـبي. رمقتهـا والدتهـا في دهشـة، وقـد قـرأتُ في عينيهـا حينهـا فرحـة عارمـة. علمـتُ في ما بعد

facebook.com/groups/exchange.book

أنّ ديانـا لـم تكـن قـد ضحكـت بتلـك الطلاقـة منـذ سـنوات. وقـد أحسسـت حينهـا أنّـني أخـيرا قـد أدّيـت رسـالتي في هـذا العالـم.

كان كلّ شـيئا مرسـوما بدقّـة حـتّى تجتمـع طريقانـا. كان لزامـا عـليّ أن أواجـه المـوت مـرّة بعـد مـرّة، فأنجـو مـن الرّصاصـة وأحملهـا في رأسي وأنجـو مـن الغـرق والعاصفـة وأعـبر فرنسـا مـن جنوبهـا في اتّجـاه العاصمـة، لأكـون سـببا في ضحكـة مـن القلـب تشـفيها مـن كآبتهـا المزمنـة. وكان هـذا إنجـازا كافيـا في نظـري. يمكنـني الآن أن أطـوي حصـيري، أتأبّطـه وأقفـل راجعـا مـن حيـث أتيـت، مـن دون ذرّة نـدم!

قالـت ليليـان حـين كنـت أهـمّ بمغادرتهـا عنـد بـاب الشّـقة، وهـي تضغـط عـلى ذراعـي في رجـاء:

- هل يمكنك المرور علينا مرّة أخرى خلال الأسبوع؟

وسـأظلّ بعـد ذلـك بأيّـام أتقلّـب في فـراشي ليـلا صريـع السّـهم الأشـدّ فتـكا.. تلـك الضحكـة الرّقيقـة الّـتي خصّتـني بهـا الفتـاة المقعـدة، بعـد سـنوات مـن العبـوس. وخـلال الأيّـام الـتي تلـت، سـتكون لي محطّـة شـبه يوميّـة في الشـقة العـاشرة مـن العمـارة الرّابعـة، حيـث ينتظـرني كـوب شـايّ منعنـع حارّ، وبسـكويت بيـتيّ الصّنـع، وجلسـة عائليّـة مريحـة.

facebook.com/groups/exchange.book

في تلك الفترة، كانت قضيّة شابّ مسلم متّهم بتفجير إرهابيّ تشغل الرّأي العام. شركة متخصّصة في الأبحاث الكيميائيّة انفجر أحد مختبراتها في مساء يوم عمل، وذهبت ثلة من الباحثين الشبّان ضحيّة العمليّة. المتّهم كان باحثا ضمن موظّفي الشركة، وقد نجا من التفجير -الذي يقال بكونه انتحاريّا- بأعجوبة. لم تكن القضيّة تشغلني بشكل خاصّ، لكنّ عليّا والمختار وشباب المجمع السّكني كانوا يأتون على ذكرها باستمرار، حتّى إنّ الشيخ أفرد لها خطبة جمعة في مسجد المجمع الذي يؤمّ المصلّين فيه بنفسه. وقد بدا أنّ شقاقا ما طرأ بسببها. فالبعض يؤيّد ويدّعي أنّ فرنسا تستحقّ بعض الضّربات الموجعة، لقانونها المانع للحجاب ولتضييقها على الملتحين ومضايقتها لروّاد المساجد.. والبعض الآخر يرتئي التريّث والمسالمة، ويرفض الرّدود العنيفة. ومن حين إلى آخر يصعد صوت واثق يميل إلى نظريّة المؤامرة. ماذا لو كان الشابّ بريئا ويراد التضحية به للإيقاع بالإسلام وتشويه صورة المسلمين؟

لم أكن من أنصار نظريّة المؤامرة في المطلق، وأنّ الكلّ يتآمر علينا ليهلكنا ويفسد علينا حياتنا. لكنّني وبشكل غريب كنت أستسيغها تلك الأيّام أكثر من أيّ وقت مضى. في وقت سابق من حياتي الطائشة، كنت ما يسمّى بالعنصر المحايد.. أو حتّى السلبيّ. لا أذكر أنّ قضيّة شخص أو شعب ما حرّكتني أو أثارت حماستي. فلسطين؟ كنت أسمع عنها بشكل عابر. العراق؟ أظنني برهنت في رسالة سابقة أنّ أمره لا يكاد يعنيني من قريب أو بعيد. حتّى أزمة الجزائر التي هزّت مراهقتي وصنعت مأساتي، فقد خلّفت قلبي رمادا ينقم على كلّ الجهات والجبهات!

لكن أن تكون وسط جماعة حراس العقيدة طوال اليوم، فإنّ كثرة

facebook.com/groups/exchange.book

الـدويّ سـتجعل منـك نحلـة لا محالـة. أسـوار العزلـة المضروبـة حـول العمـارة الثامنـة ومـا جاورهـا، والنظـرات القلقـة الـتي تصـدر مـن وإلى أهـل الصّليـب المتاخمـة ديارهـم، والتأهـب التّـام الـذي كان عليـه المختـار ورجالـه مـن تدريـب عـلى الدّفـاع عـن النّفـس إلى دورات التنميـة الذاتيـة.. كلّ ذلـك متراكمـا فـوق تجربـة تـشرّد وأخـرى عامـل مـن الدّرجـة الدّنيـا في ورشـة بنـاء، جعلـني أخلـص إلى ذلـك الاسـتنتاج المريـر.. لـم نكـن مرغوبـين عـلى الأرض الفرنسـيّة! ولـم أعـد أسـتبعد أن نرمـى -كمهاجريـن ومواطنـين مـن الدّرجـة الثانيـة- بـكلّ الـشّرور عـلى أن نحمـل متاعنـا ونرحـل عـلى الفـور!

لذلـك تملّكـني شـعور قـويّ -وقـد بـدا لي صميمـا نابعـا مـن إيمـان ذاتي لا تأثـير لعامـل خارجـيّ فيـه- بـأنّ الرّجـل لا يمكـن أن يكـون انتحاريّـا. فالانتحاريّـون غالبـا مـا يقضـون قبـل الآخريـن. وانتابـني إحسـاس عميـق بالشـفقة عليـه، كأنّـه مـن بعـض أهـلي! كان رجـلا غريبـا مثـلي وقـد مكّنتـه شـهادته العلميّـة مـن العمـل في منصـب يناسـبه، لكـنّ أحدهـم يعتقـد أنّـه لا يسـتحقّ أن يكـون هنـاك، في صفـوف العلمـاء، فاسـتغلّ حادثـة مـا ليـضرب الـرأس العـربيّ المزعـج!

وفي تلـك الأيّـام رأيـت المختـار محتـدّا، يصيـح برجالـه ويـضرب بقبضتـه الطاولـة حـين يـرده جديـد بشـأن القضيـة.. ثـم يختـلي بـأبي أحمـد وبعـض الحـراس طويـلا في غرفـة بالقبـو يتداولـون أمـورا تتجـاوزني. ولعلّهـا تجـاوزت حـدود الـكلام المجـرّد، فقـد بلغتـني أصـداء عمليّـات حـرق ونهـب وتشـويه واجهـات مبـانٍ حكوميّـة بعبـارات تديـن العنصريّـة...

- أيعجبك ما يفعله أصحابك؟

فوجئـت بظهـوره أمامـي عـلى حـين غـرّة بينمـا كنـت منهمـكا في كنـس السـاحة. أبـو صالـح البقّـال.

- أصحابي؟

- كلّ الخـراب الـذي يعـمّ المدينـة، لشـيخك المختـار وحرّاسـه اليـد العليـا

facebook.com/groups/exchange.book

فيـه. ودورك قـادم لا محالـة.. المختـار لا يجنّـد أحـدا عبثـا.

لـم أكـن أسـتوعب كلماتـه، ولـم يكـن يـأتي عـلى ذكـر التجنيـد لأوّل مـرّة. لكـنّ أحـداث الأيّـام الماضيـة كانـت تسـبغ عـلى تصريحاتـه منطقـا ومعـنى. ولـم أجـد مـا أدفـع بـه الأذى عـن شـيخي الـذي أحـترم وأبجّـل.. فحدّقـت في البقّـال مـن دون كلمـة. حينئـذ أخـذني مـن ذراعـي مـن دون تـردّد وقـال:

- تعال معي.

«إخوتي، أشدّ على أياديكم وأبارك مساعيكم.. فإنّكم والله في جهاد».

دخلنـا مسـجدا صغـيرا، لـم أكـن لأتعـرّف عـلى موضعـه لـولا أن قـادني إليـه أبـو صالـح. كان عبـارة عـن قبـو ضئيـل في عمـارة سـكنيّة قريبـة. بخـلاف مسـجد المختـار الـذي لا تخطـئ العـين قبّتـه العريضـة ومئذنتـه الباسـقة -الـتي لا يرفـع فيهـا أذان احترامـا لقانـون اللائكيّـة- لـم تكـن هنـاك مـن علامـة مميّزة تـدلّ عـلى غرفـة الصّـلاة تلـك. جلسـت مـع مرافقـي في الصّفـوف الخلفيّـة، وأصغينـا إلى إمـام يلقـي درسـا عـلى مسـتمعيه.

«ليـس الجهـاد مقتـصرا عـلى حمـل سـيف أو بندقيّـة. ليـس الجهـاد حكـرا عـلى خـوض الحـروب والـرّوح عـلى الكـفّ. هـذا الـذي أنتـم فيـه يـا إخـوتي، جهـاد أيضـا. جهـاد النّفـس.. أنتـم في بـلاد تكـثر فيهـا الفـتن وتحاصركـم مـن كلّ جانـب، نسـاء كاسـيات عاريـات يتمايلـن في الشـوارع، وموائـد عامـرة بخمـور ومأكـولات محرّمـة، مغريـات ماديّـة وبنـوك ربويّـة. تُصعَّـب عليكـم الصّـلاة في المسـاجد وتُمنعـون عنهـا في وقـت الدّراسـة أو العمـل، تحاصركـم الثّلـوج والأمطـار في الشـتاء، لكنّهـا لا تردعكـم عـن اجتيـاز المسـافات البعيـدة.. مـن أجـل صـلاة في جماعـة، مـن أجـل صحبـة صالحـة، مـن أجـل طاعـة...»

تلفّـتُّ مـن حـولي في اهتمـام، فرأيـت وجوهـا واجمـة غلبهـا التأثـر، بعضهـا يـكاد يدمـع. كانـت كلمـات الرّجـل تلامـس قلوبهـم، كأنّـه يضـع يـده عـلى موضـع الجـرح في نفوسـهم، يتحـدّث عـن همومهـم.. لكـنّ قلـبي كان غائبـا، لعـلّي لا أنتمـي إلى أولئـك المجاهديـن الذيـن مدحهـم الشـيخ للتّـوّ. حـتّى تلـك

facebook.com/groups/exchange.book

اللّحظـة كانـت الحاجـة هـي الـتي تقـود خطـواتي. لـم أقـدم عـلى شيء ينـمّ عـن إرادة أو إيمـان أو قناعـة. كنـت ريشـة في مهـبّ الريـح.

«فالثّبـات الثّبـات يـا إخـوة الإيمـان.. والحـذر مـن فخـاخ الغربـة الثلاثـة! الفـخّ الأوّل يـا إخـوتي، هـو التّبعيّـة. أن يستلسـم المـرء أمـام مغريات الحيـاة في الغـرب وينـسى هويّتـه، فيصبـح واحـدا منهـم.. يعيـش كمـا يعيشـون، ويـأكل ممّـا يأكلـون، ويـشرب ممّـا يشربـون والعيـاذ بالله. يحسـبون الاندمـاج ضالّتهـم ورضـا المجتمـع غايتهـم، فيتنكّـرون لأصولهـم، يغـيّرون أسـماءهم وأشـكالهم وينسـون أنّ للكـون ربّـا هـو أولى بالطاعـة والخشـية.. وبمـا أنّكـم هنـا اليـوم، فإنّـني لا أحسـبكم منهـم...»

ابتسـم الشـيخ وهـو يلقـي نظـرة شـاملة عـلى الحشـد، يربّـت بنظراتـه عـلى أكتـاف خانـت أصحابهـا نظـرات مذنبـة، أو ذكـرى زمـن ولّى قبـل التّوبـة عكّـرت صفـو اللّحظـة.

«أمّـا الفـخّ الثّـاني فهـو العزلـة. أن يبقـى المـرء في معـزل عـن المجتمـع الـذي يعيـش فيـه. هـو هنـا.. لكنّـه ليـس هنـا. وكلّنـا نسـقط في هـذا الفـخّ غالبـا.. نحـن نعيـش في فرنسـا، لكنّنـا لا نهتـمّ بمشـاغل المجتمـع الفرنـسيّ، نتفـرّج عـلى الأزمـات مـن بعيـد ونقـول «فخّـار يكـسّر بعضـه بعضـا». مـع أنّ المسـلم يجـب أن يكـون عضـوا فاعـلا في المجتمـع.. أيّ مجتمـع كان! بحركيّتـه، باهتمامـه، بانسـجامه، هـو داعيـة. هـو قـدوة. هـو واجهـة للإسـلام. تعلمـون.. حـين تحصـل حادثـة مـا، لا أحـد يصـف مواطنـا فرنسـيّا عـلى أنّـه مـن أصـل «يونـاني» أو «رومـاني» أو «مكسـيكي».. لكـن حـين يكـون مـن أصـل عـربيّ أو إفريقـي، فتلـك الصّفـة هـي الأبـرز والأهـمّ في نظـر المجتمـع بصفـة عامّـة، والإعـلام بصفـة خاصّـة. والقضيـة الـتي تشـغل الـرّأي العـام في أيّامنـا هـذه خـير دليـل! لذلـك فلنجعلهـا صفـة بـارزة في الخـير.. لنجعلهـم يقولـون: عـربيّ أنجـز مشروعـا، أو حقّـق نجاحـا.. لكـن حـذار، فقـد يقودنـا البحـث عـن عرفـان المجتمـع إلى فـخّ التبعيّـة. نحـن لا ننتظـر جـزاء ولا شـكورا عـلى مـا نفعلـه، بـل اللـه هـو المجـازي...»

facebook.com/groups/exchange.book

أخـذ الشـيخ جرعـة مـاء ريثمـا يسـتوعب الحـاضرون العـبرة، ثـمّ أردف بلهجـة جـادّة وصـوت عميـق:

«أمّـا الفـخّ الأخـير والأخطـر فهـو العدوانيّـة واتبـاع العنـف. وهـو أمـر للأسـف تقـع فيـه جماعـات تسـمّي نفسـها بالإسـلاميّة، والإسـلام منهـا بـريء! الإسـلام لـم يقـل اعتـدوا عـلى الآمنـين وروّعـوا المواطنـين. لـم يقـل هـدّدوا وأفزعـوا وعـادوا. وإنّـه ليحزنـني مـا يحصـل مـن حولنـا اليـوم. شـباب في عمـر الزّهـور لا يـكاد يتعـرّف عـلى دينـه، يغـرّر بـه ليدخـل متاهـات العنـف المهلكـة. ألـم يقـل اللـه عـزّ وجـلّ في كتابـه الحكيـم ﴿وجادلهـم بالـتي هـي أحسـن﴾؟ ألـم يقـل ﴿فبمـا رحمـة مـن اللـه لنـت لهـم ولـو كنـت فظـا غليـظ القلـب لانفضـوا مـن حولـك﴾؟ والآيـات الـتي تحـثّ عـلى حسـن الخلـق في مخاطبـة غـير المسـلمين كثـيرة...»

- لكنّـه قـال أيضـا ﴿وقاتلوهـم حـتى لا تكـون فتنـة ويكـون الديـن للـه﴾، وقـال ﴿قاتلوهـم يعذبهـم اللـه بأيديكـم ويخزهـم وينصركـم عليهـم ويشـف صـدور قـوم مؤمنـين﴾...

التفتـت الأبصـار إلى الشّـاب الـذي أخـذ الكلمـة مـن دون اسـتئذان، وبـدت في عينيـه نظـرة تحـدّ سـافرة. تذكّـرت وجهـه عـلى الفـور. كنـت قـد رأيتـه مـرارا في حـضرة الشـيخ المختـار. سرى التوتّـر في الحضـور وقـد توقّعـوا الأسـوأ. مواجهـة بـين مدرسـتين. ابتسـم الشـيخ المحـاضر وقـال للشـابّ:

- ما اسمك يا بنيّ؟ تقدّم إلى الصفّ الأوّل حتّى أراك..

تململ الشاب في مكانه ولم يتحرّك لكنه قال:

- اسمي أسامة..

خمّن البعض أنّ الاسم ليس حقيقيّا، لكنّه اختاره إمعانا في التحدّي.

- أخبرني يا أسامة.. هل تريد أن تحمل السلاح؟ وتقاتل؟

- نعم!

facebook.com/groups/exchange.book

- اذهب إلى فلسطين إذن.. حيث لا شبهة ولا اشتباه!

- أوليست هذه دار حرب أيضا؟

رمقه الشيخ متعجّبا:

- دار الحـرب؟ هـل تعلـم كـم مـضى مـن الوقـت مـذ انطفـأت هـذه التصنيفـات؟ يـا بـنيّ، نحـن الآن في زمـن تغـيّرت فيـه خارطـة العالـم بشـكل كبـير. أصبـح الإسـلام دينـا معروفـا ومعترفـا بـه في مختلـف أصقـاع الأرض. يمكـن للمسـلم أن يمـضي أنّى شـاء لتقابلـه المسـاجد في كلّ عواصـم العالـم وحـتّى أريافهـا، ولا أحـد يقطـع طريقـه أو يمنعـه عـن ربّـه.. مـا عـدا عـددا قليلا مـن المناطـق المعروفـة الـتي مـا زالـت اتـون الحـرب تشـتعل فيهـا. لذلـك، لا يـا ولـدي، لسـنا في دار حـرب! نحـن في بلـد اسـتقبل !المسـلمين المنفيّـين مـن بلادهـم الـتي تدّعـي الإسـلام وضمـن لهـم حريّـة الدّيـن والمعتقـد وآمنهـم عـلى أرواحهـم وأموالهـم.. اسـأل آبـاءك أو أجـدادك، مـا الـذي جـاء بهـم إلى فرنسـا؟

- لكـنّ الوضـع اختلـف يـا سـيّدي، ألا تـرى كيـف صـاروا يضيّقـون عـلى الملتحـين؟ ويمنعـون المحجّبـات مـن الدّراسـة والعمـل؟ ويغلقـون المسـاجد؟ ويتهمونـا بالإرهـاب؟ ألا يعلنـون علينـا الحـرب بهـذا الشـكل؟

بدا الشاب محتدّا وقد علت حماسته، فقاطعه الشيخ في حزم:

- هـل تعلـم كـم مسـلما تـؤوي فرنسـا؟ نحـن نزيـد عـلى الملايـين السـتة! نحـن أكـبر عـددا بكثـير مـن سـكان موناكـو وسـلوفينيا وألبانيـا ولكسـمبورغ مجتمعـين! عددنـا يقـارب عـدد سـكان سـويسرا! يمكننـا أن نكـوّن دولـة داخـل الدّولـة لـو أردنـا. ولكـن هـل نريـد؟ لـو شـئنا لاجتمعنـا حـول رجـل واحـد.. أو رجـال، وحّدنـا صفوفنـا خلفهـم وأوصلناهـم إلى البرلمـان أو المجالـس البلديّـة والنّيابيّـة. كنّـا جعلناهـم يوصلـون مطالبنـا ويخدمـون مصالـح أمّتنـا.. لكـن كيـف نفعـل؟ كيـف نفعـل ونحـن مشرذمـون متفرّقـون فينـا السّـلفيّون والحدائيّـون والتكفيريّـون والمندمجـون؟

facebook.com/groups/exchange.book

- سيّدي، البرلمانَ والمجالس النّيابيّة والدّساتير.. كلّها منشآت وضعية لا يصحّ للمسلم الاحتكام إليها.. مرجعيّتنا هي القرآن والسنّة!

- إذن نقنع الحكومة الفرنسيّة بالقرآن والسّنة حتى تحترم ديننا؟

- نعرض عليهم الإسلام، فإن لم يرضوا قاتلناهم!

قال الشيخ في سخرية:

- اعرض عليهم أن يدفعوا لك الجزية أيضا!

امتقع وجه أسامة في حين سرت موجة ضحك بين الحاضرين، لكنّه تماسك واحتجّ قائلا:

- لا يدفعونها لي.. بل إلى بيت مال المسلمين!

هنا انفجر الضحك بحريّة وانطلاق أكبر وقد أصبح الحوار مثيرا للهزل، فأشار الشيخ بكفّه طالبا الهدوء، ثمّ قال مسترجعا نبرته الجادّة:

- أعلم أنّك تؤمن بما تقول يا بنيّ.. وهذا يؤلمني. أين هو بيت مال المسلمين؟ بل أين هم المسلمون حقّا؟ ثمّ هل تعلم ما هي شروط الجهاد يا بنيّ؟ أوّلها أن يكون هناك عدوان واضح على الأنفس أو الدين أو الممتلكات فيقوم النّاس مدافعين عن بكرة أبيهم، وهو ما يحدث في فلسطين المحتلّة مثلا، وثانيها أن يعلن وليّ الأمر الخروج إلى الجهاد لقتال عدوّ في عقر داره.. فأيّ الحالات تنطبق علينا هنا؟

تلعثم الشابّ ولم يحر جوابا، فتابع الشيخ بحزم:

- نحن في بلاد تحكمها قوانين، وتربطها بمختلف بلاد العالم معاهدات ولوائح.. دخولك إلى الأراضي الفرنسيّة بتأشيرة وحصولك على الإقامة وربّما الجنسيّة يعتبر في عرف هذا العصر بمثابة المواثيق قديما، وإعطاءً للأمان، فإذا آذيت أو اعتديت فقد خنت الميثاق الضمني. إن أردنا البقاء هنا فلنحتكم إلى قانون البلاد ولنبحث عن وسيلة لنُسمع رأينا من خلالها، نخاطب النّاس بالحكمة والموعظة الحسنة ونوصل للغرب صورة

facebook.com/groups/exchange.book

حسنة عن ديننا.. وإلا فالهجرة! ولكم أن تعودوا غزاة في يوم من الأيّام إن شئتم، بقوّة تخضع الدّولة ولا تعتدي على الآمنين!

حين غادرت المكان وأخذت أتمشى مبتعدا في الظلام، همس أبو صالح إليّ في شماتة:

- سيعود الولد إلى المختار باكيا!

لم أضحك. كنت متخبّطا في داخلي، مثل أسامة أو أكثر. سمعت أبا صالح يواصل:

- هذا الشّباب المسكين مغرّر به.. المختار غسل أدمغتهم! ما يحيّرني هو المختار نفسه.. هل هو مقتنع بما يقول ويفعل، أم أنّ أحدهم غرّر به هو الآخر؟

هتفت باستنكار:

- وهل المختار ولد ساذج حتّى يغرّر به؟

ندّت عن الرّجل ضحكة صفراء، وسبقني باتّجاه المقهى.

حسب تشخيص الدكتور مالك، كنت مصابا بمتلازمة «شلة المقهى». وهو مرض بظهر غالبا عند الذكور في العقد الخامس، لكنني أصبت به في وقت باكر جدّا بسبب بطالتي!

تعرفت على مقهاي الجديد ذات عصر مشمس. كنت أقصد بقالة أبي صالح لكنّه لم يكن في دكانه. كان المحلّ مفتوحا من دون أثر لصاحبه. وقفت في حيرة أتفحّص الشارع، حين لمحته يلوّح لي من بعيد، من شرفة المقهى. على الطريق الرئيسية المؤدية إلى مدخل المجمع السكني، كانت محلاّت خاصّة بالجالية العربية تبدو للعيان. مجزرة لحوم حلال،

facebook.com/groups/exchange.book

بقالـة شرقيـة، محـلّ فواكـه وخـضراوات، دكان حـلاّق، مطعـم كبـاب ومقهـى نارجيلـة! خلاصـة مـا يحتاجـه المقيـم العـربي حـتّى يشـعر بـأنّ الوطـن قـد شـدّ الرّحـال معـه وحـطّ المتـاع حيـث يكـون! وفي شرفـة المقهـى ذلـك اليـوم، تعرّفـت إلى شـلة المقهـى الجديـد.

كان مالـك تونسـيّا في بدايـة الأربعينـات، دكتـورا في الطـبّ يمـارس المهنـة في مستشـفى خـاصّ إضافـة إلى عيـادة مسـائيّة.. لكنّـه في الفـترة الـتي عرفتـه خلالهـا كان يمـرّ بفـترة فتـور تجـاه كلّ شيء. يعيـد ترتيـب أولويّاتـه، عـلى حـدّ قولـه. فأخـذ إجـازة مفتوحـة مـن كلّ أشـغاله وأدمـن جلسـة المقهـى تلـك. يقـول مازحـا: «أنـا وأنـت أدركتنـا المتلازمـة قبـل الأوان!». فقـد كنّـا شـابّين بـين مجموعـة مـن الشـيوخ. أبـو صالـح البقـال المغـربي وأبـو مـازن المهنـدس السّـوري المتقاعـد وأبـو محمّـد العسـكريّ المـصريّ السّـابق. وكان هـو فاكهـة الجلسـة وطعمهـا الـلاذع في آن. في غيابـه يهبـط عـلى جمعنـا ملـل رهيـب. فقـد كانـت لديـه أفـكار غـير مألوفـة ومثـيرة للجـدل. يلقـي بـنرده عابثـا ليلتقـط فكـرة عشـوائيّا ويشـغلنا في تمحيصهـا طـوال الجلسـة. ومـا كان لأمثالـه أن يضيعـوا أوقاتهـم الثمينـة مـع أمثالنـا إلا لسـبب مجهـول، سـيظلّ لغـزا بالنّسـبة إليّ إلى النهايـة.

عـن المتلازمـة الـتي اكتشـف أعراضهـا يقـول: «شـلة المقهـى ليسـوا أصدقـاءك، لأنّـك لا تفضفـض إليهـم، ولا يحلّـون مشـكلاتك، بـل لا يعلمـون بوجودهـا مـن الأسـاس ولا يهتمّـون.. أنـت تدخـل عليهـم ثقيـلا بهمومـك، وتنهـض مـن عندهـم بنفـس الثقـل. ولكـن يـا للعجـب، فـإنّ كثافـة الهمـوم تنقـص بتخلّـل المـرح لذلـك الجسـم الصلـب المتكتـل بعضـه فـوق بعـض، فيغـدو محتمـلا بعـد أن كان لا يطـاق. وأنـت إلى جوارهـم، يخالجـك إحسـاس بـأنّ همومـك قـد تلاشـت أو خفّـت وطأتهـا.. لكـن مـا أن تفارقهـم وترجـع إلى حياتـك الأخـرى حـتّى تتفـرّق سـحب المـرح وتعـود الكتـل لتتكـدّس مثـل ذي قبـل، فتغرقـك الكآبـة. هـم تمويـه وقـتيّ يزيّـف المشـكل ولا يعالجـه. تمامـا مثـل المخـدّرات!».

facebook.com/groups/exchange.book

وكـم كان محقّـا في توصيفـه. فقـد أدمنتهـا، تلـك الجلسـة، كمـا أدمنـت سـابقاتها في عنّابـة وتبسـة والجزائـر العاصمـة. مـا أن تعـرّف أنفـي عـلى عبـق التبـغ ودخـان النارجيلـة وبلـغ أذني حفيـف ورق اللعـب وضربـات الـنّرد في الصّناديـق الخشـب، حـتّى اسـتحضرت ذاكـرتي تلـك «الحالـة» الـتي توحـي بنـوع مـن «الوطـن»، أحملـه في جـرابي، أطويـه وأخزنـه ثـمّ أنفضـه وأفترشـه مـتى احتجتـه! بعـض الرّحالـة أو المحاربـين القدامـى، كانـت لهـم زوجـات في كلّ مدينـة يقصدونهـا، فـلا يشـعر أحدهـم بوحشـة أو غربـة. وأنـا كانـت لي في كلّ مدينـة تـردّدت عليهـا «شـلّة مقهـى» تبـدّد سـأمي ووحـدتي.

لكـن شـلّة المقهـى الجديـدة كانـت مختلفـة. فلـم يكـن هنـاك مـن قاسـم مشـترك يجمعـني بأفرادهـا، غـير الجلسـة الـتي نحتاجهـا بنفـس القـدر وبنفـس درجـة الإلحـاح. ومـع ذلـك، فسـتحملني الأيّـام المقبلـة إلى تركهـا فـترة طويلـة قـسرا لا طواعيـة.

أمّـا في ذلـك اليـوم، وبعـد زيـارة مسـجد الشـيخ البشـير تلـك، أعـاد أبـو صالـح روايـة تفاصيـل المناظـرة بـين الشـيخ وتلميـذ المختـار عـلى شـلة المقهـى. فضحكـوا وضجّـوا بمـزاح لاذع عـن المختـار وفرقتـه. فانزويـت عنهـم مسـتاءً. هتـف أبـو مـازن يناوشـني:

- إحساسي يقول إنّ المختار يدسّك علينا لتحمل إليه الأخبار!

ولـم يكـن ذلـك النـوع مـن المـزاح يمتعـني. وكأنّمـا أشـفق الدكتـور مالـك عـليّ ممّـا يعتريـني، فانتحـى بي جانبـا وقـال بلهجـة جـادّة:

- دعك منهم وتعال.. أريد أن أقصّ عليك حكاية.

facebook.com/groups/exchange.book

«في زمن ما، كانت هناك سفينة تعبر الأطلسي. فلنقل إنها باخرة كبيرة مكونة من ثلاثة طوابق.. وطابق رابع في أعماقها السّفلية لا يكاد يعرف عنه أكثر الرّكاب شيئا..»

قاطعت حكاية الدكتور مالك مستفسرا:

- سفينة مثل التايتانيك؟

- إن كانت صورة التايتانيك تساعدك على التخيّل، فلنقل إنها كذلك. في الطابق العلويّ من الباخرة يسكن علية القوم، أمراء ورجال أعمال وسياسيّون يستمتعون بجولة بحريّة مع عائلاتهم.. لكلّ منهم جناح خاصّ واسع الأرجاء. وفي الطابق الأوسط نجد موظفين سامين وأطباء ومحامين ومهندسين يسكنون قمرات صغيرة الحجم محدودة الرفاهية. ثمّ في الطابق السّفليّ أفراد من الطبقة الكادحة، خدم لمسافري الطبقة المخمليّة أو عمّال على متن الرّحلة، ولا شك أن أولئك الأفراد كانوا ينامون على أسرّة متلاصقة في فضاء مفتوح. لكنّ أمورا غير متوقعة حصلت في أثناء عبور الأطلسيّ..

- الباخرة اصطدمت بجبل جليد؟

- انس التايتانيك قليلا.. باخرتنا لم تتحطّم، ليس في البداية.. لكنّها دخلت مثلث برمودا.

- هذا أسوأ! السّفن لا ترجع أبدا من ذلك المكان، تختفي ولا يجد لها أحد أثرا!

- قبل أن نكمل القصّة، دعني أقدّم لك أبطال الحكاية.. من بين كلّ ركاب الباخرة سنهتمّ بثلاثة أشخاص، فلنسمّهم (أ) و(ب) و(ج).. (أ) من الطبقة العليا، ابن أحد المسؤولين الكبار في بلاده وكان يمضي شهر عسل مع عروسه على متن الباخرة.. أمّا (ب) فهو من الطبقة الوسطى، مهندس ميكانيكا، وكان مكلّفا بمراقبة المحرّكات طوال الرّحلة. وأمّا (ج) فهو سجين

facebook.com/groups/exchange.book

محكـوم بالإعـدام كان يتـمّ نقلـه مـن سـجن إلى آخـر في زنازيـن مهيئـة في قبـو السـفينة.

عندمـا مـضى وقـت طويـل عـلى الباخـرة وهـي تسـير عـلى غـير هـدى، بـدأ الـرّكاب في التململ والتسـاؤل. فاضطـرّ القبطـان إلى إعـلان فقدانـه المسـار! عـمّ هـرج كبـير وارتبـك الجميـع، في حـين واصـل طاقـم السـفينة محـاولات التواصـل مـع سـفن أخـرى عـبر الـرادار، مـن دون جـدوى. في ظـل تلـك الظـروف الحرجـة كان عـلى أحدهـم أن يمسـك بزمـام الأمـور. اقـترح (أ) تكوين خليّـة أزمـة تديـر شـؤون الباخـرة وتقـرّر خطّـة تحكّـم في المـوارد المتوافـرة في مخـازن الغـذاء والـدّواء، لضمـان تواصـل الحيـاة عـلى مـتن الباخـرة أطـول وقـت ممكـن. لقـي الاقـتراح ترحيبـا كبـيرا، وتكوّنـت الخليّـة عـلى عجـل. وكان مـن الطبيعـيّ أن يكـون كلّ أفرادهـا مـن مسـافري الطابـق العلـويّ، فهـم متعـوّدون عـلى اتخـاذ القـرارات ووضـع الخطـط. كمـا تمّـت الاسـتعانة بـذوي الخـبرات مـن مسـافري الطابـق الأوسـط ومـن بينهـم (ب). وتكـوّن بالتـوازي مجلـس أعـلى يراقـب عمـل الخليّـة ويقيّمـه، وهـو يضـمّ كبـار رجـال الأعمـال، إضافـة إلى القبطـان نفسـه. بعـد فـترة وجـيزة مـن بدايـة عمـل الخليـة، قـرر المجلـس تسريـح (ب)!

- لماذا (ب) بالذات؟

- حـين طُلِـب مـن (ب) تقديـم رؤيتـه للأزمـة أمـام المجلـس الأعـلى، اقـترح بـكلّ جسـارة أن تضـمّ الخليّـة ممثّلـين مـن الطابـق السّـفلي! أوليسـوا ركابـا على مـتن الباخـرة ومصيرهـم مـن مصيرهـا؟ إذن مـن حقّهـم أن يكـون لهـم ممثلون يضمنـون حقوقهـم، فـلا يكـون هنـاك إجحـاف في توزيـع المـؤن مثـلا. موقفـه وقناعاتـه كلفتـه مقعـده في الخليّـة ومنعـت عنـه امتيازاتـه السّـابقة كفـرد مـن طاقـم الباخـرة. فمـا كان منـه إلا الانضمـام الفعـليّ إلى أهـل الطبقـة السـفليّة، والتحريـض عـلى مظاهـرات واحتجاجـات مطالبـة بحقّهـم في تقريـر مصيرهـم. قـاد المظاهـرات والتحـرّكات التحرّريـة للمطالبـة بالمشـاركة في اتّخـاذ القـرار، حـتّى رضـخ المجلـس الأعـلى! ولـم يكـن للمجلـس خيـار آخـر. فقـد خرجـت

facebook.com/groups/exchange.book

الأمـور عـن سـيطرته حـين امتنـع الخـدم عـن تأديـة أعمـال التنظيـف وتوقّـف الطبّاخــون عــن خدمــة مطعــم الطبقــة العليــا الفاخــر.. وأضرب البحّــارة والملاّحـون. فقبـل المجلـس الأعـلى بحصـول أفـراد مـن الطابـق السـفليّ عـلى مقاعـد في مائـدة خليّـة الأزمـة.

- جميل...

- كان ذلــك ليكــون جميــلا حقّــا، لــو كانــت نوايــا المجلــس الأعــلى دعــم ديمقراطيـة فعليّـة، لا تكميـم أفـواه المحتجّـين وإخمـاد ثورتهـم بإطعامهـم فتاتـا مـن الحريّـة! وقـد نـدم المجلـس ندمـا شـديدا في مـا بعـد حـين كشـفت استطلاعات الرّأي عـن شـعبيّة مرتفعـة لجماعـة (ب) وتراجـع لشـعبيّة ممثلي الطبقـة الراقيـة بـين أبنـاء الطبقـة نفسـها. انقسـم أعضـاء المجلـس الأعـلى إلى اسـتئصاليين كانـوا يريـدون دفـع جماعـة (ب) إلى الثـورة ليتسـنى لهـم قهـر «الحركـة الثوريـة» ومـن ثمـة حـلّ الحركـة نهائيـا.. وعقلانيّـين، كانـوا يعتقـدون دائمـا في إمكانيـة تدجـين الحركـة، وأنّ اللجـوء إلى التدخّـل بالقـوة لا ينبغـي أن يتـمّ إلا في حـالات الـضرورة القصـوى. ولمّـا كان عـدد الاسـتئصاليين أكـبر وشـوكتهم أقـوى، فقـد تـمّ تنفيـذ مخطّطهـم.

انكبّــت قــوات الأمــن عــلى بعــث حركــة متطرّفــة مســلحة مــن العــدم، مسـتخدمين السّـجناء الذيـن كان يتـمّ نقلهـم عـلى الباخـرة! انتقيـت مـن ضمن هــؤلاء المســاجين عنــاصر مطواعــة وموثوقــة، أعلنــت استســلامها واعتزامهــا تنفيـذ المطلـوب منهـا مـن دون أدنى حـرج أو ضمـير، مـا دامـت تضمـن لهـا الحريّـة في مـا بعـد! تـمّ إطلاقهـم عـلى سـطح الباخـرة، برئاسـة (ج)، حاملـين رايـة «الجنـاح العسـكريّ المسـلّح لحركـة (ب)»! والهـدف الأوحـد هـو إعطـاء انطبـاع للـرأي العـام بـأن حركـة (ب) بكاملهـا تسـعى إلى فـرض سـيطرتها عـلى الباخـرة باسـتعمال القـوّة. أخـذوا يجوبـون سراديـب السـفينة طـولا وعرضـا ويقنعــون الــرّكاب بــضرورة رفــع السّــلاح في وجــه الاســتبداد. كانــوا ينجحــون في تجنيــد ذوي الفكــر المتطــرف والأيديولوجيــا المتشــدّدة السّــاخطين عــلى أوضاعهــم.

facebook.com/groups/exchange.book

لكـنّ المسـار الـذي اتخذتـه الأحـداث كان يمـضي باتجـاه هاويـة سـحيقة. كانـت عمليـات اسـتخدام المجرمـين والسـجناء قـد تفاقمـت وأُخِـذت بتهـاونٍ، بشـكل خـرج عـن السّـيطرة. ووقفـت خلايـا التجسـس عاجـزة بعـد أن غـدت غـير قـادرة عـلى تميـيز «عملائهـا»! كان لـكل عضـو مـن المجلـس الأعـلى عمـلاؤه الخاصّـون بـه، وكلّ طـرف كان يعتقـد أنـه يتعامـل مـع إرهابيـين حقيقيـين، في حـين أن هـؤلاء الإرهابيـين كانـوا عمـلاء مجنديـن مـن قبـل طـرف آخـر! وأغلـق الأمـر عـلى مصالـح الأمـن كافّـة، وقيـادات حركـة (ب)، وعـاث الإرهابيّـون الحقيقيّـون والمجنّـدون في السـفينة فسـادا!

وفي خضـمّ ذلـك الالتبـاس، فقـد (ب) ثقتـه في الحركـة ورفـاق الكفـاح. لـم يعـد يتعـرّف العـدوّ مـن الصّديـق، ولا يمـيّز بـين الصّـادق والمخـادع في دفاعـه عـن الرؤيـة الجماعيّـة الـتي جمعـت شـمل المناضلـين في البدايـة. ومـع حمـلات التجنيـد المكثّفـة، وحمـلات التشـويه المسـتمرّة مـن أبـواق المجلـس الإعلاميّـة، اقتنـع الكثـيرون بـضرورة التسـلّح عـلى الفـور.. لأنّ المذبحـة آتيـة لا محالـة! لكـنّ (ب) قـاوم بـكل مـا أوتي مـن طاقـة وسـعى إلى ثـني رفاقـه عـن التحـوّل إلى العمـل المسـلح.. مـن دون جـدوى. وفي ذلـك الوقـت، تبـيّن لـ(أ) بعـد بحـث واسـتقصاء أنّـه قبـل وضـع الخطـة الشـيطانيّة قيـد التنفيـذ، لـم يكـن هنـاك لا جنـاح مسـلّح لحركـة (ب) ولا تهديـد للمسـار الانتخـابي ولا نـداء للكفـاح الدّمـوي، ولا أدنى أثـر للإرهـاب! لكـنّ الأعمـال المتهـوّرة الـتي خطّـط لهـا زمـلاؤه مـن الاسـتئصاليّين هـي الـتي دفعـت بالباخـرة إلى جحيـم العنـف التّصاعـديّ، فتصدّعـت ثقتـه في كلّ المحيطـين بـه.

- ما الذي فعله إزاء هذا الموقف؟

- مـا رأيـك أنـت؟ هـل كان (أ) يملـك خيـارا مـا؟ هـل تعتقـد أنـه قـد ينضـمّ إلى الثـوار كمـا فعـل (ب)؟ الانتقـال كان أسـهل بالنسـبة إلى (ب)، فهـو حـرّ، لا عائلـة ترافقـه، وهـو ينتمـي إلى طبقـة متوسـطة.. لا ثـروة ولا ممتلـكات يخـشى عليهـا. أمّـا (أ) فهـو في وضعـه الطبيعـي بـين أبنـاء طبقتـه. حـتى لـو استشـعر منهـم تغـيرا فهـو لا يملـك لمحيطـه ذاك بديـلا.. سـيجد لهـم الأعـذار، ويتقبل

facebook.com/groups/exchange.book

طغيانهـم.. لذلـك فـإنّ انقـلاب أبنـاء الطبقـة الرفيعـة عـلى النظـام السّـائد نـادر الحـدوث، والقصـص والحكايـات مكانـه الأثـير.. أمـا الواقـع فمختلـف.

- ماذا حصل إذن؟

- سـأختصر عليـك الصّراعـات النفسـيّة وتفاصيـل الانهيـار الشـامل لعالـم الباخـرة كمـا عرفنـاه في بدايـة الحكايـة.. المشـهد الأخـير، نـرى فيـه (أ)، (ب)، (ج) يتواجهـون في بهـو الباخـرة، كلّ يدعـم قبيلتـه، (أ) و(ب) بـتردّد وقلـق، فكل منهمـا فاقـد الثقـة في عشـيرته، منبـتّ عنهـا رغـم الاصطفـاف الظاهـري، و(ج) في ثبـات وعـزم. رغـم معرفـة (ج) بخدمتـه لنوايـا الـشرّ فـإنّ ذلـك لا يثـير اضطرابـه، فقـد فعـل ذلـك طـوال حياتـه.

- ثمّ؟

- ثم.. لا شيء!

- ما الذي حصل للباخرة؟

- الباخرة؟ ألم أقل لك؟ لقد غرقت!

- غرقت؟ وهل نجا أحد الرّكاب؟

- كلاّ! هل نسيت؟ إنّه مثلث برمودا الذي لا ينجو منه أحد!

- والحكاية إذن، كيف وصلت إليك؟

- إنّها مجرّد حكاية! لم أقل قط إنّها حصلت في الواقع!

رمقتـه في اسـتنكار.. مجـرّد حكايـة؟ لـم تبـد كذلـك قـط. كلّمـا تقـدّم في الحديـث ازداد يقيـني بـأنّ كلّ تلـك الأحـداث لا يمكـن أن يكـون مسرحهـا باخـرة مـا غرقـت ولـم يعلـم أحـد عـن مصـير ركّابهـا شـيئا. بادرتـه في شـك كأنـني قـد أمسـكت بخيـط:

- إنّهـا ليسـت مجـرّد قصّـة باخـرة مـا، أليـس كذلـك؟ أنـت تلمّـح لتاريـخ بلـد مـا!

- الباخـرة بالتأكيـد تجسّـد المجتمعـات الحديثـة بمـا فيهـا مـن تقسـيمات

facebook.com/groups/exchange.book

طبقيّـة فجّـة.. لكـنّ الإطـار الجغـرافي ليسـا مهمّـا. البلـد ذاتـه لا يعـني شـيئا.. الأشـخاص الذيـن يعمرّونـه هـم المفتـاح.. فـذات البلـد يختلـف عـبر الحقـب الزمنيّـة كلّمـا تعاقـب عليـه أجيـال مختلفـة. لكـن إن كنـت مـصرًا عـلى تحديـد إطـار مـكاني، فلنقـل إنّهـا أمريـكا زمـن ثـورة العبيـد السّـود!

- تكلّـم عـن حقبـة أعرفهـا.. فقـد زدت الأمـر غموضا! أليـس في بلاد المسـلمين مثـال يمكن أن يجسّـد حكايتـك بوضوح؟

أسـتفزّه وأسـتدرجه. أعلـم يقينـا أنّ حكايتـه واقعـة في مـكان مـا قريـب، لكنّـه يتعمّـد الترمـيز. يقـول في عصبيّـة:

- ابـن المقفّـع وأورويـل كتبـا السّياسـة عـلى ألسـنة الحيوانـات، وأنـت عاجـز عـن متابعـة حكايـة بـشر أسـماؤهم (أ) و(ب) و(ج)؟! كلّ بلادنـا العربيّـة بواخـر تعـبر مثلـث برمـودا.. وهـي تغـرق واحـدة إثـر الأخـرى، بأيـدي ركابهـا لا بفعـل المـوج أو الإعصـار. مثلثـات برمـودا بأضلعهـا الثـلاث.. الدّيكتاتوريـة، التطـرّف الأديولوجـي بأنواعـه، العصبيّـة الإثنيـة والطائفيّـة.. تـرزح تحتهـا المجتمعـات، فتنهـك نفسـها بنفسـها.. ويـأكل بعضهـا بعضـا مـن دون أيّ تدخـل خارجـيّ. ربّمـا كانـت باخرتنـا لتهلـك بعـد زمـن، وربّمـا كان ركابهـا ليقضـوا بعـد أن ينفـد منهـم الـزّاد.. لكنّهـم اسـتعجلوا النّهايـة، وأهلكـوا أنفسـهم بصراعهـم المسـتميت عـلى السّـلطة والـثروات.. ولـو أنّهـم تعاملـوا مـع الأزمـة برصانـة لربّمـا خرجـوا مـن التّيـه أو وصلتهـم النجـدة.. ألـم تلحـظ أنّ انشـغال الـرّكاب بمسـألة مـن يتّخـذ القـرار شـغلتهم عـن المعضلـة الحقيقيّـة.. كيفيّـة الخـروج مـن مثلـث الهـلاك؟

- أنـت تقـول إنّ مثلـث برمـودا وهـم وإنّ الباخـرات المفقـودة كانـت تتعـرّض لأزمـات داخليّـة تهلكها؟

- تريـد الحقيقـة؟ نعـم، مثلـث برمـودا أسـطورة يـا صديقـي! لم يثبـت علميّا أو إحصائيّـا أنّ اختفـاءات السّـفن والطائـرات والحـوادث في المنطقـة تفـوق مـا يحصـل في مناطـق أخـرى في المحيـط. لكـنّ الحكايـة كلهـا كانـت مفتعلـة

facebook.com/groups/exchange.book

مـن الصّحافـة الصفـراء في خمسـينات القـرن المـاضي، كنـوع مـن الغمـوض والإثـارة. وإن أردت رأيي، فـإنّ العواصـف الاسـتوائيّة ربمـا تكـون تفسـيرا منطقيّـا محتمـلا للحـوادث الـتي أشـيع غموضهـا. مثلـث برمـودا الحقيقـيّ موجـود فقـط في رؤوسـنا. في مـا نختـار أن نصدّقـه!

عندمـا كنـت طفـلا ومراهقـا، لـم أكـن أفقـه الكثـير في متاهـات السّياسـة. وحـين غـدوت شـابا، لـم تعـد السّياسـة تعنيـني مـن قريـب او بعيـد. لكـن حكايـة الدكتـور مالـك أذكـت نـارا خامـدة وأحيـت ذكريـات بعيـدة سـبق وركنتهـا إلى النسـيان.

عمّـي كان يـردّد كلّمـا طافـت بالأجـواء أنبـاء جديـدة عـن الإرهابيّـين الذيـن روّعـت سـيرتهم أفئـدة الأهـالي شـيبا وشـبابا: «ليـس كلّ مـا تـراه العـين حقيقـة. عقلـك قـد يضلّلـك.. لكـنّ قلبـك سـيكون دومـا صادقـا». مـا تـراه عيـني كان دمـارا وخرابـا وجزعـا مسـتبدّا. كنّـا نسـتغيث مـن وراء الأبـواب المغلقـة والجدر السّـميكة.. نريـد أمانـا. نريـد اسـتقرارا. ولتذهـب إلى الجحيـم الانتخابـات وحريـة القـرار! وقلـب عمّـي وحـده كان يحدّثـه صادقـا بغـير ذلـك. أمّا قلـب أبي - الصـادق هـو الآخـر - كان يؤيّـد مـا تـراه عينـه. فهـل يكـون القلبـان صادقـين في الوقـت ذاتـه وأحدهمـا يـرى عكـس الآخـر؟ عمّـي كان يقـول أيضـا مشـيرا إلى سـلوك أبي: «أنـت تصـدّق مـا تريـد أن تصدّقـه. إن جـاءك خـبر سـيئ عـن عـدوّك، فسـتميل إلى تصديقـه ولـو انتفـت البراهـين». لكـنّ العكـس بالعكـس أيضـا.. إذا مـا جـاءك نبـأ لا يـسرّ عـن صديقـك، فسـتكذّبه ولـو اسـتحكمت الأدلّـة!

كـم كانـت حالنـا آنـذاك شـبيهة بمجتمـع الباخـرة الـذي وصّفـه الدكتـور مالـك في حكايتـه الغريبـة. الإسـلاميّون كـسروا شـوكة الجيـش بفوزهـم في

facebook.com/groups/exchange.book

الانتخابـات، فـكان لزامـا أن تلغـى الانتخابـات وتقلـب الطاولـة بمـا عليهـا وتنقلـب حريـا شـعواء تحـرق البـلاد والعبـاد.

وسـيظلّ يونـس راعـي الغنـم لسـنوات يـروي تفاصيـل الحادثـة الـتي يقـول إنّـه رآهـا بـأمّ عينـه. يقسـم بأغلـظ الأيمـان إنّ شـاحنات ضخمـة محمّلـة عـن آخرهـا كانـت تعـبر المسـالك الوعـرة المؤدّيـة إلى الجبـال، متجنبّـة القـرى والطـرق المعبّـدة، فتفـرغ حمولتهـا في بقـاع مجهولـة لـم تطأهـا قـدم بـشر. يقـول إنّـه اقـترب في حـذر مخلفـا نعجاتـه شـاردة ليلقـي نظـرة مـن كثـب، فـرأى أكـوام السّـلاح الـذي يخـزّن في كهـوف جبليّـة حديثـة الحفـر. يقسـم إنّـه مـيّز البـذلات العسـكريّة. كان ذلـك طويـلا قبـل أن يظهـر بعبـع الإسـلاميّين وقبـل أن تفتـك بنـا قبضـة الإرهـاب الدّاميـة. لـم يصدّقـه أحـد، يونـس «البهلـول»، حـتّى بعـد أن أعلنـت الدّولـة عـن ضبـط كميّـات مـن السّـلاح خبّأهـا الإرهابيّـون في مغـارات جبليّـة في الأوراس! لـم يعتبرهـا أهـل القريـة إلا واحـدة مـن الحكايـات الخياليّـة والبطـولات الوهميـة الـتي يدّعيهـا لنفسـه في أثنـاء هيمانـه في البريّـة لا يؤنـس وحشـته غـير الثغـاء.

أيـن الحقيقـة مـن الخـداع؟ كلّ يصـدّق مـا يريـد. عمّـي صـدّق روايـة يونـس الـتي تدعـم قضيّتـه، وأبي وجـد الأنبـاء دليـلا دامغـا عـلى إجـرام أولئـك الذيـن يسـتميت أخـوه في الـذبّ عـن أعراضهـم والدّفـاع عنهـم! قـد يكـون الإسـلاميّون قـد تورّطـوا في العنـف، بـل هـو الرّاجـح عنـدي.. لكـن السّـؤال المفتـاح هـو: مـتى؟ قبـل أن يحيـك الاسـتئصاليون خيـوط المؤامـرة ويحكمـوا تخطيطهـا، أم بعـد ذلـك؟ هـل يملـك أحـد اليـوم بعـد مـرور عقـد كامـل على انطفـاء جـذوة الدّمـار واندثـار شـهوة القتـل أن يعلـن بوضـوح ودقّـة، مـن كان مسـؤولا عـن مـاذا؟ هـل كان يمكـن لأمثـال مجنّـدي (ج) مـن الأشـخاص الأسـوياء المسـالمين أن ينخرطـوا في أعمـال شـغب متهـوّرة -قـد تصـل إلى إزهـاق أرواح بريئـة- مـن تلقـاء أنفسـهم؟ هـل يعـرف المسـؤولون والمواطنـون الوجـه الحقيقـيّ للإرهـاب الـذي روّعنـا طويـلا؟ لعـلّي لـن أعـرف الجـواب أبـدا.

facebook.com/groups/exchange.book

في الأسـبوع التـالي، أعلـن المختـار أنّ موعـد دورتي التدريبيّـة قـد حـان! تذكّـرت كلمـات عـليّ منـذ فـترة، فتحمّسـت. كـم سـيكون مدهشـا لـو أتخلّـص مـن كلّ عقـدي النّفسـيّة.. هـواني بـين أهـلي، ذنـبي تجـاه أبي، ثقـتي المهـزوزة بمؤهـلاتي وتقديـري لنفـسي. انتظـرت أن يضغـط الشـيخ عـلى الـزرّ، فأتحـوّل شـخصا آخـر! ألـم يحصـل ذلـك مـع عـليّ ورفاقـه؟

لكـن مـا حصـل ذلـك اليـوم قبـل ابتـداء الـدّورة نفسـها، قلـب الموازيـن كلّهـا.

كنـت عـلى موعـد مـع الشّـيخ بعـد العـصر، فرأيـت أن أتسـلّل قبـل ذلـك إلى الجـدار وأرمـي بقطعـة لحـم وبعـض الخـضراوات لكارمـن. كنـت في ضيـق شـديد لغيابهـا الـذي طـال أكـثر مـن شـهر حـتّى ذلـك اليـوم، لكنّـني قـررت أن أفي بوعـدي مهمـا كان، فـلا أكـون المقـصّر والمـلام! انحنيـت قـرب الجـدار وطرقـت بخفّـة طرقتـين موقّعتـين، ثـمّ ألصقـت أذني بسـطحه الخشـن مثـل العـادة، أتسـمّع عـلّي ألتقـط إشـارة حضـور كارمـن وراءه. حـين لـم يصلـني شيء، تنهّـدت في ضيـق، وتطاولـت حـتّى بلغـت أعـلى الجـدار وهممـت بإلقـاء قطـع الطعـام الملفوفـة في ورق جريـدة. لكـنّ كفّـا ضخمـة امتـدّت مـن حيـث لا أدري وأمسـكت بتلابيـبي، في حـين اسـتلّت الكـفّ الأخـرى مـنّي لفافـة الـورق! صرخ الرّجـل في غضـب:

- ما هذا الذي تلقيه هنا؟ سنرى ما الذي سيفعله المختار بشأنك!

سـحبني الأخ الفاضـل مـن ياقـتي بغلظـة وجـرّني عـبر درجـات السّـلّم الحجـري حـتّى القبـو، ودخلنـا عـلى الشـيخ بـلا اسـتئذان. كان التّوقيـت سـيّئا بـكلّ المقاييـس. فقـد بـدا المختـار منشـغلا مـع أبي أحمـد ورجلـين آخريـن مـن معاونيـه، ولـم يـسرّه اقتحامنـا غـير المهـذّب لـ«غرفـة عمليّاتـه»! أقـول

facebook.com/groups/exchange.book

غرفـة العمليّـات، لأنّ تجهـيز الغرفـة وديكورهـا كان يوحـي بنـوع مـن مختـبرات المعلومانيّـة الحديثـة.. شاشـات كثـيرة، لوحـات بيانيّـة ومعـدّات لا أدرك لهـا وظيفـة.. مـكان لـم يكـن مـن المفـترض بي أن أدخلـه أو أعـرف بشـأنه! أيقنـت بذلـك حـين قـرأت للمـرّة الأولى علامـات الانزعـاج عـلى سـحنة الشـيخ دائـم البشاشـة والابتسـام. لقـد اقترفـت خطـأ برمـي الطعـام فـوق الجـدار.. وخطـأ أكـبر لأنـني فعلـت ذلـك في وقـت غـير مناسـب.

أشـار الشـيخ بعينيـه إلى مرافقـي جهـة اليمـين، فأومـأ الرّجـل برأسـه ثـمّ جـرّني إلى غرفـة أخـرى مجـاورة، يمـين الغرفـة السّـابقة. أغلـق البـاب خلفـي بعنـف واختفـى. حـين انفـردت بنفـسي، أخـذت أفـرك أصابعـي في توتّـر، أتعرّق بغـزارة وأرتجـف مـن الفـرق. الشـيخ غاضـب مـنّي! أخـذت أرتّـب الكلمـات في رأسي وأبحـث عـن الأعـذار. كان يجـب أن أحـدّث مضيّفـي الكريـم بشـأن كارمـن منـذ البدايـة، لكـنّ غيابهـا جعلـني أحجـم، وقـد بـات عـليّ أن أطلـب المغفـرة وأكفّـر عـن سرقـتي الطعـام مـن مطبـخ عـليّ لأطعمهـا...

رفعـت بـصري باتّجـاه الحائـط أمامـي، فتعلّقـت نظـراتي بلوحـة كبـيرة تتصـدّر المشـهد، كتبـت عليهـا الآيـة القرآنيـة: ﴿وَقَاتِلُوهُـم حَـتَّى لاَ تَكُـونَ فِتْنَـةٌ وَيَكُـونَ الدِّيـنُ لِلّـهِ فَـإِنِ انتَهَـواْ فَـلاَ عُـدْوَانَ إِلاَّ عَـلَى الظَّالِمِـينَ﴾ يعلوهـا رسـم بندقيـة تشـابك سـيفا. تحرّكـت عينـاي مثـل المسـيّر إلى الحائـط التـالي وقـد شـغلت بمـا أرى عـن أفـكاري السّـابقة، فقـرأت:

﴿وَالَّذِيـنَ جَاهَـدُوا فِينَـا لَنَهْدِيَنَّهُـمْ سُـبُلَنَا وَإِنَّ اللَّـهَ لَمَـعَ الْمُحْسِـنِينَ﴾. تملّكـني فجـأة فـزع شـديد وقـد أطلقـت كلمـة «الجهـاد» صفّـارة إنذار حـادّة في رأسي وأيقظـت مخـاوف قديمـة متراكمـة قـد غفلـت عنهـا. تذكّـرت كلمـات ذلـك الشـابّ، «أسـامة»، عنـد الشـيخ البشـير. حديثـه عـن قتـال الكفّـار وجهادهـم في دار الحـرب. فأصابـني الهلـع. وخيّـل إليّ أنّـني قـد استوعبت فجـأة قسـما مـن حكايـة الدكتـور مالـك.

جماعـة (ب) المسـلّحة الـتي تسـعى إلى السّـيطرة عـلى الباخـرة.. أو جماعـة

facebook.com/groups/exchange.book

(ج) المندسّة التي تبثّ الخراب في المجتمع. كنت قطعا أواجه إحداهما. والفرق بين الأولى والثانية مقدار شعرة، كامن في أصل النيّة وبداية النّشأة. أمّا بالنّسبة إليّ في تلك اللحظة، فلم يكن هناك فرق على الإطلاق! حين تتناول الموضوع من وجهة نظر محايدة، من دون أن تسمي الأيديولوجيا باسمها، تتخذ حكاية الدكتور مالك بعدا منطقيا. وقد أتعاطف مع (ب) وأتفهّم رفاقه. لكن لمّا كان الأمر يخصّ «الإسلاميّين»، فالوقت وقت هلع وهلع.. ولا شيء غير الهلع.

سأطلعك على واحدة من أعتى العقد النفسيّة التي لازمت جيلي، وصدّرها لنا الجيل السّابق. كانت الكلمات الثلاث (إسلاميوّن - جهاديّون - إرهابيّون) مترابطة في ذهني ارتباطا وثيقا، تجرّ إحداها الأخريين قسرا إلى وعيي بشكل لا شعوريّ! لم أرث عن أبي طبعه الملتهب، لكنّني ورثت نفوره المزمن من الإسلاميّين. ولا تسلني من المقصود بالإسلاميّين! فهي عبارة فضفاضة، قابلة للمطّ والتوسعة تبدأ بالمعارضة الإسلاميّة النّاشطة في السّاحة السّياسيّة الجزائريّة والفصائل المقاتلة التّابعة لها.. لتشمل كلّ من لا يرضيك سلوكه في إسداء النّصيحة مثلا أو من يبدي نقدا لسياسة الجيش من منظور أخلاقيّ، أو من يبدو في شكله متديّنا تديّنا بدرجة أعلى من «المتوسّط»، وهي درجة التديّن الشعبيّة التي لا تضايق أحدا.. من قبيل الإيمان في القلب، و«العيب» -محرّمات المجتمع- أهمّ من «الحرام» الذي بين العبد وربّه.. صلاة في البيت غالب الوقت، وفي المسجد يوم الجمعة والأعياد، مع عدم تكلّف في العبارات اليوميّة، من قبيل «جزاكم الله خيرا» بدل «شكرا»، و «السلام عليكم» عوض «مساء الخير»! فإذا لحظت على بعض معارفك تلك «الميول الإسلاميّة» في الكلام والحركات، أمكنك أن تهمس لجارك في استنكار: إنّه إسلاميّ! وهي تهمة تحتمل أقصى أنواع الإدانة! وإذا ما ساور أحدا شكّ ولو بسيط تجاهك بأنّك «قد» تكون من أنصار الإسلاميّين، فعليك ألاّ تدّخر جهدا في نفي التّهمة عنك، ولو اقتضى الأمر ترك العبادات جملة وتفصيلا! وإلاّ بقيت ممن يشار

facebook.com/groups/exchange.book

إليهـم بالبنـان لفـترة طويلـة بعـد، قـد تمتـدّ إلى أجيـال بعـدك.

ولعلّـك سـتدرك أيضـا أنّ تهمـة «الإسـلاميّة» شـديدة المحليّـة، فهـي تقتـصر عـلى أبنـاء بلـدك مـن دون غيرهـم. لـم يخطـر ببـالي مثـلا أنّ عمـر قـد يكـون «إسـلاميّا»، رغـم توافـر كلّ شروط التّهمـة فيـه، من صـلاة في المسـجد وعبارات متديّنـة إلـخ.. ذلـك أنّـه لا يمكـن لـه أن يكـون قـد تـورّط في عشريّـة الجزائـر السّـوداء. فتهمـة الإسـلاميّ في معجمـي تعـني بالـضّرورة «الإرهـابيّ، السّـفاح، قاتـل الأبريـاء»! ولـم أفكّـر -حـتّى تلـك اللحظـة- في أنّ الشـيخ المختـار، وعـليّ وبقيّـة الرّفـاق قـد يكونـون «إسـلاميّين» رغـم اللحـيّ الكثّـة والـزيّ الأفغـاني.. ومـا الـشيء المدهـش في أن يلبـس يمـنيّ أو باكسـتانيّ أو حبـشيّ الـزيّ الأفغـاني؟ لكـنّ الدّهشـة، كلّ الدّهشـة، تكمـن اخـتزالا في أن يفعـل جزائـريّ نفـس الشيء! لكـن حـتّى تميـيزي الجغـرافيّ هـذا تـلاشى في ظلمـة القبـو ذلـك اليـوم، وقـد اسـتغرقني تفكـيري في مـا سأسـتحقّه مـن عقـاب عـلى ذنـبي المضاعـف، مـن جماعـة ديدنهـا الإرهـاب!

هـا إنّـك قـد وقفـت عـلى عقـدة أبيـك الأعمـق والأكـثر إحكامـا في أغـوار لا وعيـه! عقـدتي، هـي عقـدة أطيـاف واسـعة مـن المجتمـع.. الرّكـون إلى مـا يشـبهنا والانـزواء عمّـن يختلـف عنّـا، وتقسـيم الآخريـن إلى مـن هـم معنـا ومـن هـم علينـا.. ونظريّـة جـورج بـوش الابـن الشـهيرة «مـن ليـس معنـا فهـو علينـا»! لـم يخـترع الرّجـل تلـك النظريـة، فهـي قديمـة وراسـخة في السّـواد الأعظـم مـن النّفـوس البشريّـة! وبنـاء عـلى ذلـك، فقـد كانـت إشـارة الجهـاد علامـة عـلى وجـود «جهاديّـين - إسـلاميّين - إرهابيّـين» في الجـوار! وهـم بالـضّرورة سـيّئون، بمنطقـي الدّغمـائيّ المسـتفحل!

قـد أبـدو لـك مـن خـلال هـذه السّـطور حكيمـا راجـح العقـل، وقـد اسـتخرجت العقـدة مـن أعمـاق اللّاوعـي وشرّحتهـا أمـام ناظريـك.. لكنّـني لـم أوت الحكمـة في وقـت باكـر. بـل غنمتهـا، ذرّة ذرّة، مـن خـلال التّجـارب والخطـوب، حـتّى اسـتوى عقـلي عـلى هيئتـه الحاليّـة. ليـس كامـلا ولا مثاليـا، ولكنّـه عـلى بعـد أميـال كثـيرة مـن عقـل الشـابّ الغـرّ الـذي كنتـه يـوم غادرت

facebook.com/groups/exchange.book

الجزائـر.

قبـل حكايـة الدكتـور مالـك، كنـت أميـل إلى نظريّـة أبي وأتبـنّى وجهـة نظـره.. وبعدهـا، غامـت الرؤيـة، حـين وسّـعت زاويـة النظـر. أن تـزداد معرفتـك وحكمتـك لا يعـني أبـدا أن يسـهل عليـك وضـع السـبّابة عـلى عـين الحقيقـة، بـل هـو العكـس غالبـا. تدخـل عليـك متغـيّرات جديـدة فتضـع أطروحـات مختلفـة وتبتعـد مسـافات عمّـا حسـبته في وقـت سـابق حقائـق ومسـلّمات. لكـن وأنـا أجلـس في غرفـة مغلقـة أنتظـر حكمـا ممّـن مثلتهـم لي هواجـسي سـفّاحين، غـاب الوعـي وتعطّـل التفكـير، ولـم يبـق مـن مـكان إلا للعقـد الرّاسـخة وأشـباح اللّاوعـي الثائـرة مـن مكمنهـا.

مـرّت دقائـق راودتـني خلالهـا فكـرة الفـرار. وأنّى لي الفـرار وحـرّاس غـلاظ شـداد منتـشرون في السّراديـب وعنـد المداخـل والمخـارج؟

فزعـت حـين فتـح بـاب الغرفـة وظهـر خيـال المختـار. أمسـكت أنفـاسي أحبسـها برهـة حـتّى لا يـشي تنفّـسي المضطـرب برهبـتي، لكـنّ ابتسـامة الشّـيخ الـتي طالمـا عهدتهـا معلّقـة بشـفتيه جـاءت لتربّـت عـلى خـوفي وتنفـض ذعـر اللحظـة. لـم يبـد الشّـيخ غاضبـا أو مسـتاءً، لـم يظهـر بعبـاءة «الإسـلاميّ» الـتي أهمّـني التفكـير فيهـا. جلـس إلى جـواري عـلى الحصـير، وقـال متمهّـلا وبحنـوّه المعهـود:

- أخبرني، ما الذي يجري عند ذاك الجدار؟

نفضـت عـنّي الهواجـس الـتي زرعتهـا في ذهـني ظلمـة القبـو والآيـات الشـديدة عـلى قلـبي الرّقيـق سريـع التأثّـر، وعـدت إلى مسـألة كارمـن. واصـل الشّـيخ موضّحـا:

- وجدنـا لفافـات جرائـد كثـيرة تحـوي بقايـا طعـام متعفّنـة.. ربّمـا هـي تتكـدّس هنـاك منـذ أسـابيع! أخـبرني، لمـاذا كنـت تلقـي بهـا؟

ارتميـت مـن دون تفكـير عنـد قدمـي الشـيخ أطلـب صفحـه وأسـتجدي عطفـه! لقـد أخطـأت وقـد كان عـليّ أن أبـدأ بالاعتـذار. شرحـت بكلمـات

facebook.com/groups/exchange.book

مرتبكة شديدة التّداخل أمر كارمن. جاءت معي من ليون وفارقتها على حدود الغابة. ربّما كانت تأخذ القليل ممّا أتركه لها وتبقي منه للحيوانات الشّريدة والكلاب الضّالّة. لم تكن شهيّتها وافرة، وشكلها الضئيل الهشّ دليل واضح على ذلك.

نظر إليّ الشيّخ بنظرة العارف، وقال بصوت رصين:

- هل يمكنك استدعاء البنت؟

لمّا كنت أجهل متى تأتي كارمن إلى الجدار ومتى ترحل، فقد كان من المتعسّر تلبية طلب الشّيخ. قلت مرتبكا:

- سيكون من الصّعب استدعاؤها.. لكنّها تظهر من تلقاء نفسها حين تحتاجني.

هزّ رأسه في جدّية بالغة:

- فهمت. إذن هي تقرّر متى تخاطبك؟

قلت مصحّحا:

- هي لا تخاطبني.. فقدت النطق منذ فترة، لكنّها تكتب أو تشير بيديها.

- ماذا تكتب؟

- كلّ ما تريد قوله.. ما تحتاجه!

- بأيّ لغة؟

- الفرنسيّة.. تعلّمتها منذ زمن قصير.. وهي في تحسّن مستمر!

- هذا مدهش! مثير!

لم أستوعب ما المثير في الأمر، لكنّ تعلّم كارمن للفرنسيّة كان أمرا جيّدا بالنسبة إليّ.

- ما اسمها؟

- كارمن..

facebook.com/groups/exchange.book

بدا عليه الضيق فجأة:

- إذن هي ليست مسلمة؟

- بلى، إنّها من الشيشان.

عاد إليه الارتياح وهو يواصل التقصّي بشأنها:

- وكيف وصلت إلى فرنسا؟

- كانت رحلة طويلة.. بعد الحادثة التي تعرّضت لها عائلتها، سارت طويلا في الثلوج.. وكان بعض سائقي الشاحنات يحسنون إليها ويوصلونها مسافة ما..

- إذن ماتت في حادثة..

قاطعته موضّحا:

- عائلتها التي ماتت يا سيّدي!

- نعم، وهي كانت معهم؟

- نعم.. لكنّها نجت!

- كيف ماتت إذن؟

رفعت صوتي:

- من الذي مات؟

- الطفلة! اسمها كارمن، أليس كذلك؟

- كارمن لم تمت! إنّها في الخارج.. في الغابة!

حدجني بنظرة طويلة، ثم قال مبتسما:

- هذا أكيد..

بدا كمن يساير طفلا لا يريد مضايقته، لكنّ ابتسامته الغريبة استفزّتني. سألته بغتة

- ما الذي تفكّر فيه يا سيّدي؟

facebook.com/groups/exchange.book

بدا عليه التردّد، كطبيب يخشى على مريضه من إعلان موته القريب.

- قد يكون من الصّعب عليك تقبّل هذا...

هززت رأسي متابعا كأنّي أستعجله.

- الرّصاصة.. إنّها تتحرّك في رأسك..

لم يكن يقول شيئا أجهله.

- حين تتخّذ وضعيّة معيّنة في جمجمتك، تكون في موقف فاصل بين الحياة والموت! تدخل روحك عالم البرزخ، وجسدك ما زال بيننا نابضا بالحياة! حين تلامس حدود الموت، ترى الأرواح. أرواح عالقة لم تستقرّ بعد! تكلّمك وتتواصل معك.. وكارمن إحداها..

انفجرت ضاحكا وقد راقتني الدّعابة حدّ الاستمتاع.. لكنّ الرّجل ظلّ ساكنا جادّا:

- الفتاة، لم يرها أحد معك قط.. وحدك تراها.. وأظنّ الله قد اصطفاك من أجل مهمّة محدّدة.. لديك رسالة، لكنّك تحتاج من يقودك من أجل إتمامها..

أرقبه بعيني الجزع. هل انخبل الرّجل؟ أرواح عالقة، وبرزخ ورسالة؟ أفكّر فجأة بأنّ عليّ الرّحيل من هنا. ثمّ أتذكّر السّبب الذي حدا بي إلى مغادرة ليون. أفكّر بديانا، بمشروبي الصّباحيّ المدهش، وبطلابي النّجباء.. هل يمكنني أن أرحل فعلا؟ أعود إلى الواقع على صوت الشيخ المختار يقول:

- ارتح الآن، وسنتكلّم في ذلك لاحقا..

قد يكون الشيخ مخبولا، لكنّه مضياف وكريم. أهزّ رأسي وأمضي إلى حيث أشار. أتوقّف فجأة. أتذكّر أنّي كنت أريد الحديث إليه بشأن كارمن. عن إمكانية إيجاد مكان لإيوائها. لكنّني أعدل في اللحظة الأخيرة. إنّه يحسبها روحا عالقة!

facebook.com/groups/exchange.book

لـم أكـن قـد شـاركت يومـا في حفلـة زار أو وطئـت قدمـي ضريـح وليّ صالـح.. ناهيـك بحـضرة العرّافـين والمشـعوذين. لذلـك فقـد كانـت جلسـة التّحضـير الـتي دخلتهـا كضيـف رئيـسي في منتهـى العجـب! حكايـات الأرواح والأشـباح لـم تكـن ترعبـني صغـيرا.. لـم أكـن أصدّقهـا. وحـين كانـت أمّـي في قوائـل الصّيف تخريـش شـبّاك الغرفـة مـن الحـوش لتجـبرني وأخـواتي عـلى الاعتـكاف وقـت الظّهـيرة وعـدم التسـلّل خارجـا، كنـت أقهقـه مـن الضحـك وأسـخر مـن شـقيقاتي المذعـورات!

أمّـا الجلـوس أمـام الشـيخ المختار، يقـرأ الآيـات القرآنيّـة المتعلّقة بـالأرواح: ﴿وَيَسْـأَلُونَكَ عَـنِ الـرُّوحِ قُـلِ الـرُّوحُ مِـنْ أَمْـرِ رَبِّي وَمَـا أُوتِيتُـم مِّـن الْعِلْـمِ إِلاَّ قَلِيـلاً﴾ و ﴿وَلَـوْ أَنَّ قُرْآنًـا سُـيِّرَتْ بِـهِ الْجِبَـالُ أَوْ قُطِّعَـتْ بِـهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّـمَ بِـهِ الْمَـوْتَىٰ بَـل لِّلَّـهِ الْأَمْـرُ جَمِيعًـا﴾، فقـد أدخـل الرّيبـة في قلـبي! الشّـيخ المختـار شـيخ جليـل، صـادق الكلـم.. إن آمـن بوجـود أرواح تحلّـق في الفضـاء مـن حولنـا، فـلا شـكّ أنّ لديـه أسـبابه ودوافعـه! لـو أنّـه تلفّـظ بشـعوذات لسـهل عـليّ الأمـر.. كنـت رميتـه بالتّخريـف والادّعـاء. لكـن هـذه آيـات اللـه تتـلى عـلى مسـامعي، والرّجـال يهـزّون رؤوسـهم في خشـوع مربـك، فتتراقـص الشـعلة في الشـمعدانات الفضيّـة الـتي كانـت الإضـاءة الوحيـدة لظلمـة الحجـرة، كأنّ نفـخ روح مـا يحرّكهـا!

- هل تسمع شيئا؟

كان الشـيخ يسـألني للمـرّة الثالثـة في جلسـتنا تلـك.. وربّمـا للمـرّة الألـف بعـد لقائنـا السّـابق. دأب يسـألني كلّمـا التقـت مسـاراتنا أو اسـتضافني في موعدنـا الصّباحـيّ إن كانـت كارمـن قـد ظهـرت لي. لكـنّ إجابـتي لـم تختلـف. كارمـن رحلـت يـوم وصـولي ولـم تعـد.

لذلك فقد وجب استحضارها بالوسائل التقليديّة!

أهـزّ رأسي نافيـا. فيرفـع المختـار صوتـه ويكثّـف تراتيلـه في إلحـاح المسـتجير،

facebook.com/groups/exchange.book

ويـزداد تمايـل الرّجـال المتربّعـين في حلقـة متّصلـة تحيـط بي مـن كل جانـب. يلقـي الشـيخ قبضـة مـن مسـحوق بخـور وحجـيرات أخـرى فتفرقـع نـار الكانون ويتصاعـد الدّخـان. إنْ لـم تكشـف الـرّوح عـن نفسـها فلعـلّ الدّخـان يتخّـذ شـكلها ويكشـفها! تسـتمرّ الجلسـة زهـاء السّـاعة. أحـدّق في القـوم المنهمكـين في عجـب متنـام. أبحـث عـن الخطـأ.. هـل هـو فيّ أم فيهـم؟ وكارمـن.. ليتهـا تظهـر وتريحـني! فيراهـا الشـيخ ويذهـب عنـه ظنّـه المجنـون ذاك! ليتهـا تظهـر!

أخـرج مـن حجـرة التحضـير لاهثـا وقـد أنهكـني الدّخـان وعبقـه الخانـق. يتبعـني المختـار مكفهـرّ الوجـه، ينتظـر حـتّى ينفـضّ رجالـه كلّ إلى مقصـده ثـمّ يقـول في تفكـير:

- هناك ما يمنعك عن عالم البرزخ.. وأظنني عرفته!

لـم أفهـم لكلماتـه معـنى في تلـك اللحظـة، لكـن حـين زرتـه في جلسـة العلاج اليوميّـة صبـاح الغـد، اسـتقبلني عنـد المدخـل عـلى غـير العـادة. أخـذني مـن كفّـي ودعـاني إلى النزهـة برفقتـه في السّـاحة الظليلـة. سرنـا نصـف سـاعة أو نحوهـا تحـت أشـجار السّرو والصنوبـر، وهـو يسـألني ويسـتفسر عـن حيـاتي في الجزائـر.. عـن عائلـتي وتعليمـي وعـن تفاصيـل رحلـة الاغـتراب.. حـتّى إذا مـا انتهـت أسـئلته ودّعـني عنـد مدخـل القبـو مثلمـا لقيـني عـلى موعـد لقـاء في الغـد! تركتـه مرتبـكا غـير مسـتوعب. أيـن مـشروبي العسـليّ المحبّـب؟ وأيـن نصيـبي مـن الأذكار الـتي أحسـبها تحميـني مـن سـطوة الرّصاصـة؟ أتـراه يعاقبني لفشـل جلسـة التّحضـير بالأمـس؟ لكـنّ سـلوكه لا يوحـي بغضـب أو عقـاب. يسـتقبلني في الغـد بنفـس البشاشـة والـرّوح المرحـة، ويسـير إلى جـواري يسـأل عـن حـالي وحـال طـلابي في درس العربيّـة.. يذكـر نـوادر عـن بعضهـم ويضحـك في وقـار، ثـمّ يودّعـني بنفـس الطريقـة ولا يتطـرّق إلى جلسـة العـلاج بكلمـة!

في اليـوم الثالـث، تجلّـت أمـارات السّـهاد عـلى وجهـي. زارتـني الرّصاصـة مثل كابـوس مريـع. يومـان مـن الحرمـان مـن رحيـق الفـردوس كانـا كافيـين لأدرك مـا

facebook.com/groups/exchange.book

كنت فيه من نعمة! يطرق بابك الألم بعد طول فراق، فتستقبله لا أهلا ولا سهلا! لكنّه ضيف ثقيل الظلّ لا يضع اعتبارا لآداب الزّيارة.. يتربّع من دون استئذان، وينبئ بطول مكوث! الشقشقة والرّنين والأزيز.. أصوات لم أشتق إليها البتّة، لكنّها تطاردني تلك الليلة وتتشبّث بأذيالي وأنا أجرّ نفسي جرّا لألقى الشيخ.

أرى علامات الطّرب على وجه المختار وهو يهبّ إليّ مهرولا ذلك الصّباح. يستنطقني:

- ها؟ هل من جديد؟

أقول متبرّما:

- الآلام يا سيّدي.. إنّها تعاودني!

- والرّوح؟ البنت الصغيرة، هل ظهرت؟

أهزّ رأسي نافيا، فيعبس فجأة. تتجلّى لي خطّته في تلك اللحظة. لعلّه يحسب أنّ آلام الرّصاصة ينبغي أن تعاودني، لأبلغ بوابة البرزخ كما يدّعي! أنحني أمامه في ضراعة وأتشبّث بثوبه:

- سألتك بالله يا شيخي.. الدّواء!

يرفعني إليه باسما، يربّت على كفّي ويقول مهوّنا:

- ليس بعد يا بنيّ.. هوّن عليك. إنّما النّصر صبر ساعة!

لا أفهمه. تغلق عليّ فلسفته. أيّ نصر أو أيّ صبر؟ ألم أجئه مستغيثا من رصاصتي؟ فماله يدفعني إلى جحيمها من دون رحمة؟ يقولها من دون أن يرفّ له جفن، كأنّ الأمر بيدي:

- اذهب الآن.. ولا تعد إلا ومعك البنيّة!

أرقبه ذاهلا. ماذا عن الدّرس والطلبة؟ سيصرفهم اليوم ويلغي دروس الأسبوع.. حتّى يصفو ذهني وأستحضر كارمن. تخاتلني ابتسامته المشفقة وأفكاره السّاديّة المتخفية خلف ستارها. بيده خلاصي ولكنّه يمنعه عنّي،

facebook.com/groups/exchange.book

ولا أدرك الحكمة من وراء ذلك.

أتركه وأسرح على غير وجهة. ما من حلّ إلا أن أجد كارمن! أقصد الجدار الحجري الذي يفصلني عن الغابة. أتسلّقه متعثّرا وأنكفئ على وجهي على حشائش الضّفة الأخرى. تستقبلني لفافات الجرائد التي دأبت على إلقائها من أجل الصّغيرة. أتبيّنها وقد نهشت أطرافها وتعفّنت بعض محتوياتها.. كأنّني كنت أطعم جراءً شريدة في الأسابيع الماضية. أهيم على وجهي بين الأشجار أقتفي أثر كارمن. أصرخ باسمها، فيردّد الصّدى مقاطع صوتي المتحشرج. يمنعني الصّراخ من الاستسلام لهمسات رصاصتي وهسيسها.

أجدّ في بحثي لساعات.. حتّى إذا خارت قواي، جلست عند جذع شجرة معمّرة، أسندت رأسي وأغمضت عينيّ، تظلّلني فروعها المورقة.. وتوسّلت كارمن في سرّي أن تأتيني، فيرحمني الشّيخ ويعطيني دوائي! لذلك، حين أحسست بلمستها اللطيفة على ذراعي، حسبتني أهذي! ظهرت في لحظة خلتها فيها قد توارت إلى الأبد، كما تفعل دائما! تنسلّ من أصابعي مثل سمكة لزجة، وتختفي بين حشائش بحر كثيفة، ثمّ تبرز من ورائي على حين غرّة.. هكذا انبثقت سمكتي، وقد خلتها أبحرت بعيدا إلى منتهى الأفق.

- كارمن! يا إلهي، هذه أنت!

ردّت عليّ بابتسامتها الوديعة. كانت قذرة ومهوّشة الشعر، كما لم تكن من قبل. قطّة بريّة وحيدة في الغابة، جرح قديم قد التأم يظهر أعلى ذراعها العارية.. ربّما تسبّبت فيه وثبتها من فوق الجدار. تحسّستها بكفيّ، أتيقّن من كونها حقيقيّة.. ثمّ سحبتها من كفّها متعجّلا.. يجب أن نرى الشيخ على الفور!

دفعتها أمامي وجريت، تسلّقت الجدار ثمّ رفعتها إليّ ووثبنا معا داخل السّاحة. حين وصلت عند الشّيخ كنت ألهث انفعالا وتوقا لقراءة الدّهشة في عينيه.

facebook.com/groups/exchange.book

- ها هي يا سيّدي!

- أحسنت عملا! كنت واثقا أنّك ستفعلها!

الرّضا في تعابيره يردّ الدّهشة إليّ. لماذا لا ينظر إليها؟ لماذا تتعلّق عيناه بوجهي ؟

- والآن، اسألها.. ما أبقاها؟

- يا شيخي.. انظر إليها واسألها.. وسأترجم الجواب. أم أنّك لا تراها؟

- المهمّ هو أنّك تراها.. وتترجم عنها.

يتلطّف في الحديث ويسايرني، ويلحّ عليّ أن أحادثها.

- يا إلهي، أنت لا تراها!

أتلفّت حولي في جزع. أضع كفيّ على كتفي كارمن وأهزّها وقد تملّكني الهلع.

- يا عليّ.. يا أبا أحمد.. ألا ترونها؟

أستدعي الرّجال بصراخ المستغيث. قولوا إنّكم ترونها.. قولوا! لكنّ الرّؤوس تتحرّك يمنة ويسرة. لا! لا يراها أحدهم! قبل أن أسلّم بلوثة أصابت عقلي.. أو عقولهم مجتمعين، تراودني فكرة يائسة.. الشيخ يمازحني! عدسة خفيّة يواريها أحدهم تسجّل الموقف.. وقريبا سيضحك الجميع، ويعانقني المختار ويقول: هوّن عليك، هذا دواؤك! لكنّ ذلك لا يحصل. والمختار يزداد جدّيّة.

- هي معك الآن.. لا تتركها ترحل.

المقلب السّخيف يطول أكثر من اللزوم ويغدو سمجا مقيتا. فليرحمني أحدكم !

- اسألها.. يجب أن تخبرك!

أنهار على ركبتيّ، رصاصتي تسخر منّي وتقهقه في عنف يملأ أذنيّ. يا شيخ، الدّواء!

facebook.com/groups/exchange.book

- لا دواء الآن.. يجب أن تبقى على أبواب البرزخ!

كيف هو البرزخ.. وكيف تبدو أبوابه؟ كلّ شيء من حولي لا يختلف عن عادته. لا نور ساطعا ولا درب مضيئا! فقط كارمن التي لا يراها أحد، تتكوّر على نفسها بقربي في ظلمة القبو.

جرّب الظلمة.. الأرواح تركن إليها.. لذلك انسحبت إلى الغابة.

حافظ عليها قربك، وحاول التّواصل معها..

توصيات المختار تفقدني صوابي. أرمق كارمن في حيرة. كان يجب أن أستسلم إلى تلك الحقيقة. كارمن ليست بشريّة. لا أحد يبصرها غيري! تبادلني نظرات باسمة. أسألها في صمت.. ما أنت؟ هل أنت روح عالقة بالفعل؟ ثمّ أستجوبها بصوت مسموع:

- ما هي حدود الحقيقة والخيال؟ هل أنت الوحيدة.. روح أو شبح؟ أم هناك غيرك؟ هل كانوا بشرا.. القرصان وعصابته؟ فهناك لقيتك! ماذا عن الدّكتور عمر؟ ماذا عن جابر وعزّوز، ديميتري وعمّال الورشات؟ من منهم شبح ومن البشريّ؟ تكلّمي! لا تتظاهري بالبكم بعد الآن!

ينتابني الغضب. أستفزّها لتسمعني ردّها. لا أعلم إن كانت الأرواح تخاطب البشر! المختار لم يشرح لي الأمر. هل تراه تعامل مع روح من قبل؟ يبدو ملمّا بالمسألة.. لكنّه لم يشرح لي. يقول «تواصل معها» ويمضي! لكنّها كانت صامتة حتى ذاك الحين.. ربّما لأنّ هذا هو طبع الأرواح، لا صوت لها.

يأتيني صوتها فجأة. يشقّ الصّمت الذي غلّفنا حتى تلك اللحظة، فأنتفض. صوت هادئ عميق ورصين. ليس صوت طفلة أبدا:

facebook.com/groups/exchange.book

- لعلّك لن تعرف أبدا..

- وأنـت؟ هـل لقيتـك حقـا؟ لعلّـك توفّيـت في حـادث بعـد أن تركتـك وذهبـت عنـد عمـر؟ أو بعـد أن لقيـت جابـر؟ لعلّـك كنـت معـي قبلهـا؟ ثـمّ رجعـت روحـا؟

تهـزّ رأسـها الصّغـيرة سـاخرة مـن افتراضـاتي واسـتماتتي في تميـيز الحـدود بـين عالمهـا وعالمـي. تسـتمتع بحـيرتي ولا تبـدّد شـيئا مـن شـكوكي. ألمحهـا تبتسـم، وتتجاهـل أسـئلتي. أصرخ فيهـا: لا تبتسـمي! أنـت لسـت بـشرا حـتّى! فتضحـك الرّصاصـة في رأسي حـتّى يعبـث بي الألـم. اسـكتي أنـت الأخـرى! ليـس وقتـك! لكنّـه وقتهـا.. بـل وقتهـا وحدهـا. لا أحـد غيرهـا يسـيطر الآن عـلى الزّمـان والمـكان. أنـا الآن مجـرّد ثقـب تتبخـتر داخـل فراغـه بتـؤدة قطعـة معـدن صـدئ، تفقـدني صـوابي.. وكارمـن تبتسـم.

أقـف مـن مـكاني، ألـفّ حـول نفـسي، ثـمّ أنهـار عاجـزا. يجـب أن أعـرف. لكنّـني مرتعـب ممّـا قـد يتبـيّن لي. لا أريـد أن أعـرف. أريـد أن أرجـع جاهـلا مغفّـلا، أحنـو عـلى صغـيرتي كارمـن وأسـتمتع بـدروس العربيّـة. أمّـا المعرفـة الـتي تجعـل عالمـي ينهـار، فـلا أريدهـا! لا أريدهـا! أخفـي وجهـي بـين كفـيّ وأبـكي.. ألمـا وخوفـا. جنّـتي الموهومـة المؤقتـة تنهـار!

لن تعرف أبدا..

أتخبّـط في العتمـة، فريسـة سـهلة لأطيـاف بـرزخ وهميّـة، وتسـتبدّ بي رغبـة المعرفـة. ﴿لاَ تَسْـأَلُواْ عَـنْ أَشْـيَاء إِن تُبْـدَ لَكُـمْ تَسُـؤْكُمْ﴾. أغالـط نفـسي.. مـاذا لـو كان خـلاصي في المعرفـة؟ هـل ليليـان وديانـا شـبحان؟ ليليان ليسـت شـبحا.. لقـد ناداهـا عـليّ بالكافـرة، وأبـو صالـح غازلهـا.. ليسـت شـبحا، إلا إذا كان عـليّ وأبـو صالـح شـبحين.. لكنّهمـا ليسـا كذلـك.. المختـار وجماعتـه يعرفانهمـا. لكـن مـاذا عـن ديانـا؟ كلّ همّـي ديانـا.. إنّهـا لا تكلّـم أحـدا ولا تلتفـت إلى أحـد. ربّمـا لـم تكـن ليليـان شـبحا، لكنّهـا قـد تحتفـظ بشـبح ابنتهـا قريبـا منهـا.

لكـن مـاذا لـو.. مـاذا لـو كانـت كارمـن حقيقـة، وكلّ مـا عداهـا وهـم؟ مـاذا

facebook.com/groups/exchange.book

لـو كان المختـار هـو الشّبح؟ مـاذا لـو كنـت نائمـا الآن، في شـقّة عمـر.. أنتظـر أن يوقظـني لصـلاة الفجـر؟ لكنّـني أرى كابوسـا ممتـدّا مرهقـا لا ينتهـي! ليتـني أسـتيقظ الآن.. هـذا إن لـم يكـن عمـر شـبحا هـو الآخـر! ألـم يختـف فجـأة كأنّـه لـم يكـن؟ أولئـك الذيـن يظهـرون ثـمّ يتلاشـون بـلا رجعـة، أغلـب الظـنّ أنّهـم أشـباح! إن كنـت قـد لقيـت هـذا الكـمّ مـن الأشـباح في رحلـتي، فكيـف كنـت أعيـش؟ كيـف أقتـات وأيـن أبيـت؟ هـل تفقـدني مخالطـة الأشـباح إحسـاسي بالعالـم الحـسّيّ؟ أم أنّ الاثنـين يتزامنـان في وعـيي بانسـجام لا يؤثـر أحدهمـا في الآخـر؟ أيـن تكمـن الحـدود؟ أيـن ينتهـي الواقـع ويبـدأ الـبرزخ؟

عـلى حـدود الجنـون، طلـب عقـلي مهلـة: «اسـحب القابـس، أريـد بعـض الرّاحـة».

فقدت الوعي.

تخطـئ حـين تحسـب أن المـرء يمـوت مـرّة واحـدة. تمـوت حـين تقتـل الحيـاة داخلـك. ينسـحب الضّـوء مـن روحـك تدريجيّـا، مثـل مدينـة انطفـأ مولّدهـا الكهربـائيّ فغرقـت في الظـلام. أمّـا عـنّي، فقـد مـتّ الموتـة الثانيـة في ذلـك اليـوم.. باحتسـاب موتـتي الأولى غريقـا، وبافـتراض أنّ جثّـتي المتحرّكـة، متبلّـدة المشـاعر الـتي كانـت تهيـم بـين البيـت والمقهـى قبـل ذلـك في عنّابـة كانـت عـلى قيـد الحيـاة! حـين يمـوت قلبـك، وتختنـق داخلـك رغبـة العيـش، يتـلاشى كيانـك، وتبقـى جسـدا.. ينتظـر أن يفنيـه دود الأرض.

متّ يومها من دون رصاصة.. وأنا الذي عشت قبل ذلك رغم الرّصاصة!

لمـدّة ثلاثـة أيّـام متواصلـة بلياليهـا، بقيـت محبوسـا في تلـك الغرفـة. يأتيـني أبـو أحمـد بطعامـي وشرابي. ينفـرج البـاب مقـدار سـنتميترات كافيـة لتمـرّ ذراعـه النحيلـة وطبـق الأكل الزهيـد، فتتسـلّل خيـوط نـور رقيقـة إلى مسـاحتي

facebook.com/groups/exchange.book

القاتمـة، ثـمّ تنسـحب مسرعـة حـين تعـود دفّـة البـاب إلى وضعهـا الأوّل.

قـال المختـار: تشـبّع بحيـاة الـبرزخ، تآلـف مـع الأرواح العالقـة، وائتـني بالجـواب!

أيّ جواب؟

لم يقل..

حـين دخـل عـليّ في اليـوم الثالـث، كنـت قـد غـدوت جثـة هامـدة، قتلـني الألـم حـتّى تخـدّر إحسـاسي، وقتلـني التّفكـير حـتّى تخـدّر عقـلي. سـألني:

- أنت جاهز؟

أومـأت بـرأسي أن «نعـم» وأنـا لا أدرك مـا يعنيـه.. لكنـني كنـت جاهـزا لأوارى التّراب.

- هل حان الوقت؟

وقـت مـاذا؟ يتسـاءل مـا تبقـى مـن خلايـا عقـلي التالفـة.. لكـنّ رأسي يهـتزّ مـرّة أخـرى، فيبتسـم الشـيخ راضيـا. كنـت أسـتجيب وآتيـه بتعليمـات «العالـم الآخـر» الـتي يترقبهـا. أتجاهـل كارمـن الـتي تضحـك مـنّي وتتقلّـب عـلى الأرض سـاخرة. كنـت أنجـز الرّسـالة الـتي مـن أجلهـا حبسـني المختـار.

- كنت أعلم، منذ وصلت إلى هنا.. أنّك البشير حامل الإشارة!

لم أحاول أن أفهم.

facebook.com/groups/exchange.book

facebook.com/groups/exchange.book

الأربعاء ١٩ ديسمبر ٢٠٣٥،

- معنا الليلة، المرشّح اليساري المستقلّ عن دائرة «نوبي سور سين»، السّيد خليل دانيال الشّاوي.. مرحبا بك.

يبتسم للكاميرا التّي تسلّط عدستها عليه، ويتابع حركة المخرج الذي يوجّه كلّ من على المنصّة. الأضواء تبهر عينيه وتشعره بدوخة بسيطة، لكنّه يستردّ تركيزه حين تسأله المحاورة:

- كيف تفضّل أن أناديك؟ أستاذ خليل أم.. أستاذ دانيال؟

- خليل هو الاسم الذي منحني إيّاه والدي وسجّله في الأوراق الرّسميّة، ودانيال هو الاسم الذي أعيش به ويعرفني به كلّ من حولي.. لذلك أفضّل دانيال، إذا تكرّمتِ.

- أستاذ دانيال، لدينا اليوم مجموعة من الضّيوف سيوجّهون إليك رسائل خاصّة، وسيكون عليك أن تردّ عليها.. اتّفقنا؟

هزّ رأسه في اهتمام، ثمّ أظلمت القاعة. مرّت ثوان رهيبة، قبل أن تظهر بقعة ضوء أنارت جزءا من الجمهور الجالس من حوله. أخذت تتنقّل بتوتّر قبل أن تتوقّف على أحد الوجوه. يطالعه في دهشة ولهفة. أنت هنا! لكنّ الموقف لا يسمح بأحاديث جانبيّة. ينتظر في شوق وعيناه تكادان تغادران محجريهما، يلتهم الرّجل الخمسيني بعينين جزعتين، بينما تسأله المحاورة:

- اسمك سيدي؟

- نادر الشاوي.

- تفضّل برسالتك.

- بنيّ.. أحبّك كثيرا.. وأتمنّى أن تحبّني يوما.

facebook.com/groups/exchange.book

ينطفئ النّور الذي أضاء وجهه للحظات، وتبقى ماثلة أمام عينيه تلك النّظرة المنكسرة. يرتبك تنفّسه ويضيق صدره، لكنّ بقعة الضوء تواصل دورانها في حركة لولبيّة، ثمّ تتوقّف على وجه آخر.

- اسمك آنستي؟

- مريم رستم.

- تفضّلي برسالتك.

حدّق فيها في فزع هذه المرّة، وسالت أنهار من العرق على وجهه. نظرتها ناريّة محرقة، فيها تشفّ وشماتة. قد حانت ساعة الانتقام. تقف، وتستدير كلّ الكاميرات تجاهها. تظهر ملامحها مضخّمة على كلّ شاشات القاعة، كأنّما تشرف عليه من جميع الاتّجاهات، تحاصره. تمدّ نحوه إصبع الاتّهام، ويدوّي صوتها بلهجة قويّة تكاد تثقب طبلة أذنه:

- أنت شخص حقير!

فتح عينيه وهو يلهث، غارقا في عرقه.

غادر السّرير، وسار حافي القدمين حتّى المطبخ. أفرغ في جوفه كوب ماء بارد دفعة واحدة، ثمّ وقف مذهولا لبرهة، يسترجع تفاصيل الكابوس المريع. هل هو سريره القديم الذي لم ينم فيه منذ سنوات؟ أم هي تلك الحكاية التي تقف شوكة في حلق ضميره؟ يجب أن يفعل شيئا إزاء هذه القصّة، ليسكت لاوعيه عن إلحاحه الممضّ. الحوار التلفزيّ كابوس بمفرده، فكيف إن صاحبه ذلك الهاجس المقيت بالذّنب؟

بعد ساعات تقلّب خلالها على الفراش من دون أن يواطنه نوم، تناول هاتفه وأرسل إلى جانيت، يخبرها باعتزامه أخذ أجازة استثنائيّة.

حين غادرت أمّ خليل سريرها على السّاعة السّابعة، تقدّمت في اتّجاه المطبخ في دهشة متتبّعة رائحة البيض المخفوق على الطّريقة الفرنسيّة التقليديّة.

facebook.com/groups/exchange.book

- أراك مبكّرا في الاستيقاظ!

ابتسم رغم عبوس عينيه:

- لم أستطع النوم..

قالت مداعبة:

- هل أخافك حديث الأرواح والأشباح؟

- لا أصدّقه لحظة واحدة! لكن يشغلني إيجاد تفسير منطقي لما عرفه في تجربته تلك.

لاحظت تجنّبه للفظ «أبي». سيحتاج بعض الوقت ليعتاد على كون ذاك الرّجل، ذي الحكاية الشبيهة بقصص «ألف ليلة وليلة»، أباه. لكنّه على الأقلّ يبدو على درجة أدنى من الانفعال والعدوانيّة ممّا كان عليه بالأمس. تناولا وجبة الفطور التي حضّرها في ركن المطبخ الحميميّ الذي لطالما احتوى جلساتهما الثنائيّة. حين تنضمّ إليهما سيلين ومريم، تفضّل غرفة الطعام المتّصلة بالشرفة.

- كيف ترك نفسه يسقط فريسة سهلة بين أيدي أولئك النّاس ا المتخلّفين ؟

- ألا ترى أنّه كان يحتاج البقاء هناك في تلك الفترة؟ لم تكن لديه بدائل ممكنة..

سكت ممتعضا. في طفولته، كانت تقول إنّ والده مدرّس. أهذا هو نوع التّدريس الذي مارسه؟ شهران يتيمان من حصص العربيّة في قبو جماعة إرهابيّة؟ يا للهول! حاول ألّا يهوي باتّجاه استنتاجات سابقة لأوانها. سيعطيه فرصة إلى النّهاية، ربّما تستقيم حياته قبل أن تنفد الرّسائل. أيكون لقاؤه بها قد قوّم اعوجاجه وصحّح مساره؟ إنّها ما تنفكّ تدافع عن خياراته. تطلب منه أن يتفهّم ويجد الأعذار. لماذا إذن؟ لماذا حجبت عنه الحقيقة؟

facebook.com/groups/exchange.book

أنهيـا وجبتهمـا في سـكون خاشـع. كلّ شـارد في عالمـه. ثـمّ اسـتأنفا جلسـة الأيّـام الماضيـة. تنهّـدت أمّ خليـل وهـي تتنـاول رزمـة الرّسـائل، وقالـت في جديّـة:

- إذن.. أين وصلنا؟

facebook.com/groups/exchange.book

يـوم الجمعـة التـالي، تمركـزت دوريّـات شرطـة أمـام المسـاجد الصغـيرة المرخّـص لهـا في كلّ أنحـاء فرنسـا، ورفعـت دروعهـا وعصيّها، ومنعـت المصلّين مـن دخـول بيـوت اللـه وقـت صـلاة الجمعـة. كثـيرا مـا كانـت المسـاجد تمتـلئ عـن آخرهـا، وتفيـض بمرتاديهـا عـلى الشـوارع القريبـة. فتلـك البنـاءات الضيّقة لـم تكـن تتّسـع إلا لأعـداد قليلـة، والحكومـة الفرنسـيّة رأت أنّ حـتّى ذلـك القليـل كثـير مـن وجهـة نظـر أمنيّـة. فـأدّى خـبراء الهندسـة والبنـاء واجبهـم وقامـوا بحسـاباتهم وسـوّدوا أوراقـا كثـيرة ذيلوهـا بتوقيعـات رسـميّة. وباعتبـار ذلـك، أصبـح عـلى المسـاجد أن تلفـظ المزيـد مـن المصلّـين في اتّجـاه الشّـارع.

تلقّـت الدوريّـات الأوامـر باحتلال السّـاحات المحيطة بالمسـاجد وتسـييجها، مـن بـاب حفـظ الأمـن وتيسـير حركـة العربـات، وطـرد مـن سـوّلت لـه نفسـه فـرش سـجّادة صلاتـه عـلى الرّصيـف. ووقفـت زرافـات مـن النسـاء والصّبيـة في رؤوس الشـوارع يرقبـون الحـرّاس بأعـين شـاخصة، وقـد منعـوا مـن الاقـتراب بعـد أن احتلّـت الغـرف المخصّصـة لهـم مـن قبـل الرّجـال المصلّـين تحـت ضغـط الـضرورة. في بعـض الأحيـاء، وطـأ الشـباب المسـلم بنعالـه السـيّارات المصفوفـة عـلى جانـبي الشـارع في تحـدّ وأدّوا الصّـلاة عـلى سـطوحها المعـدن. في حـيّ آخـر، انفعـل شـابان وصـلا بعـد إيصـاد البوابـة وتشـابكا مـع أعـوان الأمـن للحظـات قصـيرة، قبـل أن يتـمّ اقتيادهمـا إلى مركـز الشرطـة. في حـين استسـلم الباقـون وانسـحبوا في صمـت سـاخط.

في الأسـبوع التـالي، نـادى أئمـة مسـاجد باريـس وجمعيّـات تُعـنى بشـؤون المسـلمين بالخـروج أفواجـا لإقامـة الصّـلاة في السّـاحات العامّـة، احتجاجـا عـلى التضييـق الـذي كانـت الحكومـة البادئـة والأظلـم فيـه. ولا بـأس في خـروج النسـاء والأطفـال، دعمـا للصفـوف وزيـادة في العـدد.

facebook.com/groups/exchange.book

لكنّ الشيخ المختار الذي حصل للتوّ على الإشارة من العالم الآخر، كانت لديه خطّة أكثر جسارة. رأيتهم لأوّل مرّة، بأحذيتهم العسكريّة الثقيلة وعصاباتهم السّوداء التي تربط جباههم. جيش منظّم يتقدّم في خطوات ثابتة ومشية مهيبة، يقوده المختار وأبو أحمد. فرقة «حراس العقيدة». ليسوا حراس قلعة أو قصر، ولا مجمع سكنيّ حتى. لكنّه الاسم الحركيّ الذي أطلقه المختار على عصابته الصّغيرة التي يريد لها احتلال فرنسا.

مشيت إلى جواره، أنا البشير حامل الإشارة، أجرّ كارمن التي تطلّ من عينيها نظرة عابثة، وقد تحوّلت إلى كائن لا أعرفه. لم تعد طفلتي الصّغيرة الوديعة. بل شبح ساخر، لا يخيفني. تتابعنا أعين المارّة مشحونة بالجزع والحذر ونحن نغادر القبو ونتقدّم في ممرّات المجمع السكنيّ. من دون أن أشعر، رفعت عينيّ إلى أعلى حين مرّت القافلة أمام العمارة الرابعة. هناك من شرفتها، أطلت عليّ ليليان وعلى وجهها علامات الاستياء. أحسست بثقل في قلبي وأنا أراها تغلق مصراعي النافذة معلنة عن إعراضها. لم تكن ديانا معها.. شبحي الملائكي. ازداد الألم في صدري وقد تغشاني يأس جارف.

أنا ذاهب إلى الموت!

تابعنا تقدّمنا عبر الشوارع والأزقة بنفس النّسق العسكري الذي يجعل الأعين تلتفت لمتابعتنا، حتى وصلنا إلى ساحة كتدرائيّة سان-دنيس. لا أدري على وجه الحقيقة، هل وقع اختيار المختار على السّاحة الواقعة قبالة مبنى الكتدرائيّة المهيب بمحض الصّدفة، لأنّ السّاحة شاسعة وتتسع لأعداد غفيرة من متفرّجين ومحتجّين؟ أم من باب استدرار مساندة الإخوة المسيحيين في الأزمة التي تلحق بإخوانهم المسلمين؟ طردت بسرعة الفكرة الثانية وقد تذكرت خطاب عليّ عن الكفّار، ورجّحت أنّ الاختيار -لو كان مقصودا- فهو بالأحرى من باب الاستفزاز لا التّسامح!

facebook.com/groups/exchange.book

وقـف الحـراس مصطفـين بطريقـة مدروسـة، وأنـا أقلدهـم منسـاقا. كنـت قـد حصلـت عـلى جرعـة مـن المـشروب ذلـك الصّبـاح، مكافـأة عـلى حمـلي البشـارة! فتمكّنـت مـن التحـرّك باتّـزان مثـل آدميّ اسـترجع تحكّمـه في أطرافـه. حـين اسـتقر بنـا المقـام، رفـع أبـو أحمـد مكـبّر الصـوت إلى فيـه وهتـف:

- تكبيـــــر...

فردّد الحراس وراءه بصوت واحد مزلزل: الله أكبر!

كان لأصواتهـم هديـر يهـزّ القلـوب، حـتى خُيّـل إليّ أن الأرض ارتجفـت تحـت أرجلنـا. تكـرّر التكبـير ورَجْعُـه مـرّات لـم أحـص حسـابها، ثـم تقـدّم شـاب أخالـه لـم يبلـغ العشريـن ليمسـك مكـبّر الصـوت وأخـذ يرتـل مـا تيـسّر مـن ذكـر اللـه الحكيـم بصـوت رخيـم، بينمـا أصغـى لـه البقيـة في خشـوع. حـين فـرغ، عـادت المجموعـة إلى التكبـير بحمـاس أقـوى بينمـا لـوّح البعـض بعـصي وسلاسـل ممّـا يسـتعمل في الرّياضـات القتاليّـة.

ردّدت جـدران الكتدرائيّـة العاليـة النـداءات ودفعتهـا أمواجـا باتّجـاه الأزقّـة والشـوارع المحاذيـة، فسـالت مثـل نهـر جـارٍ يطـرق الآذان ويديـر الأعنـاق، وتقاطـر المـارّة والفضوليّـون عـلى السّـاحة يسـتطلعون الأمـر. كانـوا يتوقّفـون للفرجـة برهـة يسـيرة، ثـمّ يسـحبون أطفالهـم كأنّمـا يحمونهـم مـن خطـر يهـدّد وعيهـم وسـلامة أفكارهـم ويمضـون متعجّلـين. ولا يبقـى في السّـاحة إلا متعاطـف، أو مـن غلـب فضولـه حـذره، فيقـف عـلى مسـافة كافيـة متوخيـا قواعـد السـلامة.

في الأثنـاء أخـذ الشـيخ المختـار الكلمـة. تنحنـح ثـم قـال بصوتـه الوقـور النافـذ ولكنتـه الشرقيّـة:

- يـا أيهـا النـاس، إنّ الدّيـن عنـد اللـه الإسـلام. يـا أيهـا الضّالـون الهائمـون عـلى وجوهكـم، تعالـوا إلى ديـن اللـه فهـو خـير لكـم. يـا أيهـا العصـاة المذنبـون عـودوا إلى اللـه يغفـر لكـم. هـذا الدّيـن منتـصر لا محالـة شـئتم أم أبيتـم، فانضمّـوا إلى الفئـة الغالبـة قبـل فـوات الأوان! الإسـلام سـيصبح

facebook.com/groups/exchange.book

قريبا دين أوروبا الأول مهما قاومتموه وعاديتموه. لن تضرّنا عداوتكم ما دام الله معنا. وإن تنصروا الله ينصركم...

استمرّت خطبته ردحا من الزمن مراوحا بين الترهيب والترغيب. ثم عاد التكبير مرّة أخرى، قبل أن يندفع الحراس في استعراض رياضي كل حسب طاقته وموهبته. بعد نحو نصف ساعة، لم يكن العرض قد انتهى بعد حين توقفت سيارة شرطة في رأس الشارع ونزل منها أربعة رجال أمن. تقدّموا في اتجاهنا شاقين طريقهم بين الحشود المترقبة. حين انتبه الحراس إلى القادمين الجدد، توقفوا عن عرضهم وأعادوا تنظيم صفوفهم في حركة دفاعيّة. لم تكن المواجهة الأولى لهم مع رجال الشرطة. مهما غيّروا مكان دعوتهم وتنقلوا بين السّاحات، كانت الشرطة على موعد معهم في كل مرّة، لكنّ المختار تمادى هذه المرّة في استعراض العضلات وأظهر جرأة لم تكن في سمته قبلا. تكلم الضابط الأعلى رتبة من بينهم:

- سيد مختار، أظنك تعلم أن هذا إخلال بالأمن العام واستغلال للفضاء العمومي من أجل نشاط غير مرخص له...

أخذ أحد الشباب يحرك هراوته في الهواء معلنا عن استعداده للقيام بأيّ عمل متهور. لكن الشيخ المختار أشار إليه بكفه أن يلتزم الهدوء، بينما أمر الشرطيّ محتدّا:

- فلينفض الجميع من هنا، وفورا!

لم يتحرّك أحدنا من موقعه قيد أنملة في حين كرّر الضابط أمره في عصبية. مرّت لحظات من الصّمت اختفت خلالها الابتسامة من وجه رجل الأمن وتحوّلت إلى شفتي المختار. رفع بعض المتفرّجين جوّالاتهم ملتقطين المشهد، فسارع الشرطيون الثلاثة لانتزاعها من أيدي أصحابها ومصادرتها. لعلّ المختار كان يستمتع بلحظات السيطرة تلك، لكن لم يكن من الحكمة إطالة أمدها بقدر يستفزّ السلطات. ولمّا كان رجلا حكيما، فقد رفع يده طالبا منّا الانسحاب. عندئذ تحركنا ببطء وهدوء

facebook.com/groups/exchange.book

وقفلنـا راجعـين إلى المجمـع السّـكني بنفـس الخطـوات المنظمـة.

لم تخاطبني ليليان منذ ذلك اليوم.

ولم تعد حياتي تشبه ما كانت عليه.

صرت ظـلّ المختـار المـلازم لـه. يسـألني بـين الفينـة والأخـرى: هـل تـرى البنـت؟ فأهـزّ رأسي موافقـا أو نافيـا، حسـب الوضـع.. فيسـتفسر عـن «الرّسـائل الرّبّانيّـة» الـتي تصلـني مـن خلالهـا. لكنّـني كنـت قـد وعيـت الـدّرس. إن أردت الحصـول عـلى دوائي، فيجـب أن أمنحـه الـرّدود الّـتي يريـد! ردود سـاذجة وفضفاضـة ومجـتزأة، لا تعـني شـيئا غالـب الأحيـان.. لكنّهـا تفـي بالغـرض!

ليس بعد.. خلال أيّام.. كن مطمئنا.. قدّم صدقة.. بعد العصر..

فيتهلّـل وجـه الشـيخ ويهـرع إلى تنفيـذ مـا تمليـه عليـه الرّسـالة مهمـا بـدا غامضـا وغـير ذي بـال، فالمختـار لديـه ملكـة تأويـل لا تضاهـى! يجـد لـكلّ عبـارة تـرد عـلى لسـاني مغـزى واضحـا يصلـه بمطلبـه، ويُتبِعـه بخطـوات دقيقـة. كأنّـه عـلى الـدّوام مخـيّر بـين أمريـن، والرّسـالة تدفعـه نحـو أحدهمـا. قـد أبـدو لـك محتـالا ومسـتغلا لحاجـة الشـيخ تلـك، لكنّـك تـدرك حتمـا أنّ سـلوكه هـو الـذي دفعـني إلى ذلـك النّهـج! ليـالي القبـو الرّهيبـة مـن أجـل بلـوغ الـبرزخ كانـت موتـا حقيقيّـا، والشـيخ لـم يرضـخ لاسـتعطافي ولا حرّكـه رجـائي، لذلـك فقـد كان لزامـا عـليّ أن أجاريـه في جنونـه ريثمـا أجـد مخرجـا مـن وضعنـا السّـخيف ذاك.

لكنّ الأمور كانت تمضي من سيّئ إلى أسوأ.

في تلـك الفـترة، انقطعـت عـن دروس اللغـة العربيّـة، وانقطعـت عـن شـقة ليليـان بعـد أن كانـت لي فيهـا محطـة يوميّـة بعـد العـصر، لاحتسـاء كـوب

facebook.com/groups/exchange.book

من الشاي من يدي العجوز الخمسينيّة، والتهام قطعة حلوى من صنع ابنتها الحسناء. تعوّدت على ديانا، ولعلّها تعوّدت عليّ. وكان ما بيننا أحاديث وديّة بريئة، لم تخرج عن حدود الأدب واللّياقة. كانت المسافة بيننا تتقلّص بأكثر ممّا كنت آمل. كنت أستميت في إبقاء فضولها متّقدا حتّى لا تفقد اهتمامها تجاهي. وكانت ليليان ترحّب بوجودي دونما تكلّف، وقد وجدت ابنتها تتفتّح في رفقتي مثل وردة طال سباتها الشّتويّ. وقد ظننت أنّ الوضع سيستمرّ إلى ما لا نهاية، حتّى حصل ما لم يخطر لي ببال.. اختفت ديانا من دون سابق إخطار.

طرقت بابها ذات يوم، لتقول أمّها إنّها ليست بالبيت. وتكرّر الأمر في اليوم الثاني، وفي الثالث أيضا! حتّى شككت بأنّه لم يعد مرحبا بي في منزل الأرملة وابنتها المقعدة. والأدهى هو أنّ ليليان لم تكن تكلّف نفسها عناء تفسير أو توضيح، تماما كما لم تحاول تبرير رغبتها في حضوري بشكل شبه يوميّ إلى شقّتها. كأنّما كان حضوري جزءًا من علاج ابنتها.. أمّا وقد استعادت ديانا نضارة الروح وإقبالها على الحياة، فما عدت أفيدها بشيء، وما عاد لتردّدي على شقتهما من معنى! ولعلّ فترة انقطاعي السّالفة وخروجي ذاك اليوم مع حرّاس المختار قد زاد الطّين بلّة وقضى على آخر حظوظي.

أصابني التحليل في مقتل. فقد كنت أوهمت نفسي في الأسابيع الماضية بحظوة ضمنتها عند أميرتي الصّهباء. وبنيت قصورا من الآمال، بتراب الوهم وآجره! فانهار البناء الذي شيّدته على رأسي، كما قُدّر لكلّ بناء كانت أسسه واهية. غمرني انقباض رهيب. كنت قد انحدرت خلال أيّام قليلة إلى قعر اليأس، حتّى خلتني صرت شخصا آخر. كان هناك إحساس جميل بالألفة تجاه العمارة الرّابعة وسكّانها، تبخّر من صدري كأنّما لم يكن.

جفاء ليليان ونظراتها المظلمة، واختفاء ديانا الكامل كانا مصدر وجع مزمن، لكنّ لكدري أسبابا وأسبابا. الدّواء.. لم يعد كما هو. أو ربّما

facebook.com/groups/exchange.book

مفعولـه اختلـف. لا أدري إن كان المختـار يلاعبـني. لعلّـه لـم يكـن بالسّـذاجة الـتي ظننتهـا، فعمـل عـلى تقييـدي إليـه أكـثر. لـم تعـد جرعـة الصّبـاح تكفيني. مـا أن تغيـب الشّـمس حـتّى تتمايـل ضـلالات المـوت أمـام عيـنيّ، ويشـقّ الألـم رأسي نصفـين، كأنّمـا انقطـع عـنّي تيّـار طاقـة مـا!

كانـت البدايـة شـبيهة بليـالي القبـو. ألـم مميـت لا ينبلـج عليـه الصّبـح إلا وقـد أوهـن جسـدي وأذهـب عقـلي. ولعلّهـا بغيـة المختـار.. أن يبقيـني عـلى اتّصـال دائـم بعالـم الأرواح! لكـنّ خلايـاي العصبيّـة سرعـان مـا تكيّفـت مـع وخـزات الإبـر ونقـرات المسـامير وألفـت أزيـز المنشـار الـذي يقطّعـني مـن الدّاخـل. فتنتظـره، وتتعـرّف مقدّماتـه.. وتتأهّـب لحضـوره في موعـده. حـتّى آل بي الأمـر إلى استسـلام كامـل لسـطوته.

هل يمكنك أن تتخيّل كيف يكون الألم الذي لا غنى لك عنه؟

ألمٌ يؤكد لك وجودك!

فمـا عـداه هيـاكل هلاميّـة طافيـة لـم أعـد أدرك حدودهـا! أصبـح الوجـود بالنسـبة إليّ هـو الألـم، كارمـن، الرّصاصـة. أمّـا السّـاعات الـتي يكـون فيهـا لـدواء الشـيخ المختـار المخـدّر الغلبـة، فهـي مثـل الحلـم الـذي لا تفهمـه ولا تستسـيغه. تعلـم يقينـا أنّـك سـتنتهي منـه خـلال وقـت قريـب، حـين تسـتيقظ -حـين ينتهـي مفعـول الـدواء- وهـو حلـم تتعطّـل خلالـه الحـواس، لا تكـون خلالـه نفسـك، لا تـؤدي وظيفـة منطقيّـة ترغبهـا ولا تتحـرّك بمحـض إرادتـك! كنـت الدّميـة الـتي يحتاجهـا المختـار، وكنـت أستسـلم لذلـك.

لا أذكـر يقينـا كيـف ومـتى حصـل ذلـك، لكنّـني لـم أعـد حريصـا عـلى الـدّواء حـرصي الأوّل. كنـت أتحمّـل سـويعات مـن الأرق قبـل أن أبتلـع جرعـات السّـائل، أختـبر حـدود تحمّـلي وأدفعهـا دقائـق إضافيّـة في كلّ مـرّة، كأنّي أزيـد اتّسـاع مجـال حريّـتي الشـخصيّة! أتحـدّى الرّصاصـة والمختـار معـا.

أنا باق رغم الرّصاصة.

أنا باق من دون الدواء!

facebook.com/groups/exchange.book

وحـين كنـت أنفـرد في خلـوتي الليليـة، أترقّـب أن تسـتلمني الرّصاصـة فتـأتي عـلى أعقابهـا كارمـن تجـرّ إحداهمـا الأخـرى كتـوأم متلاصـق، كنـت أسترسـل في أحاديـث ميتافيزيقيّـة موغلـة في الوحشـة.

هـل أنـا موجـود؟ مـاذا لـو كنـت قـد متّ فعـلا؟ مـاذا لـو كنـت روحـا مثـل كارمــن، أتطفّــل عــلى عالــم الأحيــاء؟ يســتحضرني المختــار في جلســات زار، ويسـقيني شرابـه ذاك ليقيّـدني إلى عالـم البـشر؟ لـم أعـد أعلـم يقينـا أيـن كنـت وكيـف أصبحـت. هـل كنـت آكل في تلـك الفـترة؟ وأقـضي حاجـات بشريّـة عاديّـة؟ لـو أنـني كنـت متيقنـا مـن ذلـك لاتّضحـت الرؤيـة! لكـنّ كلّ شيء يحصـل مـن حـولي بعـد أن آخـذ الـدّواء أصبـح يبـدو ضبابيّـا مرتجّـا بشـكل كبـير. الصّـور تتقافـز أمـام عينـيّ ولا تثبـت في مكانهـا.. وأصابتـني الدّهشـة. لـم يكـن ذلـك يصيبـني في وقـت سـابق! كان الـدّواء عامـل اسـتقرار يمكّنـني مـن مزاولـة حيـاة طبيعيـة في مـا مـضى، لكنّـه اليـوم يتركـني كالمسرنـم.. أتحـرّك ولا أعـي حركـتي.

ومـع ذلـك فقـد كنـت أمـرّ بحـالات صفـاء شـديد، تتيقـظ خلالهـا حـواسي كأنّمـا قـد تضاعفـت، فألتقـط أبسـط صـوت وأسـجّل أدنى لفتـة. وفي أوقـات أخـرى، أرجـع طبيعيّـا لا أشـكو شـيئا، كأنّمـا قـد أفقـت مـن نـوم الدّهـر! وقـد كانـت تلـك الأوقـات شـحيحة نـادرة الحـدوث بـادئ الأمـر، ثـمّ أصبحـت أكـثر تواتـرا حـتّى اسـتقرّ الوضـع بعـد أن اسـتوثق المختـار مـنّي ورضي عـنّي.

وكنـت في تلـك الفـترة قـد انقطعـت تمامـا عـن شـلة المقهـى وجلسـاته. وحـين عاودتـني حـالات الصّفـاء، لـم أجـرؤ عـلى الظهـور بعـد غيـاب لا يمكـن تفسـيره وحضـور لا يسـعني تبريـره! لكـنّ الحاجـة دفعتـني إلى دخـول دكّان أبي صالـح ذات مـرّة. كان بالمحـلّ زبائـن آخـرون، فحدجـني بنظـرة صامتـة ولـم يعلّـق. اختلسـت إطلالـة عابـرة عـلى شرفـة المقهـى وأنـا أعجّـل بالعـودة أدراجـي. تمنّيـت لـو لمحـت الدكتـور مالـك، لعلّـه كان ليفهمـني. حـين يكـون مـا يلـمّ بـك مشـطّا في الغرابـة، يتعـسّر عـلى عامّـة البـشر اسـتيعابه وتقبّلـه، تحتـاج عقـلا جامحـا يعالـج كلّ واقـع بقامـوس المنطـق الخـاصّ بـه. وهـذا

facebook.com/groups/exchange.book

هـو الدكتـور مالـك.

لكـنّ حظـي العاثـر جعلـني أقـع عـلى أبي مـازن. لـوّح لي بحـرارة ثـم هـرول في اتّجاهـي رغـم سنيه الـتي تراكمـت شـحما في كرشـه المكـوّر وضعفـا في ركبتيـه الهزيلتـين. تأبّـط ذراعـي وسـار بي بمحـاذاة الشـارع الرئيـسيّ. كنـت أرغـب في الفـكاك، لكنّـني قـدّرت الـودّ البالـغ الـذي أظهـره المهنـدس المتقاعـد. سـأل كثـيرا عـن أحـوالي وأبـدى افتقـاده لشـلة المقهـى الـتي انفـرط عقدهـا منـذ حـين. مـن دون استفسـار مـنّي، ذكـر اختفـاء الدكتـور مالـك الغامـض بعـد انقطاعـي بأيـام قليلـة. فاجـأني الأمـر، وأعفـاني مـن السـؤال عـن الرّجـل. لـم يبـق إذن سـوى العجائـز والـنرد فى صندوقـه الخشـب.

وقفنـا قبالـة محطـة الحافـلات، وأبـو مـازن مـا زال يثرثـر. يحـوم حـول السّـؤال مـن الجهـات الأربـع ولا يقتحـم سـور الخصوصيّـة الـذي لطالمـا بقيـت جدرانـه مرفوعـة منـذ أيّـام الشـلة. لعلّـه يتسـاءل، هـل مـن حقّـه أن يسـأل أيـن كنـت ومـا الـذي حـلّ بي؟ ولمّـا كانـت رغبـة الإفصـاح منعدمـة لـديّ، فقـد تجاهلـت مـا في لهجتـه مـن تلميـح. انتبـه فجـأة إلى شرودي عـن حديثـه ونظـراتي السّـاهمة في اتّجـاه بنايـة قديمـة ترتفـع طوابقهـا خلـف مـأوى المحطـة. قـال فجـأة:

- تلك بناية مسكونة!

التفتُّ إليه مبغوتا، وقد استحوذ فجأة على كلّ انتباهي.

- ماذا تقصد.. بمسكونة؟

- لقـد هجرهـا سـكّانها منـذ سـنوات. وكلّ متعهّـد حـاول ترميـم المبـنى وتجديـده كان يفـرّ بعـد برهـة وسـاقاه تسـابقان الرّيـح. الغالـب أن أرواحـا مـا تسـكنها، وتـأبى أن يشـاركها البـشر ملجأهـا.

- أيّ نوع من الأرواح؟ أشباح موتى؟

كنـت أسـتعلم في ظاهـر الأمـر عـن بنايـة لا تهمّـني في شيء، بينمـا أسـتطلع في الحقيقـة رأيـه في نظريّـة المختـار عـن روح كارمـن.

facebook.com/groups/exchange.book

- دعـك مـن هـذا الهـراء. أرواح المـوتى ليسـت فارغـة لهـذا العبـث، وهـي المشـغولة بمصيرهـا وحسـابها. فهـل يمكـن أن تكـون مـع هـذا طليقـة مـن كل قيـد، تـروّع البـشر وتسـتحوذ عـلى البنيـان؟

انتابتـني الرجفـة مـع كلماتـه الواثقـة. وتسـاءلت في صمـت: إن لـم تكـن هـذه الأرواح لمـوتى البـشر، فمـا تكـون؟

- إن شئت رأيي، لا يمكن أن يكون إلا من الجنّ والشياطين!

- إنها جنّيّة!

قلتهـا بلهجـة مـن يكشـف عـن سرّ خطـير. مـا عـدت متيقنـا فيـمَ كنـت أفكـر، حـين قصـدت المختـار أنبئـه بمـا خلُصـت إليـه بعـد حديـثي العابـر مـع أبي مـازن. ربّمـا طمعـت في نفـوره، فيطلقـني مـن جلسـات زاره.. أو شـفقته، فيسـعى إلى تحريـري منهـا بـدل الحـرص عـلى اسـتبقائها؟ رأيتـه يتفحصّـني باهتمـام واسـتغراق بالغـين، دار حـولي سـاهما كأنّمـا يـزن كلمـاتي بمـيزان العقـل والخـبرة.. والنفـع أيضـا. ثـمّ ظهـرت عـلى جانـب فمـه بـادرة ابتسـامة، توسّـعت تدريجيّـا حـتّى مـلأت وجهـه. ثـمّ تركـني مـن دون أن ينطـق بحـرف وهـرول إلى الخـارج لا يلـوي عـلى شيء.

لـم يطلبـني ذلـك اليـوم، ولـم أجـد لـه أثـرا في المجمـع كلّـه. ولـم أقـدر أن أخمّـن كيـف يفكّـر المختـار. بـدا أنّ اعـترافي قـد كشـف لـه عـن شيء مـا.. شيء يتجـاوز تفكـيري. لكـنّ الأمـور اتّضحـت حـين دعـاني إلى مجلسـه تلـك الليلـة.

أمـرني بـشرب وصفـة الأعشـاب في حضرتـه، ثـمّ بعـد أن بـدأ تأثـير المحلـول يُلحـظ عـلى وجهـي، أخـذ بيـدي وقـادني بخطـوات متّئـدة عـبر دهاليـز القبـو. رأيـت في مـا يـرى النّائـم -أو المخـدَّر، أيّهمـا أقـرب- قاعـة فسـيحة ومضـاءة بشـكل مبهـج، لا تـكاد تصـدّق أنّهـا تقبـع في أعمـاق القبـو! فرشـت أرضهـا

facebook.com/groups/exchange.book

بطنافـس وسـجّاد فاخـر، وأرائـك منخفضـة وثـيرة، وتناثـرت هنـا وهنـاك وسـائد طريّـة ومغريـة في فـوضى مدروسـة. لـم أكـن أدرك مصـدر الضّـوء، لكنّـه يبهـر عينـيّ ويبقـي رؤيـتي مهـتزّة. فجـأة تركـت كـفّ المختـار كفـي، والتـفّ حـتّى صـار أمامـي وخاطـب قومـا كانـوا مجتمعـين في بلاطـه ذاك، الـذي يشـبه مـا رسـمته في خيـالي لبـلاط خليفـة عبّـاسيّ مـا! كنـت أنتبـه للتـوّ إلى وجودهـم، والمختـار يـنزاح جانبـا وينحـني، ليقلّـده رفاقـه انحناءً.. في اتّجاهـي! ثـمّ حصـل مـا هـو أعظـم.. نـزع المختـار عنـه عباءتـه ورماهـا عـلى كتفـيّ! مثـل خليفـة يخلـع عباءتـه عـلى وزيـر مـن وزرائـه يرضيـه أداؤه! عبـاءة خـضراء ذات ملمـس حريـريّ ناعـم كانـت، رفرفـت مـن حـولي وأنـا أتقـدّم في غـير ثبـات في اتّجـاه المقعـد المرتفـع الـذي يتصـدّر الجلسـة. كان القـوم يحتفـون بي!

- كليم الجنّ!

قدّمـني المختـار في فخـر واعـتزاز، فاتّسـعت عينـاي ذعـرا. لا شـكّ أنّي ترقّيـت في سـلّم الكفـاءة عنـد الشـيخ حـين تبـيّن أنّ رفيقـتي جنيّـة، لا مجـرّد روح بشريّـة شـاردة! لا تسـألني أرجـوك كيـف ولـمَ.. لكنّـني وجدتـني أستسـيغ الـدّور. هالـة التعظيـم الـتي أحاطـت بجلسـة ربّمـا هـوّل لي الـدّواء أبعادهـا، فتخيّلتهـا جديـرة بالخلائـف، وهـي مجـرّد صالـون مغـربيّ ممّـا انتـشر في أسـواق الأثـاث الباريسـيّة -كانـت تروقـني! هـل تتخيّـل كيـف يمكـن لبـشر أن ينتقـل مـن مكانـة الخدمـة والتّبعيّـة إلى مكانـة النّديـة والتبجيـل عنـد رجـل فاضـل ومقتـدر مثـل المختـار؟ كنـت ممتنّـا تلـك الليلـة لكارمـن والرّصاصـة أكـثر ممّا أمكنـني أن أكـون في أيّ وقـت آخـر. جنيّـتي الصغـيرة الـتي أرعبـني اكتشـاف حقيقتهـا تلـك الظهـيرة، تجلّـت مـيزة لا يسـتهان بهـا.. عنـد مـن يقدّرهـا حـقّ قدرهـا. وقـد كان ذاك المجلـس هـو مـا رفـع قدرهـا.

كانـوا رجـالا أثريـاء مـن عليـة القـوم، يؤمنـون بقـدرة الجـنّ عـلى تيسـير أمورهـم الدنيويّـة بالغـة التأثـير والأهميّـة. مثـل الشـيخ المختـار كانـوا ينتظـرون منّي إشـارات وإجابـات. أنـا الرّسـول حامـل البشـارة! كان مـن السّـهل عـليّ بعـد عمليّـة التنصيـب والاعـتراف الـتي أتقـن المختـار إخراجهـا أن أسـعى

facebook.com/groups/exchange.book

إلى السّـاحة، فأنصـب في قلبهـا خيمـة مـن وبـر الجمـال، وأتربّـع سـاعات النّهـار أمـام كانـون يطقطـق في جوفـه البخـور، فأتمتـم بكلمـات مبهمـة وأحـلّ مشـكلات الخلـق بمشـورة جنيّـتي! تـراءى المسـتقبل سـهلا والحيـاة منبسـطة ممتعـة، وقـد وجـدت أخـيرا المهنـة الـتي تناسـبني!

أراك تقهقـه وقـد وصلـت عنـد هـذا الحـدّ. كـم كان أبـوك سـاذجا حينهـا. أحـاول قلـب موازيـن الأمـور واسـتغلال الموقـف ولـو إلى حـين. مـا دامـت رصاصـتي في رأسي وكارمـن تقبـع إلى جـواري، ألا يحـقّ لي تحقيـق بعـض النفـع مـن مصيبـتيّ؟ أم أنّهمـا لا تصلحـان إلا للألـم والعذابـات الليليـة حـين يغيـب تأثـير الـدّواء؟

ولأيّـام تلـت، اسـتغرقني الـدّور الـذي كُسـيت جلبابـه حـتّى تخالـني مـن المشـعوذين الأصليـين.. لا تقليـدا يُمهـر بعبـارة «صنـع في الصّـين»! لـم أكـن ذا تجربـة مـع الدّجالـين والوسـطاء الرّوحانيّـين، لكـنّ حفلـة الـزّار الأولى خلّفـت في ذاكـرتي نتفـا مـن العبـارات البليغـة الـتي تـردّدت مـرارا عـلى مسـمعٍ مـنّي، وخلتـني صرت قريبـا مـن هيئـة الشـيخ المهابـة وقـد اعتمـرت عمامتـه ورفلـت في حلّتـه، فاجتهـدت في تقليـد صوتـه وشـكله وهـو يحـاول اسـتحضار كارمـن في المـرّات الخاليـة. ومـا بدأتـه متصنّعـا متكلّفـا، انتهيـت إلى ممارسـته في سلاسـة لا تضاهـى.. كأنّـني تربّيـت في حجـر أحـد شـيوخ الطريقـة.

facebook.com/groups/exchange.book

خـلال وقـت قصـير، ذاع صيـتي في المنطقـة واشـتهرت في الأوسـاط الشـعبيّة. أصبـح المريـدون يفـدون مـن أجـلي، ولـن أبالـغ إن قلـت إنّـني نافسـت المختـار نفسـه! ولـم يكـن يبـدو عليـه الضيـق لذلـك، فـرواج تجـارتي كان مدعـاة فخـره. ألـم أكـن صبيّـه وصنيعتـه؟ ألـم تكـن جنيّـتي مـن اكتشـافه؟ بـل لعـلّ وجـودي خفّـف عليـه ضغـط المريديـن المتزاحمـين عـلى بابـه سـائلين الشّـفاء. ولعلّـه كان يوجّـه بعضهـم إليّ، ناصحـا إيّاهـم باختبـار شيء جديـد.. استشـارة الجـنّ مثـلا!

كان المختـار قـد أفـرد لي شـقّة في إحـدى عماراتـه، تتصّـل بمدخـل أرضيّ مبـاشر. ولعـلّ أطبّـاء ومهندسـين حسـدوني عـلى موقـع «مكتـبي» القريـب مـن الطريـق العموميّـة، فـلا تخطـئ العـين لافتتـه مـن بعـد مئـات الأمتـار.. «حكيـم روحـاني». لـم أكـن آخـذ أجـرا مـن أصحـاب الحاجـات، لكـنّ علبـة معـدن كانـت تُـترك بإهمـال في مدخـل الغرفـة، والمقتـدرون يلقـون في جوفهـا قطعـا نقديّـة.. كلّ حسـب طاقتـه، وعرفانـه.. فكثـيرا مـا يرجـع المريـد ليدفـع بعـد أن تُقـضى حاجتـه أو يجـد ضالتـه. وإن كان ذلـك يحصـل، فهـي بالتّأكيـد صدفـة أو قـدر! فـلا أدّعـي أنّ كارمـن كانـت تنطـق بمـا يفيـد! لكـنّ تكـرار الصّـدف وتواترهـا جعـل مـن جنّيّـتي الصّامتـة أداة معجـزات!

في ذلـك اليـوم، كانـت غرفـتي المخصّصـة لاسـتقبال الـزّوّار غاصّـة عـن آخرهـا. وكانـت قـد مضـت عـدّة أسـابيع عـلى مزاولـتي «المهنـة». كنـت أتمتـم مثـل العـادّة، وأؤدّي حـركاتي الغريبـة مثـل مشـعوذ محـترف. ثـمّ تـراءى لي خيـال مـن نافـذة الغرفـة المطلّـة عـلى السّـاحة، شـتّت انتباهـي. رأيـت ليليـان، قادمـة مـن بعيـد، تدفـع كـرسيّ ديانـا عـبر السّـاحة! كانـت معجـزة بحـقّ، أن ألمحهـا بعـد غيـاب قـد طـال وراء الجـدر المغلّقـة، حـتّى ظننتهـا اختفـت إلى

facebook.com/groups/exchange.book

الأبـد!

كانـت لحظـة خاطفـة قطعـت أنفـاسي، قبـل أن يجتذبـني عبـق البخـور وصـوت المـرأة المسـكينة المتربّعـة قبالـتي تسـأل عن سـوارها الذهـبي الضائع، فرجعـت بتركـيزي إلى الواقـع مرغمـا. كنـت أحـاول جاهـدا أن أبعـد عيـنيّ عنهـا، فأرقبهـا خلسـة بطـرف عيـني، أتأكّـد أنّهـا هـي هـي.. حـتّى رأيتهـا ترفـع رأسـها. واجهتـني عيناهـا لبرهـة قصـيرة، لمعـت خلالهـا نظـرة اسـتخفاف لا ترحـم، قبـل أن يغيّبهـا وأمّهـا منعطـف في نهايـة الـدّرب. كانـت ترحـل أمـام عيـنيّ، وأنا عاجـز عـن اسـتيقافها.. أنـا الـذي أحـدّث الجـنّ بزعمهـم، وأحـلّ المشـكلات المسـتعصية، لـم أكـن قـادرا عـلى فعـل شيء أردّ بـه نظرتهـا القاتلـة.

في ذلـك المسـاء، بـتّ معذّبـا مكلومـا.. كأنّي رأيـت حقيقـتي في تلـك النّظـرة. وتسـاءلت لأوّل مـرّة مـذ لبسـت عمامـة الدّجالـين، مـا الـذي أفعلـه بنفـسي وبخلـق اللـه المسـاكين؟ لـم أكـن دجّـالا مثـل الآخريـن.. فجنّيـتي حقيقيّـة. لكنّـني بُليـت بجنّيـة مراهقـة ترفـض أن تجيـب عمّـا أسـألها عنـه! كانـت ترقبـني مـن ركـن الغرفـة، حيـث تجلـس طـوال النّهـار تخربـش بطـرف عـود عـلى الجـدار الكلـسيّ.. وأنـا أسـتميت في اجتهـاد أقـرب إلى الاختـلاق في تخمـين صـور ذات معـنى لخربشـاتها العقيمـة تلـك! مـذ عرفتهـا وهـي تخربـش.. تحدثنـا طويـلا وتسـلّينا في عهدنـا الأول، خالـي البـال مـن الفروقـات الحسّـيّة بيننـا. كنـت أجـد متعـة في تأويـل رسـومها ومبادلتهـا الحديـث مـن خلالهـا. لكنّهـا اليـوم باتـت تتجاهلـني حـين أحدّثهـا، تنكمـش عـلى نفسـها وتسـحق العـود بـين أصابعهـا لـتزداد رسـوماتها تعقيـدا وسرياليّـة.. كأنّمـا تتحـدّاني في صمـت أن أقـدر عـلى التخمـين.. ولـم تعـد اللعبـة تستهويني وتمتعـني. لكنّهـا غـدت مصـدر قـوتي وقـوّتي! فقبلـت التّحـدّي مجـبرا لا بطـلا.

نمـت تلـك الليلـة بعـد أن اتّخـذت قـرارا بالتّوقـف. لـم تكـن ديانـا راضيـة عـن شـعوذتي، وكنـت لأفعـل المسـتحيل في سـبيل رضاهـا. عـلى السّـاعة الثامنـة مـن صبـاح الغـد، كنـت أطـرق بـاب شـقّتها. هـل رأيـت جسـارة كهـذه؟ بعـد أن طُـردت مـرّة واثنتـين وثلاثـا، أراني أركـب المصعـد كـرّة أخـرى، أبحـث

facebook.com/groups/exchange.book

عـن الخيـال الـذي عـبر أمـام نافـذتي بالأمـس، وقـد اشـتقته بـكلّ جوارحـي.

بعـد ثـوانٍ، فتـح البـاب، وظهـرت ديانـا عـلى كرسـيّها. رمقتـني في دهشـة. لـم تكـن زيـارتي متوقّعـة بعـد القطيعـة الطّويلـة. قالـت وهـي تدفـع عجلاتهـا إلى الـوراء في إعـراض:

- أمّي ليست هنا.

تمنّيـت لـو امتلكـت الجـرأة لأشرح ظـروفي وأعلّـل غيـابي، أو أسـأل عـن غيابهـا وإعراضهـا. لكنّـني لـم أفعـل. مـا نفـع العتـاب، مـا دامـت عيناهـا تجاهـران بالصّـدود؟ لبثـت عنـد البـاب المـشرع، بينمـا انسـحبتْ إلى الصالـة، مـن دون أن تدعـوني إلى الدّاخـل. مـرّت لحظـات مـن انتظـاري المتوتّـر، بينمـا اسـتمرّت هـي تراقـب مشـهد الحيـاة في سـاحة المجمـع السّـكني مـن نافذتهـا الشّـاهقة. سـألتني فجـأة مـن دون أن تواجهـني:

- هل لديك جنّيّة حقّا؟

ابتسـمت. لـم يسـألني أحـد ذاك السّـؤال مـن قبـل. الـكلّ تقبّلـه في تأمـينٍ مُسَـلِّمٍ.. ومـن لـم يصـدّق صـدف عـنّي ولـم يسـأل. فكّـرت كيـف أجيبهـا، ثـمّ ارتأيـت الصّـدق. رغبـة عميقـة في داخـلي كانـت تقتـضي ألّا يـرد عـلى لسـاني غـير الصّـدق في حضرتهـا. قلـت:

- يبـدو ذلـك. هـي جنيّـة صغـيرة متمـرّدة.. صامتـة معظـم الأحيـان. لكنّهـا تلازمـني غالـب الوقـت!

سألت متشككة تختبرني:

- هل هي هنا الآن؟ صفها لي؟

نظـرت إلى طيـف كارمـن الـذي ينحـني في منتصـف المسـافة الـتي تفصلنـا، يرسـم خطوطـا وهميّـة عـلى سـجّاد الصّالـة القديـم.

- إنّهـا خفيفـة رقيقـة العظـم، بشرتهـا شـاحبة توحـي بالعلّـة.. شـعرها بـنيّ قصـير، ونظراتهـا سـاخرة. إنّهـا تسـخر مـنّي طيلـة الوقت.. وتشـعرني بالسّـخافة!

facebook.com/groups/exchange.book

كنـت قـد قـرّرت هـذا الصّبـاح أن أتوقّـف عـن تأويـل خربشـاتها إلى الأبـد. فقـد بلـغ منّي الضيـق مبلغـه!

قالت في عبث ساخر:

- ماذا تقول جنيّتك؟ هل يتلبّسني جنيّ ما؟

انحنيـت فـوق كتـف كارمـن أتأمّـل رسـما وهميّـا ربّمـا تكـون خطّتـه عـلى السّـجاد. كانـت تبـدو وديعـة ذلـك الصّبـاح، تحـرّك سـبّابتها في شـكل دوائـر رقيقـة، وتطالـع ديانـا في اهتمـام.

قلت معترفا:

- لا أدري! لا يمكنـني فهـم خربشـاتها غالبـا.. لكنّهـا هادئـة اليـوم وسـخريتها منطفئـة. أظنّهـا أحبّتـك.

استـدارت لتطالعـني بنظـرة مسـتغربة. لـم أكـن أبـدو مشـعوذا محترفـا في تلـك اللحظـة، وقـد نزعـت عـني العبـاءة وقنـاع الوجـه. قلـت عـلى الفـور مسـتغلّا لحظـة التّواصـل البـصري بيننـا:

- لقد تركت الشّعوذة. لن أفعل ذلك مجدّدا.

مرّت لحظة من الصّمت، لعلّها حاولت تقدير مدى صدقي، ثمّ سألت:

- وما الذي تنوي عمله الآن؟

انعقـد لسـاني ولـم أجـد الكلمـات المناسـبة. مـا الـذي أنـوي عملـه؟ لـم أكـن قـد فكّـرت في الأمـر. كنـت أودّ العـودة إلى دروس العربيّـة، لكـن خشـيت أن يعـارض المختـار وأتعـرّض منـه لعقـاب جديـد.. وهـو الـذي لـم يتـوان عـن حرمـاني مـن الـدّواء لأبقـى عـلى حـدود مـا توهّمـه برزخـا! أيّ وعـود يمكنـني أن أقدّمهـا لأميرتي الـتي تسـتفسر عـن مشـاريعي المسـتقبليّة؟ طـال صمـتي حـتّى قالـت منهيـة مهلـة الانتظـار:

- عليك الانصراف الآن.. أمّي ستصل في أيّ لحظة.

انسحبت في صمت، مكسورا، أجرّ أذيال الخيبة.

facebook.com/groups/exchange.book

كنت قد تركت الشعوذة منذ ذلك الصّباح. منذ عاودت ديانا الظّهور في حياتي. تظاهرت بالمرض فترة، ثمّ اشتكيت إلى المختار كسل جنيّتي وغيابها عنّي، فأوصاني بالخلود إلى الرّاحة على أن أستأنف في القريب. لكنّي لم أكن أنوي شيئا من ذلك.. أتلكأ وأسوّف اتّخاذ قرار في ما أصنع.

حين صادفت ليليان الأسبوع التالي، لم أتوقّع منها غير التّجاهل كعادتها مؤخّرا. كدت أشيح عنها بوجهي، لولا حقّ الجيرة الذي كنت أؤمن به. لم تتوقف وهي تسير متعجّلة عبر السّاحة، لكنها همست إليّ حين مرّت بجواري وهي تحثّ الخطى:

- اتبعني...

سرت خلفها في إذعان متوجّسا من همسها ولهجتها الغامضة. انتظرنا المصعد في صمت ثمّ دلفت وراءها إلى شقتها. أغلقت الباب خلفها في إحكام ثم طلبت مني الجلوس على الأريكة القريبة. أطعتها من دون تردّد، وعيناي تنشطان بحثا عن خيال ديانا الذي لم يظهر بعد. جلست ليليان قبالتي وسألتني في اهتمام:

- أنت لست متورّطا معهم، ألست كذلك؟

انفرجت شفتاي لأردّ، لكنّني عدمت الجواب. عن أيّ درجات التورّط تتحدّث؟

أضافت هامسة كأنّما ضمنت براءتي:

- أنت ولد طيّب.. ولست معنيّا بالمصائب التي ستحلّ بأهل القبو! اسمع نصيحتي وغادرهم قبل أن ينطبق فكّا المصيدة!

طالعتها في ارتياب ودهشة، فعادت للهمس كأنّما تخاف أن يتسلل صوتها خارج جدران الشقة ويصل إلى آذان تترصّدنا بسوء:

- هناك شخص أعرفه.. صديق قديم لزوجي رحمه الله.. ضابط شرطة.

facebook.com/groups/exchange.book

رأيـت سـيّارته مختفيـة قـرب مدخـل المجمـع السـكني. إنّ الشرطـة تسـتعدّ لمداهمـة مـا.. لـم تعـد إلاّ مسـألة وقـت...

أقلّـب كفـيّ في عـدم فهـم. ومـا علاقـة حـراس العقيـدة والشـيخ بمسـألة كهـذه؟ لعلّهـم يترصّـدون منحرفـين مـا.. لصوصـا أو تجّـار مخـدّرات؟ تـردّ محتـدّة عـلى تسـاؤلي الصّامـت:

- أنـت لا تفهـم! مـن غـير المختـار وعصابتـه يكـون بغيتهـم؟ نشـاطهم المشـبوه محـطّ أنظـار السّـلطات منـذ حـين، ينتظـرون الزلّـة الكـبرى.. الخطـأ الفـادح الـذي يكشـف المسـتور. وقـد بـات المختـار يعلـن عـن نفسـه أكـثر مـن ذي قبـل، ويسـتعرض قوّتـه أكـثر ممّـا يحتمـل الصـبر.. وقـد غـدا قريبـا مـن ارتـكاب ذاك الخطـأ القاتـل!

همست بصوت مبحوح:

- لكن، الشيخ المختار.. رجل صالح ذو أفضال...

كأنّما توقّعت أن أرفع حجّة الدّواء، هتفت بي كما هتفت مرّة من قبل:

- دع الدّجل والشعوذة واستشر طبيبا حقيقيا!

ثمّ أضافت بصوت يحمل ضغينة لم تحاول إخفاءها:

- أراهـن عـلى أنّ دواء شـيخك يـضرّ أكـثر ممّـا ينفـع.. سـيظهر ذلـك ولـو بعـد حـين!

- أرجـوك.. لا تقـولي هـذا. الرّجـل أحسـن إليّ ولا يمكنـني إنـكار جميلـه مهمـا اختلفـت معـه.

ابتسمت ليليان وهي تقول في حنوّ:

- ألـم أقـل لـك مـن قبـل إنّـك ولـد طيّـب؟ حسـن، دعـني أفكـر في حـلّ مـا.. أمـا الآن...

أخرجت رزمة من الأوراق النّقدية ودسّتها في كفّي وهي تقول:

- أنـت لا تريـد أن تكـون منهـم أليـس كذلـك؟ خـذ هـذه واذهـب إلى الحلاق

facebook.com/groups/exchange.book

لتهـذّب شـكلك، ثـمّ انـزع عنـك زيّ البهلـوان واشـتر ثيابـا جديـدة.. جميلـة وشـبابيّة. ستشـعرك بحـبّ الحيـاة مـن جديـد!

تـردّدت وأنـا أقلّـب المبلـغ الـذي لـم أمسـك مثلـه منـذ زمـن طويـل. كنـت أقـدّر لهـا اهتمامهـا لأمـري، وأشـفق عـلى محاولتهـا أن تكـون نـدّا للمختـار. تابعـت تقـول بنـبرة تحـدّ:

- إن خاصمـك شـيخك لخروجـك عـن طاعتـه، فلتعلـم أنّـك سـتكون في حمايـة ليليـان روجيـه.. ويمكنـني أن أدبّـر لـك مسـكنا وعمـلا إن شـئت!

لا ينجـح تحريضهـا في إقناعـي بالخطـر المفـترض، وتـسرح نظـراتي تحـاول عبـور الأبـواب الموارِبـة. فـكلّ مـا كان يشـغلني آنـذاك هـو أن ألقـى أمـيرتي الـتي غابـت عـن مجلسـنا.. لمـاذا لا أجـد لهـا أثـرا، ولا تقابلـني غـير هـذه العجـوز الحانيـة المسـكونة بنظريّـة مؤامـرة تحـاك ضـدّي وترتعـب مـن أجـلي كأنّي بعـض أهلهـا؟

- لا تنـس أن تمـرّ عـليّ حـين تعـود مـن المحـلاّت، أريـد أن أرى حلّتـك الجديـدة.

أشـكرها لاهتمامهـا وكرمهـا وأعدهـا بالتفكـير في عرضهـا، وأنهـض متثاقـلا وقـد مُنّيـت آمـالي برؤيـة ديانـا بخيبـة ممضّـة. لـم تنجـح غريـزة ليليـان تجـاه الخطـر في رفـع مستوى حـذري، لكـنّ المختـار تنبّـه بشـكل مـا إلى أنّ أحدهـم يحـاول سـحب البسـاط مـن تحـت قدميـه، فعمـل عـلى تثبيـت أوتـاد سـطوته في أرضي بضربـات ثقيلـة لا قبـل لي بمقاومتهـا. كان بانتظـاري حـين رجعـت مـن عندهـا، تلقّـاني بنظرتـه الحصيفـة الـتي تسـبر أغـواري مـن دون عنـاء وقـال:

- كن في موقعك صباح الغد.. فلدينا ضيوف مهمّون.

هـززت رأسي مستسـلما. لـم أكـن أسـتطيع أن أرفـض لـه طلبـا. فـإنّي أدرك نـوع العقـاب.

لعلّـك تتوقّـع مصيبـا أنّـني لـم أعـد لرؤيـة ليليـان كمـا وعدتهـا. ولا قصـدت الحـلاّق ومحـلاّت الأزيـاء الشـبابيّة حسـب وصيّتهـا. فقـد رقـدت أوراقهـا

facebook.com/groups/exchange.book

النّقديّـة في دعـة داخـل جيـب بنطـالي القديـم الـذي اسـتبدلت بـه صبـاح الغـد جلبـاب الحـاوي وعمامتـه.. لأعـود صاغـرا إلى حرفـتي المسـتجدّة. لكـنّ العجـوز الطيّبـة لـم تيـأس مـن أمـري، وأرسـلت تطلبـني غـير عابئـة بأعـين المختـار المبثوثـة مـن حولنـا. دخـل عـليّ ولـد مـن أبنـاء الجـيران وأنـا أتربّـع وحيـدا أمـام كانـوني. كان انقطاعـي في الأيّـام الماضيـة قـد فـضّ المريديـن مـن حـولي. انحـنى عـليّ الولـد وهمـس بكلمـة السّرّ الـتي مـا حسـبت غـيري يعرفهـا:

- الخالة ليليان تطلبك لأمر عاجل يخصّ ابنتها!

ابنتها؟ وهل لليليان ابنة غير ديانا؟

نسـيت الـدّور والجـنّ والشـيخ وضيوفـه، خلعـت عـنّي العمامـة والعبـاءة وهرولـت إلى البنايـة الرّابعـة. حـين أذكـر ذلـك اليـوم، ينتابـني إحسـاس مـن حُـذف بدلـو مـاء مثلّـج في عـزّ ظهـيرة يـوم شـديد القيـظ. كأنّهـا اسـتفاقة مـن سـبات شـتويّ. ديانـا.. يـا إلهـي، ديانـا! خشـيت أن يكـون قـد أصابهـا مكـروه مـا!

حـين دخلـت الشّـقّة، لـم تكـن ديانـا في مرمـى بـصري. إلى جـوار ليليـان عـلى أريكـة غرفـة الجلـوس، كانـت تجلـس فتـاة أخـرى لا أعرفهـا. طالعتهما في شـكّ، وسـاورني إحسـاس سـخيف بابتـلاع الطّعـم. لكنّـني جلسـت مستسـلما أنتظـر أن يُسـمح لي بالحديـث. كانـت تفصلـني سـاعة واحـدة عـن الموعـد الـذي ضربـه لي المختـار. ولـم تكـن ليليـان قـد جازفـت بدعـوتي إلّا بعـد أن تأكّـدت مـن خلـوّ المجمـع السّـكني مـن المختـار وحرّاسـه. لذلـك بقيـت مـكاني مترقّبـا.

- شاي أم قهوة؟

- قهوة من فضلك...

لـم تسـألني ليليـان عـن مـشروبي ونهضـت متثاقلـة باتّجـاه المطبـخ لتحـضر طلـب ضيفتهـا. تضـع الفتـاة الأنيقـة حقيبتهـا إلى جوارهـا وتقبـع ملفاتهـا عـلى الطاولـة المنخفضـة بينمـا تسـترخي في جلسـتها مـن دون أن يبـدو عليهـا الاهتمـام بحضـوري. أرمقهـا مـن دون تركـيز، فانتباهـي منصـبّ عـلى المـلاك

facebook.com/groups/exchange.book

الغائـب عـن الجلسـة، وأنـا الـذي طـرت بـلا جناحـين قلقـا لأمـره.

- قهوتك أستاذة رنيم.

وضعـت ليليـان فنجـان القهـوة أمامهـا وكـوب الشـاي العابـق برائحـة نعنـاع طـازج وملعقـتي سـكر أمامـي، وتكلّمـت موضّحـة:

- في اتصـالي الهاتفـي لـم أوضّـح الموقـف بشـكل كافٍ.. نظـرا لدقّـة الموضـوع فضّلـت أن أشرح التفاصيـل مباشرة.

قدّمتني وهي تشدّ على ذراعي تبثّني ثقتها:

- نـادر صديـق للعائلـة.. ونحـن نثـق فيـه كثـيرا. بيـتي مفتـوح لـه مـتى شـاء.. وأمـره يهمّـني. لقـد مـرّ بتجـارب قاسـية عـلى صغـر سـنّه وظلمتـه الظـروف. وقـد دعوتـك اليـوم لشـأن يخصّـه. أريـد ترتيـب وضعيّتـه القانونيّـة في أقـرب وقـت حـتّى لا يتعـرّض للمزيـد مـن المضايقـات.

اسـتمعت إليهـا في صمـت. لكـنّ مرافعتهـا لـم تشـدّني في شيء بقـدر مـا شـدّتني كلمـة «نحـن» الـتي بـدأت بهـا خطابهـا. أيـن بـاقي الضمـير يـا امـرأة؟ لمـاذا يسـتتر عـنّي؟

- إذن، هل يمكننا استخراج أوراق هويّة لنادر؟

- الأمـر ليـس بهـذه البسـاطة.. أوّلا نقصـد مركـز الشرطـة ونرفـع شـكوى بضيـاع أوراقـك، ثـمّ نتوجـه إلى سـفارة بـلادك للحصـول عـلى جـواز سـفر جديـد وأوراق هويّـة كاملـة. كلّ هـذا في غايـة البسـاطة ويمكـن الانتهـاء منـه في وقـت قصـير.. لكـن لا يمكنـك الحصـول عـلى بطاقـة إقامـة بنفـس الطريقـة. الدّاخليّـة يمكنهـا التثبّـت بسـهولة مـن سـجلات البطاقـات المصـدرة وسـيتبيّن لديهـا أنّ اسـمك لـم يـرد فيهـا.. بـل لـم يتـمّ إصـدار تأشـيرة لـك مطلقـا، مـا سيسـبّب متاعـب أنـت في غـنى عنهـا.. إذن لا مفـرّ مـن سلسـلة العرائـض والمناشـدات والمرابطـة أمـام مفوضيّـات الهجـرة ومكاتـب شـؤون المهاجريـن، عـسى أن يحـنّ عليـك أحـد المسـؤولين ويتجاهـل طابـور الانتظـار المتراكـم منـذ سـنوات، ويتكـرّم عليـك ببطاقـة إقامـة تجدّدهـا سـنويّا!

facebook.com/groups/exchange.book

بـدا الأمـر معقـدا بشـكل محبـط. أشـحت بوجهـي في ضيـق بينمـا غامـت نظـرات ليليـان الـتي كانـت تأمـل الكثـير مـن لقـاء المحاميـة. فواصلـت رنيـم تقـول مفتعلـة بهجـة مفاجئـة:

- أو تختار الحلّ السحريّ الذي يختزل المسافات، وتتزوّج بفرنسيّة!

قاطعتها في انزعاج غير مبرّر:

- انسي الأمر! لست في وضع يسمح لي بالزّواج.

- هـل سـمعت بالـزّواج الأبيـض؟ الكثـير مـن المهاجريـن بصـورة غـير شرعيّـة يصلحـون أوضاعهـم بهـذا الشـكل. ربّمـا يمكنـك أن تجـد امـرأة تقبـل بتسـجيل هـذا النـوع مـن العقـود.. نظـير مبلـغ مـن المـال؟ وبعـد أن يتـمّ إصـدار الأوراق يمكـن لـكلّ منكمـا أن يذهـب في حـال سـبيله.

عـمّ الوجـوم للحظـات وران صمـت ثقيـل عـلى ثلاثتنـا. لـم أجـرؤ عـلى إبـداء موقـف مـن اقـتراح المحاميـة الـذي بـدا بغيضـا إلى أبعـد الحـدود. كانـت تحـاول المسـاعدة، لكـنّ اقتراحهـا لـم يكـن موفقـا عـلى الإطـلاق. زواج، نظـير مبلـغ مـاليّ؟ قاومـت رغبـة مفاجئـة بالتقيّـؤ، بينمـا قالـت ليليـان أخـيرا:

- سنجد حلا...

خرجـت رنيـم مـن الشـقة واسـتقلت المصعـد. بعدهـا بلحظـات، نزلـتُ درجـات السّـلم بخطـوات واسـعة لأدركهـا وهـي تسـير الهويـنى عـلى الممـشى المفـروش بالحـصى. هتفـت مـن خـلال أنفسـاي اللاهثـة:

- أستاذة رنيم.. برأيك.. هل هناك حلّ.. معقول؟

كنت أشير إلى رفضي اقتراح الزّواج الأبيض، فقالت في جدّيّة:

- السيّدة ليليان.. إنّها تهتمّ لأمرك.

- نعم، أدري...

أضفت بسرعة قبل أن يقطع خيالها مسافات بعيدة:

- إنها في سنّ والدتي.

facebook.com/groups/exchange.book

- لكنّهـا ليسـت والدتـك.. ويمكنّهـا أن تقـدّم لـك خدمـة جليلـة إن هـي أرادت...

- مـن فضلـك، لا أريـد المزيـد مـن هـذا الحديـث! ولا تذكـري الموضـوع أمامهـا عـلى الإطـلاق! عديـني!

كنـت منفعـلا ومسـتاءً. كان يجـب أن أنغمـس في الدّنـاءة حـتى أذنيّ لأقبـل بحـلّ كهـذا.

هزّت رنيم كتفيها في استهانة وهي تستأنف السير:

- كما تشاء.

قلت في سخرية بعد أن قطعنا بضع خطوات صامتين:

- مـن حيـث أتيـت، لا يمكـن لأحـد أن يتوقـع كيـف يمكـن للـزّواج أن يكـون حـلا لمشـكلات الرّجـل. مـن الطبيعـي أن يكـون حـلا لمشـكلات المـرأة.. فهـي تفـرّ مـن شـبح العنوسـة منـذ يـوم ولادتهـا، وتجهّـز للزفـاف بمسـاندة حثيثـة مـن أمّهـا وشـقيقاتها، بتكديـس مختلـف المقتنيـات بمناسـبة ومن دون مناسـبة. أمّـا الرّجـل فزواجـه ثقـل ومسـؤوليّة وتعـب جسـد وقلـب!

ضحكت، فنفضت عن أهدابها ظلال الحزن التي كانت ملتصقة بها.

- هل تتأثرين هكذا بقضايا موكليك، أم أنّ لحزنك أسبابا أخرى؟

لـم أتوقّـع أن تكدّرهـا دعابـتي بذلـك الشـكل، فقـد تلاشـت الابتسـامة عـلى الفـور. كنـت أهـمّ بالاعتـذار، حـين وجدتهـا تقـول ولمّـا يفارقهـا العبـوس:

- هناك قضيّة تشغلني بشكل خاص.

هززت رأسي متفهّما. ولم توضّح أكثر.

facebook.com/groups/exchange.book

facebook.com/groups/exchange.book

سـأختصر عليـك تفاصيـل الرّوحـات والجيئـات إلى مبـاني الإدارات الرّسـمية سـعيًا وراء وثائـق الهويّـة. فمـع أنّ حضـور الأسـتاذة رنيـم قلّـص الطوابـير ويـسّر الإجـراءات، فـإنّ سـاعات كثـيرة أُستهلِكت في قضـاء المشـاوير.. ولـم يكـن ذلـك ليمـرّ مـن دون أن يلحظـه المختـار. كنـت لأخـدع نفـسي إن ظننـت إخفـاء مـا أنـا بصـدده عـن الشـيخ ممكنـا. فقـد عرفتـه يقظـا فطنـا لا تفوتـه مسـألة تخـصّ رجالـه.. فمـا بالـك إذا كان الرّجـل كليـم الجـنّ المبجّـل!

دخـل عـليّ مهمومـا ذلـك المسـاء. تربّـع عـلى الحصـير إلى جـواري ولبـث سـاكنا، يهـتزّ جذعـه في حركـة بطيئـة وعينـاه مغلقتـان، كأنّمـا تسـتغرقه تراتيـل داخليّـة. وضـع كفّـه عـلى ركبـتي، كمـا فعـل أوّل مـرّة منـذ شـهور طويلـة، يتلمّـس موطـن الـدّاء. سـألني في حنـوّ بالـغ، بـذاك الصّـوت العميـق الوقـور الـذي لا سـبيل لبـشريّ إلى مقاومتـه:

- كيف أنت هذه الأيام؟

- بخير.. بخير يا شيخي. الفضل لله ثم لكم.

- هل ينقصك شيء؟ هل أساء أحد معاملتك؟

سارعت أهتف نافيا:

- لا يا شيخي! لم يحصل مطلقا!

ابتسم الشيخ وهو يقول بلهجة عتاب رقيقة:

- إذن مـا الـذي غـيّرك علينـا؟ لمـاذا التمسـت يـد المعونـة لـدى غيرنـا؟ لـو كنـت سـألتنا لكفينـاك.. أو لـم نفعـل في سـابق العهـد؟

تاهـت الحـروف مـنّي وألجمـني عتابـه. مـاذا أقـول؟ أرتّـب أمـوري القانونيّـة لأرحـل مـن هنـا إلى غـير رجعـة؟ أتعمّـد إخفـاء مـا أفعلـه لأنّ ليليـان تسـكنها

facebook.com/groups/exchange.book

مخـاوف جمّـة تجاهكـم؟ لـم يكـن شيء مـن ذلـك مـبرّرا حـتّى تلـك اللحظـة.

- هل تعلم كم يكلّفني غرام واحد من دوائك؟

رفعـت رأسي مبغوتـا مـع سـؤاله الغريـب واللهجـة الأغـرب الـتي صاحبتـه. لثانيـة واحـدة، لمحـت في عينيـه وميضـا مـن القسـوة.. وميضـا حـادّا ظهـر لبرهـة وجـيزة ثـمّ اختفـى، وتلاشـت القسـوة مـن صوتـه وهـو يضيـف بحنّـوه المعتـاد:

- أنـت بحاجـة إلينـا.. ونحـن بحاجـة إليـك. مكانـك هنـا يـا ولـدي. أوَلـم أخـبرك أنّـك منـذور لمهمّـة رفيعـة؟ والمهمّـة لـم تنتـه بعـد.

وافقتـه بحركـة اليّـة مـن راسي ولـم اعلـق بكلمـة. وقـف الشـيخ وسـار في اتّجـاه البـاب، وقبـل أن يعـبره قـال ويـده عـلى المقبـض وقـد ولاني ظهـره:

- لا تسـتمع كثـيرا إلى تخاريـف العجائـز.. فـإن مخالطـة النسـاء مضيعـة للوقـت مذهبـة للهيبـة.

- ليس لدينا جنّ هنا يصلح أن تكلّمهم!

تجاهلـت ابتسـامة أبي صالـح المتهكّمـة وأنـا أعـبر أمـام دكّان البقالـة. كان الرّجـل مغتاظـا مـنّي، منـذ قاطعـت جلسـات المقهـى واسـتلمت عمـلي الجديـد في الشـعوذة. إذا مشـيت في الشـارع، فـإنّي أكـون مطأطـئ الـرأس، كمـن ينقّـب عـن شيء مفقـود عـلى الأرض. لـم يكـن يمتعـني أن يتعـرّف إليّ أحـد زبائـني، فيحرجـني بعبـارات اهتمـام وتبجيـل. لذلـك لـم أنتبـه حـين مـرّت بقـربي ليليـان.

- يجب أن نتحدّث.

جـاءني صوتهـا هامسـا، فرفعـت رأسي. همسـت مـن جديـد وهـي تهـمّ

facebook.com/groups/exchange.book

بمواصلـة المسـير:

- لاقني بعد ساعة من الآن.

تسلّلت في الموعـد متوخّيـا مـا أمكنـني مـن الحـذر. لـم أكـن أرغـب في عتـاب آخـر مـن المختـار. وقفـت متواريـا في ظـلال الأشـجار أراقـب حركـة السّـاحة. حـين تيقّنـت مـن غيـاب الأعـين، توجّهـت إلى العمـارة الرابعـة. قالـت ليليـان حـين اسـتقرّت بنـا الجلسـة:

- تلقيـت اتصـالا مـن المحاميـة، الأوراق سـتكون جاهـزة خـلال أسـبوع عـلى الأكـثر...

ثـمّ ران الصّمـت. لـم يكـن هنـاك أثـر لديانـا، كالعـادة. هـل تكـون دعتـني لتكتفـي بتلـك الكلمـات؟ فكّـرت كثـيرا بتلميـح المحاميـة في الأيـام الماضيـة. لـن أقبـل أبـدا بـزواج بليليـان حـتّى لـو كان صوريّـا أو «أبيـض» أو حـتّى «أسـود». هنـاك حـدود لتحمّـلي الشـفقة والإحسـان. إحسـاس راودني بـأنّ عـليّ أن أنقـذ مـا تبقّـى مـن كرامـتي وأحفـظ مـاء وجهـي.. أمامهـا. مـاذا سـتظنّ بي ديانـا إن تزوّجـت أمّهـا؟

نطقت ليليان بعد برهة في سكينة، كأنّها تخاطب نفسها:

- أنـا وديانـا لا عائلـة لنـا، والـداي توفيـا منـذ زمـن طويـل وأنـا كنـت ابنتهمـا الوحيـدة. حـين تـوفي زوجـي، تفـرّق عنّـا إخوتـه ولـم أر وجـه أحدهـم بعـد المأتـم والدّفـن. لـم يهتـمّ أحـد منهـم بمصـير أرملـة شـابة وابنتهـا المقعـدة، كان علينـا أن نشـق طريقنـا وحدنـا في الـسّراء والـضّرّاء.. لـولا الإيمـان ومسـاعدة الـرّبّ...

قالت ذلك وهي ترشم الصّليب ثم أضافت:

- لذلــك أحسســت بمعاناتــك في غربتــك لأنــني وابنــتي جرّبنــا الوحــدة، والغربـة بـين الأهـل مـن قبـل.. نحـن نعيـش في مجتمـع قلّمـا يشـعر بعضـه بالبعـض الآخـر. كلّ منعـزل في عالـم مغلـق. تحيـا وتمـوت في صمـت ولا يـدري عنـك أحـد.

facebook.com/groups/exchange.book

صمتت مرّة أخرى، ولم أحاول أن أقاطع إطراقها العميق. كانت ملامحها المشدودة تشي بعزمها على اتخاذ قرار حاسم في تلك اللحظات. قالت مغيّرة الموضوع:

- حين كانت في سنّ العاشرة، تعرّضت ديانا لحادثة.. كانت تركب الدّرّاجة في طريقها إلى منزل رفيقة لها، حين دهستها سيّارة مسرعة. منذ ذلك الحين فقدت القدرة على المشي، وأصبحت انطوائية وميّالة إلى العزلة.. واصلت التردّد إلى المدرسة، لكنّها كانت قد وضعت ستارة بينها وبين العالم. أنا وهي عشنا في وحدة لفترة طويلة بعد رحيل والدها. لم تسمح لشابّ واحد بالتقرّب منها أو مغازلتها في الجامعة، وبعد الجامعة انتهت كل علاقاتها بالعالم الخارجي. كانت ترفض الحديث إلى الغرباء وتغرق في كتبها، حتى حين نقصد جلسات العلاج الطبيعي. ظننت أنّها قد ترتاح إلى أشخاص يعرفون معاناتها ويعيشون إعاقة مثل إعاقتها.. لكنها لم تفعل. لفترة طويلة صارت تخشى مغادرة عتبة البيت. إنّها عابسة ومنقبضة طيلة الوقت.. حتّى لقيتك! راودني الأمل حين وجدتها تنفتح أمامك وترسم البسمة من جديد على شفتيها.. ولبعض الوقت، أحسست أنّ عائلتنا الصّغيرة المنعزلة ازدادت فردا...

ازدردت ريقي بصعوبة حين وصلت عند ذلك الحدّ. لم أستطع النطق بكلمة. أرسلت نظراتي عبر زجاج الشرفة، أنتظر بقيّة الكلام في قلق ونفاد صبر. كنت أتساءل، أيّ نوع من أفراد العائلة قد أكون.. أخ؟ زوج؟ أم.. زوج أمّ؟ استبعدت هذا الاحتمال الأخير على الفور حين استطردت بلهجة جادة:

- بنيّ، لقد صرت عجوزا تقترب من السّتين.. وقد شاخ قلبي بسبب داء الكوليستيرول ولم تعد دقاته منتظمة كالسّابق. قد لا أعيش طويلا، والأعمار بيد الربّ.. لكنّني أحاول تصريف الأمور بحكمة حتى لا أدع مجالا للنّدم.

facebook.com/groups/exchange.book

انتظـرت أن تفصـح وتريحـني، لكنّهـا بـدت مشـتّة.. ربّمـا تنتظـر أن أبـادر بكلمـة:

- نحـن لسـنا أغنيـاء، نعيـش عـلى معـاش زوجـي الرّاحـل الـذي يكفينـا.. لـم ألمـس المـيراث قـط، لأنّـه حمايـة لمسـتقبل ابنـتي الوحيـدة وليـس مـن الحكمـة تبذيـره. سـيكون عـليّ أن أنفـق قسـطا منـه عـلى زواجهـا.

أمّنـت عـلى صـواب تفكيرهـا بهـزّة مـن رأسي وواصلـت إطـراقي. رمقتـني فجـأة بشـكل مبـاشر وارتفـع صوتهـا بعـد طـول همـس:

- حسنا؟

بادلتها النظر في سكوت. فاحتدّت:

- ألن تقول شيئا؟

كان يفـترض بي أن أقـول أشـياء كثـيرة بعـد فضفضتهـا تلـك، لكنّـني كنـت معقـود اللسـان ثقيلـه.

- ربّما تودّ أن تخطبها منّي مثلا.. قبل أن أغيّر رأيي؟

انفكّت عقدتي مرّة واحدة وسارعت أقول في لهفة:

- نعم.. أريد!

ظهـرت عـلى وجههـا ابتسـامة صغـيرة، ثـمّ عـادت إلى الهمـس لتسترسـل مـن دون توقّف:

- إنّهـا فكرتهـا.. ديانـا اقترحـت الأمـر. أعلـم أنهـا تروقـك أيضـا، وهـي تشـعر بالارتيـاح في حضـورك. الأمـر أصعـب ممّـا تتصـوّر بالنسـبة إليّ.. فهـي ابنـتي الوحيـدة! حـين أحسسـت بالتقـارب الـذي نشـأ بينكمـا، حاولـت إبعـادك عنهـا.. لـم يكـن مـن المناسـب أن تتعلّـق بصـبيّ تائـه تسـكن رصاصـة في رأسـه! لكنّهـا تبـدو واثقـة ممّـا تريـد. هـذا جنـون! هـذا جنـون! أنـت مـرّة مـدرّس عربيّـة ومـرّة شـحاذ.. ومؤخـرا مشـعوذ مبتـدئ! أشـكّ أحيانـا في رجاحـة العقـل الـذي تحملـه داخـل رأسـك! لكنّـك ولـد طيّـب.. قلـبي يستشـعر هـذا، ولذلـك أرتـاح

facebook.com/groups/exchange.book

إليك.. وأحبّ وجودك إلى جوارنا.. لكنّك ولد كبير يحتاج إلى العناية. أرجوك اكبر بسرعة! حاول أن تفعل من أجلها.. من أجل ديانا التي تضع فيك ثقتها وأملها. لا أريد لابنتي أن تعيش الخيبة. هل تعدني أن تجد عملا جادّا بعد الزّواج وتترك حياة النزق هذه؟ أنتما طفلان تائهان وتحتاجان إلى العناية. لن أعيش لكما طويلا.. وأنا حقّا أحبّ هذه الفكرة.. أن يعتني أحدكما بالآخر. سأكون سعيدة إن خلّفتكما في استقرار وارتياح...

غاب عقلي في عالم الأحلام بعد ثوان، ولم تعد كلماتها المتدفّقة تصلني. تمثّلت ديانا من خلال غشاوة دمع رقيقة أغشت عينيّ.. تخيّلت ملاكي الأصهب يجلس على الكرسيّ ذي العجلات بالثّوب الأبيض، وطرحة الدانتيلا الرقيقة تغطي لفائف شعرها ووجهها الصغير المنمّش.. وابتسامة عينيها الخضراوين تطلّ في خفر.. فشعرت بالدّوار.

أيقنت أنّ هناك لحظات جميلة في هذه الحياة تستحق الانتظار والمعاناة.

خلال وقت قصير غدا موضوع الزّواج جدّيّا. في الأحوال العادّيّة، كنت لأتّصل بأمّي.. أحدّثها عن العروس، أطرى على خصالها وأطلب مباركتها. لكنّني لم أقدر. ثقل غريب نزل على صدري.. الشيخ البشير سيفي بالغرض.

انبريت أقصّ على أسماعه قصّتي المختصرة. شابّ ضائع بلا وثائق إقامة رسميّة، وعائلة مسيحيّة كريمة تعرض عليه ابنتها البكر وحلّا لكلّ مشكلاته. استمع إليّ الشيخ في صبر وسعة صدر حتّى خلصت. بدا مهموما وهو يقول فيَ تفكير:

- أمهلني بعض الوقت يا بنيّ.. يمكننا أن نبحث لك عن فتاة طيّبة من

facebook.com/groups/exchange.book

بناتنا المؤمنات تسترها وتسترك.

تلعثمت. لم يكن ذاك الرّدّ قد خطر لي ببال:

- ولكن.. ليس هناك وقت.. أنا في حاجة إلى تسوية وضعيتي في أقرب وقت.. ثمّ..

- فهمت.

- لم تفهم يا سيّدي.. دعني أشرح لك!

- قلت فهمت! أنت تريد هذه الفتاة بعينها؟

اضطرب تنفّسي وارتبكت خلجاتي. نعم أريد، بكلّ جوارحي وكلّ عذابات كياني التعس أريد! لكنني استحيت من الشيخ. في الحقيقة لم أكن أطلب مشورة أو نصيحة .. بل مجرّد مباركة. سأل الشيخ بعد تفكير:

- هذه الفتاة، هل هي مؤمنة عفيفة؟

هززت رأسي موافقا في لهفة كأنّما قد مدّ إلي طوق النجاة:

- إنّها نصرانيّة ملتزمة يا سيّدي.. بكر عفيفة من عائلة طيّبة.

- حسن إذن. تزوّجها على بركة الله.. ثمّ احرص على دعوتها إلى الإسلام، فربّما يكتب الله هدايتها على يديك.

ثمّ تزوّجت.

لو كانت جدّتك حضرت حفل زواجي لكانت لطمت وولولت. فمفهوم حفلات الزّواج التي تشهدها قبيلتنا الجبليّة بعيدة مسافات شاسعة، بقدر الأميال التي تفصل باريس عن تبسة، عن الاحتفال المحتشم الذي أقمناه خلسة من الزّمن والجيرة والأعين المتطفّلة. فكيف بحفل زواج الذكر الوحيد في سلالة خليل الشاوي؟

لم يعلم أحد بأمر العقد، ما عدا الشاهدين، أبو صالح وأبو مازن.. والشيخ البشير الذي أبرم العقد الشّرعيّ، وممثّل عمدة البلدية الذي سجّل العقد المدنيّ.. والأستاذة رنيم شاكر التي استقبل مكتبها جمعنا.

facebook.com/groups/exchange.book

لـم تلبـس أمـيرتي ثوبـا أبيـض ولا تهدّلـت عـلى وجههـا طرحـة دانتيـلا شـفافة.. فقـد كان مـن الـضّروري ألا نلفـت الأنظـار إلينـا. لكنّهـا كانـت أنيقـة، كمـا هـي دائمـا، في ثيابهـا العاديّـة. فسـتان طويـل مـن السـاتان، لونـه ورديّ تتخلّلـه ورود بيضـاء منمنمـة. مـا زالـت صورتهـا فيـه واضحـة بـين عينـيّ. تلـك الصّـورة الحقيقيّـة الـتي أطاحـت بصـورة الحلـم الـتي تمنّيتهـا وفاقتهـا روعـة وفتنـة. ببسـاطة لأنّهـا حقيقـة لا خيـال. أمّـا أنـا، فقـد اسـتعرت بذلـة قديمـة مـن أبي مـازن مـا زالـت تحتفـظ برونقهـا، رغـم كونـه لـم يلبسـها منـذ عقـود. أحـضرت ليليـان خاتمـا ذهبـا. خاتـم زواجهـا. وطلبـت مـنّي أن أضعـه في بنـصر ابنتهـا. تملّكـني الخجـل. لـم أكـن قـد فكّـرت في شـكليّات الـزّواج في دوّامـة العجلـة الـتي تلبّسـتنا جميعـا. تـلا الشـيخ البشـير آيـات عـن الـزّواج، ثـمّ تحـرّى موافقة العروسـين قبـل أن يعلننـا زوجـين. وفعـل ممثـل العمـدة الـشيء نفسـه، مـع اختـلاف التّفاصيـل. وقّـع الجميـع في الخانـات المناسـبة، واسـتقرّ الخاتـم العائـليّ في بنـصر ديانـا. وصرنـا عروسـين. وزّعـت الأسـتاذة رنيـم كـؤوس العصـير وقطـع حلـوى وشـوكولاتة. ثـمّ تفرّقنـا.

حـين أفكّـر في تلـك الفـترة، لا أدرك تمامـا لمـاذا كنّـا مذعوريـن وخائفـين مـن الشـيخ المختـار وردّة فعلـه تجـاه هـذا الـزّواج؟ أعلـم أنّ ليليـان لـم تكـن تطيـق الرّجـل، وكانـت تتوقّـع أن يقـف عقبـة في طريقنـا. لكنّـني حينهـا لـم أكـن أتصـوّر أن المختـار يظنّـني صبيّـا عنـده يمتثـل لأمـره في الصغـيرة قبـل الكبـيرة. لـم أعتقـد حـتّى أنّ خـبر زواجـي سـيدخله في نوبـة غضـب غـير مسـبوقة، وهـو الرّجـل الـذي حسـبت الحلـم والسّـكينة متجسّـدين فيـه! كنـت أجـاري ليليـان في حذرهـا وحسـب، لكنّـني مطمـئن داخليّـا بـألا شيء سـيطالني، كان ذلـك قبـل أن أرجـع إلى قبـو العمـارة الثامنـة وابتسـامة السّـعادة تشـقّ وجهـي نصفـين، فيقابلـني المختـار بوجـه مربـدّ تـكاد عينـاه المتّقدتـان تخرجـان مـن محجريهما، فيصفعـني بمـلء كفّـه حـتّى أسـال دمـاء شـفتي، ويـصرخ في غضـب جبّـار:

- فعلتها؟ فعلتها وتزوّجت النّصرانيّة؟!

facebook.com/groups/exchange.book

الأربعاء ١٩ ديسمبر ٢٠٣٥، العاشرة صباحا،

توقّفت ديانا عن القراءة، لملمت الأوراق وهي تقول بصوت مخنوق:

- هل يمكننا الاكتفاء بهذا القدر الآن؟

كانت مرهقة، ساعات القراءة المتواصلة تأخذ من روحها قبل صوتها. لكنّه لم يستوقفها. ما دامت راغبة في الاستمرار فلتفعل. أمّا وقد وهنت، فالأمر لها أيضا. بدا أنّ ذكريات تلك الفترة تضغط على روحها أكثر من كلّ ما سبق. قرّر خليل أنّ من حقّها الانفراد بنفسها لبعض الوقت. إن كانت بحاجة إلى البكاء، فلعلّها لن تقدر على التّنفيس عمّا يجيش في صدرها أمامه.

- سأخرج لشأن مستعجل وأرجع.

ابتسمت. كانت تدرك أنّه ما من أمر مستعجل جاء فجأة، لكنّه يجاريها.

حين أصبح أمام المقود، تساءل، إلى أين الآن؟ لقد طلب إجازة، إذن لن يقصد المكتب. سيلين في مكتبها ومريم في مدرستها.. يمكنه أن يذهب إلى منزله، ويحظى بقسط من الرّاحة يعوّض سهاد ليلته. لكن بدلا عن ذلك، شغّل جهاز الملاحة واختار العنوان الأخير الذي أدخله منذ يومين.

هناك مسألة أخرى آن أوان حسمها.

بعد نصف ساعة، كان قد وصل إلى الوجهة التي تظهر على جهاز الملاحة، لكنّه لم يتعرّف على المنزل الذي سبق وزاره. تلفّت في شكّ. هل يُعقل أن تتغيّر ملامح الحيّ بتلك السّرعة؟ بدلا من المنزل الشرقيّ البديع الذي استحقّ إعجابه وثناءه في الزيارة السّابقة، كانت هناك.. خرابة! اختفى سور المنزل والحديقة. كانت قد دُمّرت بالكامل، ودهست النباتات الهشّة تحت وطأة معدّات ثقيلة. غير بعيد عنه، كانت هناك رافعة متوقّفة عن

facebook.com/groups/exchange.book

العمـل. عـلى واجهـة البنـاء تظهـر آثـار تدخّلهـا السّـابق، حيـث انهـار جـزء مـن الطابـق الأول للمـنزل. لمـح سـائقها داخـل حجـرة القيـادة، يلتهـم وجبـة خفيفـة. لـم يكـن إلّا توقّفـا مؤقّتـا، بعـده سـيعود للإجهـاز عـلى البنـاء كلّـه!

هـرول خليـل خـارج سـيّارته واقـترب مـن الرّافعـة. طـرق الزّجـاج الجانـبيّ ليشـدّ انتبـاه السّـائق:

- ما الذي يحصل هنا؟!

ترك السّائق وجبته وأنزل زجاج النّافذة:

- كما ترى.. سنزيل البناء القديم!

- والسّكان؟ أين ذهبوا؟

- رحلـوا بالأمـس.. أمـر الهـدم كان جاهـزا منـذ فـترة وقـد تلقيـت إشـعارا بالتنفيـذ صبـاح اليـوم. المالـك الجديـد يريـد إنشـاء عمـارة سـكنيّة حديثـة.

- أين ذهبوا؟

كان يعلـم أنّـه سـؤال لا طائـل وراءه، كان مـن المسـتحيل أن يعـرف سـائق الرّافعـة العنـوان الجديـد للعائلـة المطـرودة مـن مـنزل يعمـل عـلى هدمـه. هـزّ السّـائق كتفيـه علامـة الجهـل، ثـمّ مسـح كفّيـه واسـتعدّ لاسـتئناف مهمّته. فجـأة، صرخ خليـل وأخـذ يـضرب عـلى البـاب:

- توقّف! توقّف الآن!

لـم يكـن يـدرك مـا الـذي يفعلـه بالضبـط. لكنّـه كان مدفوعـا بطاقـة خفيّـة. لـم يكـن مـن الـوارد أن يسـمح بهـدم البنـاء مـن دون أن يفعـل شـيئا للحيلولـة دون ذلـك. يسـتوعب متأخّـرا أنّـه بصـدد تعطيـل القانـون! لكـنّ ذلـك لـم يردعـه. أشـار إلى السّـائق في عصبيّـة:

- لـن يتـمّ هـدم البيـت! ليـس قبـل أن تنظـر المحكمـة في شـكوى أصحـاب المـنزل.

راقبه السّائق في بلاهة:

facebook.com/groups/exchange.book

- أيّ شكوى؟ لقد تلقّيت الإشعار اليوم، وكلّ شيء قانونيّ!

- لا لـوم عليـك، الأمـر تأخّـر في الوصـول.. لا أكـثر.. وأنـا هنـا للحـرص عـلى ألاّ يتـمّ الهـدم قبـل أن يصـل إشـعار المحكمـة لـكلّ الأطـراف المعنيّـة.. أنـا دانيـال الشـاوي المحامـي.

نظـر السّـائق في بطاقـة خليـل المهنيّـة في حـيرة، ثـمّ تنـاول الجهـاز ليتّصـل برئيسـه المبـاشر. تابـع خليـل حركتـه مـن دون أن يغـادر موقعـه. بعـد لحظـات، كان الرّجـل يمـدّ إليـه بالهاتـف. تكلّـم بثقـة وهـو يسـتمع إلى صـوت الرّجـل الغاضـب:

- نعـم سـيّدي، هنـاك دعـوى قضائيـة جاريـة بخصـوص المـنزل المعـنيّ.. وأخـشى أنّ أيّ تجـاوز بالهـدم قـد يعرّضكـم لدفـع غرامـة ماليـة ضخمـة وتعويـض كبـير للعائلـة المتـضرّرة.. خاصّـة وقـد ثبـت أنّـني نبّهتكـم في الوقـت المناسـب.. والسّـائق هنـا سيشـهد بالحادثـة..

امتقـع وجـه السّـائق، ومـا أن ردّ إليـه خليـل هاتفـه، حـتّى سـارع بالابتعـاد عـن موقـع الهـدم.

عـاد خليـل إلى سـيّارته، ارتمـى عـلى المقعـد وعـلى شـفتيه ابتسـامة سـاخرة. والآن، مـاذا بعـد حركـة الشّـهامة الطارئـة هـذه؟ لـم يكـن هنـاك مفـرّ مـن إجـراء الاتّصـال الـذي تهـرّب منـه كثـيرا. استمع إلى الرّنـين مـن الجهـة الأخـرى يتكـرّر مـن دون ردّ. ثـمّ أعـاد الاتّصـال، ثانيـة، وثالثـة. مـن دون فائـدة. لـم يكـن مـن الممكـن رفـع الشـكوى مـن دون تفويـض مـن مريـم وأبيهـا.. والآن كيـف سـيجدهما؟

أدار المحـرّك، وانطلـق باتّجـاه العنـوان الآخـر الـذي قـد يوصلـه إليهمـا. توقّـف أمـام مبـنى السّـجن في الدّائـرة السّـابعة. قطـع الطريـق نفسـها إلى الكـوّة الخارجيّـة، وتلفّـظ بالاسـم نفسـه. محمـد رسـتم. هـذه المـرّة لـم يفتـح الحاجـز المعـدن، بـل رفـع الموظّـف رأسـه وقـال:

- لقد أفرج عنه بالأمس.

facebook.com/groups/exchange.book

- ماذا؟! هل ترك عنوانا؟

- لا شيء في ملفّه.

لا شيء. هـل يعقـل أن يتبخّـر كلّ أثـر لهـم بهـذه البسـاطة؟ لقـد وصلـت متأخّـرا يـا خليـل. متأخّـرا جـدّا. عـاود الاتّصـال برقـم الهاتـف مـرّات أخـرى، حـتّى أصابـه الملـل. ثـمّ اتّصـل بالمكتـب.

- جانيـت، أريـد كلّ المعلومـات الممكنـة عـن محمـد ومريـم رسـتم، ووالدهمـا الكفيـف.. هـل مـن أقـارب، أرقـام هاتـف، عناويـن.. أيّ شيء!

يسـخر في سرّه مـن القـدر الـذي يجعلـه يقتفـي أثـر عائلـة غريبـة تبـنّى قضيّتهـا في لاوعيـه قبـل أن يتّخـذ قـرارا واعيـا بنصرتهـا، تمامـا كمـا كان والـده منـذ سـنين خلـت يجـوب الشّـوارع بحثـا عـن فتـاة يتيمـة تدعـى كارمـن! لكنّهـم ليسـوا أشـباحا، مريـم ومحمـد وأبوهمـا.. بـل هواجـس تثقـل ضميره. إحسـاس مقيـت باغتـه بـأنّ السّـخط عـلى نفسـه سـيلازمه إلى نهايـة أيّامـه إن هـو لـم يفعـل شـيئا مـن أجلهـم.

يعود أدراجه الآن إلى شقّة والدته. لعلّها هدأت وتصالحت مع ذاكرتها.

يجمعهمـا ركـن المطبـخ مـرّة أخـرى، بينمـا ينهشـه القلـق وتتقافـز في رأسـه المتناقضـات.

- هـل تعلمـين؟ مهمـا حاولـت أن أقنـع نفـسي بـأنّ تلـك هـي جـذوري وعـليّ تقبّلهـا.. فـإنّ أمثـال أولئـك الأشـخاص، المختـار ورجالـه، يجعلونـني أثـور وأرفـض. لا يمكـن أن أنتمـي إليهـم!

رمقته أمّه بابتسامة هادئة:

- لا أحد يقول إنّك تنتمي إليهم.

- بـلى! العـرب كتلـة واحـدة.. مـا أن تنطـق بالكلمـة، حـتّى تتداعـى مـن ورائهـا قائمـة طويلـة مـن الأوصـاف، مـن ضمنهـا الهمجيّـة والتخلّـف والإرهاب.

- هل تقول هذا وأنت المحامي المثقف والرّجل المتحضّر؟

facebook.com/groups/exchange.book

- كفـاك يـا أمّـي! هنـاك نظريّـات مكانهـا الأطروحـات الفلسـفيّة، وواقـع نعيشــه!

قالت في حسرة:

- في زمننـا، لـم تكـن الفطـرة مشـوّهة إلى هـذه الدّرجـة. لقـد عرفنـا كيـف نعيــش معــا، مسـلمين ومسـيحيّين، عربــا وأوروبيــين.. كان هنــاك تطــرّف وإرهـاب، لكنّـه الاسـتثناء لا القاعـدة. كان بيننـا ودّ، وتضامـن في الأزمـات. حـين تكـون قريبـا مـن سـاحة الأحـداث، يمكنـك أن تميّز بـين الخـير والـشرّ ودرجات الرّمـادي الـتي تفصلهمـا. أمّـا اليـوم، فأنـت تجلـس وراء مكتبـك، تـدسّ أنفـك في شاشـاتك وأجهزتـك وتطلـق أحكامـا وتعمّـم.

هتف في يأس:

- لست أنا من يفعل يا أمّي! العالم كلّه يفعل! ألا تنظرين حولك؟

هـزّت رأسـها وطفـرت عـبرة مـن مقلتيهـا. معـه حـقّ، لقـد تغـيّرت المقوّمـات في السّـنوات العشريـن الأخـيرة، وبعـدت الشـقّة بـين مكوّنـات المجتمـع الواحد وانحــاز كلّ طــرف إلى أصلــه عــلى حســاب القواســم المشــتركة. احتفظــت بشـقّتها القديمـة الـتي أصبحـت الآن في قلـب حـيّ «العـرب». لكـنّ غيرهـا لـم يفعـل. لعلّهـا تعـدُّ ممّـن يسـمّيهم خليـل «المقاومـين» القلائـل. هـل يمكنهـا الآن أن تنفـي أنّ العالـم لـم يعـد كمـا عرفتـه وتريـد أن تذكـره؟ هـل تكفـي رحلـة عـبر رسـائل مـن المـاضي لتعيدهـا إلى زمـن غابـر لـم يعـد لـه وجـود إلا عـلى الـورق.. وفي ذاكرتَهـا؟

- ربّمـا كان هـذا الوقـت المناسـب للرسـائل.. لعلّـك تفعـل شـيئا مـن موقعك في البرلمـان حيـال هـذا الوضع...

يفعـل شـيئا؟ يغـيّر خارطـة البـلاد؟ مـن موقعـه في البرلمـان.. الـذي لـم يخط في اتّجاهـه بعـد؟! يتذكّـر عائلـة رسـتم. لعلّـه قـد بـدأ بالفعـل وأقحـم نفسـه في قضيّـة لا يُـدرك أبعادهـا. هـل يمكنـه بـين عشـيّة وضحاهـا أن يتقمّـص قضيّـة أنـاس لطالمـا تنصّـل مـن انتمائـه إليهـم وأنكـره بـكلّ جوارحـه؟

facebook.com/groups/exchange.book

يجيئه صوت أمّه مجدّدا، تدافع عن وجهة نظرها:

- ليسوا سواسية.. الإرهابيّ المعتدي، والمواطن الصّالح الذي لا يسيء إلى أحد، ليسوا من طينة واحدة. أبوك لم يكن منهم. وأنت لست منهم.

- لماذا إذن؟ لماذا أخفيت كلّ هذا؟

شحبت سحنتها، وارتجفت شفتاها:

- كنت خائفة عليك. لم يكن العالم آمنا. أردت لك أفضل الفرص.

- أيّ فرص؟ أيّ فرص في أن أنشأ ممزّقا من الدّاخل، بين هويّة أرفضها ولا فكاك لي منها.. وأخرى أنتمي إليها بكلّ كياني وتلفظني؟

فغرت فاها، مبهوتة. للمرّة الأولى، يفصح بذاك الوضوح عن معاناته. ما الذي فعلته بخليل، يا أمّ خليل؟ أهذا نتاج تربيتك المتفانية وسياستك الحذرة؟ كيف لم تدركي مبكّرة وجود ذاك الشرخ في أعماقه؟ هل ظننت مهمّتك كلّلت بالنّجاح، حين رأيته يتخرّج ويرتقي في سلّم التميّز المهني، يتزوّج وينجب طفلة بهيّة الطلعة، من دون أن تقف هويّته عقبة في طريقه؟ الآن تتحدّثين عن التّعايش والتواصل والأفكار المسبقة والنظريات المحرّفة؟ لم يسمعك مرّة واحدة، منذ طفولته تمدحين الجانب الآخر. لم يبد عليك الفخر يوما بجذور الرّجل الذي تزوّجته، ولا حاولت مرّة واحدة أن تأخذي بيده وتُدخليه عالم ذكرياتك المحبوسة في القمقم. الآن؟ الآن تريدين له أن يفهم ويستوعب ويتجاوز مسلّمات حشوت بها رأسه بصمتك ولامبالاتك أمام كلّ ما سقاه العالم الخارجيّ إيّاه؟ الآن تتشدّقين بالحقوق والحريّات والفروقات البيّنة بين سلوك المجتمع ووعي المثقّف؟

- أما زلت تعرفين كيف أشعر؟

كانت لهجته متهكّمة مرّة.

facebook.com/groups/exchange.book

انتقلـت إلى العيـش مـع زوجـتي وأمّهـا، بعـد أن لحقـني غضـب المختـار وخرجـت مـن حظوتـه. لـم يكـن شـهر عسـل كمـا يمكـن أن تتخيّـل.. فقـد حُفّـت أيّامنـا الأولى معـا بالمكاره والآلام. غيـاب المختـار يعـني غيـاب الـدّواء. وغيـاب الـدّواء يعـني.. ظهـور ذاتي الأخـرى للعيـان! تلـك الـذّات الممزّقـة المثقلـة بالوجـع الـتي تعـرف عنهـا ديانـا سـماعا، لكـن لـم يسـبق لهـا لقاؤهـا.

كنـت قـد فطنـت قبـل ذلـك بفـترة لا بـأس بهـا إلى أنّ المختـار كان يلعـب بي لعبـة حـذرة، فيغـيّر مـن مكوّنـات المحلـول، يزيـد وينقـص مـن تركـيزه ومقاديـره حسـب حاجتـه بي مسـتيقظا مسـالما، أو متألّمـا فعّـالا أو مخـدّرا لا يـدرك مـا حولـه. كنـت أعلـم في كلّ مـرّة أنّ مفعـول المـشروب يختلـف عـن اليـوم السّـابق. وقـد كان في الأيّـام الأخـيرة مميّزا. لـم أكـن أكاد أشـكو مـن أيّ ألـم، وأمـارس حيـاتي العاديّـة مـن دون صعوبـة. كان يحتاجـني بكامـل حضـوري العقـليّ لخدمـة ضيوفـه مـن الأثريـاء السّـاعين وراء خدمـات الجنيّـة. لذلـك، فقـد كانـت أيّـام الحرمـان الأولى قاسـية مريـرة.

أحـضرت ليليـان مـن الصّيدليّـة مسـكّنات عاديّـة، لكنّهـا لـم تكـن تجـدي نفعـا. كنـت قـد بلغـت مرحلـة مـن التّبعيّـة لـدواء المختـار لا تقبـل البدائـل! ولـم يكـن الحصـول عـلى مسـكّنات فعّالـة ممكنـا مـن دون وصفـة طبيّـة. لذلـك، وبعـد أربعـة أيّـام مـن الوجـع المسـتمرّ، تَقـرَّر أن أزور الطبيـب مـن دون انتظـار لبطاقـة التغطيـة الصحيّـة. لـم تكـن حالـتي تسـمح بمزيـد مـن التأجيـل. كنـا نهـمّ بالخـروج حـين فاجأنـا رنـين الجـرس. ظهـر أبـو أحمـد ووعـاء خـزفٌ صغـير بيمنـاه. لـم أسـأل ولـم أسـتفسر. ارتميـت عـلى الرّجـل أفتـكّ منـه الوعـاء، ولـم يكـن ينـوي أن يصـدّني عنـه! لكنّهـا اللهفـة أنسـتني كلّ الآداب والأخلاقيـات. شربـت مـا حـواه حـتّى آخـر قطـرة، ثـم تهالكـت عـلى

facebook.com/groups/exchange.book

الأرض في حـال يـرثى لهـا. همـس أبـو أحمـد بعـد حـين وقـد ظهـر في صوتـه التأثّـر:

- المختار يريدك.

حـين وصلـت، كان الحـراس يقفـون في صفـوف منظمـة، مسـتعدّين لتلقّـي الأوامـر. رأيـت المختـار يتهـادى في مشـيته، يتصفّـح الوجـوه وهـو يعـبر الصّفـوف عاقـدا ذراعيـه خلـف ظهـره، مثـل أمـير جيـش يتفقّـد اسـتعدادات جنـوده وأهبتهـم لهجـوم مرتقـب. حـين انتبـه لوجـودي افـترّ ثغـره عـن ابتسـامة راضيـة، وأشـار إليّ أن أتّخـذ مكاني في المقدّمـة. وقفـت حيـث طلـب، ومـا لبثـت أن اسـتقرّت بـين كفـيّ صاريـة طويلـة تحمـل رايـة في آخرهـا. طالعـت أبـا أحمـد الـذي سـلّمني إيّاهـا في دهشـة، لكنّـه لـم يوضّـح.

تنحنح المختار أخيرا إعلانا عن بدء خطبته ثمّ قال بصوته الجهوريّ:

- اليـوم يـا أبنـائي سـتكون مهمّتنـا مختلفـة عـن العـادة.. كلّكـم سـمعتم حتما عـن أخ لنـا في اللـه يقبـع وراء القضبـان.. تـمّ اتهامـه ظلمـا وبهتانـا بالإرهـاب، وهـي تهمـة يتفنّنـون في إلصاقهـا بـكل مسـلم لا يعجبهـم التزامـه وتديّنـه. كأنّ المسـلم أصبـح كبـش الفـداء الأمثـل لإرضـاء الـرّأي العـام وإغـلاق الملفـات القضائيّـة المسـتعصية. يجـب أن نعلمهـم أنّ المسـلم ليـس رخيصـا وبـلا سـند.. إن كان هـذا الشّـابّ وحيـدا ومـن دون عائلـة أو عشـيرة تقف إلى جـواره في محنتـه وتـذبّ عـن عرضـه، فنحـن سـنكون عشـيرته وعصبتـه! سـندافع عنـه في العلـن ونؤكـد عـلى حقـه في محاكمـة عادلـة وفي محامـي دفـاع حقيقـي وجديـر بالقضيّـة. مـا رأيكـم يـا شـباب؟

لـم ينتظـر أبـو أحمـد الـرّدّ وهتـف بقـوّة وهـو يرفـع قبضتـه في الهـواء في حركـة قتاليّـة:

- تكبيـــر!

فردّد الحراس وراءه بنفس الحماس:

- الله أكبر!

facebook.com/groups/exchange.book

ابتسم المختار وهو يقول في رضا:

- بورك فيكم يا شباب. هذا ظنّي بكم.

تكلم أبو أحمد بلهجة آمرة:

- سننطلق بعد ساعة إن شاء الله. إن لم يعلم أحدكم عائلته فليفعل، فقد لا نرجع الليلة...

تفرّق الحراس من دون كلمة إضافيّة امتثالا للأوامر. مضى البعض لإعلام عائلاتهم في حين توجّه آخرون إلى القبو لإنهاء تحضير اللافتات والأدوات التي سيستعملونها في المهمّة. راقبتهم وهم يبتعدون واحدا إثر الآخر ونبضاتي تتسارع في قلق. إن كانت المهمّة تنطوي على قدر من المخاطرة، فعليّ أيضا أن أعلم «عائلتي» بأمر الغياب المحتمل.. لكنّ المختار لم يمهلني حتّى أتّخذ القرار المناسب.

- اغفر لي غضبي يا ولدي، وتجاوز عمّا سلف.. فقد كان غيرة عليك...

تأبط ذراعي في حميميّة غير مسبوقة وقادني إلى درج القبو.

- هذه رايتنا.. شرف الجماعة، أنت حاملها والمنوط برفعها في عنان السّماء.

لم يكن حمل الرّاية مجرّد شرف، فهو مسؤوليّة أيضا. حامل الرّاية يجب أن يتقدّم الصّفوف ويحافظ على رايته مرفوعة مهما حصل. ويكون أيضا في مرمى عصيّ رجال الشرطة وهراواتهم. قد يتعرّض للضرب والإصابة من دون أن يقدر على الدّفاع عن نفسه. كنت أدرك كلّ ذلك، لكنّني لم أمتلك الاعتراض. وهل يمكنني أن أفعل وقد غفر لي المختار واستقبلني تحت جناحه من جديد؟

لكنّني تجرّأت على سؤال أبي أحمد حين أخذ الحراس يتوافدون من جديد استعدادا للانطلاق:

- هل سنتأخّر كثيرا؟

facebook.com/groups/exchange.book

- لا تخـش شـيئا يـا بـني، ليـس هنـاك داع للقلـق. جـرت العـادة أن نـودّع أهالينـا قبـل كل «مهمّـة».. فالشرطـة تتربّـص بنـا في كل وقـت. لكـنّ العقوبـة لا تتعـدّى ليلـة واحـدة في الإيقـاف. ليلـة نغتنمهـا لقيـام الليـل والاعتـكاف، لنقـوي لحمتنـا يـا بـنيّ...

استسـلمت لقـدري وتسـلمت مهمّـتي مـن دون حمـاس يذكـر. سـتكون المهمّـة الأخـيرة.

إذن انطلقنـا في اتّجـاه المحكمـة الـتي تعقـد فيهـا جلسـات محاكمـة ذلـك الشّـابّ المتّهـم بالإرهـاب. صرخنـا وهتفنـا مـا شـاء اللـه لنـا أن نـصرخ، ثـمّ تدهـور الوضـع كمـا هـو متوقّـع حـين التحمنـا برجـال الأمـن، وانهالـت علينـا الهـراوات والقنابـل المسـيلة للدّمـوع، فتمسّـكت برايـتي مـا اسـتطعت حـتّى انتزعـت مـني بالقـوّة.. ثـمّ حوصرنـا وحشرنـا في سـيّارات الشرطـة مثـل الخرفـان، واقتدنـا عـن بكـرة أبينـا إلى زنزانـة الإيقـاف.

وهناك.. حصلت المعجزة.

في ركـن الزنزانـة، مكـوّرا عـلى نفسـه غارقـا في الأسى.. كان الدكتـور عمـر! لـم أصـدّق عينـيّ حـين رأيتـه. هرعـت إليـه زحفـا عـلى الرّكـب، وعانقتـه بقـوّة. كان قـد تغـيّر لا شـكّ. بـدا أكـثر نحـولا، وعلامـة شـائهة تظهـر عـلى جانـب وجهـه. وقـد كانـت تلـك المظاهـرة الـتي خرجنـا فيهـا مـن أجلـه!

هنـاك أشـياء لا تعقـل في هـذه الحيـاة. حـدسي كان يخـبرني بـأنّ الشّـابّ بـريء. وقـد ازددت يقينـا ممّـا اعتقدتـه تخمينـا حـين لقيـت الرّجـل بعـد كلّ تلـك الغيبـة. وأخـذت أحـداث تلـك الحقبـة تتضـح في ذهـني. الهـزّة الأرضيّـة في ليـون.. لـم تكـن غـير انفجـار مختـبره! وغيابـه غـير المـبرّر عـن الشـقة.. لـم يكـن إلاّ لإصابتـه البالغـة في الحريـق، ثـمّ اسـتبقائه عـلى ذمّـة المحاكمـة، وقـد امتـدّت تجاهـه أصابـع الاتّهـام. اسـتمعت إليـه فاغـر الفـم، يلخّـص بكلمـات متعبـة آلام فـترة الفـراق.

كانـت ليلـة واحـدة قضيناهـا في مسـامرة عذبـة، وفي الغـد اقتيـد كلّ منّـا إلى

facebook.com/groups/exchange.book

زنزانـة انفراديّـة.. بعـد أن أفـرج عـن بـاقي الحـراس! مـا عشـته بعـد ذلـك في السّـجون الفرنسـيّة كان تجربـة أخـرى. حديـثي إلى الدّكتـور عمـر تلـك الليلـة أدّى إلى التعـرّف عـليّ كمجـرم فـارّ مـن العدالـة! وقـد كان بقاؤنـا في الزنزانـة نفسـها تلـك الليلـة، تخطيطـا مـن المحقّقـين لكشـف علاقـة الجماعة المشـاغبة بالمتّهـم! تذكـر يـا بـنيّ قفـزتي مـن النافـذة والشرطـة تداهـم شـقّة عمـر؟ كان ذاك الدّليـل الوحيـد ضـدّي. وخضعـت لتحقيـق صـارم لمـدّة أيّـام لأعـترف. بمـاذا؟

الانتمـاء إلى خليّـة إرهابيّـة اسـتهدفت علمـاء ومنشـآت علميّـة ومختـبرات كيميائيـة.

تعطيل مجرى العدالة بالفرار والتخفي من السّلطات.

التخطيط لتهريب محتجز تحت ذمة العدالة.

دارت بي الدّنيـا ولعنـت السّـاعة الـتي عرفـت فيهـا عمـر، ودخلـت شـقته وفـررت منهـا! لمـاذا نجـا كلّ الحـراس بمخطّطهـم ومنفِذهـم وشـيخهم ومحـدثي الفـوضى منهـم، ووقعـت أنـا المنقـاد قـسرا في فـخّ نصبتـه لنفـسي؟ نسـيت تعاطفـي مـع عمـر وإيمـاني ببراءتـه، ولـم أعـد أذكـر سـوى نفـسي وديانـا وحيـاة مسـتقيمة آمنـة ظننـتي كـدت أبلغهـا! لكنّـني رغـم سـخطي وضيقـي ممـا آلـت إليـه الأمـور، لـم أخـن الرّجـل ولـم أظلمـه بكلمـة. ذكـرت أفضالـه السّـابقة عـليّ، ولـم أذكـر غيرهـا كقاسـم مشـترك بيننـا في التّحقيـق. كنـت مـشرّدا فـآواني.. وكنـت خائفـا عـلى نفـسي مـن ترحيـل محتمـل فهربـت. أمّـا الآن، فقـد غـدوت مواطنـا شريفـا، ينتظـر أوراق ثبونيّتـه الـتي لـن يتأخـر صدورهـا.

وحـين ظهـرت الأسـتاذة رنيـم أخـيرا، تنفّسـت الصّعـداء. علمـت أنّ ليليـان وديانـا اسـتدعيتا للشـهادة، وشـهادة عمـر نفسـه برّأتـني. وكان عـليّ أن أصـبر حـتّى يُفـرغ مـن الإجـراءات الروتينيّـة، ويطلـق سراحـي. وأنّ لي بالصّـبر وذاك الـدّاء في رأسي! إذن في الليلـة الثالثـة لاحتجـازي، ارتفـع صراخـي ليمـلأ آذان

facebook.com/groups/exchange.book

سجّاني وجيران سجني، ليتمّ اقتيادي على جناح السّرعة إلى قسم الطّوارئ بالمستشفى العسكريّ.

- هل تشعر بألم في رأسك؟

فتحت عينيّ. طالعت الرّجل الذي كان يجسّ نبضي. وهززت رأسي ببطء علامة النفي وقد انتبهت للتوّ إلى أنّ ألمي كاملا كان قد اختفى. كان خدر خفيف يسري في أوصالي.. خدر مختلف عن مفعول دواء المختار. وما أن حرّكت أصابعي حتى شعرت بشيء كدبيب النمل في أطرافها. تابع الطبيب وهو يرفع بين يديه صورة أشعة حديثة ويشير إلى كتلة قاتمة تتربّع وسط رسم الجمجمة:

- هل تعلم بوجود هذه الرّصاصة في رأسك؟

أومأت بابتسامة ساخرة. وهل يخفى القمر؟

ثمّ شرع الطبيب يشرح في حماس شديد حيثيات الإصابة، مستعملا الكثير من المفردات التقنيّة، فقد كنتُ في نظره «حالة فريدة». إنّ السرّ في نجاتي من الموت يكمن في معطيات كثيرة اجتمعت لتشكّل المعجزة. الرّصاصة التي أصابتني، لم تكن مباشرة، بل مرتدّة عن جسم صلب. كان واثقا من ذلك، من دون أن يطلب روايتي للحادثة. لو أنّها كانت مباشرة لأردتني قتيلا على الفور. قال ذلك بلهجة قاطعة أصابتني بالرّجفة. وقد نفذت إلى الجمجمة بزاوية مائلة قرابة خمس وأربعين درجة، فعبرت العظام ولم تخترقها، بل استقرّت فيها. وإذ إنّ سمك عظامي سبعة مليمترات، وطول المقذوف ثلاثة عشر مليمترا، فإنّ طرف المقذوف وحسب قد تجاوز العظام، بينما التحم الجسم المعدن بها. مرّة أخرى، لو كانت الزاوية مختلفة، أو كانت سرعة المقذوف أكبر ولو بمقدار ضئيل، لكان تجاوز

facebook.com/groups/exchange.book

العظام ومرق إلى داخل الجمجمة ليقضي عليّ.

- أنت الآن تحت تأثير المورفين لذلك توقف الألم بصورة مؤقتة. لكنني مدهوش حقا.. كيف تمكنت من التعايش مع هذا الجسم الدّخيل كلّ هذا الوقت؟

كنت أهمّ بالحديث عن دواء المختار العجيب، حين انتبهت إلى أنّ الدكتور لابورت لم يكن ينتظر منّي جوابا. فقد رأيته يلتقط من المنضدة ملفا أخذ يتصفّح وريقاته مواصلا مناجاته الفرديّة:

- هذه نتائج تحليل عينة من دمك.. كنت تتلقى مواد مخدّرة يعادل مفعولها حقنة مورفين يوميّة. عالجت الألم بالمخدّرات، أليس كذلك؟ كوكايين وهيروين.. وأنواع أخرى!

خرج صوتي محمّلا بطبقات الذهول التي تراكمت على ذهني فبلّدته:

- مخدّرات؟

- لم تكن تعلم؟

طالعني الطبيب لوهلة ليزن بفراسته مقدار صدق دهشتي. ثم مطّ شفتيه وهو يقول مقترحا:

- هل طلبت المساعدة؟ ربّما حاول أحدهم التخفيف عنك بهذه الطريقة؟

هززت رأسي في حركة آلية وما زلت على ذهولي. المختار كان يقصد مساعدتي.. لا شكّ! لم يسقني السّموم ليهلكني، بل لأنّه لم يكن هناك دواء آخر! أقنع نفسي بسلامة طويّته، وأؤثر إحسان الظنّ به.. لكن تداهمني الريبة وتنهش في أفكاري. هل كانت الجلسة الرّوحانيّة ومشروب الأعشاب مجرّد تمويه؟ يفرغ القرطاس خلسة في الوعاء، ويستغفلني؟ لماذا؟! منذ متى شرع في ذلك؟ طول الوقت؟ منذ البداية؟

- إن استهلاك المخدّرات يعرّض صاحبه إلى عقوبة السّجن.. إلا إن أقررت

facebook.com/groups/exchange.book

برغبتـك في التخلّـص مـن الإدمـان، وسـجّلت في برنامـج إعـادة التأهيـل.

هتفت على الفور:

- أفعل!

أومـأ في رضـا، ثـمّ أضـاف وهـو يطالـع صـورة الأشـعة مـن جديـد باسـتمتاع ظاهر:

- قبـل ذلـك، سـيكون علينـا التخلّـص مـن هـذا الجسـم المعـدن.. ذكـرني كيـف وصـل إلى هنـا؟

لـم ينتظـر ردّا عـلى سـؤاله، وواصـل تشـخيصه، بنفـس الحمـاس المتّقـد. بعـد الإصابـة فـورا، شرع الجسـم في تكويـن أنسـجة ليفيّـة لتحيـط بـرأس المقـذوف المنغـرس في أنسـجة المـخ. هـذه الكتلـة الليفيـة يـزداد حجمهـا مـع الزّمـن، لتغـدو ورمـا. وإذا مـا تمّـت الجراحـة، فسـيكون الهـدف اسـتخراج الجسـم الدّخيـل -المقـذوف- وحسـب! فالـورم قـد غـدا جـزءا مـن الدّمـاغ، ومـن العسـير عـلى أمهـر الجرّاحـين أن يسـتأصله مـن دون إحـداث تخريـب بالـغ بأنسـجته. زد عـلى ذلـك أنّ الإصابـة كانـت فـوق الأذن، عـلى مسـتوى الفـصّ الصّدغـي، في الشـقّ الأيـسر مـن الجمجمـة، وهـو الشـقّ السّـائد أو المتحكّـم في معظـم الوظائـف الدّماغيّـة، كالنطـق والذاكـرة والبـصر والتّـوازن، وأيّ عبـث بتلـك المنطقـة قـد يتسـبّب في فقـدان للاسـتقبال السّـمعي والبـصري، وفقـدان كليّ للذاكـرة!

أفزعتني كلمة «ورم». يُخرج الرّصاصة ويخلّف ورما في رأسي؟

أضاف مطمئنا:

- بعـد إزالـة المقـذوف، سـتتراجع الكتلـة الليفيـة لتحتـلّ مكانـه السّـابق، ويقـلّ ضغطهـا عـلى الفـصّ الدّماغـي، وبالتـالي مركـزي السّـمع والبـصر.. وربّمـا تتوقّـف عـن النّمـوّ وتسـتقرّ عـلى وضعهـا الحـالي.. حينهـا لـن تهـدّد حياتـك مـن جديـد.

ربّما! يقول ربّما!

facebook.com/groups/exchange.book

في غمرة الجزع والهلع، يراودني سؤال قديم، فاستوقفته فجأة:

- دكتـور.. هـل يمكـن للرّصاصـة في الدّمـاغ أن.. أن تجعلـني أرى.. أو أتواصـل مـع كائنـات غـير محسوسـة ولا مرئيّـة؟

- تعني أنّك كنت ترى أشياء لا يراها أحد سواك؟

- هو ذاك!

- مـن دون شـكّ! نوبـات الـصّرع والهلوسـة مـن الأعـراض الملازمـة لمثـل هـذه الحـالات.. بـل إنّ الهلوسـة غالبـا مـا تكـون مركّبـة، فتكـون تهيّؤاتـك صـورة وصوتـا ورائحـة وحـتّى اسـترجاع ذكريـات عـن أشـخاص عرفتهـم.

قـال ذلـك ببسـاطة شـديدة، ثـمّ انسـحب مـن الغرفـة، وقـد خلّفـني كتلـة مـن الذّهـول لا يمـيّز بعضهـا مـن بعـض!

كان آخـر عهـدي بكارمـن في زنزانـة الإيقـاف تلـك الليلـة. تمنيّـت لـو أنّـني ودّعتهـا كمـا يجـدر بي أن أفعـل. كانـت رفيقـة درب استثنائيّة، ولـو أنّهـا مـن صنـع خيـالي! عاملتهـا كبـشر، ثـمّ روح عالقـة، وانتهيـت إلى اعتبارهـا جنيّـة.. لكنّهـا سـخرت مـن سـذاجتي حـتّى النّهايـة، فتبخّـرت كمـا تفعـل الهـلاوس! فكـرت بالمختـار.. وبضيوفـه الأفاضـل.. وعامّـة المريديـن الذيـن قصـدوني لأكـون وسـيطهم، ألتمـس قضـاء حاجاتهـم مـن الجـنّ.. فضحكـت كمـا لـم أضحـك مـن قبـل. ثـمّ بكيـت.. وسـألت اللـه أن يغفـر لي خداعـي غـير المقصـود. كنـت أصـبّ في آذانهـم هـراء مـا أنـزل اللـه بـه مـن سـلطان.. لا هـو وسوسـة شـياطين ولا ممّـا تتسـمّع لـه الجـنّ ولا خـبر مـن عالـم الـبرزخ.. كان خيـالي الخصـب يشـطح في كلّ الاتّجهـات. كان ذلـك كلّ مـا في الأمـر! وإن كنـت قـد حزنـت مـن أجـل النّـاس الذيـن وضعـوا ثقتهـم فيّ، إلاّ أنّ المختـار اسـتحقّ مـا طالـه. ألـم يعبـث بعقـلي ويغـرق وعـيي بسـمومه؟ إذن عليـه مـن اللـه مـا

facebook.com/groups/exchange.book

هـو أهـل لـه!

غرقـت في الأيّـام التّاليـة في دوامـة التحاليـل وصـور الأشـعة.. اسـتعدادا للعمليّـة الجراحيّـة. صـار لزامـا أن تخـرج الرصاصـة مـن مكمنهـا، مهمـا كانـت النتائـج المحتملـة. فقـد أصـدر الأطبّـاء حكمـا باسـتحالة التعايـش معهـا وقتـا أطـول. كان الـورم ينمـو ويضغـط عـلى الدّمـاغ، والهلوسـة مـا هـي إلا مقدّمـة لسلسـلة مـن الأعـراض مـن شـأنها أن تدمّـر وظائـف المـخّ واحـدة إثـر الأخـرى! إذن فقـد كنـت مخـيّرا بـين أمريـن أحلاهمـا مـرّ مـرارة العلقـم. فإمّـا مـوت بطـيء مـع رصاصـة في الـرأس.. وإمـا مـوت مفاجـئ عـلى طاولـة العمليّـات! فنسـبة النّجـاح كانـت ضئيلـة جـدّا. كان شـبح المـوت يجثـم عـلى صـدري مهـدّدا بقـرب اللقـاء.. وكان عـليّ أن أدفـع عـنّي هاجسـه متشـبّثا بأمـل شـحيح لحيـاة ممكنـة.

ثمّ جاءت ديانا لزيارتي.

كرهـت نفـسي حـين رأتـني عـلى تلـك الحـال بعـد زواجنـا بأيّـام. كنـت أتمـنى أن أثبـت جـدارتي بثقتهـا. لكـنّ البدايـة كانـت متعـثّرة. وحـين غابـت عـن ناظـري فـترة إقامـتي في المستشـفى، راودتـني الوسـاوس. أتراهـا كرهتـني؟ كانـت مخاطرة مـن قبلهـا أن تقبـل بـزواج كهـذا.. وزوج كهـذا! فـلا ألومهـا إن هـي تراجعـت وغـيّرت رأيهـا. بـل لعـلّ فكـرة الـزواج الأبيـض بـدت مواتيـة آنـذاك أكـثر من ذي قبـل. ولـم يكـن يضاهـي إشـفاقي ممّـا ينتظـرني إلا التفكـير بوجههـا، وقـد عـاد الحـزن ليغلّـف قسـماته وغادرتـه البهجـة الـتي سـكنته أيّـام تقاربنـا. ونويـت أن أفـكّ ارتباطنـا في أقـرب وقـت.. لأزيـح عـن كاهلهـا عنـاء لا تسـتحق أن تحمـل ثقلـه بـلا ذنـب اقترفتـه، غـير أنهـا صادفـت طريقـي ذات يـوم! كنـت مسـتعدّا للتخـلي عـن أمـيرتي، إن كان ذلـك مـا تريـده. وقـد يخلّـف تنفيـذ القـرار قلـبي رمـادا...

لذلـك، فقـد فاجأتـني تلـك الطّرقـات الرقيقـة عـلى بـابي، معلنـة عـن زائـر غـير متوقـع. عـدا الدكتـور لابـورت، الممرّضـة جيـني، الطبيـب النّفـسي

facebook.com/groups/exchange.book

بوريـس.. لـم أكـن أتلقـى زيـارات أخـرى. رأيـت البـاب ينفـرج ببـطء، ثـمّ ظهـرت عجـلات مقعـد متحـرّك. امتـدّت كـفّ صغـيرة بيضـاء لتبعـد دفّـة البـاب بقـوّة ثـم عـادت لتسـتقر عـلى العجـلات وتديرهـا في سلاسـة لتدفـع بالمقعـد إلى الأمـام.

- ديانا!

هتفـت بـكلّ فـرح الدّنيـا، ودهشـتها وذهولهـا. ابتسـمت وهـي تقـترب أكـثر وهمسـت:

- كيف حالك؟

لعلهـا رأت بعينيهـا مـا صـارت عليـه حـالي. كنـت أفضـل مئـة درجـة بعـد أن كحلـت نظـري بابتسـامتها. حدّقـتُ بالبـاب الـذي عـاد مغلقـا بعـد دخولهـا، أنتظـر أن تخطـو ليليـان وراءهـا. لـو افترضـت أنّهـا صعـدت إلى الطابـق باسـتعمال المصعـد ولـم تحتـج مسـاعدة أحـد هنـا، فـلا أتصـوّر أنهـا قـد كلفـت نفسـها عنـاء ركـوب وسـائل النقـل وخـوض الشـوارع المجهولـة بالنسـبة إليهـا لمجـرّد رؤيـتي. يدغـدغ تفكـيري خاطـر مفعـم بالأمـل.. أولسـت زوجهـا؟ لا شـكّ أنّ وقـع تلـك الكلمـة لا يـزال غريبـا في أذنيهـا كمـا هـو في أذنيّ.

- أمّـي في الخـارج تتحـدّث إلى الممرّضـة. أردت أن أتحـدّث إليـك قليـلا قبـل مجيئهـا.

أعرتهـا انتباهـي خالصـا كامـلا، وقلـبي يتوجّـس ممّـا في جرابهـا مـن حديـث. لعلّهـا تسـبقني إلى طلـب الفـكاك، فيتحـوّل المشـهد الـذي تصوّرتـه مطوّقـا بالكرامـة والإبـاء، وأنـا أخـلي سـبيلها في مبـادرة لا تخفـى الشـهامة في ثناياهـا.. إلى مشـهد إذلال لا شـفاء منـه، وهـي تسـألني أن أعفيهـا مـن خـوض مغامـرة كهـذه غـير مأمونـة العواقـب! تمنّيـت لـو أنّهـا لـم تكـن بتلـك الشـجاعة. لـو أنّهـا فوّضـت ليليـان لتتحـدّث باسـمها. سـمعتها تقـول، بصـوت ملائـكي آتٍ مـن وراء حجـب ذهـولي:

- لـم أسـتطع القـدوم لرؤيتـك في الأيّـام الماضيـة.. كنـت أحـضّر مفاجـأة..

facebook.com/groups/exchange.book

أرجـو أن تعجبـك..

حدّقــت فيهــا غــير مســتوعب. رأيتهــا تمســك بحاجــز الكــرسيّ الجانــبيّ، تضغـط عليـه بمـلء كفّيهـا، فتحتقـن الدّمـاء في وجنتيهـا الشـاحبتين لتلهبهمـا. التصميـم يمـلأ عينيهـا الزّمرّديتـين وهـي ترتفـع، تقـوم مـن مقعدهـا حـتّى توشـك أن تسـتقيم واقفـة، ونظـراتي تتّسـع وترقبهـا مأخـوذة. ورغـم العـذاب الواضــح في ملامحهــا، نظــرت إليّ، وأشرق وجههــا بابتســامة لا تضاهــى في عذوبتهـا.

- ما رأيك؟

تركـت جسـدها ينهـار ويسـتقرّ في اسـترخاء عـلى المقعـد مـن جديـد، بعـد أن بذلـت جهـدا كبـيرا. وعـادت لتقـول في حيـاء وقـد اسـتمرّ صمـتي الأبلـه:

- كنـت أخضـع لجلسـات عـلاج طبيعـيّ مكثّفـة في الفـترة الأخـيرة.. أردتـك أن تـراني أقـف. فهـذا كلّ مـا بإمكاني فعلـه لأشـكرك..

- تشكرينني؟!

- لقـد أحييـت فيّ الإرادة.. وأنـا مدينـة لـك بهـذا. لذلـك يجـب ألا تستسـلم الآن. إن كنـت أنـا قـد اسـتطعت الوقـوف بعـد كلّ هـذا الوقـت.. فأنـت قـادر عـلى تجـاوز الأزمـة.. وسـتصبح حياتـك أفضـل بعـد العمليّـة!

كنـت خائفـا، مرتعبـا.. مـن حتميّـة فقدانهـا. فـإذا بهـا تكافئـني بمـا لا طاقـة لي بـه مـن الفضـل. حيّرتـني تلـك الابتسـامة الصّافيـة المشربـة بـشيء مـن الحيـاء. كانــت تمســح عــنّي بيــد بيضــاء ناصعــة كل الشــكوك المزمنــة. كأنّهــا تقــول «لـم يكـن هنـاك داع للقلـق». تقولهـا في صمـت مـن دون إحـراج أو خـدش لمشـاعري. وتسـاءلت في طمـع بـشريّ يتطـاول مشرئبّـا ويفـرد قامتـه ليسـتقيم جذعـه -وأنـا الـذي شـارفت منـذ ثـوان عـلى العـود مذمومـا مدحـورا- هـل في قلبهـا مثـل مـا في قلـبي؟ ومـا الـذي قـد يجتـذب حسـناء رقيقـة مثلهـا لعليـل سـقيم مثـلي؟

- سـآتي لأراك كل يـوم مـن الآن فصاعـدا، لنتحـدّث.. أريـد أن أعـرف كل شيء

facebook.com/groups/exchange.book

عـن حياتـك الماضيـة وعـن عائلتـك وكل مـا يهمّـك. ويمكنـك أن تسـألني مـا تريـد...

كنـت أعلـم أنّ المسـلك ليـس بعـد آمنـا.. قـد أفقـد بـصري أو ذاكـرتي، أو حـتّى حيـاتي في أثنـاء العمليـة. أو قبلهـا أو بعدهـا. لا شيء مؤكـد. وديانـا تريـد أن نتعـارف أكـثر؟ تدفّقـت العـبرات مـن مـآقيّ في تسـارع محمـوم تطـرد فائـض التأثـر. فكّـرت حينهـا أنّـه إن كتـب اللـه لي أن أتعـافى وأعيـش، فسـأكون محظوظـا لوجـود امـرأة مرهفـة الحـسّ مثـل ديانـا إلى جـواري. فكـرت في تلـك اللحظـة أنـني لا أسـتحقها حقـا. وقـررت أن أفعـل مـا بوسـعي لأسـعدها وأكون في مسـتوى آمالهـا. عاهـدت نفـسي عـلى ذلـك في صمـت. لـم أملـك الشـجاعة عــلى أن أعلــق بكلمــة عــلى مبادرتهــا. احتفظــت بأفــكاري لنفــسي واكتفيــت بابتسـامة ممتنـة.

لعلّي كنت أدرك منذ ذلك الحين أنّي سأخذلها!

دخلت غرفة العمليّات. وخرجت منها على قيد الحياة.

حـين اسـتيقظت عـلى سريـر المستشـفى، أدركـت أنّـني بُعثـت مـن جديـد. عنـد رأسي، في كيـس بلاسـتيك صغـير، كانـت تسـتقرّ الرّصاصـة المشـؤومة. جسـم معـدن ضئيـل.. جمـاد لا حـول لـه ولا قـوّة.. يحـوّل حيـاتي إلى جحيـم! لكنّـني أعيـش.. والحيـاة تسـتمرّ. كنـت محظوظـا، لأنّـني لـم أمـت إبّـان تلقّـي الطلقــة. ســتة عــشر عامــا إضافيّــة ليســت بالــشيء القليــل. كثــيرون لــم تمنحهـم رصاصاتهـم هدنـة كهـذه! وأوّلهـم أبي.

كنـت أتعـافى تدريجيّـا، وشرعـت بالتّـوازي في عـلاج الإدمـان. عانيـت أعـراض انسـحاب السـمّوم مـن عـروقي، فتحمّلتهـا في جلـد وثبـات أثـارا إعجـاب الفريـق الطـبيّ. هـل تذكـر يـا بـنيّ، تمرينـات دفـع حـدود الألـم الـتي مارسـتها للخلاص

facebook.com/groups/exchange.book

من سطوة دواء المختار واحتلال الرّصاصة؟ لقد تجلّت ذات فائدة جمّة في فترة الانتقال تلك.. كانت ذاتي تتخلّق من جديد، تغادر شرنقتها وتتفتّح على وجود مختلف.. أتحوّل من كائن هلاميّ تتحكّم بمزاجه العقاقير والمسكّنات، إلى شخص سويّ متوازن الحواسّ سليم الوعي والذّائقة. هل تدري كم كان إحساسا مختلفا أن تكون نفسك القديمة، تلك النفس التي باعدت بينك وبينها سنوات ضوئيّة من التجارب والمحن، حتّى ما عدت تذكر ملامحها على وجه الدّقّة؟ أن تتناول طعاما فتشعر له بحرارة، وطعم.. ببرودة، وحلاوة، وحموضة، ومرارة! أن تراودك أحلام وكوابيس حين تخلد إلى النّوم! لا بأس بالكوابيس أبدا.. فهي تشعرك بحياة دماغك. بوجود وعي ولاوعي.. بعد أن كان ضَبابا واحدا!

وكانت حبيبة قلبي ديانا تأتيني كلّ يوم.. فنتحدّث ونضحك، كأنّنا لم نعبر تلك المحنة التي تساوت فيها فرص الحياة والموت. بل لعلّ فرص الموت كانت أوفر. لكنّنا نضحك وننسى، ونتشبّث بآمالنا بمستقبل جميل. كانت حقبة من السّعادة الهادئة تبدأ وتجتاح أيّامي. حقبة استمرّت لسنتين كاملتين، لم يعكّر صفوها شيء. هناء صافٍ تجرّعته بنهم مثل محروم فتحت أبواب الجنّة أمامه على مصراعيها.

facebook.com/groups/exchange.book

بينما كنت أنعم بفترة نقاهة مريحة، كان العالم من حولي يستمرّ في شطحاته الهوجاء!

جنّ المختار بعد رحيلي ولا شكّ.. فقد خرج عن حذره ونشاطه السّلميّ، وبعث بحرّاسه ليهاجموا مقرّات حزب «الجبهة الوطنيّة» ويحرقوها عن بكرة أبيها! وليسقط العشرات ما بين قتلى وجرحى! ما الذي طرأ عليه ليفعل؟! لم أكن أجد تفسيرا. لكنّ ذاك الاندفاع الأحمق كان من شأنه القضاء على فرقة حراس العقيدة نهائيّا. لعلّ ليليان كانت محقّة بشأن المراقبة التي تحدّثت عنها، فقد داهمت فرقة التدخّلات الخاصّة المجمع السّكني وهي مدجّجة بالسّلاح، في اليوم نفسه، واقتيد الحراس وعلى رأسهم المختار في ذلّ مهين إلى صناديق العربات، تحت أعين الأهالي الذين راقبوا المشهد من شرفات الشقق.. بين مزيج من الدّهشة والحزن والشماتة.

وخلال الأسبوع نفسه، تمّ النطق في قضية الدكتور عمر. ورغم التفاؤل الذي رأيته في وجه الأستاذة رنيم في آخر لقاء لنا، فقد نزل الحكم مثل صاعقة لا تبقي ولا تذر. السّجن عشرين عاما! أصابني الذهول، متفرّجا لا حول لي ولا قوّة، أمام شاشة التلفاز التي واكبت الحدث باهتمام بالغ. فاغتممت وبكيت.

في ذلك اليوم، خرج الفرنسيّون إلى الشّوارع في احتفال مشهود بانتصار العدالة. رفعوا اللافتات المناهضة للإرهاب وغنّوا بصوت واحد من أجل وحدتهم وهويّتهم الوطنية التي تقصي كلّ الدّخلاء. رُفع قادة الحزب اليمينيّ المتطرّف على الأعناق وتلقّوا التّهاني من أنصارهم وحلفائهم السّياسيّين، في حين رضخ خصومهم أمام المدّ البشريّ والتواطؤ الإعلامي

facebook.com/groups/exchange.book

واستعاروا خطابهم العنصريّ المتطرّف ليوم واحد. كان سلعة رائجة في خضمّ الأحداث الأخيرة التي سيطرت على الرّأي العام.

هرول الرّئيس الفرنسيّ ومعاونوه لإعداد خطبة تليق بالمناسبة، وقد أعادت إليه شعبيّة «الجبهة الوطنية» الصّاعدة كوابيس انتخابات ٢٠٠٢ الرّئاسيّة، حين أوشك مرشّح الجبهة الوطنيّة على اعتلاء منصّة الحكم، في مواجهة ألهبت صناديق الاقتراع الفرنسيّة بشكل غير مسبوق. القبض على الجماعة الإرهابية الخطرة والحكم على الإرهابي الذي اضطلع بالتفجير الأخير، كان حدثا مشهودا يجمّع ولا يفرّق. كانت مناسبة لالتفاف كلّ الفصائل الوطنيّة حول شعار واحد «لا للإرهاب».

في ذلك اليوم، امتلأ مسجد الحيّ عن آخره. روّاد مساجد أخرى قريبة منعهم نفورهم من المختار من وطء أرض مسجده، ومريدون قطعوا مسافات شاسعة من مدن وضواحٍ بعيدة ففوجئوا بما حصل، وصبية صغار ورجال لم يرتادوا مسجدا يوما وأغراهم الفضول وحبّ الاستطلاع بالاقتراب وإلقاء نظرة من كثب. أمّا تلامذة المختار وأحبّاؤه الذين صدمتهم الأحداث، وآخرون لم يسمعوا بأمره يوما وأهمّهم ما طال الإسلام ومعتنقيه من لعنات منذ شاع الخبر، فقد كانت أرواحهم غاضبة وقد ناءت بحمل لا قبل لها به من خزي وهوان. كنت لتشتمّ رائحة خانقة في الجوّ، تنبئ بانفجار وشيك مع أدنى شرارة. كانت نفوسنا كسيرة بعد اقتحام قوّات الأمن للمجمع السكنيّ وخروج إخوان لنا مقيّدين بالسّلاسل. كثيرون لم يتّفقوا يوما مع الشّيخ المختار وجماعة الحراس، لكنّ المصاب يجمعهم حين تطال الألسن السّليطة الإسلام ومقدّساته من دون تمييز أو حياد. وجيء بالشيخ البشير من غرفة صلاته المطمورة ليؤم المصلّين بدلا عن المختار. وقف تجاه الشّباب الثائر وصدح بصوت مؤثّر:

- هل تعلمون يا إخوتي؟ نحن في زمن أوشكت فيه طينة المسلم الوسطيّ المعتدل أن تندثر! فإن كان المرء هيّنا ليّنا أقرب إلى التساهل،

facebook.com/groups/exchange.book

فسيجد من يغريه بالنّساء والخمور ويغمره بالملذّات ليحيد عن الطريق.. وإن كان حازما جادّا أقرب إلى التشدّد، فسيجد من يجذبه إلى التطرّف والعنف ويملأ رأسه بأحاديث التكفير وآيات الجهاد محرّفة عن مواضعها. شياطين الإنس والجنّ سيعلمون من أيّ مأتى يأتونك، ومن أيّ مدخل يتسلّلون إليك ليفتنوك! لكنّ المغالي أصبح في عصرنا هذا أخطر من الفاسق.. وكلاهما شرّ مستطير. فالفاسق عدوّ نفسه، لا يضرّ غيرها -إن لم يغر غيره باتّباعه- وقد يستغفر فتنزل عليه رحمة الله فيتوب! وأمّا المغالي الموغل في الجهل فعدو النّاس أجمعين، فهو يرى نفسه يد الله على الأرض المحققة لعدله، فيبطش ويقتل النّفس التي حرّم الله ﴿أنّه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنّما قتل النّاس جميعا﴾. ثمّ إنّه يرسم صورة سيّئة للإسلام في نظر غير المسلمين، فيصرفهم عنه بدل أن يكون سببا في هدايتهم! وما دام يعتقد بصواب مساره فلن يستغفر يوما أو يتوب! زد على ذلك أنّ التطرّف اليوم قد غدا صناعة رائجة، وهذه الجماعات المتطرّفة المنتشرة في ربوع الأرض، تتفانى قوى عالميّة كبرى في دعمها لتكون أكثر فتكا وضراوة.. بل يبذلون الجهد والمال في سبيل تنميتها ورعايتها، ويوفّرون المناخ المناسب لحضانتها واستمرارها...

هتف شابّ متحفّزا:

- هل تقصد أنّ الدّولة الفرنسيّة تموّل التطرّف؟

- لم أقصد الدّولة بمعنى الحكومة أو رئيس الدّولة أو مجلس النّوّاب.. فكلّهم يتغيّرون وتدور عليهم الدّوائر.. بل قصدت أطرافا متنفّذة، مستقرّة ومتمكّنة. لوبيات عالميّة السّيطرة تحرّكها أهداف سياسيّة واقتصاديّة وإستراتيجيّة تتجاوزنا نحن العباد الضعفاء الكادحين من أجل قوت يومنا! همّهم أن يغيّروا خريطة العالم، فيرفعون من شأن جبهة لتضرب جبهة أخرى، ويفتعلون حربا ليسيطروا على ثروات باطنيّة ومنجميّة، ونحن بيادق على الرّقعة نتحرّك بما عُهد إلينا به من متاع قليل.. فإذا شاؤوا تأديب بلد ما لم تناسب سياسته هواهم ومصالحهم، سلّطوا

facebook.com/groups/exchange.book

عليه جماعة متطرّفة، أغروهم بمسميّات الجهاد.. ضدّ الكفّار تارة، وضدّ طاغية دكتاتور تارة أخرى.. وليس يهمّهم من طغى ومن كفر!

وماذا يحلّ بنا من وراء كلّ هذا؟ يبقى المسلم البسيط الذي لا ناقة له ولا جمل في كلّ هذه اللعبة القذرة، مسحوقا داخليّا بعقدة ذنب تجاه المجتمع، حاملا تهمة أبناء دينه المزعومة.. متقبّلا للإقصاء بسكينة وقلّة حيلة، لأنّ ذلك هو قدره! أن يصنع دينه الإرهاب ويتحمّل عنه التّبعات بلا اعتراض! فكلّنا مشتركون في الجريمة التّاريخيّة.. لمجرّد ولادتنا مسلمين! ألم يأن الأوان لنتمرّد على هذه الصّورة المهينة؟ لسنا مضطرّين للدّفاع عن أنفسنا ودفع تهمة الإرهاب في كلّ محفل! لسنا فرنسيّين من الدّرجة الثانية! لسنا سجناء الصّورة التي صاغوها لنا وارتضيناها صاغرين!

تكلّم شابّ آخر في مرارة:

- وماذا بأيدينا؟ غير أن نشجب ونستنكر وندين الإرهاب؟

- بأيدينا الكثير! بأيدينا أن نقدّم أنفسنا للعالم بما نحن عليه.. لا الاكتفاء بنفي ما لسنا عليه!

ثمّ أضاف وهو يتطلّع من النّافذة إلى جموع المتظاهرين الذين أصبحوا عند رأس الشّارع، يُسمع لهم طنين كدويّ النّحل:

- يا أبنائي، هذه فرصتكم. افتحوا أبواب المسجد واستقبلوا ضيوفكم بما يليق..

تبادل الرّجال نظرات حائرة مستفسرة وقد أغلق عليهم فهم ما يريده الشّيخ. كيف يستقبلون المتظاهرين الذين جاؤوهم يرفعون رايات العداء والعدوان؟ لكنّ أبا صالح فهم. وقف من بين الجموع وهتف:

- العصائر والكعك عليّ، البقالة كلّها تحت أمرك يا شيخي.

ثمّ أشار إليّ مستعجلا:

- قم يا ولد وسخّن الماء لتحضير الشاي. وأنتما هناك، تعاليا لمساعدتي

facebook.com/groups/exchange.book

عـلى تحميـل الحاجيـات إلى هنـا.. لقد أوشـكوا عـلى الوصول.

تفرّقنـا مرتبكـين ننفـذ المهـام الـتي أسـندت إلينـا والفهـم يتسرّب إلى نفوسـنا في جرعـات.. عـلى أثرنـا، تحرّكـت جماعـات مـن *الشـباب المثقّـف والمفـوّه* لتنضـمّ إلى الإمـام عنـد مدخـل المسـجد المفتـوح عـلى مصراعيـه. ثـمّ وقفنـا وجلـين مترقّبـين. نلمـح مـن موقعنـا لافتـات عريضـة في رأس الشّـارع ترفـع فـوق الـرؤوس، كتـب عليهـا بحـروف ضخمـة لا تخطئهـا العـين «الإسـلام خـارج فرنسـا!» و«لا مـكان للمسـلمين!». ألقيـت نظـرة عـلى الشـيخ البشـير وأنـا أزدرد لعـابي بصعوبـة. رأيـت موجـة عابـرة مـن التوتّـر تعكّـر صفـاء نظرتـه، لكنّـه اسـتعاد رباطـة جأشـه عـلى الفـور، فـإن لـم يفعـل فمـن يبـثّ العـزم في كلّ هـؤلاء المصطفّـين خلفـه السّـائرين عـلى خطـاه؟ كانـت لحظـات عصيبـة، هـي تلـك اللحظـات الفاصلـة الـتي تمتحـن الصّـدق والثبـات. فإمّـا انقـلاب عـلى العقبـين، أو التحـام عنيـف مسـتميت، أو خيـار ثالـث يريـد لنا الشـيخ أن نتّخـذه، ونحـن نجهـل ملامحـه!

ثمّ حصل أمر غير متوقّع.

مـن شـارع جانـبيّ يمـرّ بمحـاذاة المسـجد، انبثـق عـلى حـين غـرّة تيّـار مـن البـشر. متظاهـرون آخـرون، يمشـون بهـدوء لا يثـيرون صخبـا مـن حولهـم. قطعـوا الطريـق بيننـا وبـين المهاجمـين، وحـين التقـت صفوفهـم، رفعـوا عقيرتهـم يصيحـون: «فاشـيون».. «ارحلـوا مـن هنـا».. «متعصّبـون»! لـم تكـن تلـك الكلمـات موجّهـة إلينـا، بـل إلى الآخريـن! تواجهـت المجموعتـان لدقائـق قليلـة، وجـوه بيضـاء حليقـة وشـعور شـقراء مسترسـلة مـن الجهتـين. وتسـاءلنا في حـيرة مـن يكونـون ومـن أيـن جـاؤوا فجـأة؟ ثـمّ غلبـت الكـثرة. كان الذيـن تصـدّوا حمـاة لسـور المسـجد أوفـر عـددا وأقـوى حجّـة وحنجـرة. فتفـرّق دعـاة العنصريّـة عـن بكـرة أبيهـم بعـد أن تصـدّى لهـم أبنـاء وطنهـم، فرنسـيّون أصليـون مثلهـم، لـم ترهبهـم لافتـات العـداء والتفرقـة.

تنفّسـنا الصّعـداء، وقـد كفانـا اللـه شرّ قتـال مـا كنّـا لنجتـازه إلا مثخنـين

facebook.com/groups/exchange.book

بجـراح نفسـية وجسـدية. حـين خلـت السّـاحة مـن المتطرّفـين، تقـدّم الإمـام مبتسـما ليرحّـب بمنقذيـه، ودعاهـم إلى تنـاول الشـاي والكعـك. ثـمّ تفـرّق الشـباب المسـلم ليتخلّـل المتظاهريـن. يصافـح الرّجـال بعضهـم بعضـا، يتعارفـون ويكتشـفون قواسـمهم المشـتركة، مبادئهـم الإنسـانية ووحدتهـم الوطنيّـة في وجـه التّطـرّف، ويناقشـون وجهـات النظـر المخالفـة بتحـضّر ورقيّ. اسـتمرّ النقـاش ردحـا مـن الزّمـن بـين أخـذ وردّ واقتنـاع وشـكّ، قبـل أن يدعـو الإمـام الجميـع إلى دخـول باحـة المسـجد لمزيـد مـن الألفـة والحميميّـة.

وقفـت إلى جانـب أبي صالـح، أمـلأ أكـواب الشـاي وأهـرول في حماسـة أوزعهـا عـلى الحاضريـن ثـمّ أعـود لأملأهـا مـن جديـد مـن دون شـكوى أو تذمّـر. عينـاي مفتوحتـان عـلى اتّسـاعهما، أمـلأ بـصري مـن المشـهد، مثـل طفـل ريفـي يحـضر مهرجـان المدينـة لأول مـرّة. كان يومـا سـأذكره مـا حييـت بدمعـة وابتسـامة. رأيـت في تلـك اللحظـات كيـف تكـون العـزّة في أحضـان التّسـامح. رأيـت بعينـي كيـف يكـون الفـرق بـين الوفـود العربيّـة الـتي تحـضر إلى باريـس متزلّفـة ومعتـذرة، كأنّمـا تعـترف بذنبهـا وتسـأل الصّفـح.. وبـين ذاك الاسـتقبال الكريـم والشـامخ الـذي لاقى بـه الشـيخ البشـير شركاءه في الوطـن. كانـت لحظـة تاريخيّـة، في حيـاتي القصـيرة. وكان التّاريـخ ليذكرهـا، لـو أنّ مدوّنيـه انتبهـوا إلى جمعنـا ذاك.. وكيـف يفعـل، وقـد انصرفـت الآلات الإعلاميّـة كعادتهـا إلى نقـل موجـات العنـف والاعتـداءات!

حـين اسـتقرّ بنـا المقـام في سـاحة المقهـى مثـل الأيّـام الخـوالي، سـألت الدّكتـور مالـك في أسى:

- ما الذي سيحلّ بالحراس الآن؟

قال ببساطة من يصف مشهدا يراه رأي العين:

- سـوف يُسـجنون طويـلا.. حـتّى ينـسى الـرّأي العـامّ أمرهـم. يَنفَـق مـن يَنفَـق في السّـجون المعتمـة، ويحيـا مـن يـرضى بالـشروط الـتي تمُـلى عليـه، يُدجّـن، يُؤهـل ويتـشرّب التّعليمـات، ثـمّ يخـرج حـرّا طليقـا بعـد فـترة مـن

facebook.com/groups/exchange.book

الزّمن.. ويُبعث إلى أحياء فقيرة أخرى وتحت ذراعه صرّة مال وفير.. فيجمع المنحرفين وذوي السّوابق ويصنع منهم رجالا شرفاء منحرفي العقيدة.. وتبدأ حكاية حرّاس أخرى..

رمقته في ذهول. لم أدر ما المفترض بي أن أفهم. أتذكّر قصّة (ج) على متن السّفينة التّائهة. (ج) ذلك البيدق بيد قوى الظلام المدمّرة.. وأفسّر ما يسرده الدكتور مالك. قصّة حرّاس أخرى؟ إذن هناك قصّة أولى، قصّة المختار وحرّاسه! لا أستطيع أن أصدّق ما يصل إليه فهمي. أهمّ بالاستنكار، فيسبقني مالك بخطوة وهو يقول في اهتمام:

- لكنّ ما يحيّرني حتّى اليوم هو.. هل كان المختار مقتنعا بما يفعل؟ هل كان صادقا مع نفسه حاملا لذاك الفكر المنحرف؟ أم أنّه مجرّد عميل متنكّر يفعل ما يؤمر به؟ يغرّر بالشباب المساكين وهو يدرك أنّه يفعل؟ أعترف أنّه كان مقنعا -لو كان عميلا- فقد بدا لي غارقا في الدّور حتّى أذنيه!

يقاطعه أبو صالح مؤيّدا:

- لا شكّ عندي في عمالته. فكيف يكون أمثاله شيوخا؟ وكيف يجد الإيمان موضعا في قلب عمّره الجشع والطمع وحبّ السلطة؟

- ليس بالضّرورة عميلا لأطراف معيّنة، يستقي منها أوامره ونواهيه.. لكن كم من عميل يخدم مصالح أعدائه بغبائه وسوء تدبيره؟

أبادره متعجّلا وقد تقت إلى الكشف أخيرا عن غموض الأحجية:

- ومن يكون الآخرون إذن.. (أ) و(ب)؟

رمقني بنظرة هازئة وقال:

- ألم أقل إنّها مجرّد حكاية؟

لمح في عينيّ نظرة رجاء. يدرك أنّني لن أستسلم بسهولة هذه المرّة. تنهّد وقال:

facebook.com/groups/exchange.book

- الشيخ البشير.. أعتبره مثالا لما عاشه (ب). ضحى بوظيفة مرموقة - أُقصي لميوله الإسلاميّة- ودفن نفسه في قبو رطب، من أجل دعوة الشّباب إلى الدّين الصّحيح.. علّه يحدّ من تأثير (ج) في المنطقة! له صداقات كثيرة في صفوف ممثلي السّلفيّة والإسلام السياسيّ، لكنّه لم ينتم يوما لجماعة معروفة. أمّا (أ) فعملة نادرة، ربّما لقيت بعضهم في مظاهرة اليوم، ضمن زوّار المسجد الذين ذبّوا عنه اعتداء المتطرّفين..

قاطع حديثنا الثنائيّ صوت أبو محمّد، الضابط السّابق، وهو يهتف مستاءً:

- هذا الإرهاب.. إنّه مثل الخلايا المسرطنة. لا سبيل إلى الخلاص منه إلاّ باستئصال الورم من جذوره ما دام ذلك ممكنا.. أو بالعلاج الكيميائي!

انبرى أبو مازن يقول معترضا:

- يجب أن تستطيع تمييزها، تلك الخلايا المسرطنة حتى تستأصلها! حين نتحدّث عن السلوك البشريّ، فليس من السّهل أن تكشف الخبايا والنّوايا من خلال قراءة صفحة الوجه! أمّا الكيميائي فهو يؤذي الخلايا السّليمة أيضا، ويهلك دفاعات الجسم ويتسبّب في أعراض جانبيّة كثيرة، قبل أن يؤدي الغرض منه! أن تطبّق الكيميائي هنا يعني اعتقالات بالجملة وحملات شرسة ضدّ كلّ من تشتبه فيه، مجرّد الشبهة، لعلّك تقبض من بين المئات والآلاف على بضع خلايا سرطانيّة!

- هو ذاك! التضحية ضروريّة.. والمجتمع كلّه يجب أن يتعاون مع السلطات لكشف الخلايا المسرطنة. من يخفي خليّة مريضة يعرّض نفسه للعدوى!

كانت اللهجة العسكريّة الصّارمة واضحة في صوت أبي محمّد، في حين حاول أبو مازن أن يطرح وجهة نظر أقلّ راديكاليّة:

- إن شئت تشبيه الإرهاب بمرض ما، فإنّني أراه مثل السّيدا.. مشكلة السّيدا هي شكل الفيروس الذي يتحوّل ويتبدّل بصورة لا يمكن ضبطها

facebook.com/groups/exchange.book

وحصرهـا. كلّ مـا يمكـن عملـه هـو تحسـين الأعـراض! يمكنـك أن تعطيـه المزيـد مـن الكريّـات البيضـاء لترفـع مسـتوى مناعتـه.. تـزوّده بمخفّفـات الألـم، لتسـتمرّ مقاومتـه، لكنّـك لـن تشـفيه مـرّة واحـدة. وهكـذا الإرهـاب مـن حولنـا.

قلت مازحا وأنا أومئ باتّجاه الدّكتور مالك:

- أظننـا نحتـاج طبيبـا حقيقيـا.. طبيبـا ماهـرا.. يمكنـه تشـخيص المـرض بشـكل دقيـق قبـل الـشروع في أيّ عـلاج!

قال مالك بلهجة ساخرة:

- المشـكلة هـي أنّ مـن يديـر الحـرب ضـدّ الإرهـاب اليـوم لا يسـتعين بأطباء جيّديـن، بـل يعهـد إلى عسـكريّين ومهندسـين بتشـخيص الحالة!

قهقـه أبـو صالـح، في حـين شـحبت سـحنة أبي محمّـد وهـو يقـول في غيـظ مكتـوم:

- أتحفنا بتشخيصك، أيها الطبيب الجهبذ!

تنحنح مالك قبل أن يقول بجدّية بالغة:

- في نظـري، الإرهـاب ليـس سرطانـا أو ورمـا. لأنّـه متخـفّ غـير بـارز للعيـان بحيـث لا يمكـن اسـتئصاله. كمـا أنّ انتشـاره محـدود ولا يمكـن لـه أن يغـزو الجسـم كلّـه ولهـذا السّـبب ذاتـه هـو ليـس مثـل السّـيدا أيضـا. الإرهـاب يـا أصدقـائي أبسـط مـن هـذا بكثـير.. إنّـه مثـل نزلـة بـرد صغـيرة!

ارتفع ضحك وأصوات مستهزئة عابثة، في حين تابع مالك شرحه:

- لمـاذا يدهشـكم هـذا؟ هـل رأيتـم مـرّة شـعبا كامـلا يتحـوّل إلى الإرهـاب؟ هـل ينقلـب السّـواد الأعظـم مـن المجتمـع إلى العنـف والعـدوان؟ إنّهـا حـالات قليلـة إذن، محـدودة الانتشـار، لكـنّ أعراضهـا كبـيرة ومبهـرة. تمامـا مثـل نزلـة البـرد. فـيروس صغـير يتسـبّب بحمّـى وإنهـاك عـامّ وربّمـا صعوبـة في التّنفـس واحتقـان في الغـدد. مـاذا يحصـل لـو حاولـت عـلاج الـزّكام أو

facebook.com/groups/exchange.book

الرّشـح بالكيميـائيّ؟ أو حـتّى بالمضـادات الحيويّـة؟ إنّـك تسـتعرض آليـات ضخمـة أمـام فـيروس صغـير! ولكنّـه سـيتعلّم مـن التّجربـة، وتصبح السّـيطرة عليـه أصعـب في المـرّات المقبلـة، ودفاعـات الجسـد سـتنهار بسـبب الأدويـة القويّـة. هـذا مـا يحصـل تمامـا، حـين نحـارب الإرهـاب بقصـف أفغانسـتان والعـراق والسّـودان. مـدارس ومستشـفيات ومنشـآت، بـل مـدن كاملـة تدمّـر بحجّـة القضـاء عـلى الإرهابيّـين. هـل تقـضي عـلى الإرهـاب حقّـا، أم تصنـع إرهابيّـين جـددا؟ تهيّـج المسـالمين وتتسـبّب في نقمـة لا متناهيّـة.

- إذن كيف تقضي على الإرهاب في نظريّتك؟

تجاهل مالك لهجة الاستخفاف في سؤال أبي محمد وقال:

- تمامـا كمـا تعالـج نزلـة الـبرد. بالمقوّيـات الطبيعيـة.. عسـل وليمـون وزيـت زيتـون وثـوم. ولكـنّ الأهـمّ هـو الوقايـة والتغذيـة الصّحيّـة. إذن عدالـة اجتماعيّـة ووعـي وتعليـم وحريّـة واحتـواء. لـو وجـد أصحـاب السّـوابق تأطـيرا كافيـا وإعـادة تأهيـل غـير مشروطـة، هـل كان المختـار ليجـد فيهـم فريسـة سـهلة لمآربـه الدّنيئـة؟ لـو تعلّـم كلّ واحـد منهـم في فـترة سـجنه حرفـة أو نـال شـهادة في مجـال مـا، هـل كان ليتبطّـل ويمتـلئ حقـدا ويحتقـن عنفـا ويبحـث عـن مسـاحة تنفيـس مهمـا كان نوعهـا؟ لـو كانـت الفـرص أمـام الشّـباب متكافئـة مهمـا كان أصلـه ومسـتواه الاجتماعـي ودينـه، هـل كان ليبحـث عـن الإنصـاف في عقيـدة محرّفـة تضمـن لـه جنّـة فوريّـة؟ لـو أحـسّ كلّ فـرد في المجتمـع بـأنّ حقوقـه مكفولـة وحريّتـه الفكريّـة والدّينيّـة محـلّ احـترام وتبجيـل، هـل كان ليتطـرّف ويلجـأ إلى إثبـات وجهـة نظـر مـا بقـوّة الدّمـار والـشّرر؟ تشـخيص الطبيـب يقـول: ادعمـوا مناعـة الجسـم ليقـاوم الفيروسـات الصّغـيرة المتطفّلـة. لـن يقنـع الإرهابيّـون أحـدا بالانضمـام إلا لـو توافـرت لديـه أسـباب ذاتيـة للانتقـام وإلحـاق الأذى.

سـاد الوجـوم لبرهـة بـين شـكّ واقتنـاع، ثـمّ أفـاق أبـو محمـد مـن بهتتـه ليقـول بالسّـخرية ذاتهـا:

facebook.com/groups/exchange.book

- أقنـع قـادة العالـم بنظريّـة نزلـة الـبرد هـذه.. وواسِ عائـلات الضّحايـا بالثـوم وزيــت الزيتــون والعسـل!

facebook.com/groups/exchange.book

facebook.com/groups/exchange.book

الأربعاء ١٩ ديسمبر ٢٠٣٥، التاسعة مساء.

أوقـف اتّصـال جانيـت تدفّـق الكلمـات مـن شـفتي ديانـا. ليـس للعائلـة أقـارب في فرنسـا. لا عناويـن لديهـا. لكنّهـا أصرّت عـلى ألّا تأتيـه خاليـة الوفـاض.. وجـدت عنـوان المدرسـة الـتي يرتادهـا محمّـد رسـتم. مدرسـة؟ كان خليـل قـد فهـم أنّ الولـد قـد تـرك مقاعـد الدّراسـة ليعـول عائلتـه، فمـا شـأن هـذه المدرسـة الـتي يظهـر اسـمه في قائمـة طلّابهـا؟ فليكـن، كلّ خيـط جديـر بالتّتبّع.

سـجّل المعطيـات، ثـمّ عـاد إلى جلسـة الاسـتماع. لكـنّ شـيئا مـا تغـيّر في ملامحـه. بـدا عليـه نـوع مـن الاضطـراب والتململ. كان هنـاك موضـوع آخـر يشـغله عـن التّركـيز مـع الرّسـائل الـتي أخـذت منحـى مسـتقرّا نوعـا مـا.. لقـد تزوّجـا، واسـتقرّ بهمـا المقـام، اطمـأنّ إلى صحّـة أبيـه وتوقّـف قلقـه الخفـيّ بشـأن المسـتقبل. يعلـم أنّ هـذا ليـس كلّ شيء، مـا زالـت للقصّـة بقيّـة.. لكنّـه الآن غـير قـادر عـلى مقاومـة رغبـة في مغـادرة المـكان وزيـارة العنـوان الـذي وصلـه للتـوّ.

حين أنهت ديانا الرّسالة التي بين يديها، تطلّعت إليه مبتسمة وقالت:

- يبـدو أنّ أمـرا مسـتعجلا يشـغلك حقّـا.. اذهـب الآن لقضـاء حاجتـك، وسأسـتمرّ في التّرجمـة.

هزّ رأسه في امتنان، وقام على الفور.

منـذ أحـداث ٢٠١٥ الدّاميـة والضربـات الإرهابيّـة الـتي تعرّضـت لهـا فرنسـا، تغـيّرت أمـور كثـيرة عـن تلـك الـتي يصفهـا أبـوه في رسـائله. عندمـا تـنزل المصائـب، يتـصرّف النّـاس بدافـع غرائـز صرفـة. بعضهـم ينـأى بنفسـه عـن موقـع الحـادث، فيحمـي نفسـه وعائلتـه، تحرّكـه غريـزة الخـوف. والبعـض الآخـر يقـترب أكـثر ليلقـي نظـرة مـن كثـب، تدفعـه غريـزة الفضـول. ديانـا سـيطر عليهـا الخـوف، فأغفلـت تاريـخ أبيـه وعائلتـه وغيّبـت عنـه معطيـات

facebook.com/groups/exchange.book

الماضي لتحمي مستقبله. غيرها كثر دفعهم الفضول إلى الاقتراب والبحث والتقصّي. ثمّ دخلوا الإسلام أفواجا!

ورغم شدّ الدّولة لقبضتها الأمنية وتضييقها الخناق على المسلمين بشكل عام -كأنّما تنفذ توصيات أبي محمّد من شلّة المقهى- فقد استمرّ العدد في تزايد. كانوا خمسة أو ستة ملايين نسمة منذ ثلاثين سنة. الآن، يمثّلون ثلث سكّان فرنسا! التّأشيرة الفرنسيّة أصبحت شبه ممنوعة على سكّان المناطق الموصوفة بـ«السّاخنة» و«الحمراء». لكنّ أفواج المهاجرين لا تتوقّف، وزوارق موت ممتلئة عن آخرها تواصل رحلاتها القاتلة. من يصل منهم إلى البرّ ينضمّ إلى قافلة اليد العاملة الرّخيصة التي لا تستغني عنها فرنسا، وينهار اقتصادها في غيابها. من الجهة الأخرى، خسرت فرنسا في معركة «هجرة الأدمغة». كثيرون يرحلون باتّجاه كندا والولايات المتّحدة، أو الخليج العربيّ وشرق آسيا، حيث يحظى المسلمون بتقدير أوفر. لا يبقى منهم إلا من توحّد مع نمط الحياة الفرنسيّة ولم يعد له غنى عنها.

في طريقه نحو الوجهة الجديدة، عادت كلمات الدّكتور مالك في رسالة أبيه الأخيرة لتتردّد في ذهنه. نزلة برد؟ علاج وقائي لأزمات العالم الأكثر فتكا؟ فكّر.. هل يمكن للزّمن أن يعود إلى الوراء، فيُدمج العرب في المجتمع فعلا وقولا، يستعيدون اعتبارهم كمواطنين أسوياء ومكتملي المواطنة؟ هل كان ذلك ليحدّ من أشكال العنف والاعتداء والسّرقة المتفشّية بشكل يثير الغثيان؟ هل ستبقى للأبواب الحديد والتقسيمات المناطقيّة ضرورة ومعنى؟ هل سيكون أكثر رضا وقناعة عن اسمه وجذوره؟ ربّما.

بعد ثلاثين سنة من تشخيص الطّبيب، لم يبدُ أنّ أحدا قد اهتمّ بصرف الوصفة واتّباع تعليماتها. كلّ شيء يسير في المنحى المعاكس تماما. لم تكن العنصريّة أشدّ وطأة ممّا هي عليه اليوم، منذ العنصريّة ضدّ السّود في أمريكا في خمسينات القرن الماضي! عنصريّة مدّعمة بالقوانين والدّستور، تجاهر بها المؤسّسات الحكوميّة والعامّة، وينحني أمامها

facebook.com/groups/exchange.book

المواطـن مـن دون اعـتراض أو اسـتنكار. ليسـت ممثّلـة في لافتـات صفيقـة أو علامـات وقحـة عـلى مداخـل المنشـآت ووسـائل النقـل مثـلا.. لكنّـك تتنفّـس ذرّاتهـا في الهـواء الثقيـل الخانـق، وتتشرّبهـا مسـامّك حـدّ التسـمّم، كلّمـا واجهتـك النّظـرات العدائيّـة الحارقـة.

فهل اختفى الإرهاب؟

ربّمـا تناقصـت وتيرتـه وانحـسر تأثـيره.. لأنّ المئـات، بـل الآلاف مـن المشـتبه بهـم يقبعـون خلـف القضبـان، لمجرّد الشـكّ والاشـتباه. ولأنّ الإعـلام يتجاهل الحـوادث الـتي تُثبـت أنّ سياسـة القمـع واسـتباق الضّربـات بحـشر الأبريـاء في السّـجون لـم ولـن تنفـع. بعـد عشريـن سـنة مـن الأحـداث الـتي هـزّت اسـتقرار فرنسـا وأقامـت الدّنيـا عـلى المهاجريـن مـن أصـول عربيّـة، أصبحـت فرنسـا بلـدا منعـزلا، حـدوده مغلقـة، شـديد التقسـيم في الدّاخـل، ومـع ذلـك يسـتمرّ كابـوس الخـوف مـن الآخـر.

عنـد إشـارة ضَوئيّـة حمـراء، رفـع خليـل رأسـه في اتّجـاه اللافتـة الإعلانيّـة الحديثـة، فتعـرّف عـلى ملامحـه. يبـدو في غايـة الأناقـة والأريحيّـة، ببـشرة نقيّـة وشـعر لامـع. كانـت ابتسـامة عريضـة واثقـة تشـقّ وجهـه نصفـين، بينمـا يتّخـذ جسـده وضعيّـة مرحـة توحـي بالشّـباب والحركيّـة وتبعـث عـلى الطمأنينـة. تصميـم مارغريـت الجديـد. يذكـر جلسـة التّصويـر الاحترافيّـة الـتي التقطـت خلالهـا الصّـورة المستعملة في الإعـلان، منـذ أسـبوعين. يبـدو أكـثر نضـارة ممّـا هـو عليـه اليـوم. أم لعلّهـا التعديـلات الرّقميـة؟

مـرّة أخـرى يقـع بـصره عـلى الشـعار الجـذّاب: الوطـن للجميـع! تسـاءل في سـخرية، عـن أيّ جميـع يتحـدّث؟ هـل يشـمل الجمـع مريـم وأخاهـا ووالدهمـا الكفيـف؟

حـين توقّفـت السـيّارة أمـام المدرسـة، كانـت السّـاعة تشـير إلى الثّانيـة ظهـرا. دلـف عـبر البـاب الجانـبيّ ومـضى رأسـا في اتّجـاه مكتـب النّاظـرة. كان عليـه أن يرتجـل عـذرا يـبرّر سـؤاله عـن محمّـد رسـتم. صافحتـه النّاظـرة وهـي تتفـرّس

facebook.com/groups/exchange.book

فيـه بجدّيّـة، فاختلـق قصّتـه عـلى الفـور:

- جئـت للسّـؤال عـن محمّـد رسـتم.. أنـا ربّ عملـه، وقـد تغيّـب عـن دوامـه بضعـة أيّـام، ولـم يكـن عنـدي وسـيلة للاتّصـال بـه.. غـير أنّـني تذكّـرت اسـم مدرسـته الثّانويّـة، فرأيـت أن أسـتفسر عنـه هنـا.. فربّمـا كان لديكـم تواصـل معـه..

- نعـم، محمّـد رسـتم حالـة خاصّـة جـدّا.. لا شـكّ أنّـك تعلـم أنّـه في سـنته النّهائيّـة، وعليـه أن يجتـاز اختبـارات المرحلـة الأولى هـذه الأيّـام. إنّـه هنـا اليـوم.. لديـه اختبـار رياضيّـات..

جـاء الـردّ كأبعـد مـا يكـون عـن توقّعاتـه. فغـر فـاه وقـد تذكّـر الخربشـات عـلى ذراعيـه. هـل كان يراجـع دروسـه مـن أجـل الاختبـار حـين كان في السّـجن؟ تلعثـم وهـو يقـول مرتبـكا:

- حقّا؟ هل يمكنني رؤيته؟

- طبعا.. بعد أن ينتهي من الاختبار.

مضـت دقائـق انتظـار طويلـة، اسـتعاد فيهـا خليـل تفاصيـل لقاءاتـه السّـابقة بمحمّـد وشـقيقته مريـم، بينمـا تـتردّد في ذهنـه كلمـات الناظـرة. الولـد مسـجّل في المدرسـة، لكنّـه لا يحـضر الـدّروس. تسـمح لـه المدرسـة باجتيـاز الاختبـارات تقديـرا لظروفـه. إصراره عـلى نيـل شـهادته ودخـول الجامعـة يدعـو إلى الاحـترام، ومثابرتـه مـن أجـل النّجـاح بتميّز أمـر يصعـب تصديقـه. أختـه تلقّنـه الـدّروس مسـاء، وتسـانده في الاسـتمرار وإكمـال مشـواره التعليمـيّ، بينمـا تمـرّ نهاراتـه بـين تحميـل ورصـف الصّناديـق في المخـازن! فكّـر، لـو كان مكانـه، لـو كان مضطـرّا إلى العمـل مـع الدّراسـة، هـل كان ليوفّـق بينهمـا؟ هـل كان ليسـتمرّ ويتحـدّى المعوّقـات، يُرغـم نفسـه عـلى عنـاء يسـتنزفه إلى الأعمـاق، يـسرق مـن طفولتـه سـويعات مـرح وبـراءة لا تطـول، ثـمّ يغـرق في شـقاء مسـتبق لا تتّسـع لـه هشاشـة روحـه الغضّـة؟

لقـد كان كلّ شـيئا سـهلا بـين يديـه منـذ الأزل، رغـم التّقشّـف الظاهـر الـذي

facebook.com/groups/exchange.book

التزمـت بـه أمّـه، فإنّهـا لـم تحرمـه أيّ شيء. كانـت طلباتـه أوامـر، وحسـاب التّوفـير الـذي حفظتـه مـن أجـل تعليمـه وتكوينـه ينفـد مـن دون تجديـد مـوارده. حسـبه أنّـه لـم يخيّـب أملهـا، وأنّـه تسلّق باتّجـاه التميّز غـير مدّخـر جهـدا. حسـبه أنّـه اعتـلى منصّـة التكريـم في الجامعـة وحـاز احـترام أسـاتذته وزملائـه واسـتلم وظيفتـه المرموقـة مـن دون وسـائط. لكـن.. هـل يقـارن نجاحه الـذي لـم تصحبـه عراقيـل وعـثرات، بمسـار الولـد المحفـوف بالمـكاره؟

بعـد ربـع سـاعة، ظهـر أمامـه الوجـه الـبريء، تصحبـه الدّهشـة، ثـمّ النّفـور.

- ما الذي تريده؟

تغـوص نظـرة الاتّهـام في صـدره، فيحـسّ لهـا ألمـا. هـا إنّ الولـد يذكّـره بخذلانـه. أيّ إنسـانيّة اسـتيقظت فيـه فجـأة وقـد كان عـلى الـدّوام منيعـا أمـام الاسـتجداء والتسـوّل؟ في بـؤرة روحـه نمـت بـذرة عـلى غفلـة مـن وعيـه، وأخـذت أغصانهـا تمتـدّ وتتشّـعب حـتّى لامسـت أطرافهـا مركـز الشّـعور لديـه. هـل كنـت أنـت يـا نـادر الشّـاوي، مـن قذفـت البـذرة؟ الرّسـائل الـتي خططتهـا منـذ ثلاثـين سـنة، حُبـلى بالبـذور الـتي تنتظـر قلبـا يحتضنهـا.. بـذور وجـع وتعاطـف وأمـل.

- مريم قالت إنّك لن تساعدنا!

- كيـف خرجـت مـن السّـجن؟ بحثـت عنـك هنـاك، فقالـوا إنّـك غـدوت طليقـا...

حـدّق فيـه غـير مصـدّق، يبحـث في ذهنـه عـن حقيقـة آمنـة يركـن إليهـا. مريـم لا تكـذب. إن كانـت تقـول بأنّـه تخـلّى عنهـم، فقـد فعـل. لمـاذا يعـود إذن للبحـث عنـه؟

- ذهبـت إلى منزلكـم، فرأيـت الرّافعـة تهـمّ بهدمـه.. حاولـت الاتّصـال بالرّقـم الـذي أعطيتـني إيّـاه، لكـن لا أحـد يـردّ. تتبّعـت الأثـر، أيّ أثـر ممكـن.. حـتّى وصلـت إلى المدرسـة.

facebook.com/groups/exchange.book

تدمع عينا محمّد، بينما يغمغم بما أوتي من صلابة، وصورة المنزل الذي سيغدو ركاما ماثلة أمام ناظريه:

- مريم لا تردّ على الأرقام الغريبة..

لحظة صمت قصيرة، ريثما يبتلع غصّته، يتواصل مع نظرات خليل، يزن صدقها بميزان حدسه، يحاول استشفاف المقصد من تلك الزّيارة غير المتوقّعة، ثمّ يندفع مخلّفا وراءه تردّده:

- أطلق سراحي بعد أن سلّم والدي مفاتيح المنزل. مريم أقنعته بأن يفعل.. المنزل يعوّض، لكن مستقبلي ودراستي لا يعوّضان.. هكذا قالت. كان يجب أن أخرج من السّجن.. من أجل الاختبارات. المدرسة سمحت لي بفرصة واحدة. إن رسبت، فلن تتكرّر الفرصة...

تصيبه اعترافات الولد في مقتل. ضحّوا بالمنزل، حتّى يواصل تعليمه! سأله بصوت حاول أن يكون متماسكا قدر الإمكان:

- هل أنهيت اختباراتك؟ تعال، سأوصلك.

على الطّريق، ران الصّمت عليهما لبعض الوقت. وحين مرّا على الإشارة الضوئيّة ذاتها، انتبه إلى نظرات محمّد المبهورة. كان يقلّب بصره بين اللافتة المدهشة التي تطلّ على الشّارع، ووجه الرّجل الجالس إلى جواره في سيّارته الفارهة. بعد تردّد قصير، سأله على استحياء وقد استبدّ به الفضول:

- هل هذه صورتك؟

- إنّها كذلك!

تنتابه سخرية لاذعة من نفسه. منذ يومين، كان يشغله الخوف على سمعته من القلاقل التي قد تثار حوله لتورّطه في قضيّة تُسائل القانون الفرنسيّ، واليوم يُربكه القلق في عيني شابّ أقرب ما يكون إلى الطّفولة، يسأله في صمت: ما الذي ستفعله من أجلي أيّها المرشّح الموقّر؟

facebook.com/groups/exchange.book

بينما تنساب السيّارة على فراش الأسفلت المصقول، يفكّر في إستراتيجيّة جديدة لحملته الانتخابيّة. مساعدته لعائلة رستم يمكن أن تكون خطوة في اتّجاه خطّة فعّالة. لو أنّه يجلب انتباه الإعلام إليهم وإلى مأساتهم، سيتصدّر المشهد كمنقذ شهم، ويلفت اهتمام النّاخبين من أصول عربيّة! سيكون الأخوان وأبوهما سفراء نواياه الطيّبة، وليس هناك ما هو أضمن من ألسنة بريئة تلهج بالدّعاء له وتلمّع صورته في أعين يملؤها الشكّ!

يصيبه الغثيان من حقارة ما فكّر فيه. لعبة السّياسة تسيطر على لاوعيه!

كان الحيّ الذى توغّلا فى شوارعه بائسا. تعبق رائحة التعاسة فى الجوّ وتقبض على الأرواح منذ منعرجاتها الأولى. كلّ البيوت متشابهة في قدمها وتهالكها. تتسرّب من واجهاتها مشاعر ضيق وسخط، مماثلة لتلك الجاثمة على صدور سكّانها. لم يتخيّل خليل، أنّ أحياء بهذا الشّكل توجد في الجوار، على بعد كيلومترات قليلة من ضاحيته المرموقة. تذكّر، لا بدّ من أنّه أحد الأحياء التي أخليت بعد الهزّة الأرضيّة التي ضربت منذ ستّ سنوات؟ تأمّل الشّقوق التي تمتدّ عبر الجدران المتصدّعة، لا بدّ من أنّه كذلك. كيف عادت لتؤهل من جديد؟ ألم يصنّفها الخبراء كمنطقة غير قابلة للسّكنى؟ أيّ إجراءات تمّ توخّيها حتّى تسند البيوت إلى عائلات جديدة؟

طرق محمّد بابا خشبا تتراكم على صفحته آثار سنوات من الإهمال، فتناهى إليهما وقع خطوات مسرعة تركض باتّجاههما. أُشرع الباب، وظهرت مريم، بملابس منزليّة مريحة، وهي تقبض عند عنقها على حجابها المتراخي على رأسها، وهتفت في حماس ومن دون تفكير:

- طمئنني.. كيف كان الاختبار؟

في تلك اللّحظة انتبهت إلى الزّائر غير المرغوب! وفي الثانية التي تلت، كانت تتراجع إلى الدّاخل وتطبق الباب بعنف. تسمّر محمّد في خجل،

facebook.com/groups/exchange.book

وهمهم بكلمات اعتذار على الاستقبال غير اللّائق، لكنّ خليلا كان متفهّما. ترقّبا معا لدقيقتين إضافيتيّن، عادت بعدها مريم لتفتح الباب وقد أسدلت ثوبا طويلا فوق ملابسها الآنفة، وسوّت غطاء رأسها بشكل محكم. كانت أيضا قد استعارت نظرة جادّة وصارمة أعادت إلى خليل ذكرى اللقاء الأخير في المكتب. فكّر وهو يتأمّلها مأخوذا، هي أنثى تعيش مع رجلين.. لكنّها قطعا رجل العائلة! قالت بلهجة حازمة:

- محمد، ادخل أرجوك.

امتثل أخوها رغم ارتباكه، وألقى نظرة متعاطفة على خليل. هل ستكون المذبحة اليوم؟

- لم أسرق حافظتك!

- نعم، لم تفعلي. أنا آسف.

باغتها ردّ فعله الهادئ، بل خفضه جناح الذلّ وتخليّه عن النبرة المتعالية.

- هل والدك بالدّاخل؟ يجب أن أتحدّث إليه.

هذه المرّة، بدت الأرائك الشرقيّة ذات النقوش مختنقة في فضاء الغرفة الصغيرة التي غدت مستودعها الجديد. خبت الرّوح الدّافئة التي دغدغته في زيارته السّابقة. ظهرت اليوم في حال مزرية تدعو إلى الرّثاء. من خلال الباب الموارب للغرفة المقابلة، يلمح بعض الصناديق المكدّسة. لعلّ ما حوته لم يجد له موطنا في فضاء المسكن الضئيل. ولعلّ نصف ممتلكات العائلة بقي في المنزل الآخر، متروكا ومهملا، ينتظر أن تنهار فوقه الحجارة. مثلما قد تنهار حجارة المنزل الجديد على رؤوس سكّانه! أحسّ خليل ببرودة لاذعة تسري في أوصاله. كان قد وعدها بتسوية عادلة، منزل مناسب، لا يختلف في مواصفاته عن المنزل القديم. لقد أخطأ التّقدير بشكل فادح. المنتقلون الأوائل استفادوا من تسهيلات الدّولة ودعمها لحركة الهجرة، فغنموا مساكن فاخرة حديثة التشييد. كان

facebook.com/groups/exchange.book

انتقالهم طوعيّا، فكافأتهم الدّولة لدعمهم سياستها المرتكزة على الخوف. أمّا من تلكّؤوا وتباطؤوا، وعرقلوا نظام التقسيم الجديد، فقد عوقبوا شرّ عقاب. المطرود من منزله لا يُهدى منزل الأحلام، ولا يُعوّض عن خسارته. إنّه يُطرد وحسب. كانت مريم أبعد نظرا منه. بل لعلّه كان مُغيّبا عن الواقع.

في وقت سابق، كان قد حاول أن يعقد مقارنة بينه وبين محمّد، معاناة كليهما أمام العنصريّة، كفاحهما من أجل النّجاح. الآن يعلم ألّا سبيل إلى المقارنة. هذا الولد قد عاش في سنواته الثمانية عشرة أضعاف ما يدّعيه هو من صراعات. إنّه يعرف حقّا كيف تكون الحياة جحيما، ولا يتذمّر. إنه.. إنّهم متصالحون مع ذواتهم وهويّاتهم، لعلّهم قد توقّفوا عن لومها منذ زمن بعيد، ورضوا بقدرهم. أمّا أنت، فلا تكفّ عن الشكوى من لعنة اسم تحمله وتتنصّل منه.. مع أنّ مركزك ووظيفتك ومنزلك وعائلتك، كلّهم محفوظون لك!

استقبله الأب بنفس الدّماثة، كأنّه صديق قديم يزورهم من باب الألفة والمودّة، فازداد حرجه. طرح فكرته في شبه إطراق، عيناه ملتصقتان بالأرض حياء، سيرفع الدّعوى من أجلهم، وسيحضر خبيرا يعاين المسكن على عين المكان ويجهّز تقريرا بعدم أهليّته للسّكنى. سيحرص على استصدار قرار من المحكمة بوقف قرار الهدم. يتابعه الوالد بابتسامة وديعة مسلمة، ويؤمئ برأسه في رتابة. سيكون خيرا، كل الخير. مرّة أخرى يدعوه إلى مشاركته مشروبه المحبّب:

- هل تشاركنا كوبا من الشّاي؟

بينما تتناهى إليه بقبقة الماء على الموقد، يتساءل، كما تساءل دائما كلّما سمع عن الشغب الذي يثيره المهاجرون العرب والأفارقة، لا الدّولة راضية عن وجودهم ولا هم راضون عنها. يعبّر عن سؤاله بصوت عال:

- لماذا لا ترحلون؟

facebook.com/groups/exchange.book

- عفوا؟

- ألم تفكّروا في الرّحيل كحلّ نهائيّ لكلّ المضايقات والمعضلات؟

- نرحل؟ إلى أين؟

- إلى بلدكم.. الأصليّ!

تصدر عن الرّجل ضحكة مرّة أشبه بالنهنهة. ويوقظ السّؤال في داخله ذكريات أشدّ مرارة.

- ليس لنا من بلد أصليّ.. نحن فرنسيّون.. فقط.

لا يبدو على خليل الاقتناع. إنّهم يحملون اسما عربيا، وملامح عربيّة كذلك. فكيف ينفي؟

- والدي كان معارضا سياسيّا، اتّهم بالإرهاب في وطنه، فلجأ إلى فرنسا، أيّام كانت ملجأ للمنبوذين في أوطانهم. بعد ذلك سُحبت منه جنسيّته، ومن ذريّته من بعده، وكرّمته فرنسا وأكرمت مثواه بإهدائها إيّاه جنسيّتها ومواطنتها.. قبل أن يستلم هؤلاء الحمقى السّلطة وتسود العنصريّة!

وهو يتخطّى عتبة البيت إلى الشّارع، لحقت به مريم. قالت في ارتباك لم يعهده فيها:

- أريد أن أعترف. الحافظة الإلكترونية، لم آخذها.. لكنّني غيّرت مكانها. كنت أريد الانتقام، من أجل وقتي المهدر.. مجرّد عبث بسيط. أردتك أن تجرّب التوهان، وحاجتك الثمينة تضيع منك، والوقت يمضي بحثا عنها. كنت أعلم أنّك ستجدها.. في نهاية الأمر. أنا آسفة، ظننتك شخصا سيّئا.

حين غادر الحيّ الكئيب، كان لا يزال مشوّشا. ضحك من نفسه كثيرا وهو يطالع سحنته في مرآة السيّارة العاكسة، ثم هبط عليه الوجوم حتّى كاد يدمع. ما مدى سوئك أيّها الشّخص، في الماضي القريب والحاضر القائم؟

facebook.com/groups/exchange.book

حين دلف إلى شقّة والدته، كانت هناك مفاجأة في انتظاره.

انتابه إحساس غريب بدخوله مكانا مجهولا. كان كمن يتنقّل في بهو متحف ما. انتابه الذهول، وهي يطأ على السجّاد القديم الذي لم يكن يعلم أنّ أمّه قد احتفظت به كلّ هذا الوقت.. وصُعق لمرأى المفروشات البالية التي أخذت مكانها في كلّ ركن من قاعة الجلوس. أمّا الجدران، فقد غصّت مساحتها بأطر مذهّبة لم تعد تناسب ذوق العصر، تشغلها صور باهتة طال تخزينها في الأدراج المواربة، وورود مجفّفة حفظت بعناية بين طيّات الكتب.

رمقت ديانا دهشته باستمتاع. لقد امضت ساعاتها السّابقة تعيد إلى الشقة ترتيبا سحيق البعد، مضى عليه ربع قرن كامل. تنشر ذاكرتها على الملأ، تنفض عنها الغبار وتعيد إليها رونق الأيّام الخالية. تعزّز رحلتها عبر الزّمن بأجسام ملموسة تُضفي بعدا آخر على حكايات الرّسائل. هنا في هذه الشّقة، عاشت طفولتها البعيدة، سجنت نفسها خلف أسوار الوحدة، ثمّ عرفت عاطفة بريئة ساذجة وتزوّجت فارسها غريب الأطوار!

- أحببت أن أستعيد تلك الأيّام بكلّ تفاصيلها وعنفوانها.. وأن تعيش معي كلّ ذلك.

كانت في عينيها نظرة منكسرة. كأنّما تعتذر.

- لقد حرمتك من ذاكرتك وتاريخك.. ظننت أنّني أحسنت صنعا. لكنّني أتبيّن اليوم مقدار جهلي. لقد تأخّرت كثيرا في تسليمك مفاتيح الماضي، لكنّني مستعدّة الآن.. سل ما بدا لك، وسأفصح عن كلّ شيء.

اتّخذت مجلسها على الأريكة الحديثة التي نكّرتها بمفروشاتها القديمة، وأشارت إلى المقعد القريب بابتسامة مشجّعة. راقبها خليل بشيء من الشّفقة. هل تظنّ الماضي يُسترجع بتلك المسرحيّة؟ هل يرجعان الآن في كبسولة زمنيّة إلى تاريخ قديم؟ لا يا والدي، لم نخترع آلة الزّمن بعد!

facebook.com/groups/exchange.book

مـا مـضى لا يُسـترجع، والأخطـاء لا تُحـوّر بمجـرّد الاعـتراف بهـا، والذّاكـرة الـتي لـم تُـبنَ عـلى أسـس سـليمة منـذ البدايـة، لا تقـوى دعاماتهـا بمجـرّد سـكب دلـو ذكريـات عليهـا!

فليسـايرها.. فليمنحهـا الرّضـا الـذي تنشـد، عـن نفسـها وعمّـا وهبتـه إيّـاه مـن أجـل مـا توهّمتـه مصلحتـه، رحمـة بشـيخوختها. يُذعـن لرغبـة طيّبـة بمصالحتهـا مـع ضميرهـا. يجلـس حيـث أشـارت، ويتأمّلهـا، بـلا ضغينـة، وهـي تتنـاول الرّسـالة التاليـة، وتـشرع في القـراءة...

facebook.com/groups/exchange.book

إنّ مثل رزق المرء ونصيبه من السّعادة والحكمة وراحة البال كمثل عقد من الخرز.. يستمرّ في جمع حبّاته، حبّة حبّة حتّى يكتمل العقد، فيكون الأجل قد حان. وليس يضرّ المرء أن يمشي ساهما، فإنّه سيتعثّر وينتبه إلى مواقع خرزاته ولن يخطئها. وليس يفيده أن يدقّق وينقّب في الأرض بعدسة مكبّرة، فلن يناله غير ما كتب له.. ولن يجمع من الخرزات أكثر ممّا يتحمّل خيط عقده. ولعلّ حبّات عقدي قد اكتملت حين رُزقتك!

وتشكّل في ذهني مفهوم جديد للجنّة. وما هي الجنّة.. غير جسد سليم لا يشكو سقما، وزوجة حسناء متفانية، وصبيّ صغير بهيّ الطلعة، وأيّام متشابهة في سكينتها ورتابتها، ولقمة عيش حلال، تقيم الأود وتكفي السؤال؟ كنت قد انتقلت وديانا إلى شقة صغيرة ومريحة في حيّ قريب، يناسب إيجارها راتبي المتواضع من العمل في مطعم وجبات سريعة. بينما احتفظت ليليان بشقة العمارة الرابعة. ولم يكن ينقصني إلا أن أقتني سيّارة صغيرة قديمة، لتكتمل لي أركان السّعادة الظاهريّة!

تمضي بنا الأيّام، فننسى. نطمئنّ إلى وجهها الهادئ ونعتقد أنّها ستدوم لنا. فكذلك انغمست في حياتي الجديدة واستسلمت إلى الدّعة. ولم يكن طيف الدكتور عمر يزورني إلا لماما. أتنهّد وأنا أتذكّر مشهده الأخير وهو يخرج من قاعة المحكمة وفي عينيه نظرة أبيّة تواجه عدسات المصوّرين ورجال الصّحافة.. ثمّ أنصرف إلى شؤوني وأنسى. فكّرت مرارا في زيارته في سجنه.. لكنّني جبنت. كنت أتتبّع شعاع شمس مشرقة باتت تدفئ ثنايا حياتي، وفكرة زيارة السّجن كانت تقبض على صدري بيد باردة مخيفة.. فأنفض الخاطر وأمضي. لم تكن زيارتي لتغيّر شيئا عند عمر.. أعلّل فراري بذلك.. لم أكن سوى وجه عابر في طيّات ماضيه، بل ربّما جلبت إليه

facebook.com/groups/exchange.book

مـن المتاعـب أكـثر ممّـا فعلـه أيّ شـخص آخـر. لذلـك لا حاجـة لـه إلى زيـارتي.

ولأنّ جنّـة الدّنيـا لا تكتمـل أبـدا، فقـد كانـت لـديّ أمنيـات أخـرى إضافيّـة.. وكان وجـه أمّـي الـذي بـتّ أستحضره مـن الذّاكـرة في شـجن وحـزن ركنـا آخـر، أتمـنّى أن يعـزّز رصيـد سـعادتي بحضـوره، لكنّـني لـم أجرؤ عـلى العـودة. في كلّ اتّصـال مـن اتّصالاتنـا القصـيرة المحمّلـة بدمـوع الحنـين وعبـارات الاشـتياق، كانـت ترجـوني في لهفـة الولهـان أن تكحّـل عينيهـا بمـرأى زوجـتي وابـني.. لكنّـني كنـت منيعـا أمـام توسّـلاتها بشـكل مخـزٍ. حـين أتفكّـر الآن في سـلوكي آنـذاك، لا أجـد سـببا مقنعـا لصـدودي. هـل كنـت أسـتنكف أن أرجـع ولمّـا أحقـق بعـد الـثروة الـتي يفـترض بي أن أحصّلهـا؟ أم أنّـني كنـت أخـشى نظـرة أمّـي وشـقيقاتي لزوجـتي الأجنبيّـة المقعـدة؟

هـل تعلـم يـا بـنيّ؟ في فـترة الاطمئنـان تلـك الـتي تلـت اسـتقراري العائـليّ والصحّـي، كانـت تسـاورني أحيانـا أفـكار جاحـدة ورخيصـة. كنـت ألحـظ الصّعوبـة الـتي تنهـي بهـا ديانـا واجباتهـا كربّـة بيـت.. وقـد كانـت مهملـة أحيانـا، في ترتيـب الألعـاب وراءك أو تنظيـف الأرضيّـة.. ومهاراتهـا في الطبـخ متواضعـة غالبـا، لكنّهـا تحـاول. ومثـل أيّ زوج شرقيّ، كانـت تنتابـني نوبـات غضـب غـير مـبرّرة، حـين أتعـثّر في دميـة رميتهـا أنـت عنـد المدخـل، أو حـين أنـزل بعـد يـوم عمـل شـاقٍّ لاشـتراء علبـتي بيـتزا بعـد أن تفسـد أمّـك طبـق العشـاء. ديانـا كانـت وحيـدة والديهـا المدلّلـة، وإعاقتهـا جعلتهـا تتـكّل عـلى أمّهـا في كلّ شيء.. ولـم يكـن مـن اليسـير أن تتحـوّل إلى سـيّدة بيـت مثاليـة، تنـال العلامـة الكاملـة مـن جدّتـك لأبيـك! ورغـم تقديـري لـكلّ ذلـك.. ورغـم حـبي الكبـير تجاههـا وعرفـاني بجميلهـا، فقـد مـرّت بي أوقـات ربّمـا اسـتكثرت عليهـا خلالهـا صحّـتي وعافيـتي! تخيّـل، تلـك الصّحـة المسـتجدّة بعـد أوقـات عصيبـة مـع الألـم والعـذاب، كنـت أمـنّ عليهـا بهـا بيـني وبـين نفـسي! وهـي الـتي لـم تتكـبر عـلى فاقـتي قبـلا، ولـم تـتردّد أمـام مـرضي! بـل إنّهـا كانـت تتغلّـب عـلى شـللها مـن أجـلي، ومـن أجلـك. ورغـم أنّهـا لـم تسـتغن بشـكل كليّ عـن الكـرسيّ المتحـرّك، فـإنّ سـنتين مضنيتـين مـن العـلاج الطبيعـيّ آتـت

facebook.com/groups/exchange.book

نتائـج طيّبـة، وهـا هـي تقـف مـن حـين لآخـر، وتخطـو خطـوات مـتردّدة.. وليتـني كنـت سـندا نفسـيّا يُعتمـد عليـه!

لذلـك اعتقـدت طويـلا في مـا بعـد، أنّ اللـه عاقبـني بمـا أسـتحقّ حـين تغـيّرت الأمـور في ذلـك اليـوم.

كنـت أحـبّ مهنـتي الجديـدة وأحظـى فيهـا بقـدر مـن المتعـة رغـم الإرهـاق. أتجـوّل طـوال اليـوم مثـل نحلـة نشـيطة بـين المـشرب وطـاولات القاعـة الدّاخليـة والشرفـة الخارجيّـة، وابتسـامة واسـعة تمـلأ وجهـي.. فحـتّى إذا رجعـت إلى البيـت، سـمحت للتكشـيرة بـأن تحـلّ محلّهـا! هكـذا هـي الحـال. الابتسـامة في مـكان العمـل جـزء مـن الوظيفـة، والعبـوس في البيـت روتـين يومـيّ.

في ذلـك اليـوم، عـدت إلى المـشرب بعـد أن خفّفـت الصّينيـة مـن حملهـا ثـمّ انشـغلت بتصفيـف الكـؤوس المتسـخة في المغسـلة، بينمـا كانـت نظـراتي تراقـب آلـة صنـع القهـوة الـتي بـدأت مؤشراتهـا تعلـن عـن حاجتهـا إلى تزويـد بالمـاء والـبنّ. تركـت الكـؤوس ومـلأت إبريـق المـاء وتأهّبـت لصـبّ محتـواه في القسـم المخصـص مـن الآلـة.

في تلك اللحظة، رأيتها!

عـلى الجهـة الأخـرى مـن الشّـارع، كانـت تقرفـص في اسـتكانة كمـا عهدتهـا دومـا. وترقبـني بنظـرة باسـمة. في الوقـت نفسـه، أحسسـت بوخـزة فظيعـة في رأسي، فأفلـتُّ الإبريـق الزجاجـي ليرتطـم بالأرضيّـة وتتناثـر شـظاياه الدقيقـة. اسـتندت عـلى سـطح المـشرب الرّخـام بمرفقـي أقـاوم إغمـاءً وشـيكا.. وخيالهـا الشـبحيّ يحـثّ الخطـى باتّجاهـي في إصرار.. ثـمّ فقـدت الوعـي.

حـين اسـتيقظت، كنـت لا أزال في المطعـم. ممـدّدا عـلى صـفّ متلاصـق

facebook.com/groups/exchange.book

مـن الكـراسي، ورؤوس كثـيرة تـشرف عـليّ مـن عـلٍ، وقطـرات مـاء بـارد تغمـر وجهـي الملتهـب. كنـت أشـهق وألهـث، بينمـا تتصفّـح عينـاي الوجـوه الكثـيرة المحيطـة بي في تشـوّش أفتّـش عـن وجههـا، عـلّي أفنّـد ظـنّي أو أؤكـده.. فرأيتهـا. تطـلّ عـليّ بابتسـامتها الـتي أعـرف! كانـت هنـاك تلـك الصغـيرة الغاليـة الـتي رحلـت مـن دون وداع.. فتراهـا كانـت تنـوي العـودة. كارمـن!

بعـد لحظـات، انفـضّ الزّبائـن وعـاد كلّ إلى مقعـده بعـد أن اطمأنّـوا عـليّ، وبقـي صاحـب العمـل ينظّـف بقايـا الزّجـاج المكسـور. راقبتـه بتشـوّش ولمّـا يفارقـني الـدّوار. اسـتمرّت لبرهـة تلـك الجلسـة الصّامتـة، وكارمـن ثالثتنـا، حـتّى نطقـت أسـأله بصـوت متحـشرج:

- هل دخلت المطعم اليوم فتاة صغيرة مشرّدة؟

رفع رأسه في شكّ وبدا عليه التفكّر، ثمّ قال:

- لا أذكر شيئا من هذا.

ازدردت ريقـي في ذعـر. كان ينظـر في اتّجاههـا.. ولا يراهـا. أغمضـت عيـنيّ، والهلـع يتصاعـد درجـات في داخـلي. مـا معـنى هـذا؟ كارمـن تعـود، كأنّمـا لـم تكـبر يومـا واحـدا.. هـي هـي، كمـا عهدتهـا. وعليهـا الثيـاب الممزّقـة نفسـها الـتي رأيتهـا عليهـا آخـر مـرّة. ولا أحـد يراهـا غـيري. مـا معـنى هـذا؟

اسـتأذنت مـن صاحـب العمـل لأغـادر مبكّـرا ذلـك اليـوم. خرجـت أجـرّ قدمـيّ، وكارمـن تسـير عـلى إثـري بخطواتهـا الصّغـيرة المثـيرة للشـفقة. بحثـت في مفكّـرتي عـن رقـم المستشـفى الـتي أجريـت فيـه جراحـتي منـذ سـنتين، وطلبـت موعـدا مـع الطبيـب الاختصـاصيّ. لـم أكـن قـد احتجـت إلى زيارتـه منـذ زمـن بعيـد. بعـد شـدّ وجـذب مـع موظّفـة الاسـتقبال، تمكّنـت مـن أخـذ موعـد طـارئ في بدايـة الأسـبوع التـالي. لـك أن تتخيّـل كمّيّـة الشـكوك المؤرقـة الـتي عشّشـت في رأسي حـتّى ذلـك الموعـد!

صـارت كارمـن تلازمـني حيثمـا حللـت. في البيـت، في المطعـم، في الشّـارع. تجلـس عـلى مسـافة مـنّي، ترقبـني ولا تتحـدّث. عـادت بكمـاء كمـا عرفتهـا في

facebook.com/groups/exchange.book

عهـدي الأوّل بليـون. وكانـت رؤيتهـا تثـير توتّـري إلى المسـتوى الأقـصى! صرت عصبيّـا، قليـل الـكلام سريـع الاشـتعال. لمـاذا عـدتِ؟ بـل كيـف عـدتِ؟ إن كنـت قـد اسـتأصلت الرّصاصـة فـلا معـنى لوجـودك هنـا الآن!

جـاء يـوم الموعـد، فدلفـت عيـادة الطبيـب بسـاقين مرتعشـتين. أجريـت الفحوصـات، ثـمّ صـور الأشـعّة. وجلسـت أنتظـر في صـبر اسـتعرته لا أدري من أيـن.. فمخـزونيَ منـه كان قـد نفـد حـتّى آخـر قطـرة. بعـد سـاعتين، كنـت أدخـل عـلى الطّبيـب مـن جديـد، لأجـد إلى جـواره رجـلا آخـر لـم تسـبق لي رؤيتـه. طبيـب آخـر. قدّمـني إليـه بابتسـامة متشـنّجة، ثـمّ جلـس ثلاثتنـا في الصّالـون الملحـق. لـم يكـن كلّ ذلـك يبـشّر بخـير. سـألني الطبيـب الجديـد:

- ألم يرافقك أحد من أفراد عائلتك؟

- لا.. جئت وحدي.

يصمت برهة، وأشعر بتردّده. لعلّه يبحث عن كلمات مناسبة.

- فهمـت مـن ملفّـك أنّـك قـد أجريـت جراحـة عـلى الدّمـاغ منـذ فـترة.. أليـس كذلك؟

- نعم. كانت هناك رصاصة.. أخرجها الدكتور. كانت عمليّة ناجحة.

أردّ بآليّـة، مسـتعجلا الوصـول إلى لـبّ الموضـوع. ثـمّ لمـاذا لا يحدّثـني طبيـبي؟ مـن هـذا الطبيـب الـذي يديـر دفّـة الحديـث؟

- هذا ما حسبناه.. حسبناها ناجحة.

- هل سأحتاج جراحة أخرى؟

لا بـأس بذلـك. جراحـة أخـرى لـن تـضرّ. أقبـل بـأيّ شيء عـلى أن تختفـي تلـك الفتـاة الـتي تصنعهـا هـلاوسي إلى الأبـد.

- لا للأسف. لن تكون هناك جراحة أخرى.

- آه..

- أنت رجل مؤمن أليس كذلك؟

facebook.com/groups/exchange.book

لا أفهم ما يعنيه سؤاله، ولا ما يقصده بأنّني لن أحتاج جراحة.

- لماذا لا تتصل بزوجتك أو أحد أفراد عائلتك؟ من الأفضل ألا تكون وحيدا في هذه اللحظة..

- من أنت؟

أقاطعه في سخط. ثمّ أوجّه خطابي إلى طبيبي غاضبا:

- ما الأمر يا دكتور لابورت؟ لماذا لا تخبرني بما رأيته في صورة الأشعة ولننه الأمر؟

- إنّه طبيب نفسيّ.. تحتاج حضوره لتخفيف وقع الصّدمة..

يقاطعه الطبيب النفسيّ بسرعة:

- أحيانا لا تسير الأمور كما نتوقّع.. لكنّ الحياة هكذا.. تبتلينا بالمرض أو فقدان الأحبّة أو ضيق في الرّزق.. ومهما كانت حياتنا، فعلينا أن نتقبّلها، ونعيش ما بقي لنا منها بشكل إيجابيّ..

من هذا الرّجل؟ طبيب نفسيّ أم شيخ جامع؟ أرمقه في انزعاج.

- هلّا يوضّح لي أحدكم سبب الهلاوس التي أراها؟

- هل تذكر، حين أجرينا العمليّة الأولى؟ كانت هناك كتلة نسيجيّة تحيط بالمقذوف.. حين استأصلناه، تراجعت وتوقّف نموّها.

- نعم، وقد كنت سليما معافى طيلة السّنتين الماضيتين!

- لكنّها قد عادت إلى التمدّد.. كبر حجمها إلى درجة مهولة خلال وقت قصير.. أكثر ممّا فعلت خلال سنوات طوال! وقد أصبحت الآن تضغط من جديد على مراكز الحواسّ.. وإذا ما كبرت أكثر، فإنّها قد تدمّر مراكز الحياة في الدّماغ..

تدور بي الدّنيا. يضطرب تنفّسي. بينما يواصل الطّبيب شرحه:

- للأسف، كما شرحت لك عند العمليّة الأولى، لا يمكن استئصال الكتلة النسيجيّة. لأنّ الموت سيكون فوريا..

facebook.com/groups/exchange.book

- كم.. كم ما زال من الوقت؟

يخرج منّي صوت أجوف لا أعرفه.

- ستّة أشهر ربّما.. أكثر أو أقلّ.

يستأنف الطبيب النّفسيّ خطابه المستفزّ:

- العلم لا يمكنه تحديد أعمار البشر.. رغم أنّ الورم في مرحلة متقدّمة، فإنّك قد تعيش سنوات أخرى. كلّ ذلك يعتمد على حالتك النّفسيّة. لقد أثبتت التّجارب أنّ الأشخاص الذين تعاملوا مع مرضهم بتقبّل وانفتاح، وحافظوا على نظام غذائيّ سليم وأحاطوا أنفسهم بأحبّتهم ومارسوا هواياتهم المفضّلة، عاشوا أكثر من أولئك الذين غرقوا في الكآبة وانتظروا الموت وقد فقدوا صلتهم بالحياة...

- ستة أشهر.

غمغمت في سرحان. لم أعد أسمع طنينه المزعج. ثمّ وقفت من دون استئذان وغادرت العيادة.

في الغد، ذهبت لزيارة الدكتور عمر.

كانت أنانيّة مني أن أقصده لأرمي بين ذراعيه همومي، ولعلّه في حاجة إلى دعم معنويّ مثلي أو أكثر. لا ليس أكثر.. في تلك اللحظة، بدا لي أنّني منحوس أكثر من أيّ رجل في العالم. وأنّ مواساتي فرض عين على كلّ من عرفتهم أو لم أعرفهم! ثمّ لعلّي توقّعت أن يكون أكثر النّاس قدرة على تفهّم وضعي، وهو المصاب في صحّته وحرّيّته.

قرأت على وجهه علامات الدّهشة والبشر وهو يدخل قاعة الزّيارات ليجدني قبالته. بشر تضاءل حتّى تلاشى، حين انفجرت باكيا بين يديه.

facebook.com/groups/exchange.book

حكيت له عن زيارتي الأخيرة لعيادة الطبيب، ولم أحاول أن أظهر اهتماما زائفا بصحّته وظروف حبسه، فقد كان ما ألمّ بي حاجزا دون شعوري بمآسي العالم من حولي! حين خفت نشيجي أخيرا، هتفت في ثورة وألم:

- أكرههم!

- من؟

- الذين قتلوا أبي.. ووضعوا هذه الرصاصة المقيتة في رأسي!

- الجيش؟

أعجز عن الرّدّ.. على من أصبّ لعنتي؟

- الإسلاميّون؟

لقد ظننت طويلا أنّهم السبب. لو لم يكن الجيش يبحث عنهم.. لو لم يكن عمّي يخفيهم.. لما حصل ما حصل. أجهش ببكاء مرير متّصل في عجز. من العبث أن ألوم شخصا غيري.. أنا وحدي المسؤول عمّا ألمّ بي وبعائلتي من شتات..

- أتمنّى فقط لو أعود طفلا.. وأبقى هادئا وراء الباب!

أمنية غالية بعيدة المنال. وآلة السّفر عبر الزّمن لم تخترع بعد.

- لله حكمة أكيدة في ذلك.. وحكمته اقتضت أن يمهلك ثمانية عشر عاما إضافيّة، قبل أن تفعل الرّصاصة مفعولها! ألا تشكر الله على سنين حياتك التي عشتها وأنت لا تدرك حتّى وجود الرّصاصة في رأسك؟

كنت في أسوأ حالاتي النفسيّة، والإيمانيّة أيضا. فأنّى لي استشفاف حكمة الله من هذا الابتلاء؟ أهزّ رأسي في حركة يائسة، ثمّ أقول متأوّها:

- ليس هناك ما هو أقسى من الموت نفسه.. غير انتظار الموت!

قلتها بلهجة عميقة، كأني قد وضعت السّبابة على سرّ من أسرار الوجود.

- هراء! ترّهات!

باغتني عمر باعتراضه الصّارخ. أرفع إليه رأسي بنظرة مستنكرة. لسان

facebook.com/groups/exchange.book

حـالي يقـول: وهـل تعـرف أنـت مـا أعيشـه حـتى تسـتكثر عـليّ رثـاء حـالي؟ لكنّـه يواصـل بصـوت هـزّني:

- هـذا كلام الملحديـن واليائسـين مـن رحمـة اللـه! أمّـا أنـت أيّهـا الرّجـل المؤمـن، ألا تـدرك أنّ المـوت هـو انقطـاع عمـل ابـن آدم؟ هـو اللحظـة الـتي لا ينفـع بعدهـا نـدم عـلى تفويـت في عبـادة أو ارتـكاب لمعصيـة! أمّـا مـا تسـمّيه انتظـارا للمـوت، فهـو إمهـال مـن اللـه سـبحانه.. فرصـة أخـيرة، لتحسـن العمـل لآخرتـك! أتـراك تسـتغلّها، أم تقضيهـا في انتظـار مستسـلم؟ ألا تـرى نعمـة اللـه عليـك في تنبيهـك لاقـتراب أجلـك؟ أم تـراك تفضّـل المـوت غافـلا.. يسـوقك طـول الأمـل؟ الآن، تفكّـر في عملـك، وأصلـح مـن علاقتـك بربّـك، خـذ القـرارات المناسـبة، وعـش كلّ لحظـة كمـا يجـب!

خرجـت مـن عنـده مهـزوزا. كيـف؟ كيـف باللـه عليـك يـا عمـر؟ كيـف يمكنـك أن تنطـق بتلـك الكلمـات وأنـت حبيـس جـدران ضيّقـة تضغـط عـلى نَفَسـك.. لكنّهـا لا تـسرق نضـارة روحـك! أقعيـت عـلى جانـب الطريـق، قبالـة بوّابـة السـجن، أحـاول اسـتيعاب مـا قيـل بالدّاخـل. وجلسـت كارمـن عنـد قدمـيّ.. مصيبـتي الصّغـيرة.

- أنـتِ.. لمـاذا أراك أنـت بالـذّات؟ لمـاذا كلّمـا طاردتـني الهـلاوس اتّخـذت شـكلك؟

- اسأل نفسك.. أنت تعرف.

سـمعت الصّـوت مـن دون أن تتحـرّك شـفتاها، مثـل صـدى يـتردّد في رأسي. حاولـت أن أُدهَـش، لكـنّ دهشـتي انحـسرت، وقـد أضحـت رؤيـتي واضحـة على حـين غـرّة. نعـم أنـا أعـرف. لقـد عرفتـك في ليـون، طفلـة صغـيرة بكماء مـشرّدة. لكنّـني تركتـك خلفـي ورحلـت. حـين أشرقـت الدّنيـا في وجهـي نسـيت أمـرك وأنـا الـذي عاهـدت نفـسي عـلى الاعتنـاء بـك وحمايتـك. إحسـاس عميـق بالذنـب تجاهـك جعلـك تتشـكلين هلوسـة مـن دون وعـي منّي. أسـكت ضمـيري بإبقـاء طيفـك قريبـا.. ولعـلّي لـن أعـرف أبـدا مـا الـذي حـلّ بـك عـلى وجـه الحقيقـة.

facebook.com/groups/exchange.book

أميّز الآن بشكل واضح متى بدأت الهلوسة. حين ظهرت فجأة وأنا أهمّ بالرّحيل إلى باريس! كان يؤلمني أن أرحل وأخلّفك ورائي، لذلك تشكّلت في رأسي.. وتبعتني.

أزفر في شبه ارتياح وقد أزحت اللّثام عن حقيقة أرّقتني في الماضي، ولم يعد لها معنى يذكر في الحاضر. لكنّ إشراقات النّور على حجرات كانت مظلمة في الدّماغ تصاحبها دفقات خفيفة من المتعة. أسألها وقد باغتني نشاط مفاجئ:

- والآن، ماذا نفعل؟

تلك الصّغيرة سترافقني إلى نهاية المطاف، لذلك صار لزاما عليّ أن أشركها في التخطيط للأيّام المقبلة. ستّة أشهر من الأعمال الحاسمة تنتظرنا!

كانت صحّة ليليان تتدهور شيئا فشيئا، وكانت ديانا تصحبك لتسليتها في بعض الأحيان، فأمرّ لآخذكما من عندها حين ينتهي يوم عملي. وقد بدا أنّها قد مرّت بفترة عصيبة عصر ذلك اليوم.

حين تجاوزتُ مدخل المجمع السّكني، كانت الحديقة شبه مظلمة والمصابيح القليلة المتناثرة تلقي نورا باهتا على الممرّات المفروشة بالحصى. كان المكان يعاني من إهمال شديد في الفترة الأخيرة. منذ فضيحة الحراس والمداهمة التي تعرّضت لها العمارة الثامنة، عانى الحيّ من سوء السّمعة وكثر القيل والقال. بيعت ممتلكات الشيخ المختار، بأثمان بخسة لمشترين متفرّقين بعد أن ظهر ورثة غرباء لا يعرف أهل الحيّ عنهم شيئا. لم تعد هناك لجنة تهتمّ بالنّظافة والصّيانة العامّة للمجمّع، ولم يتّفق الملاّك المختلفون على سياسة إدارة واحدة حتّى آلت المساحات

facebook.com/groups/exchange.book

المشـتركة إلى حالـة مـن الفـوضى والقـذارة لـم تعرفهـا يومـا في عهـد الشـيخ.

تفـرّق معظـم الحـراس الذيـن أطلـق سراحهـم وتشـتّت شـملهم وانتـشروا في أنحـاء الأرض. صـارت قصّـة الحـراس بمثابـة الخرافـة الـتي يرويهـا السّـكان همسـا. ومـا لبثـت العصابـات أن عـادت إلى سـالف نشـاطها بعـد أن قطـع عليهـا المختـار الطريـق لوقـت طويـل.

لـم أكـن أنهـار وحيـدا. كان كلّ شيء ينهـار.. فهـل أجـد في ذلـك تسـلية عـن مصـابي؟

انتبهـت مـن أفـكاري حـين لمحـت دواليـب كـرسيّ ديانـا المعـدن تلمـع في الظـلام. ثـمّ سـمعت صـوت صرخـات طفـل بـين الأعشـاب. في ارتبـاك واضطـراب شـديدين، جريـت باتّجاهكمـا. جثـوت عـلى ركبـتيّ قربـك. كنـت يـا بـنيّ قـد شرعـت في محـاولات مـشي متعـثّرة، فتسـقط معظـم الوقـت بعـد خطـوات قليلـة. رفعتـك بـين ذراعـيّ في حنـوّ ومسـحت الـتراب العالـق عـن كفّيـك وركبتيـك المكوّرتـين، ثـمّ التفـت إلى ديانـا الـتي اقتربـت وهـي تديـر عجـلات الكـرسي متجهّمـا:

- مـا الـذي دهـاك للخـروج في هـذا الوقـت؟ ألا تريـن أنّ ذلـك خطـر عـلى الولـد؟

- نـادر، أرجـوك.. لـم يحصـل شيء للولـد. لقـد وقـع في العشـب الطّـريّ. نحـن لا نخـرج إطلاقـا، وقـد أردت أن أرفّـه عـن أمّـي بعـض الـشيء..

التفـتُّ إلى حيـث كانـت تجلـس ليليـان عـلى مقعـد حجـريّ بالسّـاحة، وقـد أخفـت غلالـة الظـلام ملامحهـا. لعلّهـا كانـت ترقبنـا في عـدم رضـا، وتنـدب حـظّ ابنتهـا الـتي ابتليـت بـزوج معقّـد عليـل الجسـم والـرّوح. واصلـت هجومـي المحمـوم بشـكل مبالـغ فيـه:

- مـاذا لـو حصـل لـه مكـروه؟ مـاذا لـو جـرح أو كـسر أو أيّ شيء آخـر؟ مـاذا كنـت سـتفعلين؟ هـل يمكنـك إسـعافه؟

زمّت ديانا شفتيها في ضيق:

facebook.com/groups/exchange.book

- نـادر، أنـا لسـت عاجـزة. لا يمكنـني المـشي عـلى قدميّ بشـكل مـتّزن لكنـني أسرع مـن كثـير مـن البـشر الأصحـاء بالعجـلات.. يمكنـني أن أنحـني وأرفـع الولـد إذا سـقط. لكنـني أعلّمـه الاعتمـاد عـلى نفسـه والوقـوف بعـد الوقـوع. ثـمّ فلتعلـم، مـا يوجـد مـن مخاطـر في الحديقـة أقـل بكثـير ممـا يوجـد في البيـت، حيـث الموقـد والمكـواة ومقابـس الكهربـاء والسـكاكين والدّبابيـس والمقـصّ والأدويـة...

سـكتّ مضطـرا، وبداخـلي دفـق مـن السـخط لـم أفـرج عنـه بعـد. قالـت ديانـا عـلى حـين غـرّة ونحـن نتوقّـف قـرب أمّهـا:

- أعرف ما يلزمنا. إجازة!

- إجازة؟ في هذا الوقت؟

- نعـم، الترويـح عـن النفـس لا يحتـاج وقتـا، بـل يفـرض نفسـه وقـت الحاجـة، وأنـت بحاجـة الآن إلى تغيـير الجـوّ.. هـل تعـرف فيـم أفكّـر؟ نحـن متزوّجـان منـذ سـنتين ولـم نذهـب لزيـارة عائلتـك مـرّة واحـدة! وخليـل يحتـاج إلى رؤيـة جدّتـه وعمّاتـه. سـيكون ذلـك رائعـا، أليـس كذلـك؟

أومأت ليليان برأسها مشجّعة. لماذا تبدو فكرة جيّدة للكلّ ما عداي؟

- الجزائر؟ أنت واثقة؟

- أعلم أنّ عائلتك قد لا تتقبّلني ببساطة.. لأنّني مقعدة و..

قاطعها في حزم:

- كفّـي عـن هـذا أرجـوك! تعلمـين أنّ ذلـك لا يشـكل فرقـا بالنسـبة إليّ، ولا يهمّـني بمـاذا قـد يفكـر الآخـرون.

- إذن نذهب؟

كانـت ابتسـامة تـشرق في وجههـا وهـي ترنـو إليّ في حمـاس. لكنّـني أشـحت بوجهـي وأنـا أنشـغل بملاعبتـك وهمهمـت بصـوت لـم تصبـه عـدوى الحماس:

- سأفكّر في الأمر...

facebook.com/groups/exchange.book

تلـك الليلـة، فتحـت عيـنيّ فجـأة لأجـد الغرفـة غارقـة في الظـلام. سـحبت نفـسي بهـدوء خـارج السّريـر. عـلى أطـراف أصابعـي درت حـول السّريـر المـزدوج حـتى وصلـت إلى الجهـة الأخـرى، حيـث سريـرك الخشـب الصّغـير. أزحـت طـرف السّـتارة السّـميكة لأسـمح لضـوء الشـارع بالتّسـلل إلى الشّـقة. ثمّ انخفضـت عـلى ركبـتي وانحنيـت فوقـك كاتمـا أنفـاسي. لـم تكـن قـد أكملـت سـنتك الأولى. بأطـراف أنامـلي، أعـدت اللحـاف القطـن المطـرّز إلى مكانـه، ولامسـت في خشـوع خصـلات الشـعر الفاحمـة الـتي التصقـت بجبينـك. كنـت صبيّـا جميـل المحيّـا. يشـبه والدتـه. نعمـة مـن اللـه، أحمـده عليهـا كلّ يـوم.

بعـد إرهاصـات الغربـة الأولى، أصبحـت لـديّ عائلـة. ديانـا وخليـل. «كليل»، هكـذا تنطقـه أمّـك. فأصحّـح لهـا المـرّة تلـو المـرّة كمـا كنـت أفعـل مـع طلبـتي منـذ زمـن.. فيضـجّ البيـت بالضحـك. أضحـك مـن نطقهـا الخاطـئ، فتضحـك مـن نفسـها.. وتضحـك أنـت أيضـا لضحكنـا، مـن دون أن تفهـم السّـبب.

لـم أكـن زوج الأحـلام الـذي تتمنّـاه ديانـا وتسـتحقّه. إحسـاسي بذلـك كان قائمـا منـذ البدايـة، رغـم صبرهـا ورضاهـا الظاهـر. ولـم تكـن شـفقتي عـلى عجزهـا إلاّ ردّة فعـل كبريـائي عـلى إحسـاس مزمـن بالنّقـص! لـم يكـن عمـلي نـادلا يعـدّ مهنـة الأحـلام أيضـا، وآفاقهـا ليسـت واسـعة بالقـدر الـكافي. في الحقيقـة، كانـت المنـح الاجتماعيـة الـتي تتقاضاهـا ديانـا تغطـي معظـم المصاريـف، وكنـت أدفـع إيجـار الشـقة وأدّخـر بقيّـة أجـرتي في حسـاب توفـير ليكـون بمثابـة تأمـين لـك حـين تكـبر. كان هاجـس تأمـين مسـتقبلك يلـحّ عـليّ منـذ البدايـة. هـل كان حدسـا صائبـا؟ نجـاتي مـن الرّصاصـة كانـت معجـزة حقيقيّـة. وديانـا تواظـب عـلى جلسـات التأهيـل لسـاقيها منـذ سـنوات مـن دون فائـدة ملموسـة. طفـل ينشـأ بـين والديـن مبتليـين يحتـاج إلى أكـثر مـن الحـب والرعايـة ليضمـن الغـد.

حـين كنـت في الرّابعـة مـن عمـري، كان والـدي -خليـل- يرافقـني في رحلـة صيـد مبتدئـة إلى مـرافئ عنّابـة، ثـمّ في سـنّ السّـابعة علّمـني كيـف أصنـع الطعـوم بنفـسي وأشـدّها إلى الصّنّـارة، واحتفلنـا معـا بـأوّل سـمكة أصيدهـا

facebook.com/groups/exchange.book

بعـد لأي، قبـل أن أدرك أنّـني لسـت موهوبـا مثـل والـدي فأتـرك الصّيـد إلى غـير رجعـة.

رفقـة والـدي جلسـت للمـرّة الأولى عـلى المقاهـي وأخـذت أوّل نفـس مـن نارجيلتـه، فكـدت أختنـق بهـا تحـت نظراتـه العابثـة. لعبـت معـه الـورق وراقبتـه وهـو يغـشّ ليسـمح لي بالفـوز أوّلا ثـمّ ليحتكـره لنفسـه في مرحلـة أخـرى. تعلّمـت معـه ركـوب الدّراجـة الهوائيّـة والتّدحـرج عـلى المـروج المعشوشـبة وتسـلّق الجبـال وخرجنـا في نزهـات جبليّـة لا تحـصى. أمسـكني مـن وسـطي وتركـني أتخبّـط بيـديّ وسـاقيّ في المـاء قبـل أن أتعلّـم السّـباحة وعاقبـني بصفعـة عـلى مؤخـرة رأسي في كلّ مـرّة نسـيت فيهـا صنبـور الميـاه مفتوحـا، أو لطّخـت ملابـسي بالوحـل، أو حطّمـت زجـاج النّافـذة بالكـرة.. أو ارتكبـت أيّـا مـن الحماقـات الكثـيرة الـتي يرتكبهـا الأطفـال.

ذاكـرتي زاخـرة بالمواقـف الـتي جمعتـني بوالـدي، رغـم رحيلـه عـنّي في وقـت باكـر، في ذلـك المشـهد المجلّـل بالعـار. خمسـة عـشر عامـا برفقتـه كانـت ممتعـة ومنهكـة ومربكـة، حـين أسـترجع التفاصيـل الـتي طفـت أحداثهـا إلى سـطح الذاكـرة. معظمهـا، بـل كلّهـا، كانـت بعـد سـنّ الرّابعـة. خلايـا الذّاكـرة في دماغـي لـم تسـجّل شـيئا يُذكـر في سـنواتي الأربـع الأولى. مـع أنّـني أتسـاءل بجـدّ إن كان دماغـي مثـالا قويمـا عـن كيفيّـة عمـل الأدمغـة العاديّـة. أليـس دماغـا متورّمـا؟ وربّمـا تكـون الأدمغـة القابلـة للتـورّم مختلفـة في تكوينهـا وأدائهـا عـن بقيّـة الأدمغـة منـذ البدايـة؟ أسـئلة غريبـة ومشـطّة في التعقيـد مـلأت رأسي تلـك الأيّـام. كلّهـا تـدور في فلـك فكـرة واحـدة: هـل سـتذكر عـنّي شـيئا حـين تكـبر؟

اتّخـذت خطـوة متهـوّرة في اليـوم التّـالي حـين دخلـت محـلّ أجهـزة إلكترونيّة وطلبـت أحـدث نمـاذج آلات التّصويـر الرّقميّـة! كنـت قـد عزمـت عـلى صنـع ذاكـرة «احتياطيّـة» تسـاعدك في تنشـيط ذكرياتـك عـنّي في مـا بعـد. لـم أضيّـع الوقـت، وبـدأت التّصويـر عـلى الفـور. كنـت أوقـف المـارّة في الشّـارع وأطلـب

facebook.com/groups/exchange.book

منهـم أن يلتقطـوا لي صـورا أمـام بعـض المبـاني، في محطّـة المـترو، أمـام نافـورة عموميّـة، إلى جـوار سـيّارة فاخـرة...

في غمـرة إقبـالي عـلى تزويـدك بذكريـات مسـتقبليّة، خطـرت ببـالي أمّـي الـتي مـا زالـت عـلى قيـد الحيـاة. إنّ مـن العسـير أن يرحـل والـدك ويـتركك يتيمـا، لكـن أن تـرى ولـدك اليافـع يرحـل قبلـك، فذلـك حتمـا ألـم لا يحتمـل. أقعيـت عـلى قارعـة الطريـق واسـتغرقني بـكاء مـرّ. طـوال حيـاتي كنـت سـبب قلـق لهـا، وحـين قـرّرت أن آخـذ الحيـاة عـلى محمـل الجـدّ وأصنـع شـيئا يُسـعد قلبهـا، كان المـرض لي بالمرصـاد. تذكّـرت عـددا مـن أولاد الجـيران أو الأقربـاء الذيـن جرّبـوا مثـلي الهجـرة الممنوعـة، ثـمّ عـادوا إلى ديارهـم محمّلـين في نعوشـهم. تذكّـرت ملامـح الأمّهـات المفجوعـات في فلـذات أكبادهـن، تذكّـرت الحـسرة واللوعـة في نحيبهـن المتقطّـع الصّاعـد مـن أعمـاق الأفئـدة.. ثـمّ تخيّلـت وجـه أمّـي وهـي تسـتقبل نعـي بعـد ستّة أشـهر مـن الآن. في تلـك اللّحظـة، اتّخذت قـرارا. لـن أسـمح لذلـك بالحصـول.

حـين دخلـت الشّـقة، جـاءني صـوت خطواتـك المتردّدة وأنـت تلقـي بنفسـك باتّجـاه البـاب لاسـتقبالي. أخذتـك بـين ذراعـيّ في حـبّ جـارف وقبّلتـك في لهفـة ثـمّ تفرّسـت في ملامحـك الباسـمة المنشرحـة كمـا لـم أفعـل مـن قبـل. ثـمّ التفـتّ إلى ديانـا الـتي كانـت متهلّلـة الأسـارير، كمـا هـي عـلى الـدّوام. رددت لهـا الابتسـامة بمثلهـا ثـمّ أعلنـت عـن المفاجـأة الـتي تدبّرتهـا عـلى الطّريـق:

- سآخذ إجازة ونستمتع بها معا.

هتفت ديانا غير مصدّقة:

- هل نذهب إلى الجزائر؟

تغضنت ملامحي وشاهت ابتسامتي وأنا أردّ في فتور :

- ليـس الآن، ربّمـا في وقـت لاحـق.. أمـا هـذه المـرّة، فسـنجوب أنحـاء باريس مثـل السـيّاح، ونأخـذ الكثـير مـن الصّور!

قلـت ذلـك وأنـا أخـرج آلـة التصويـر الجديـدة مـن مخبئهـا. أطلقـت ديانـا

facebook.com/groups/exchange.book

صيحـة مرحـة مثـل طفـل حظـي بلعبـة العيـد الـتي تمنّاهـا.

- إنّها تبدو غالية! كم دفعت ثمنا لها؟

- لا تهتمي لثمنها، لقد استحقّت كلّ سنتيم دفعته لقاءها.

لا أنـسى النّظـرة الـتي أطلّـت مـن عينيهـا آنـذاك. قـرأت فيهـا مزيجـا مـن الحـبّ والعتـاب. كنـت غالبـا مـا أرهـق نفـسي بالعمـل، وأحرمهـا مـن كثـير مـن الكماليـات في سـبيل تحصيـل المـال وتوفـيره. ولـئن كان إقدامـي عـلى اشـتراء جهـاز غـالي الثمـن يفاجئهـا ويربكهـا، فإنّهـا لا شـكّ ترتـاح لتـلاشي عقـدة المـال مـن ذهـني. تلـك العقـدة الـتي تمنعـني مـن الإقـدام عـلى إنفـاق أيّ مبلـغ مهما كان تافهـا إلا بعـد تقليـب الأمـر عـلى كلّ وجوهـه بشـكل يثـير غيظهـا. كنـت حريصـا في تعامـلاتي الماليّـة، وهـي كانـت تخـشى أن يتحـوّل محـور حيـاتي إلى جمـع المـال لا غـير. لذلـك، وإن بـدت عمليّـة الاشـتراء تلـك تبذيـرا لا مسـوّغ لـه، فإنّهـا تعتـبر نـزوة محمـودة في نظرهـا، لأنّهـا علامـة عـلى اسـترداد زوجهـا لصحّتـه الماليّـة وتوقّفـه عـن سياسـة التقتـير الـتي لا وجـوب لهـا.

لكنّهـا لـم تعلـم أنّ غمـرة الجـود الـتي حلّـت بي لـم تكـن نـزوة أو عابـرة، ففـي الأيـام القليلـة الـتي تلـت تلـك الوقفـة، رأت وجهـا جديـدا لزوجهـا. كمـا وعدتهـا، انطلـق ثلاثتنـا في جولـة باريسـيّة مرتجلـة، مثل سـيّاح يـزورون المدينة للمـرّة الأولى. لـم تكـن الرّحلـة منظّمـة أو محـدّدة المراحـل والخطـوات، بـل انطـلاق منـذ الصّبـاح وانتقـال تلقـائيّ مـن معلـم إلى آخـر، وتوقّفـات عشـوائيّة لتنـاول أكلـة خفيفـة أو مثلّجـات أو احتسـاء فنجـان قهـوة. الكثـير مـن الضّحـكات والنّظـرات المشرقـة، ومتعـة عارمـة لـك وأنـت تطعـم الحمـام في سـاحة «نوتـردام» وتـرشّ رذاذ المـاء علينـا في سـاحة «سـان ميشـال» وتركـب السـفينة السّـياحيّة عـلى نهـر السّـين.

في مسـاء اليـوم الثالـث، غبـت لسـاعة واحـدة بعـد أن أوصلتـك وأمّـك إلى الشـقة. ولمّـا كان التعـب قـد بلـغ منكمـا مبلغـا عظيمـا بعـد جـولات النهـار الخارقـة، فقـد غسّـلتك ديانـا وخلـدت وإيـاك إلى النّـوم عـلى الفـور، لذلـك

facebook.com/groups/exchange.book

لـم تلحـظ حركـتي وأنـا أتسـلّل عـلى أطـراف أصابعـي لأخفـي بـين ملابـسي تذاكـر السّـفر الـتي اقتنيتهـا للتـوّ.

مـرّ اليـوم الرّابـع مثـل سـابقيه، وبـدأت ديانـا تنتبـه إلى هـوسي المحمـوم بالتقـاط الصـور. كثـيرا مـا كانـت تشـدّ ذراعـي لأتوقّـف عـن التّصويـر وأعيـش اللحظـة الرّاهنـة. حـين أخـذت قطـرات المطـر المتفرّقـة في الهطـول، اقترحـت ديانـا إيقـاف النّزهـة والعـودة، لكنّـني كنـت مسـتمتعا بالرّكـض معـك عـبر ممـرّات حديقـة «التويلـري» والقفـز بـين البـرك الموحلـة بـبراءة تضاهـي بـراءة الأطفـال، بينمـا اكتفـت ديانـا بالضحـك وهـي ترقـب الولديـن اللذيـن كنّاهمـا يمرحـان تحـت زخّـات المطـر.

كان يومـا منهـكا كعـادة أيـاّم الإجـازة المتتاليـة، فتولّـت ديانـا جمـع الثيـاب المتّسـخة ووضعتهـا في آلـة الغسـيل ثـمّ حمّمتـك واسـتلقت إلى جـوارك في إعيـاء حـتّى غلبهـا النّعـاس. مـرّة أخـرى، تسـلّلت عـلى أطـراف أصابعـي إلى الخزانـة. اسـتخرجت تذاكـر السّـفر وأنـا أرقـب ديانـا النّائمـة مـن وراء كتفـي في حـذر، ثـمّ أخـذت أجمـع ثيـابي النظيفـة وثيابـك في حقيبـة متوسّـطة الحجـم. سـحبت الحقيبـة بهـدوء وتسـلّلت إلى الخـارج مجـدّدا.

- نادر، هذا أنت؟

كانـت الحركـة المطّـردة في الغرفـة قـد أخرجـت ديانـا مـن نومهـا. تقلّبـت عـلى جانبهـا وتثاءبـت ثـمّ اسـتندت عـلى كفيهـا محاولـة النهـوض. ظهـر رأسي مـن خـلال فتحـة البـاب وهمسـت مطمئنـا:

- عودي إلى النّوم يا عزيزتي، سأغسل أطرافي وآتي في الحال...

هــزّت رأســها وهــي تفــرك جفنيهــا المثقلــين بالنّعــاس، ثــمّ عــادت إلى الاسـتلقاء. انتظـرت خلـف البـاب لدقائـق طويلـة. راقبتهـا مـن طـرف خفـيّ وهـي تغفـو بالتّدريـج حـتّى اطمأننـت إلى انتظـام أنفاسـها المؤذنـة بانغماسـها في نـوم ثقيـل. عندئـذ، تحرّكـت بنفـس الخفّـة واقتربـت مـن السريـر الصّغـير. أبعـدت اللّحـاف عنـك وحملتـك بهـدوء بـين ذراعـيّ محـاذرا أن أوقظـك. رأيتـك

facebook.com/groups/exchange.book

تتمطّى وتتخبّط في انزعاج لمقاطعة نومك، فهدهدتك برفق ومسحت على رأسك حتّى سكنت حركتك. ابتعدت بهدوء في اتّجاه باب الشقة. كانت الحقيبة جاهزة هناك. أضفت إليها حذاءك ومعطفك، فلم أكن أريد أن أغامر بوضعهما عليك حينها لتجنّب استيقاظك في وقت غير ملائم، ثمّ ألقيت نظرة تفقديّة أخيرة على أوراق الهويّة وتذاكر السّفر، قبل أن أنسحب خارج الشقة وأنا أحملك نائما على كتفي بذراع وأسحب الحقيبة بالأخرى. هرولت بقدر المستطاع نحو الشارع الرّئيسي، حيث كان موقف سيّارات الأجرة.

حين استقرّ بي المقام أخيرا في السيّارة التي تطوي الأرض في اتّجاه مطار باريس شارل دو غول، تنهّدت في إعياء. أخرجت حبّة دواء مسكّن رميتها في فمي لأبتلعها من دون ماء، ثمّ غامت نظراتي بقطرات دمع أبت إلا أن تغالبني. ديانا، يا حبّ حياتي.. كيف ستشعرين حين تستيقظين صباحا لتجدي الشقة خالية؟

ثلاث إناث شكلن خارطة الوجع في غربتي. أمي التي ما جفّ الدّمع على خدّها منذ رحيلي، ديانا التي وثقت بي فسرقت بسمتها ووأدت فرحتها، وكارمن الصغيرة التي نسيتها، والنسيان في حقّها جريمة لا تغتفر.

facebook.com/groups/exchange.book

الأربعاء ١٩ ديسمبر ٢٠٣٥، الساعة الخامسة مساءً.

ترقرقت دمعة حارّة على وجنة ديانا. لم تمسحها، بل استمرّت تطالع ولدها في حنوّ. أخذ منها خليل الورقة الأخيرة من رسائل أبيه، قلّبها متفحّصا، يبحث عن بقيّة.. ثمّ رفع عينيه إليها ليهتف في صدمة:

- هرب بي إلى الجزائر؟ وكيف رجعت إلى فرنسا؟ كم عشت هناك؟

ابتسمت في صبر وأشارت إلى الرّزمة الثانية:

- هذا ما أحكيه لك في رسائلي.

آه، أخيرا جاء دور الرّسائل المكتوبة بلغة يفهمها! قلّب الرّزمة بين يديه مقيّما سمكها ودسامة محتواها. سيكون قد انتهى منها خلال ساعتين على الأكثر. رمى بفردتي حذائه واستلقى على الأريكة في وضعيّة أوفر راحة، ثمّ فكّ الشّريط الذي يجمع الرّسائل وشرع في القراءة. كانت ديانا تهمّ بدخول مطبخها لتحضير وجبة عشاء يتناولانها معا، للمرّة الرّابعة هذا الأسبوع، حين استوقفها خليل ليسأل في اهتمام:

- لم تقولي.. كيف تعلّمت العربيّة؟ أنت تقرأينها بسهولة وطلاقة!

ابتسمت في جذل، وذكريات قديمة تعبر مخيّلتها:

- ستعرف.. صبرك عليّ!

- إذن سيّدة ديانا.. دعينا نرى ماذا لديك لترويه.

facebook.com/groups/exchange.book

facebook.com/groups/exchange.book

الرزمة الثانية

رسائل ديانا روجيه

«الحنين، إنّه مثل مدّ جارف يغرق القلب فيملؤه إلى حافّته، فما يعود هناك متّسع لمشاعر أخرى.»

facebook.com/groups/exchange.book

facebook.com/groups/exchange.book

عزيزي خليل،

أذكـر نفـسي وأنـا أجلـس أمـام تلـك اللافتـة البغيضـة وقـد أضـاءت كلماتهـا بضـوء أخـضر مشـعّ. «غرفـة العمليّـات». كان نـادر قـد غـاب منذ سـاعات خلف البـاب المغلـق، ولـم يـأت أحـد ليطمئنـني عـلى مصـيره منـذ ذلـك الحـين. زوجـي. كلمـة غريبـة لـم آلفهـا بعـد. لا يتجـاوز عهـدي بهـا الأيـام المعـدودة، ولـم يتعـدَّ إحسـاسي بهـا تلـك الوقفـة القصـيرة أمـام ممثّـل البلديّـة والشّـيخ اللذيـن عقـدا قراننـا. منـذ ذلـك الحـين، تتالـت الأحـداث مريكـة مؤرقـة.

هـل كنـت أتصـوّر أنّ أحداثـا كتلـك قـد تقتحـم حيـاتي الهادئـة الرّتيبـة؟ لسـنوات طويلـة، حسـبت أن الإعاقـة الـتي اختارتـني مـن دون كلّ البنـات في سـنّي هـي أقـسى الأقـدار الـتي قـد تطالـني. كنـت منكفئـة عـلى ذاتي منغلقـة عـلى حيـاتي، أتجـرّع في كلّ يـوم مـرارة إحسـاسي بالعجـز وأنـدب الحـظ الـذي لـم ينصفـني بحرمـاني مـن الحركـة. كنـت مؤمنـة، مـع شيء مـن التمـرّد الـذي أتـوب عنـه كلّ مسـاء حـين أخلـو إلى أيقونـة العـذراء في غرفـتي.

لكنّـني تعرّفـت إلى نـادر.. الـذي قطـع المتوسّـط واجتـاز الأراضي الفرنسـيّة مـن جنوبهـا إلى شـمالها ليحـطّ مثـل طـير مهاجـر عنـد بـاب شـقّتي. كان قـد رأى بعينيـه الشـاردتين في شـهور قليلـة مـا يكفـي لعمـري كلّـه. نجـا مـن المـوت غرقـا، وعـاش بـين المتشرّديـن واللّصـوص لأسـابيع، ثـمّ انخـرط مـع جماعـة إرهابيّـة مـن دون علمـه لينتهـي بـه الأمـر وراء القضبـان.. قبـل أن يكتشـف الأطبـاء إدمانـه، ويقـرّروا اسـتخراج رصاصـة تسـكن رأسـه منـذ سـتة عـشر عاما! ذلـك هـو زوجـي. تلـك الخلطـة العجيبـة مـن المـآسي كانـت قـدره، وسـتصبح منـذ ذلـك اليـوم قـدري.

كان نـادر متخوّفـا مـن العمليّـة، وقـد دفعتـه إليها متظاهـرة بالجلـد والثّبات.

facebook.com/groups/exchange.book

مـن حقّـه أن يخـاف، فاحتمـالات النّجـاح كانـت واهيـة. ونتائـج مـن قبيـل فقـدان البـصر أو نزيـف الدّمـاغ أو الشـلل الرّباعـي كانـت ماثلـة أمـام عينـيّ وأنـا أقـول مشـجعة: سـتكون بخـير! لقـد أوضـح الطّبيـب أنّـه لا خيـار أمامـه غـير المجازفـة. لأنّ الرّصاصـة عـدوّ داخـليّ متربّـص بـه. وقـد تُنهـي حياتـه في أيّ لحظـة، وهـو في غفلـة عـن أفاعيلهـا. أوَليـس هـذا مـا تفعلـه الرّصاصـات في كلّ الأحـوال؟

لذلـك، حـين اسـتمرّت غيبوبتـه تلـك سـاعات طويلـة، اسـتبدّ بي الجـزع. رأيتـني أحمـل لقـب الأرملـة وأنـا بعـدُ لـم أعـرف كيـف أكـون زوجـة! وإن كان تفكـيري بنفـسي ضربـا مـن الأنانيّـة، فهـو -رغـم ذلـك- التفكـير المنطقـيّ الـذي نخفيـه في لاوعينـا. وقـد كنـت صادقـة مـع نفـسي حـين عالجـت السـؤال بوعـي كامـل. أوَليـس مـا يؤرقنـا حـين رحيـل الأحبّـة هـو كيـف سـتكون حياتنـا مـن بعدهـم؟ لا أحـد يـدري كيـف سـيلاقيهم الـرّبّ بعـد مماتهـم، هـل إلى عـذاب أم إلى نعيـم؟ ومـع أنّي اعتقـدت أنّ نـادرا قـد لاق مـن العـذاب في الدّنيـا مـا يسـتحقّ رأفـة الـربّ في الآخـرة، فـإنّي كنـت عـلى ثقـة بـأنّ أمـري مـن بعـده لـن يشـغله. حالمـا ترحـل روحـه عـن جسـده الفـاني، فسـينسى أنّـه قـد تـزوّج امـرأة تدعـى ديانـا وخلّفهـا أرملـة بعـد زواج قصـير لـم تكـن لـه مـن فائـدة غـير حصولـه عـلى تغطيـة صحيّـة تسـمح بعلاجـه عـلى نفقـة الصّنـدوق الاجتماعـي! لذلـك رأيتـني أركـن إلى بـكاء مريـر، أنعـى نفـسي قبـل زوجـي.

لبـث نـادر في غرفـة العنايـة المركّـزة. ولـم يكـن يُسـمح لي بتجـاوز عتبتهـا. كنـت أراه مـن خلـف الزّجـاج راقـدا بـلا حركـة. وأزيـز منتظـم يصدر عـن الآلات الـتي تراقـب مؤشراتـه الحيويّـة. في تلـك الجلسـة الكئيبـة، تفكّـرت، مـا الـذي جعلـني أوافـق عـلى هـذا الـزّواج؟ بغـضّ النظـر عـن سـيرته الغريبـة ومغامراتـه الاسـتثنائيّة، فقـد كان نـادر شـخصا هادئـا، بـل خجـولا. وكان في نظراتـه شيء مـن البراءة. هـل تصـدّق أنّ حاويـا يخاطـب الجـنّ قـد يبـدو بريئـا؟ لـم يكـن كذلـك وهـو يمثّـل دور المشـعوذ. لكـن حـين جـاء إلى شـقّتنا وقـد نـزع عنـه القنـاع، لمحـت في عينيـه صدقـا ووجعـا.. وأحسسـت ناحيتـه بألفـة غريبـة،

facebook.com/groups/exchange.book

وأنا لم آلف أحدا غير نفسي لسنوات طويلة!

هل تؤمن بشيء اسمه توأمة الأرواح؟ لم أكن أؤمن بها سابقا. ولست أؤمن بها صراحة اليوم أيضا. لكنّني تساءلت حين سمعت منه قصّته، إن كان هذا الرّجل الغريب توأم روحي الذي ساقته إليّ أقدار غريبة من بلاد غريبة؟ وتزايد ذلك الإحساس بداخلي حين تكلّمت المحامية عن الزّواج الأبيض لتصحيح وضعه القانونيّ. كان هاتف في داخلي يقول في إلحاح: هذا قدرك. ورغم أنّ الموضوع لم يرق لأمّي بتاتا، فقد وجدتني أصرّ، كأنّني نبيّ قد عثر على رسالته أخيرا! فكان يجب أن أمضي في الطريق إلى نهايته. كأنّ أخذي هذا العبء على عاتقي كان من شأنه أن ينقي روحي ممّا شابها في ماضٍ قريب، من أحاسيس سخط وعدم رضا بنصيبي من الآلام. بل إنّني وجدت العزيمة لأستأنف العلاج الطبيعي، واستجابت له ساقاي أفضل من السّابق! ألم تكن تلك إشارات واضحة؟

حين فتح عينيه، كنت قربه. حرصت على أن تكون ابتسامتي أوّل ما تقع عليه نظراته عند استيقاظه. كنت متفانية في أداء مهمّتي، وقد أسبغت عليها صبغة الرّسالة السّامية. الدّهشة الجميلة في عينيه أوحت بأنّه يرى ويعي. وحركة يده نفت شبهة الشلل الرّباعيّ. واكتنفني زهوّ لا مثيل له، كأنّ المعجزة من صنيعي! أو أنّ الربّ كان يكافئني على قبولي بالمهمّة بحفظه هذا الرّجل من التّلف! ولعلّه لو انتهى كفيفا أو مشلولا أو حتّى ذا إعاقة ذهنيّة، لكنت تقبّلت الأمر بحفاوة أيضا. أوَليست قيمة النّجاح تزيد بارتفاع مستوى التّحدّي؟ لكنّني شكرت الربّ لرأفته بفتاة ضعيفة مثلي، كان ذلك أوّل عهدها بالاختبارات الربّانيّة. ومع ذلك، فقد كنت لأجزع حقّا، لو أنّ نادرا قضى نحبه في ذلك التوقيت. كان ذلك ليعني عدم قبول الربّ لرغبتي في التطهّر. فكأنّما سحب مني طوق النّجاة لأعود إلى عزلتي وعزوفي عن الحياة.

تماثل نادر للشفاء بشكل سريع. وكانت معجزة شفائه -التي ما فتئ الأطباء يذكروننا بها في كل زيارة- تغمرني ببهجة لا حدود لها، وبامتنان

facebook.com/groups/exchange.book

للـربّ الـذي أهـداني مهمّـة ووضعـني عـلى الطريـق الصّحيـح. فأتفـانى في إرضـاء زوجـي وفي رسـم الابتسـامة عـلى وجهـه. وكانـت أمّـي الـتي أمضـت حياتهـا قلقـة بشـأني، ترمقـني بعـين الرّضـا. أمّـا الرّصاصـة، فقـد وضعتهـا في إطـار فـضيّ وعلّقتهـا في غرفـة المعيشـة، حيـث سـتكون نصـب أعيننـا طـوال النّهـار، ويمكـن لزوّارنـا أن يلقـوا عليهـا نظـرة، ويأخـذوا منهـا العـبرة، ويشـاركونا امتناننـا وسـعادتنا. وكانـت تلـك الحفـاوة بالرّصاصـة تزعـج نـادرا، إذ إنّـه لـم يكـن يـرى الابتـلاء بالعـين الـتي أراه بهـا. وكان يزيـح الإطـار عـن مكانـه ويخفيـه في أحـد الأدراج أو فـوق الخزانـة -حيـث لا يمكـن أن أصـل إليه-لكنّـني مـا ألبـث أن أتمكّـن مـن إيجـاده، بمفـردي أو بمسـاعدة صبيـة مـن الجـيران، وأعيـده إلى مكانـه. فـأرى نظـرة ضيـق في عينيـه حـين يرجـع مـن عملـه ويجـده متصـدّرا الجـدار! وقـد انتهـى إلى التسـليم بعـد أن غلـب إصراري عنـاده الطّفـولي.

ثمّ حصل ما تمنيّته وخشيته أكثر من أيّ شيء في الدنيا.. حبلت بك.

كان مـن الممكـن أن أواصـل رحلـة التطهّـر -كمـا كنـت أراهـا- إلى أمـد طويـل، لـو لـم تشرّفـني بحضـورك، وملئـك عالمـي. فقـد كان النّجـاح اللاّمـع في اختبارين متزامنـين وعـلى قـدر مـن الأهميّـة والصّعوبـة، أمـرا عسـيرا. وقـد أصابـني فتـور تجـاه أشـياء كثـيرة، منـذ بـدأت أشـعر بحركـة أطرافـك الصغـيرة داخـلي، تـركل وتـضرب وتدغـدغ، لينصـبّ اهتمامـي كلّـه عليـك وحـدك. بـدأت أفكّـر حينهـا بأنّـني قـد فعلـت مـا بوسـعي في المهمّـة الأولى، وأنّ الخطّـة الـتي اختارهـا الـربّ لي تقتـضي أن أنتبـه لمهمّـتي الجديـدة. في الحقيقـة، كنـت أفـسّر مشـيئة الـربّ عـلى هـواي، وأختـار الرّسـالة الـتي تسـتهويني! وقـد كان الاهتمـام بنـادر أمـرا قـد وافـق هـوى الفتـاة اليافعـة مشـبوبة العاطفـة، الـتي لـم تعرف قبـل كيـف تكـون علاقـة الذكـر بالأنـثى.. إلا مـن القصـص والأفـلام. والآن جـاء دور المـرأة النّاضجـة المحترقـة شـوقا لغريـزة الأمومـة. وإضفـاء صبغـة القداسـة عـلى كلّ مـا أفعلـه، كان مـن قبيـل إرضـاء نزعـة دينيّـة بداخـلي مـرّت بفـترة تزعـزع وارتبـاك، وقـد سـاعد ذاك الانهمـاك والتفـاني عـلى ترميمهـا. فـإذا مـا وقفـت مسـاءً أمـام أيقونـة العـذراء، كان بإمـكاني أن أشـكر الـربّ صادقـة

facebook.com/groups/exchange.book

عـلى الفرصـة الـتي مُنحتهـا، وعـلى النّعـم الـتي حظيـت بهـا.. بعـد أن كانـت كلمـاتي لسـنوات خلـت جوفـاء مهـتّزة.

حاولـت أن أكـون لـك الأمّ المثاليـة منـذ لحظاتـك الأولى. رغـم تعـب الوضـع وآلامـه، فقـد حرصـت عـلى أن أهتـمّ بشـؤونك جميعهـا باذلـة طاقـتي كلّهـا، تحـت نظـرات نـادر القلقـة. فـإذا مـا أغمضـت عينيـك للنّـوم، تهالكـت إلى جـوارك وقـد أخـذ مـنّي الإرهـاق مأخـذا عظيمـا. وكـم كان يصيبـني الفـزع حـين أفتـح عيـنيّ فجـأة فـلا أجـدك إلى جـواري! فقـد كان نـادر يحملـك إلى سريـرك بينمـا أغـطّ في النّـوم، لأنّـه يخـشى أن تختنـق إذا مـا ألقيـت عليـك ثقـل ذراعـي مـن دون أن أشـعر. وكان موقفـه ذلـك يخلّـف في صـدري ضيقـا ووجعـا. فقـد كنـت أقـف عـلى علامـات اهـتزاز ثقتـه بي.

كانـت كلمـات نـادر وتصرّفاتـه تنكـت في صفحـة قلـبي بحـبر أسـود، وأنـا الـتي أمضيـت شـهورا أمحـو مـا علاهـا مـن أدران وأعيـد بياضهـا نقيّـا. ولـم يكـن هنـاك إلا احتمـال مـن اثنـين، فإمّـا أن يتحـوّل ذلـك السّـواد إلى مشـاعر قاتمـة تجاهـه.. وإمّـا أن تنهـار ثقـتي بنفـسي وبرسـالتي، فأتحمّـل وحـدي تبعـات الهزيمـة. وقـد كنـت أختـار أحـد الخيارين كلّمـا أثقـل روحـي حملهـا، ولـم أنحـز إلى أحدهمـا بشـكل نهـائيّ! كنـت ألـوم نفـسي وأقرّعهـا، حـين أجـد عـذرا لخوفـه وقلقـه.. وكنـت أبغضـه كلّمـا بالـغ في ردّ فعلـه تجـاه هفـواتي الصّغـيرة الـتي لا تسـتحقّ ثورتـه. لكنّـه غالبـا مـا يرجـع ويعتـذر ويطلـب الصّفـح، فأعيـد إلى رصيـده في قلـبي مـا سـبق وسـحبته وقـت السّـخط عليـه.

اسـتمرّت حياتنـا نحـن الثلاثـة عـلى هـذا النّحـو، مراوحـة بـين الهنـاء والتّعاسـة. لا هـي سـعادة صافيـة ولا شـقاء صرف. ولكـن ولـدان كبـيران يتعلّمـان كيـف يواجهـان الحيـاة عـلى علّاتهـا، وولـد صغـير بينهمـا يتحمّـل نزواتهمـا ومناقراتهمـا ويأخـذه المـوج في مدّهمـا ويعيـده مكانـه في جزرهمـا. لكنّـني أحسـب أنّـك كنـت طفـلا سـعيدا.. فقـد كنـت كثـير الابتسـام، منطلـق السّريـرة. ورغـم الغيـوم الـتي تلبّـدت في سـماء حياتنـا المشـتركة كزوجـين، فـإنّ أحدنـا لـم يفكّـر يومـا إلا في مصلحتـك.. لذلـك فقـد كانـت أمطـار الغضـب

facebook.com/groups/exchange.book

والحـزن تـنزل عـلى تربـة محايـدة. فيـترك والـدك الشـقّة لسـاعة أو بعضهـا ويرجـع بعـد أن يكـون قـد نفّـس عـن ضيقـه. وقـد أنعـزل في غرفـتي للصـلاّة والبـكاء بهـدوء، وأخـرج وقـد عـادت إليّ السّـكينة، فأتلقـاك بـين ذراعـيّ بابتسـامة صافيـة، كأنّ حزنـا لـم يكـن.

لكـن في الأيّـام الأخـيرة الـتي جمعتنـا في باريـس، بـدا نـادر مهمومـا وشـاردا معظـم الوقـت. بـدأ كلّ شيء حـين رجـع يومـا مـن عملـه مبكّـرا عـلى غـير العـادة، وقـال إنّـه مرهـق. ربّمـا أكـون قـد أبديـت قلقـا مبالغـا فيـه، فهـو قـد انتظـم في مواعيـد العـودة مـن العمـل في الأيّـام الـتي تلـت.. لكنّـني لحظتـه ذات مـرّة مـن نافـذة الشّـقة، جالسـا في موقـف الحافـلات، ينتظـر أن يحـين وقـت رجوعـه ليدخـل الشـقّة! أيقنـت حينهـا أنّ أمـرا ذا بـال يشـغله.

أعملـت تفكـيري وقتلـت الأمـر بحثـا، حـتّى اسـتنتجت أنـه اشـتياق إلى عائلتـه في الجزائـر! الحنـين، إنّـه مثـل مـدّ جـارف يغـرق القلـب فيملـؤه إلى حافّتـه، فما يعـود هنـاك متّسـع لمشـاعر أخـرى. فأخـذت أحثّـه عـلى السّـفر.

كانـت ملامحـه تتجهّـم كلّمـا جئـت عـلى ذكـر السّـفر، ويرفـض بغلظـة. ثـمّ يغـيّر الموضـوع ويشـغلني بأحاديـث جانبيّـة. حـتّى جـاء يـوم بـدا فيـه أنّ غمامـة الحـزن قـد انقشـعت وابتسـمت عينـاه ببريـق ذكّـرني بنظرتـه يـوم عقـد قراننـا! ولعلّـه كان حينهـا قـد عقـد العـزم عـلى مـا نفّـذه بعـد ذلـك. فقـد عـاد بعـد أيّـام قليلـة أخـرى وبـين يديـه «آلـة صنـع الذكريـات» تلـك. كان والـدك ينـوي أن يلقـي بي بعيـدا، بعـد أن يكـون قـد سـجّل ابتسـامتي وملامحـي الطلقـة في صـور! هـل تـراه يكـون مرتـاح الضمـير إذا مـا طالعتُـه مبتسـمة في الصـور الـتي يحتفـظ بهـا؟

في تلـك الأيّـام، لـم أعـر اهتمامـا مسـحة الانكسـار الـتي ضبطتهـا أكـثر مـن مـرّة في نظرتـه إليّ. كلّمـا بادلتـه النظـرة نـأى عـنّي كأنّمـا تدفـع عينـاي عينيـه، بقـوّة طـرد مغناطسـيّة، مثـل قطبـين متماثـلي الشـحنة. لكنّـه يمـوّه أفـكاره بانشـغاله معـك، يرفعـك ويقفـز وإيّـاك ويجـري ويـدور حولـك ويمسـك بكفّك

facebook.com/groups/exchange.book

ثـمّ يدفعـك عـلى الأرجوحـة. فأنـسى، وتـروح عـنّي لحظـة الشـكّ العابـرة.

في ذلـك الصّبـاح المشـؤوم، اسـتيقظت بعـد ليلـة نـوم هادئـة لـم يتخللهـا إزعـاج. كنـت قـد اعتـدت النّـوم المتقطـع مـن أجـل تلبيـة حاجاتـك الليليـة، لذلـك فقـد كانـت تلـك الليلـة المريحة مثـيرة للريبـة. بعينـين ناعسـتين، حاولت تميـيز مكانـك عـلى السريـر الكبـير إلى جـواري. مـددت ذراعـي وتحسّسـت الفـراش البـارد. تملّكـني فـزع مفاجـئ طـرد النـوم مـن جفنـيّ. اسـتويت جالسـة وتفرّسـت في الغرفـة مـن حـولي في خـوف. لـم يعـد أبـوك ينقلـك إلى سريـرك منـذ فـترة، فقـد كـبرت وامتـلأ جسـمك ولـم يعـد يخـشى عليـك مـن بنيـتي الهزيلـة. ففكـرت أنـك قـد تكـون سـقطت مـن السريـر. وكيـف تسـقط ولا تبـكى؟ زحفـت بـكلّ طاقـتي في اتجـاه طـرف السريـر الآخـر وانحنيـت عـلى الأرض، لكنّـك لـم تكـن هنـاك. تنهّـدتُ وقـد ذهـب عـنّي الذعـر. فكّـرت أنّـك لا شـكّ في المطبـخ مـع والـدك، أو تشـاهد برامـج الأطفـال في غرفـة المعيشـة.

قرّبـت الكـرسيّ المتحـرّك وانتقلـت إليـه برشـاقة، بحكـم التّعـوّد، ثـمّ دفعـت العجـلات لألقـي نظـرة في أرجـاء الشـقة. بعـد جولـة تفقّديّـة طبيعيّـة في البدايـة، جبـت المـكان مـرّات ومـرّات بسرعـة محمومـة وأنـا أبحـث عـن رَجُليَّ اللذيـن اختفيـا فجـأة مـن دون إعلامـي. أمسـكت هاتفـي واتصلـت برقـم نـادر. انتظـرت للحظـات في توتّـر ونبضـاتي تتهافـت في نسـق مرتفـع. لـم يكـن هنـاك ردّ. اتّصلـتُ بضـع مـرّات أخـرى قبـل أن أستسـلم. فكّـرت في كلّ الاحتمـالات.. هـل يكـون نـادر أخـذك إلى سـاحة اللعـب مثـلا، ولـم يشـأ أن يزعـج نومـي؟ إنّ التّغيـيرات الـتي طـرأت عـلى سـلوكه في الأيّـام الأخـيرة جعلتـني أتوقّـع منـه أيّ شيء. كان منطلقـا ومتحمّسـا، وربّمـا لـم يـرد تفويـت النّهـار في النّـوم فتـصرّف بمـا أمـلاه عليـه نزقـه المجنـون؟ وضوضـاء الشـارع قـد لا تسـمح لـه بسـماع رنـين الهاتـف الـذي كثـيرا مـا ينسـاه عـلى الوضـع الصامـت.

اطمأننـت إلى تلـك الفكـرة واسـترخيت بعـض الـشيء. تنقّلـت بـين غـرف الشّـقة أحـاول أن أشـغل نفـسي بـأيّ شيء عـن الإحسـاس الغريـب المتشـائم الـذي يشـوب اطمئنـاني. بعـد نصـف سـاعة، حاولـت الاتصـال مجـدّدا مـن

facebook.com/groups/exchange.book

دون جـدوى. لـم أسـتطع منـع نفـسي مـن مراقبـة السّـاعة الـتي بـدت لي بطيئـة العقـارب بشـكل مزعـج ذلـك الصّبـاح. حـين أشـارت السّـاعة إلى الحاديـة عـشرة، كانـت العـبرات تطفـر مـن عيـنيّ مـن دون شـعور. حـدس مفاجـئ، جعلـني أهـرول إلى غرفـة نومـي لأتفقّـد خزانـة الملابـس. عـلى الفـور، لاحظـت الحقيبـة النّاقصـة. تملّكـني الهلـع وأنـا أفتـح الأدراج وأعايـن محتوياتهـا. لـم يكـن هنـاك شـكّ.. اختفـت ملابـس وحاجيـات كثـيرة! لا يمكـن أن يحتـاج كلّ تلـك الثيـاب مـن أجـل نزهـة بالخـارج!

عـاد الشـعور المتشـائم ليكتسـح السّـاحة ويفـرض سـيطرته. كان هنـاك شيء مـا خطـأ! حاولـت الاتصـال مـرّات أخـرى في عصبيّـة وجنـون هـذه المـرّة، مـن دون أن تختلـف النّتيجـة. وبينمـا كنـت أذرع مسـاحات الشـقة كاللبـؤة الجريحـة، كان تسـاؤل مـرّ وممـضّ يتنامـى في داخـلي. مـا الـذي حصـل فجـأة؟ مـا الـذي تغـيّر منـذ الأمـس؟ مـا الجـرم الـذي اقترفتـه في حـقّ نـادر حـتّى أستحقّ عليـه العقـاب؟ لـم يكـن العقـاب واضحـا في ذهني حـتّى تلـك اللّحظة، لكنّـني أعاقـب عـلى أيّ حـال بـتركي لقمـة سـائغة للحـيرة، والهواجـس تنهشـني. حـتّى لـو رأيتـه يدخـل عـليّ آخـر النّهـار كأنّ شـيئا لـم يكـن، حـتّى لـو كان قـد انـصرف إلى لهـو بـريء معـك ونـسي أن يضعـني في الصّـورة، حـتّى لـو لـم يكـن اختفـاؤه الغامـض مقصـودا أو مدبّـرا.. فإنّـني لـن أسـامحه، لـن أسـامحه أبـدا عـلى لحظـات العجـز والقهـر الـتي عرفتهـا طيلـة انتظـاري المريـر.

حـين تـوارت الشّـمس في الأفـق مؤذنـة بالمغيـب، أصبحـت الحقيقـة ناصعـة الوضـوح أمام عيـنيّ.

لن يعود.

facebook.com/groups/exchange.book

عزيزي خليل،

مؤلـم للغايـة، أنّ تحـلّ بـك مصيبـة، ولا تـدري بمـن يمكنـك الاتّصـال.. أو ممّـن يمكنـك تلقـي المواسـاة.

كانـت أمّـي قـد تقدّمـت في السـنّ وأنهكهـا المـرض. ضغـط وقلـب وسـكّري. وخـبر مـن هـذا النـوع قـد يفعـل بهـا الأفاعيـل. لذلـك آثـرت أن أكتـم عنهـا فـرار والـدك بـك، حـتّى يكتمـل عنـدي الفهـم.. فأضبـط الكلمـات الـتي أنقـل بهـا الخـبر، وقـد تماسـكتُ وسـيطرتُ عـلى شـتات روحي، فـلا تنفعـل لانفعالي.

مـن حسـن الحـظّ أو التّدبـير.. أو كليهمـا معـا، كنـت قـد احتفظـت برقـم الأسـتاذة رنيـم شـاكر. عـلى الهاتـف، أفضيـت إليهـا بمـا وسـعني مـن رباطـة جـأش بمـا ألـمّ بي. رغـم وقـت المكالمـة المتأخـر، فقـد اسـتمعت إليّ في انتبـاه ومـن دون مقاطعـة، ثـمّ قالـت:

- سأتحرّى عن الأمر وأعاود الاتّصال بك.

انتظـرت تلـك الليلـة متقلّبـة عـلى جمـر متّقـد، وأنـا أعلـم يقينـا ألّا شيء يمكـن عملـه قبـل بـزوغ نهـار يـوم جديـد. عـلى السّـاعة العـاشرة والنصـف مـن صبـاح اليـوم التـالي، وردني اتّصالهـا:

- إنّهـا عمليّـة اختطـاف واضحـة. اتّصلـت بالبنـك، فتبـيّن أنّـه قـد قـام بسـحب كامـل مدّخراتـه منـذ يومـين. طلبـت مـن بعـض معـارفي في شرطـة الحـدود التأكّـد مـن سـفره خـارج البـلاد.. أنتظـر أن يأتيـني الخـبر بـين لحظـة وأخـرى. سـيكون عليـك مرافقـتي للتّبليـغ عـن عمليّـة الاختطـاف...

قاطعتها في وجوم:

- لا.. لا أريد أن أبلّغ.

facebook.com/groups/exchange.book

صمتت برهة، ثمّ عادت تقول:

- بـأيّ حـال، بمـا أنّ المختطـف هـو الأب، ولـم يحصـل طـلاق أو خـلاف عـلى الحضانـة ومـا إلى ذلـك، فـإنّ الشّرطـة لـن تأخـذ البـلاغ عـلى محمـل الجـدّ قبـل بعـض الوقـت...

تنهّـدتُ، غـير قـادرة عـلى التّنفـس بشـكل طبيعـيّ، وثقـل صخـرة صمّـاء عظيمـة يجثـم عـلى صـدري. حاولـتُ أن أقـول شـيئا، لكنّـني لـم أعـرف. فاندفعـت أبـكي وأكتـم شـهقاتي. كنـت في حاجـة إلى المواسـاة. إلى كتـف تحتـوي ألمـي. سـمعتُ الأسـتاذة رنيـم تقـول كلمـات عـزاء مرتجلـة، كانـت مرتبكـة بدورهـا. ثـمّ توقّفـتُ عـن البـكاء، وقلـت بصـوت متماسـك تشـوبه بحّـة:

- ماذا سنفعل الآن؟

- إن كان قد سافر إلى الجزائر.. فإنّ القانون الفرنسيّ لن يطاله..

- قلت إنّني لن أبلّغ!

عانـدتُ مـن دون توضيـح. وفي اللحظـة نفسـها، تفتّـق ذهـني عـن فكـرة جنونيّـة لـم أكـن قـد وفيتهـا حقّهـا مـن التقليـب والتمحيـص. هتفـت بلهجـة الـ«يوريـكا».. وجدتهـا!

- نسافر إلى الجزائر!

- نسافر؟

- نعم، أنا وأنت!

كنـتُ أطلـب ببسـاطة مـن المحاميـة أن تـترك أشـغالها وموكّليهـا وقضاياهـا، وتسـافر برفقـتي في رحلـة مجهولـة العواقـب. كان عـليّ أن أضـع عـلى طاولـة المفاوضـات مبلغـا يغطّـي الأتعـاب، ولـم أكـن أعلـم كـم سـيكون كافيـا. قلـت متلجلجـة:

- لقـد حافظـت عـلى مـيراثي.. لـم أصرف منـه شـيئا بعـد.. سـأدفعه كلّـه إذا اقتـضى الأمـر مـن أجـل هـذه الرّحلـة!

facebook.com/groups/exchange.book

تريّثت قبل أن تقول في هدوء:

- احتفظي بميراثك.. ودعيني أفكّر في الأمر.

لم أتوقّع أن تتصّل بي مساء اليوم ذاته لتبدأ كلامها قائلة:

- سنكون كمن يبحث عن إبرة في كومة قشّ!

سألتها غير مصدّقة:

- أنت موافقة؟

- لقد تأكّد لي أنّه سافر برفقة خليل مساء الأحد. تمكّنت أيضا من الاطلاع على نسخ من وثائقه الرّسميّة.. ونقطة البدء الوحيدة المتوافرة هي مكان ولادته! وكلّما تأخّرنا في اقتفاء أثره، تزايدت فرصه في الاختباء والتّواري عن الأعين. متى تريدين أن نسافر؟

عدت إلى الصّفحات الأولى التي خططتها وهممت بتمزيقها. ما الذي تحاول أمك المسكينة إثباته؟ هل أكذب عليك أم على نفسي؟ رسمت لك حكايتي كما أتمنّى لو أنّها كانت. كسوت زواجي برداء القداسة لأنكر مشاعر نبض بها قلبي يوما تجاه رجل غدر بي. وهل يكفي أن ننكر شيئا ما لنغيّر حقيقته؟ هل تمحو كلمات أصرّح بها بعد سنتين واقعا أصبح في حكم الماضي وتعدّله؟ غالبا ما يدوّن الجانب المنتصر التاريخ ويخطّ ما يناسب هواه، لكنّني بعيدة عن مركز المنتصرين.. فإن لم أتمكّن من تزييف الأحداث، فإنّ مشاعري هي كلّ ما تبقى تحت إمرتي!

لكن كيف أكذب عليك يا ولدي؟ لماذا يكون إرثك منّي زيفا ووهما؟ إذن فلتعلم أنّني لم أكن تلك المرأة التي ادّعيت. لم أكن مدفوعة بإيمان نقيّ ولا بعاطفة تطهّر سامية. كنت شابّة سقيمة القلب والرّوح،

facebook.com/groups/exchange.book

وقد أظلّني والدك تحت جناحه وبثّ فيّ من دفئه حتّى شفيت. همت به غراما، وكان أوّل رجل أوسع له مساحة في وجداني وحياتي. لكنّني تمنّيت لو أنني لم أفعل. تمنّيت لو أنّه لم يفعل. أتمنّى أن يرجع أحدنا عن فعله. فإمّا يرجع بي الزّمان إلى الوراء فلا أحبّه ولا أتعلّق به. وإمّا يرجع به الزّمان إلى الوراء فلا يهجرني. أمّا الفعلان مجتمعان فقاتلان.

حتّى اللحظة الفاصلة، لم أخبر أمّي بالحقيقة كاملة. قلت إنّ نادرا سافر على حين غرّة بعد أن بلغه مرض والدته، واصطحبك معه. بينما تخلّفتُ لأنّ جواز سفري كان منتهي الصّلاحيّة. كانت نصف الحقيقة، فقد كان جوازي قيد التّجديد بالفعل، واضطررت إلى تأجيل الخطّة بضعة أيّام.

وخلال تلك الأيّام الكئيبة التي سبقت الرّحيل، اجتررت إحساسا مقيتا بالهجر والنبذ، وأنا أدفع بعجلات الكرسيّ ببطء، أعبر مساحات الشقّة الهادئة جيئة وذهابا. حقيبة السفر مشرعة وسط غرفة نومي، أضع قطعة ثمّ أسحب أخرى. أفعل ذلك بتأنّ وتريّث. أطيل فترة انشغالي حتى أمتنع عن التفكير. بعد يومين سأحلّق لألقاهما. أعدّل. سألحق بهما إلى تلك الأرض المجهولة، لكنّني قد لا أراهما قبل مرور بعض الوقت. ساعات، أو أيام. لا أدري. كلّه رهن إرادة نادر.

لم أعد أتساءل لماذا هجرني نادر فجأة. فقد كانت حياتي مثل الأرض القفار التي لا يواطنها بشر، فلماذا يكون نادر استثناءً؟ سلّمت بأنّ الأمر مقدّر لا محالة، لكنّ جلّ ما آلمني هو أنّني لم أقرأ بوادر تغيّره قبل فوات الأوان. كان يجب أن أعلم.

لكنّ العزاء الحقيقي كان في غياب القلق من أجلك. كنت أعلم أنّك تحبّ صحبة والدك، ونادر يهتمّ بشؤونك أكثر من أيّ شخص آخر. لم تكن تفارق ظلّه ما دام موجودا في الشقة. ما عدا الحمّام والأكل وتغيير الحفظات، لم يكن وجودي يشكّل فرقا. ألوك تلك الأفكار القاتمة من

facebook.com/groups/exchange.book

دون رحمة بنفسي. فكّرت للحظة أنّك ستكون بخير بعيدا عني. سيكون نادر أهنأ بالا بشأن سلامتك ما دمت في منأى عن حركاتي الخرقاء. لكن أنا، هل سأكون بخير بعيدا عنك؟ كيف سيكون لحياتي معنى، بعيدا عن المخلوق الصغير الذي يكمّل نقصي ويغطي عجزي؟ معجزة الحياة التي خلقت في رحمي وأغرتني بالإقبال على الدنيا بأمل وتفاؤل. عشت أمومتي لك مثل حلم ورديّ البتلات مزدانٍ بالخضرة، أقبض على تلابيبه بكلّ قوّتي حتّى لا يتلاشى كالأوهام. لكنّني أفقت بعد سنة واحدة من السّعادة المؤقتة لأدرك أنّ حلمي كان أجمل من أن يكون حقيقة خالصة.

أعلم أنك ستسلوني خلال وقت قصير. تبكي في الأيام الأولى بقوّة وتنادي «ماما» التي ما كدت تتعلّم نطقها، ثمّ سرعان ما تتأقلم مع وضعك الجديد. الأطفال ينسون بسرعة. يحبّون بسرعة ويتعلّقون بسرعة. لكن ماذا عنّي؟ لن يمرّ عليّ يوم واحد لا تسافر فيه أفكاري إليك. لن تمرّ ساعة واحدة. دقيقة واحدة. لا تكون فيها أنت محور اهتمامي. ستكون في ذهني طوال الوقت. ليتني أكون بذاكرة طفل. بل لا، فلتبق في ذاكرتي إلى الأبد.. حتّى لو كان قدري ألا أراك بعدُ أبدا.

أعود إلى حقيبتي. أقلّب محتوياتها مرّة أخرى. لستُ في حاجة إلى متاع كثير. أسبوع أو أسبوعان على أقصى تقدير هي المدّة المقرّرة للرّحلة. أزفر طاردة ضيق نفسي وأفتح خزانتي. مرّة أخرى. تهاجمني نزعة أمومة جارفة، فأضع حاجياتي جانبا وأعوّضها بملابس إضافيّة من أجلك. الطقس آخذ في التقلّب وستحتاج كنزاتك الصّوف قريبا. أفاجئ نفسي وأنا أمعن لاإراديا في تفكير سلبيّ موجع. أتوقّف عن الحركة وأغطي فمي بكفّي لأمنع شهقة من تجاوز شفتيّ. أتصرّف كأنك لن تعود برفقتي! أدرك أنّ التفاوض لن يكون سهلا. فأيّا كانت دوافع نادر فمن السّذاجة أن أظنّها قد تلاشت بهذه السّرعة. إن كان قد أقدم على هذه الخطوة القاطعة، فهو بالتّأكيد مصمّم على الابتعاد عنّي بشكل لا يقبل الرجعة.

facebook.com/groups/exchange.book

يخرجني رنين الهاتف من استغراقي المؤلم.

- أستاذة رنيم.. أنا بخير، شكرا لاتصالك.

أستمع إلى توصياتها في صمت. تلك المخلوقة الغريبة، امتدّت كفها إليّ في عتمة الفراغ لتطبطب على قلبي بكفّ حانية. نزلت كلماتها على وجداني مثل كمّادة باردة أطفأت لهيب قلقي الممض. كانت مستمعة جيّدة وصديقة أكثر منها محامية رسميّة المعاملة. استمرّت المحادثة لبضع دقائق كانت كافية لتقطع وتيرة البؤس الذي سيطر عليّ في الساعات الأخيرة.

facebook.com/groups/exchange.book

عزيزي خليل،

بين اللحظة التي كنت تستكين فيها نائما إلى جواري في شقتنا الباريسيّة، واللحظة التي لمحتك فيها في ثيابك الغريبة، متربّعا في جذل واضح إلى جوار امرأة غريبة، وتوزّع ابتسامات عذبة على أناس غرباء.. كانت قد مرّت تسعة أيّام بلياليها.

خضنا الرّحلة ثلاثتنا: الأستاذة رنيم ودليل محليّ وأنا. وجلّ ما بأيدينا من أدلّة، شهادة ميلاد والدك وصور لكما. في عنّابة، جبنا الحيّ الذي شهد مولد نادر -كما تذكر الشهادة- شارعا شارعا. طرقنا الأبواب مثل موزّعي الإعلانات وبائعي «الشنطة» وقوبلنا بالجفاء حينا وبالتّرحاب حينا آخر. دخلنا المقاهي، وتحدّثنا إلى المراهقين المرابطين عند نواصي الشّوارع، وقاطعنا شيوخا يلعبون النرد عند دكاكين البقالة أو الخضر. استجوبنا أطفالا يلهون بالكرة في عرض الطريق ورشوناهم بالحلوى والقطع النّقديّة. واعترضنا مسارات سيّدات ملتحفات وسافرات ينؤن بحمل قفافهن عائدات من السّوق. نسأل من دون هوادة عن نادر الشاوي، الشاب الثلاثيني العائد من فرنسا، ومعه طفل ذو سنة واحدة. وكانت الرؤوس تهتزّ في كلّ مرّة علامة النّفي.

حتّى كانت مرّة، سأل فيها الدّليل شابين لما يبلغا العشرين، يجلسان على قارعة الطريق. ردّ الأوّل بتلقائيّة:

- نعم أعرفه.

فلكزه الثاني بمرفقه على الفور، كأنّما أفصح بما لا ينبغي ذكره. تبادلا نظرة واجمة، بدا بعدها أنّ الأوّل سيتراجع. فوجّدتني أقترب على عجلٍ بعد أن تركت للدّليل محاورتهما. قلت مبتسمة وأنا أخرج أوراقا من فئة

facebook.com/groups/exchange.book

العشريـن يـورو مـن محفظـتي:

- نحـن أصدقـاء نـادر مـن فرنسـا.. وقـد دعانـا إلى زيارتـه في الجزائـر.. لكنّنـا تهنـا في طريقنـا ولـم نجـد المـنزل الـذي وصفـه لنـا.. فهـلّا سـاعدتمانا في العثـور عليـه؟

أخـذ كلّ منهمـا ورقـة نقديّـة وأخـذ يتأمّلهـا بأعـين متّسـعة. ثـمّ قـال الثـاني بنـبرة ماكـرة بعـد أن أخفـى الورقـة في جيبـه:

- لكنّ المنزل بعيد من هنا.. وسنضطرّ إلى ترك أشغالنا لمرافقتكم.

لـم أدر إلى أيّ أشـغال يشـير.. عـدا مغازلـة المـارّات ومضايقـة المارّيـن. لكنّـني فهمـت مـراده، فنقـدت كلّ واحـد منهمـا ورقـة إضافيـة! عندئـذ، وقـف في كبريـاء ورافقنـا إلى السـيّارة.

وصلنـا إلى شـارع فرعـيّ ضيّـق لـم نكـن قـد وصلنـا إليـه في جولتنـا، فتركنـا العربـة عنـد المنعطـف وترجّلنـا. أشـار الولـد إلى مـنزل واطـئ السّـور ذي بـاب معـدنٍ أزرق ذهـب طـلاؤه، ثـمّ أطلـق سـاقيه للرّيـح. طرقنـا البـاب بهـدوء بدايـة، ثـمّ شـدّدنا الـضرب مـرّة بعـد مـرّة.. مـن دون فائـدة. خلـف السّـور، بـدا المـنزل القديـم المكـوّن مـن طابـق واحـد هادئـا هـدوء القبـور. دمـدم الدّليـل بكلمـات بذيئـة وشـتم الولديـن الذيـن أرشـدانا ولا شـكّ إلى مـنزل مهجـور وفـرّا بـالأوراق النقديّـة! أغمضـت عيـنيّ في إحبـاط. كان الأمـل يحـدوني بـأن أكـون قـد وصلـت إلى المـكان المنشـود، لكـنّ الولديـن جعـلا منّـي أضحوكـة، ولعلّهمـا يتنـدّران بي الآن برفقـة نـادر! رفعـت رأسي أتأمّـل جـدران الشـارع وأقلّـب عيـنيّ بـين نوافذهـا. هـل تـراك تختفـي خلـف إحداهـا يـا بـنيّ؟ أشـعر بقربـك. الولـدان كانـا يعرفـان أبـاك ولا شـكّ، لكنّهمـا تلقّيـا تعليمـات بالصّمـت، أو هكـذا بـدا لي.

كانـت تلـك الأفـكار تشـغلني، حـين أطلّـت امـرأة مـن وراء سـور مـنزل مجاور، تطاولـت بعنقهـا وقـد أفزعهـا الطـرق المزعـج عـلى بـاب الجـيران. أطلقـت كلمـات في الهـواء عـلى حـين غـرّة. ولـم أفهـم حرفـا مـن كلماتهـا العربيّـة. لكـنّ

facebook.com/groups/exchange.book

اهتمام الدّليل كان واضحا. رأيته يخطو باتجاهها يستفسر. التفتُّ إلى رنيم أسألها أن تؤكد الأمل. فترجمت الكلمات: «هل تبحثون عن أمّ نادر؟ لقد سافروا منذ أيّام إلى قريتهم الجبليّة»! كان الدّليل يحاول اقتناص المزيد من التّفاصيل. أين تقع القرية؟ الولاية البلدة، الحيّ. عاد بعد قليل ليقول:

- عشيرة الشاويّة، عند جبل الجرف من ولاية تبسة.

جبال الأوراس، لم تكن ذات شبه بجبال الألب التي تزلّجت على منحدراتها الثلجيّة طفلة، قبل أن تفقد ساقاي الحركة. ربّما كانت متقاربة في شكلها، مرتفعاتها وأوديتها، خضرتها وصخورها، طرقاتها المتعرّجة المتّجهة صعودا ونزولا مشرفة على هاويات تزداد سحقا كلّما اقتربت من القمّة. كلّ الجبال متشابهة في هذا. لكنّ الشعور الذي يسكن قلوبنا ونحن نعبر منحنياتها ونشقّ تضاريسها مصّعدين في السماء أو منزلقين إلى السفح يرسم بصمتها الخاصّة في نفوسنا. وإن كانت الألب قد خلّفت نقاء في ذاكرتي في صفاء ثلوجها البيضاء وسرور الطفلة البريئة التي كنتها، وخفّة في روحي بمقدار ما ارتفعت محلّقة بين كثبان الثلوج الرّطبة.. فإني قد أحسست بثقل الأوراس الرّاسيات في حجم الجزع الذي سكن قلبي وأنا أقترب من مكان أتوقع رؤيتك فيه، وفي تقطّع أنفاسي، بينما تهتزّ بنا السيّارة الصغيرة وتتقافز على الطريق التّرابيّة غير المعبّدة، على نغمات الحجارة والحصى التي ترتدّ على هيكل السيّارة.

حين أصبحنا على مشارف مقرّ عشيرة الشاويّة -الذي أرشدنا إليه عمدة بلدة جبل الجرف- بدت أمامنا زينة احتفاليّة صاخبة. كان الوقت عصرا، والسيّارة تتوقف خارج سور المزرعة. أمامنا صفوف طويلة من السيّارات

facebook.com/groups/exchange.book

والشاحنات والجرّارات التي حضر على متنها أقارب وجيران ومعارف من القرى والبلدات القريبة والبعيدة. لم يتوقّف الضّيوف عن التّوافد بأعداد غفيرة، يتراصّون في صناديق الشاحنات ويهلّلون ملوّحين بأوشحة مزركشة، وتزغرد النّساء فرحات، بينما يصل صدى الطبل الذي يقرع نغمة شعبيّة من الفناء الدّاخليّ. حبست عبرة توشك على الإفلات وتهدّج صوتي. قلت للأستاذة رنيم رافضة ترك مكاني من السيّارة:

- اذهبوا واستطلعوا الأمر.. سأنتظركم هنا.

هل كنت أخشى لحظتها أن أفقد أباك؟ ألم أكن قد فقدته بالفعل حين هجرني؟ فما الفارق إذن إن كان اليوم عرسه أم عرس غيره من أفراد العائلة؟ لكنّ تفكيري بأنّه قد يكون المحتفى به في عرس عائليّ مهيب، جعل قلبي ينزف أسى في صمت مضمّخ بالغيرة. لكنّ رنيم كانت حازمة:

- سنذهب معا. لا آمن أن يقترب بعض الصّبية من السيّارة وأنت وحدك.

نزلت على مضض. دفعت رنيم كرسيّي المتحرّك وعبرنا البوّابة. كانت الرّؤوس المتطفلة تستدير لترقب هيئاتنا الغريبة عن أجواء القرية. لكنّ أحدا لم يجرؤ على قطع طريقنا. كان يوم احتفال، والجميع مرحّب بهم، ببطاقة دعوة أو من دونها. الدّعوة في بلدة أبيك تلك شفاهيّة غالبا، والحاضر يعلم الغائب حتّى تحلّق الكلمة إلى أقصى مدى. لا يهمّ إلى أين تصل الدّعوة وإن عبرت قرى ومدنا، وإن تناثر الحمام الزّاجل في كلّ اتّجاه يعلم القاصي والدّاني. فما دام الضيّف سيكلّف نفسه مشقة السّفر لمشاركة أهل الفرح حفلتهم، فأهلا ومرحبا. لكن هل خطر ببال أحدهم أن يدخل عليهم يوما زائر قادم من وراء البحار، قد رمت النّوارس عند قدميه ذات صباح كلمة الدّعوة؟

مضينا عبر الفناء الخارجيّ، يتراءى لنا قنّ الدّجاج ومأوى الأرانب عند الجهة الشرقيّة، وحظيرة الأغنام والأبقار من الجهة الغربيّة، ومخزن العلف والقمح يظهر مرتفعا شامخا من وراء الدّور التي تستقبل الزوّار.

facebook.com/groups/exchange.book

عنـد منتصـف الطريـق، يقـف شـيخ سـبعينيّ في ثيابـه الرّيفيّـة التقليديّـة. يرمـي عـلى كتفيـه برنسـا صوفـا داكنـا ويعمّـم رأسـه بقمـاش أبيـض ناصـع. بـدا أنّـه صاحـب المكان والضّيـوف ضيوفـه. خمّنـت أنّـه عـمّ نـادر، كبـير الشـاويّة. كان يحـيّي وفـود الـزوّار بابتسـامة عريضـة تشـهد عـلى فرحـة حقيقيـة لا مجاملـة فيهـا. كأنّ كلّ هـؤلاء البـشر الذيـن سـيطعمون مـن مائدتـه الليلـة قـد أسـدوه معروفـا! وبـين الفينـة والأخـرى، يلتفـت إلى عمّالـه المتفرّقـين في حركـة دؤوبـة حولـه ويشـير بكفّـه، فيسـعون بجـدّ ناحيـة حظـيرة المـواشي، ويسـحبون خروفـا آخـر يلحـق بكتيبـة الذبائـح الـتي تسـلخ وتقطّـع في الفنـاء الخلفـيّ، ثـم تطبـخ في قـدور عميقـة مـع المـرق والخـضر في مطبـخ خارجـيّ مرتجـل. ربّمـا ذبحـت العـشرات منهـا تلـك الليلـة.

طالعنـا الرّجـل مـن دون أن تعـبر ملامحـه سـحابة مفاجـأة، كأنّ وجودنـا في عقـر داره طبيعـيّ لا غرابـة فيـه. أشـار إلى دليلنـا كي ينضـمّ إلى الخيـام المخصّصـة للرّجـال، في حـين دلّنـا صـبيّ عـلى الغـرف الدّاخليّـة الـتي تحتلّهـا النّسـوة. دلفنـا إلى الفنـاء الدّاخـلي الـذي أسـدلت عـلى منفـذه سـتارة تحجـب مـا وراءهـا. وهنـاك تفتّقـت الرؤيـة عـن مشـهد لـم يكـن ليعـبر خيـالي ولا حـتّى في الأحـلام. وكيـف أحلـم بعالـم لا أفقـه مـن أبجديّاتـه حرفـا؟ كـنّ فتيـات ونسـاء مـن مختلـف الأعمـار، يجلسـن في حلقـات، متربّعـات عـلى أكلمـة بيتيّـة الحياكـة، ويتكـئن إلى وسـائد خشـنة مرصّفـة عـلى امتـداد محيـط الحائـط. وفي وسـط كل حلقـة، صبيّـة تربـط وشـاحا عـلى خصرهـا وتتمايـل في رقصـة متغنّجـة. وفي حلقـات أخـرى، مـن نسـاء أكـبر سـنّا، تتوسّـط الجمـع عجـوز برتقاليّـةٌ خصلاتهـا النافـرة مـن تحـت غطـاء رأسـها، تمتـدّ الأكـف باتّجاههـا، فتلصـق في كلّ كـفّ قـرص عجينـة سـوداء تميـل إلى الخـضرة. وهـنّ في كلّ هـذا، يلبسـن أقمشـة مزركشـة زاهيـة في مهرجـان مـن الألـوان، كأنّمـا يتنافسـن عـلى إبـداء الفرحـة. وكلّمـا مالـت الأجـواء إلى القتـور، بـادرت إحداهـنّ بإطـلاق زغـرودة، فتتبعهـا زغاريـد كثـيرة مـآزرة، معلنـة بدايـة وصلـة جديدة مـن الغناء والـضرب عـلى الدّفـوف والرّقـص.

facebook.com/groups/exchange.book

حـين دخلنـا، رمقتنـا أعـين كثـيرة في ريبـة، لكـنّ وجودنـا الدّخيـل لـم يقطـع شـيئا مـن معالـم الفرحـة. كنّـا دخـلاء يُلحـظ تطفّلنـا بـلا جهـد، ولا أحـد يصارحنـا بتطفّلنـا، كرمـا وتغافـلا أو لامبـالاة وتجاهـلا. أخـيرا، قدمـت في اتّجاهنـا سيّدة حسـنة المظهـر كانـت تقـف وسـط الفنـاء، تسـيّر أمـور البيـت وترحّـب بالـزّوّار. سرت في ظهـري رعـدة بـاردة. كان يجـب أن تكـون هـي. أمّ نـادر. ابتسـمت وهـي تعانقنـا كأنّمـا تعرفنـا أو تعرّفـت إلينـا. قالـت في ودّ وبلغـة لـم أفهمهـا، ثـمّ ترجمـت لي رنيـم:

- عسى ألا تكون السّفرة قد أرهقتكم؟

هـل تراهـا كانـت تتوقـع مجيئنـا أم أنّ تسريبـات تدفّقـت مـن عنّابـة مـن مخابـرات الحـيّ -الجـارة- فتأهبّـت لاسـتقبالنا؟ لـم أكـن واثقـة، لكـنّ الظـرف لـم يسـمح بـكلام كثـير، والـزوّار يواصلـون التدفّـق، وحاجـز اللغـة يمنـع تبـادلا مبـاشرا. ومـاذا لـو أنّهـا فهمتـني وفهمتهـا، فهـل كانـت عقـدة لسـاني لتنفـكّ؟ ومـاذا كنـت لأسـألها؟ هـل تـزوّج زوجـي علـيّ؟ أيـن ضرّتي؟ سـامحني يـا بـنيّ، فقـد كنـتَ في تلـك اللحظـة مُغيّبـا عـن ذهـني بفعـل العاطفـة المجروحة. ولعـلّي كنـت لأخطفـك مـن بـين أذرعهـم وأهـرب، لكـن بعـد أن أخمـش وجـه ضرّتي وأصفـع والـدك متربّعـا عـلى منصّـة الزّفّـة!

فجـأة، انطلقـت المزامـير في الخـارج تعـزف في عنفـوان، وارتفعـت ضربـات الطبـل في نسـق متسـارع محمـوم، ورأيـت النّسـاء مـن حـولي يهرعـن إلى نعالهـن، بعضهـن يحكمـن أغطيـة رؤوسـهن وينفـرن في اتّجـاه الفنـاء الخارجـيّ. العريـس جـاء! هكـذا فكّـرت وكفّـاي تتوقّفـان عـلى جانـبي كرسـيّي، لا أقـوى عـلى دفـع العجـلات في اتّجـاه المنفـذ مثـل كلّ مـن بالدّاخـل. ذهـب عزمـي عـلى الانتقـام أدراج الرّيـاح حـين غـدت المواجهـة وشـيكة. رفعـت رأسي إلى الأسـتاذة رنيـم، فقالـت بسرعـة وهـي تخمّـن مـا يـدور في رأسي:

- انتظري هنا، سألقي نظرة.

أغمضـت عيـنيّ لبرهـة أخنـق الألـم وأعتـصره حـتّى يبقـى في الدّاخـل ولا

facebook.com/groups/exchange.book

ينفضح أمره في شكل دمع أو تغضّن جبين. ثمّ سعيت أشقّ الصّفوف، وتوقّفت عند الفرجة التي أحدثتها الستارة الموارية. من موقفي ذاك، لمحت الموكب. كانت عربة بيضاء ناصعة يجرّها اثنان من الخيول العربيّة الأصيلة، تتهدّل ستائرها الشفيفة لتكشف جزئيا عن هويّة الرّكاب المحتفى بهم. وهناك رأيتك. بل رأيتكم. أنت وأبوك وهي.. ثالثتكم التي سرقت مكاني. لمحت نادرا أوّلا. كان يقود زمام الخيل، ويمشي الهوينى محاذيا العربة. بينما تربّعت أنت وهي على المقعد داخلها. كانت اللحظة تجسيدا للمخاوف والضلالات التي تراقصت أمام عينيّ منذ يوم رحيلك! الآن صارت حقيقة ماثلة أمام عينيّ، من لحم ودم وأعين وابتسامة! حاولت أن أستهين بشأنها، أن أحتقرها. لكنّني فشلت. كانت حسناء بدويّة، وافرة الصحّة، فارعة الطول، وحين توقّفت العربة على بعد خطوات منّي، وقفت تمشي مثل الملكات والنساء يرمينها ببتلات الورد وحبّات الرزّ ويرششن ماء الزّهر. وأنت، كنت تبتسم وتضحك في جبّتك الحريريّة وطربوشك المائل، والمتعة تملأ نظراتك. ثمّ مدّت كفّها إليك وحملتك بين ذراعيها، بينما نادر يراقبكما في رضا. لقد وجد لك أمّا أخرى على جناح السّرعة! ملأ فراغ الأمومة متعجّلا، كي تسلوني وتُمحَى صورتي من ذاكرتك!

لكنّك خيبت ظنّهم وشفيت صدر أمّك يا ولدي، حين نظرتَ إليّ. كانت النساء قد أوسعن لها ولك، لتعبر إلى الفناء الدّاخلي حيث ستواصل النّسوة الاحتفاء بها. تلاقينا وجها لوجه وراء السّتارة. انتبهتَ إلى وجهي المألوف، ومددتَ يدك في اتّجاهي! كنت لا تزال بين ذراعيها، لكنّك رحت تتملّص، تتخلّص من قيدها لتأتيني. وهنا، انتبهت إليّ كلّ النظرات. لم أكن ضيفة غريبة في نهاية الأمر. كنت جزءا من «العائلة» شاؤوا ذلك أم أبوا. واستحال المشهد إلى عرض مسرحيّ مرتجل. لم يكن أحد غيرك يعرف دوره فيه. دور الابن الذي عثر على أمّه. تململتَ حتّى خلّصتْك، فركضتَ إليّ بخطواتك الصغيرة المتردّدة وارتميت على ساقيّ. رفعتُك بين

facebook.com/groups/exchange.book

ذراعـيّ في لهفـة، وذبـتُ وإيّـاك في عنـاق حـارّ تخللتـه العـبرات والشـهقات مـن طـرفي والضحـكات المشرقـات مـن طرفـك. لـم تنسـني. لـم تُمـح صـورتي مـن ذاكرتـك بعـد. كلّ المغريـات لـم تكـن كافيـة لتغـيّرك ناحيـتي. لا الأمّ الجديـدة الـتي أحضرهـا أبـوك، ولا العربـة الموشـاة بالنقـوش الذهبيّـة، ولا الأحصنـة ولا الولائـم. كنـت بريئـا مـن خطايـا أبيـك ووفيـا لذكـرى الأمّ الـتي أنجبتـك.

بعــد لحظــات الصّدمــة والذّهــول الصّامتــة، دبّــت الحركــة في التماثيــل الجامـدة. تحـرّك بي الكـرسيّ عـلى حـين غـرّة، بينمـا لمحـت الأسـتاذة رنيـم مـن بعيـد تجاهـد وسـط الحشـود لتصـل إليّ. التفـتُّ مبغوتـة. كانـت جدّتـك مـن دفـع بي الكـرسيّ في اتّجـاه جنـاح منعـزل عـن الفنـاء حيـث الفـوضى والزّحـام. لـم أسـتطع أن أنطـق بكلمـة بعـد أن دلفنـا غرفـة هادئـة مفروشـة بالبسـط والوسـائد. كأنّمـا أدركـتْ أمّ نـادر مـن لقائنـا القصـير في الفنـاء أنّـني لا أفقـه لغتهـا، فقـد انتظـرت أن يصـل مترجمـي -رنيـم- وهـي ترقبـني بنظـرة باسـمة وأنـت مسـتكين في حضـني. ولحسـن الحـظ لـم تتأخـر رنيـم كثـيرا. دخلـت لاهثـة تعتـذر، فقالـت جدّتـك:

- لقد خمّنت هذا. الولد لم يسافر برضا أمّه، أليس كذلك؟

هــزّت رنيــم رأســها موافقــة، وشرحــت لهــا باختصــار عمليّــة الاختطــاف. عبسـت جدّتـك وبـدا عليهـا الكـدر. كان أبـوك قـد أخفـى عنهـا فعلتـه. لسـت أدري أيّ كذبـة تفـوّه بهـا، لكـن المـرأة العارفـة لـم تصدّقـه. أليسـت أمّـا؟ وهـل مـن أمّ لا تفقـه مبـادئ الأمومـة؟ شـعرت تجاهها بامتنـان جـارف. انتابني إحسـاس بأنّهـا سـتنصفني، وقـد تقـف في صفّـي ضـدّ ولدهـا. لكنّـني فزعـت، حـين وقفـت وحاولـت أن تأخـذك مـنّي. تكلّمـت بلهجـة مطمئنـة، فترجمـت عنهـا رنيـم:

- اتركي الولد الآن.. فقد حان وقت ختانه.

- ختانه؟

صدمــت. عــن أيّ ختــان تتحــدّث؟ ولــم تكــد الدّمــاء تعــود تدريجيّــا إلى

facebook.com/groups/exchange.book

وجهي وقد فهمت نوع المناسبة -التي لم تكن عرسا على الإطلاق- حتّى انسحبت على الفور في الاتّجاه المعاكس حين تبيّنت بشاعة ما يهمّون بفعله بك. يقطعون جزءا من لحمك وأجلس مكتوفة اليدين؟ تجتهد رنيم في تفسير تلك العادة الإسلاميّة بكلمات تناسب فهمي وتخفّف من صدمتي، لكنّني أصرّ. أذهب معك. لن أتركك بعد الآن! هل أعيدك إليهم ليخفوك عني أو يرحّلوك إلى حيث لا أجدك ثانية؟ ترمقني جدّتك بنظرة عتاب. تقول عيناها، أنت لا تعرفين طينة النّاس الذين تتعاملين معهم. سمعتهم فوق الشبهات وكلمتهم بألف عهد وميثاق.

وهناك، عند باب الغرفة التي شهدت ختانك، لبثت أنتظر. أشيح بنظراتي عن وجه أبيك الذي يقف وفتاته تلك على مقربة، لا يحدّث أحدنا الآخر. وهل هناك من كلام ليقال؟ كانت تحاول أن تشاغله، تتحدّث إليه من دون انقطاع، تملأ فراغ الصّمت بصوتها. تصلني وشوشتها الرّقيقة وضحكاتها النّاعمة فيزداد غلياني.. غيرة وقهرا وعجزا وحنقا، وقلقا عليك أنت الذي جمعتنا خلف بابك، صامتين. أين الغضب الذي توعّدت أن ألقى به نادرا؟ أين جبال الشتائم وأكوام السّباب التي تدرّبت عليها لأخصّه بها من دون جميع البشر؟ أين حتّى نظرة الاحتقار النّاريّة التي تخيّلتني أقذفه بها فتصيبه في مقتل؟ أتجاهل وجوده قريبا، كأنّما أنفصل عن العالم الذي يكون فيه. هل كنت أخشى علائم السّعادة التي سأقراها في ملامحه؟

وفي فورة شجاعة مفاجئة، استدرت إليه، فتسمّرت مكاني. ما كانت تلك النظرة التي طالعني بها؟ كانت مزيجا عجيبا من مشاعر متضاربة. حزن وشوق وخوف وانكسار. كانت عيناه تتحدّثان بكلام كثير كثيف، وسرعة بديهتي لا تكفي لأسجّل كلّ ما يقال. في الخلفيّة يستمرّ صوتها، تشويشا عديم القيمة، تلك السّارقة. ولكن ما الفائدة، إن كان قد اختارها طواعية؟ ما معنى ثرثرة الأعين السّخيفة إذا ما كان الفعل مناقضا لها؟ سحبت نظرتي في إعراض، وتشبّثت بباب الغرفة ألوذ به من عجزي وتشوّشي،

facebook.com/groups/exchange.book

حـتّى فُتـح مصراعـاه أخـيرا لترتفـع الزّغاريـد مـن جديـد. تنتشـلنا دوّامـة الفـرح مـن النظـرات ورموزهـا، ويغـادر نـادر الغرفـة مـع عمّـه والطبيـب بعـد أن اطمـأن عليـك.

أمـا أنـا فقـد بقيـت عنـد رأسـك بعـد مغـادرة الجميـع. أمسـح جبينـك وأهدهـدك كلّمـا اسـتيقظت باكيـا. قالـوا لي، كلّ الأطفـال يمرّون بهـذه التجربة، وختانـه صغـيرا أفضـل. لكـنّ الأيّـام الـتي تلـت كانـت صعبـة عليـك وعـليّ. جـاءت جدّتـك بعـد زمـن لا أدري مقـداره، ومعهـا طبـق مـن الوليمـة. تكلّمـت بعبـارات مبهمـة، تشـجّعني عـلى الأكل. تقبّلـت منهـا الطعـام شـاكرة، لكنّـني لـم أسـتطع أن أبتلـع إلا لقيمـات صغـيرة. تنهّـدتْ ثـمّ ضربـت عـلى فخذيهـا وقامـت. كنـت أدرك أنّهـا أكـثر مـن يفهمـني وإن كان بيننـا حاجـز اللغـة. ظللـت في الغرفـة حـتّى المسـاء. واسـتمرّ الصّخـب في الخـارج حـتّى وقـت متأخّـر. ثـمّ جـاء نـادر. كان وحيـدا هـذه المـرّة. جلـس في طـرف الغرفـة، وبـدا متعبـا. واصلـت تجاهلـه وتشـاغلت بـك، فقـال بعـد صمـت قصـير:

- عسى ألا تكون السّفرة قد أنهكتك؟

لـم أرفـع نظـرة إليـه. وتقافـزت كلمـات ردّ لاذع عـلى طـرف لسـاني، لكنّـني كبحـت جماحهـا.

- يجب أن تنالي قسطا من الرّاحة.

لـم أكـن حـتى تلـك اللحظـة قـد فكّـرت في خطـوتي التاليـة. نسـيت أمـر الدّليـل الـذي يقبـع في جهـة الرّجـال ينتظـر التعليمـات. ولـم أعالـج مسـألة المبيـت بعـد. فكّـرت أنّـني لـم أكـن مدعـوّة للبقـاء، ولـم أكـن لأرغـب بذلـك في كلّ الظـروف، لكنّـني لا أقـدر عـلى تـركك ولا عـلى أخـذك وأنـت في تلـك الحـال!

- لقـد نقـدت الدّليـل أجـره وصرفتـه. سـتبقين هنـا والأسـتاذة رنيـم.. حـتّى نتوصّـل إلى اتفـاق.

هـذه المـرّة خـرج الوضـع عـن السّـيطرة. رميتـه بنظـرة سـاخطة. هـا هـو يخطّـط ويقـرّر وعـليّ الامتثـال؟ هممـت بالرّفـض، لكـنّ إطلالـة مـن النافـذة

facebook.com/groups/exchange.book

عـلى الليـل الـذي خيّـم بالخـارج جعلتـني أتمتـم بكلمـات اعـتراض فاتـرة. لـم يكلّـف نفسـه عنـاء الـرّدّ. وقـف وغـادر في هـدوء.

نمـت تلـك الليلـة عنـد طـرف سريـرك. غلبـني النعـاس، فتقاسـمت وإيـاك الوسـادة. ولـم يحـاول أحـد أن يقاطـع نومنـا الوديـع ذاك. حـين اسـتيقظت، كانـت الشـمس قـد ارتفعـت في كبـد السّـماء، وكنـت أعـاني آلامـا في المفاصـل. زفـرتُ وأنـا أتذكـر مجريـات اليـوم المـاضي، ومـا ينتظـرني اليـوم. وتسـاءلت أيـن ذهبـت الأسـتاذة رنيـم كلّ هـذا الوقـت؟ لـم تكـن قـد ظهـرت منـذ حـدث الختـان. وكأنّمـا قـد اسـتدعيتها بتفكـيري فيهـا، فقـد وجدتهـا تدخـل علـيّ، وقـد غـيّرت ملابسـها واسـتعارت عبـاءة بسـيطة مـن أهـل الـدّار. وبـدت مجهـدة هـي الأخـرى. قالـت بابتسـامة صغـيرة:

- سيكون بخير. لا تقلقي.

داعبـت خصلاتـك المسـتكينة عـلى جبينـك ولبثـت سـاهمة. سـألتها في اهتمـام:

- هل تحدّثت إلى نادر؟

أومأت برأسها أن نعم. واستمرّ صمتها. هتفت في جزع:

- رفض أن يعيد إليّ خليل أليس كذلك؟

- من الأفضل أن تتحدّثا.

ندّت عنّي ضحكة ساخرة.

- نتحـدّث؟ وهـل تـرك مجـالا لأيّ تبـادل بيننـا بعـد أن خطـف الولـد وهرب؟ وهـل قـال مـا الـذي دفعـه إلى ذلـك؟ اشـتاق إلى حبيبتـه القديمـة؟ فقـرّر أن يهديهـا صبيّـا؟ طفـلا مـن غيرهـا؟!

لـم يبـد عليهـا التركـيز عـلى مـا أقـول. أضافـت بعـد برهـة قصـيرة بنفـس اللهجـة الواجمـة:

- يجب أن تتحدّثا.

facebook.com/groups/exchange.book

قلت في عناد:

- عليه أن يطلقني الآن، هنا.. وحضانة الولد ستكون لي بالقانون. ولن يمكنه أن يفعل شيئا حيال ذلك. لقد حاول أن يهرب به، لكنّني وجدته ولن أستسلم. لن يبتعد عنّي بعد الآن مترا واحدا.

قلت ذلك وكفي تشدّ على ذراعك في عصبيّة، حتى استيقظت باكيا. احتضنتك أكفكف دمعتك وأذرف عشرات غيرها.

لم أر أباك طيلة الفترة الصّباحيّة، وبقيت رنيم إلى جواري، صامتة معظم الوقت. بدا أن لكلّ منّا أفكارا كثيرة تحتجزه في ظلالها. ثمّ جاءت جدّتك، باسمة وحازمة مثل عادتها. سألت عن أحوالنا، ثم خاطبت رنيم، فترجمت عنها:

- تريدك أن تذهبي معها.

هززت رأسي بعنف. لن أتحرّك من جوار ولدي! لم يكن هناك داعٍ لتعاتبني بنظراتها. لم أكن لأسايرها ولو استظهرت بتعهّد مكتوب ومختوم وعليه شهود! استسلمتْ لرغبتي وأطلّت من الباب لتخاطب صبيّا يلعب في الفناء، فانطلق ركضا يلبّي طلبها. بعد لحظات، حضر نادر.

أدارت جدّتك دفّة الحديث:

- أنت لم تطلّقها أليس كذلك؟ أخذت الولد وجئت به إلى هنا. لماذا كذبت عليّ؟

كانت توبّخه أمامي، كأنّما تطمئنني إلى أنّني لن أُظلم عندها.

- ماذا أقول لعمّك الآن؟ موعد الزّفاف قد تحدّد.. وعالية تنتظرك منذ سنين. ماذا نقول لهم الآن؟

كان مطرقا لا يردّ. فتاته تلك، هي ابنة عمّه إذن. اسمها عالية. تنتظره؟ وماذا كنت أنا؟ بطاقة عبور؟ زواج أبيض؟ تعشّش الغربان في رأسي ويستقرّ بها المقام.

facebook.com/groups/exchange.book

- مـا لا أفهمـه بعـد.. مـا سـبب فراقكمـا؟ هـل هـي سـحابة صيـف عابـرة؟ هـل هنـاك أمـل بـاقٍ بعـودة الميـاه إلى مجاريهـا؟

لم ينظر إليّ وهو يقول بسرعة مغلقا كلّ الأبواب دفعة واحدة:

- الحيـاة بيننـا انتهـت، ولا مجـال لمراجعـة هـذا القـرار. أمّـا الطـلاق، فيمكن أن أطلقهـا مـتى أرادت، بـشرط أن تتنـازل عـن حضانـة خليل.

صرخت من دون شعور وقد فقدت السّيطرة على رباطة جأشي:

- بل تطلقني غصبا عنك، وابني يبقى في حضني!

ربّتـت رنيـم عـلى كفّـي تهدئـني. ولكـن أيّ سـبيل للهـدوء وهـو يكيـل لي الإهانـات مـن دون تميـز؟ أيّ هـدوء وأنـا لا أعـي أيّ خطـأ ارتكبـت وأيّ ذنـب اقترفـت لأسـتحق منـه كلّ هـذا النّكـران؟

- أنـت ضيفـة عندنـا يـا بنيّـتي حـتّى يسـتردّ الولـد عافيتـه. ومـا دام الطـلاق لـم يحصـل بعـد، فأمامكمـا فرصـة إصـلاح مـا فسـد. وإذا مـا تصالحتمـا، فـإنّي أطمـع في أن يسـتقرّ بكمـا المقـام إلى جـواري.

سارع يقول:

- لا يمكنهـا أن تعيـش هنـا. بيئتهـا مختلفـة. لـم تتعـوّد عـلى حيـاة الجبـل الخشـنة.

رمقتـه في ضيـق. لطالمـا ألحّيـت عليـه حـتّى نـزور بلدتـه وعائلتـه وكان يرفـض! هـل يوهمهـم الآن بأنّـني منعتـه عنهـم كلّ هـذا الوقـت، لأنّ بيئتـه لا تناسـبني؟ قلـت برغبـة جامحـة في العنـاد:

- لا أعرف، لم أجرّبها بعد!

وبـدا كأنّ أحـدا غـيري نطـق بالجملـة، فقـد اسـتهجنتها بعـد أن سـمعتها بصـوتي تـتردّد عاليـا في فضـاء الغرفـة. كأن والـدك يحـاول طـردي وأنـا أصرّ عـلى البقـاء! لكنّـه كان أكـثر عنـادا، اسـتمرّ يقـول:

- وعالية؟ لن ترضى بأن تكون لها ضرّة. وأنا وعدت عمّي، وسأفي بوعدي.

facebook.com/groups/exchange.book

وعـد عمّـه؟ هـل هكـذا يتـمّ الـزّواج في بيئتـك أيها الجبـلي الجلـف؟ حبسـت الشـتائم في حلقـي واستسـلمت لصمـت مجـبر، حـتى لا تنفجـر الثـورة. مـدّت لي جدّتـك طـوق النّجـاة حـين قالـت بحـزم:

- هل انتهيت؟ يمكنك الخروج الآن.

غادر مكانه وصفق الباب من دون كلمة إضافيّة.

- سأفهم ما الذي يحصل هنا.. أعدك أنني سأفعل!

ليتـك تفعلـين يـا سـيّدتي، ليتـك تفعلـين فأفهـم بـدوري! وقفـت جدّتـك متثاقلـة. داعبتـك ثـمّ لحقـت بولدهـا إلى الفنـاء. التفـتُّ إلى رنيـم بنظـرة تقـول: ألـم أخـبرك؟ مـا مـن حديـث بيننـا! لكنّهـا همسـت فجـأة:

- تحدّثي إليه على انفراد. هناك أمر يخفيه.

- أيّ أمر؟ أنت تعلمين إذن؟

- حكى لي بالأمس.. وحاولت إقناعه بالمصارحة، لكنّه مصرّ على الكتمان.

أخذت الغربان تنقر في رأسي في حماس متزايد:

- لا حاجة لي في أن أعرف، إن لم يرني أهلا لسرّه!

طويـلا بعـد أن غـادرت رنيـم مكانهـا، بقيـت أقلّـب الأمـر في رأسي في ضيـق وحـيرة. مـا الـذي يمكنـه أن يخفيـه بهـذا الحـرص عـن أقـرب الأقربـين، ويحـدّث بـه المحاميـة؟ أيّ سرّ يجعلـه يـترك زوجتـه وعملـه وحيـاة مسـتقرة هانئـة، ويفـرّ كأنّ العفاريـت عـلى أعقابـه؟ لمعـت الفكـرة في رأسي. هـل يكـون قـد ارتكـب حماقـة مـا؟ جريمـة؟ وهـرب مـن فرنسـا بسـببها؟ لـم يكـن هنـاك مـن تفسـير منطقـيّ غـير ذلـك. أتـراه خجـل مـن نظـرتي إليـه؟ مـن تقديـر أمّـه وأهلـه؟ أيّ نـوع مـن الجرائـم هـي؟ تـضرب الغربـان بأجنحتهـا بقـوّة في رأسي، وتـزداد الصّـورة قتامـة. سرقـة؟ قتـل؟ لـم يعـد بوسـعه أن يطـأ الأراضي الفرنسـيّة خوفـا عـلى حياتـه، قـدّر أنّـني لـن أقبـل باسـتمرار معـه ففـرّ في عتمـة الليـل؟ هـو ذاك! هـو ذاك! كنـت متيقّنـة مـن صواب تشـخيصي. وبـدأ كلّ شيء

facebook.com/groups/exchange.book

يتّخذ صبغة منطقية. وعادت إليّ بعض السّكينة. عجيب أن تنتابني السّكينة وقد اكتشفت أنّ زوجي قد ارتكب جرما! لكنّه لم يهجرني لأنّه كرهني أو لعيب فيّ! كلّ شيء آخر يمكن التّعامل معه.

كنت هادئة بقيّة النّهار، وقد ذهب عنّي حنقي السّابق. وعزمت على الأخذ بنصيحة رنيم والتحدّث إليه على انفراد، وقد صرت أتناول المسألة من منظور مختلف. لكنّ عمّاتك كنّ لي بالمرصاد. تقاطرن واحدة إثر الأخرى على غرفتك، يقبّلن ويلاعبن، ويقدّمن الهدايا، واكتفين بابتسامات باهتة تجاهي. كنت أمّ الولد في نظرهنّ، لا زوجة شقيقهنّ. وربّما كان نادر قد عبّر عن نيّته الطلاق، فآثرن ألا تتوطد عرى المودّة بيني وبينهنّ، ما دام الفراق وشيكا؟ ثمّ جاءت تلك الـ«عالية»، فاحتفين بها وتباسطن معها متجاهلات وجودي معهنّ في الفضاء نفسه! كنت مثل دميّة القشّ المركونة في الزّاوية، لا يُسمع لها نبض ولا نفس. ولعلّهنّ تساءلن بينهنّ بلغتهنّ التي لا أفقه منها حرفا، ما لها لا تنصرف وتتركنا وشأننا؟ وقد لازمت مكاني في جلد أحسد عليه، كاتمة غيظي ما وسعني ذلك.. أترقّب انفضاض جمعهنّ ووصول أبيك.

وصل، مثل القمر، بعد أن توارت الشمس بالمغيب. ولم تكن الغرفة قد خلت لنا بعد! بعد عمّاتك، جاءت بنات عمّ أبيك، شقيقات عالية. وكنّ جميعهنّ، بلا استثناء، يمررن بك، يسلّمنك ورقة نقديّة وقطعة حلوى، ينكشن شعرك ويقرصن وجنتك، ثمّ يتكتّلن على المقاعد الواطئة ويستسلمن لثرثرة مستمرّة! حين دخل نادر، كان صبري على وشك النّفاد ورأسي قد شارف على الانفجار. تعلقت نظراتي به مثل غريق يتعلّق بقشّة. قال بضع كلمات مرحة، ضحكن لها.. ثمّ انسحبن بهدوء، فتنفّست الصّعداء.

جلس من الجهة الأخرى، يفصل بيننا السّرير الذي ترقد عليه. بحثت عن الكلمات التي تدرّبت عليها لساعات، وتاهت منّي ساعة احتجتها! ربّما

facebook.com/groups/exchange.book

كان نـادر أيضـا يفكـر، أيّ المفـردات أنسـب لقطـع حبـل الصّمـت، حـتّى قلـت بصـوت متخاذل:

- لقد عرفت.. بما حصل معك.

رفـع رأسـه مثـل الملـدوغ، واتّسـعت عينـاه مـن وقـع المباغتـة. ردّد غـير مصـدّق:

- عرفت؟ من أخبرك؟ الأستاذة رنيم؟

نفيت بسرعة:

- لقـد حـزرت. كان عـليّ فقـط أن أفكّـر بصفـاء وأتخلّـص مـن تشـويش المشـاعر الجريحـة.. لأدرك أنّ مـا دفعـك إلى الرّحيـل بذلـك الشـكل لا شـكّ أمـر جلـل، أقـوى ممّـا تطيـق.. لـم نكـن زوجـين مثاليـين، لكنّـني عـلى الأقـل واثقـة بـأنّ مـا جمعنـا كان حقيقيّـا. لا يمكنـك أن تمحـوه بنفخـة فيتبـدّد في الهـواء!

أطرق متأثّرا. كان على وشك البكاء. قال بصوت متهدّج:

- أمّي.. وأخواتي.. وعمّي.. لا يجب أن يعلموا..

سألته في حذر:

- وعالية؟

- عالية تعلم.

تصاعـد الـدّم حـارّا إلى رأسي. طبعـا، يجـب أن تعلـم. الـزّواج شراكـة في السّراء والـضّراء، والصّراحـة بـين الـشّركاء مطلوبـة! تدفّـق الـكلام مـن شـفتيه متابعـا:

- حـين علمـت أنّ سـتة أشـهر فقـط هـي كلّ مـا تبقـى لي، لـم يخطـر ببـالي إلا أن أهديهـا لأمّـي. سـتّة أشـهر أكـون فيهـا عنـد قدميهـا، أسـعى في قضـاء حاجاتهـا وأمـدّ جسـدي بسـاطا تمـشي عليـه. سـتّة أشـهر تكـون محـض فـرح، أحقّـق فيهـا مـا عجـزت عنـه منـذ سـنين.. تمتّـع فيهـا نظرهـا بمـرأى ابنهـا

facebook.com/groups/exchange.book

وحفيدها، كليهما موفوري الصّحة والعافية. لا أريد أن يكون كلّ ما يأتيها منّي أعباءً وهموما ووجعا في الرأس. سأهديها عرسا كما تحبّ، ترقص فيه إلى الصّباح. وأوقاتا جميلة وحميميّة تنضح بالحبّ والاهتمام. هذه السّتة أشهر هي كلّ ما لديّ. ما قبلها وما بعدها كان وسيكون حسرة لها في القلب وهموما لا تنتهي. لكنّ عالية ستحمل معها الحمل. ستهتمّ بها وبالصّغير.

مصدومة كنت، لا أعي ما يقول. ردّدت متأتأة:

- ستّة.. أشهر؟

- بل خمسة ونصف.. مضى أسبوعان مذ أعلن الطبيب الأجل.

يا للهول! ما أسمعه يدكّ سكينتي دكّا. ترتجف شفتاي وأنا أمعن التقصّي، علّه يفصح عرضا:

- وأنا؟ وأنا في كلّ هذا؟

- أنت! وهل هناك ما يُتعبني ويسحقني من الدّاخل غير التفكير فيك؟

كأنّ دموعي ودموعه رهن تلك الكلمة. ننفجر باكيين في وقت واحد. كلّ منّا يشهق وحيدا على الضّفة المقابلة من السّرير. يفصلنا تعقيد سقطنا فيه سهوا أو عمدا، لكنّ خيوط البكرة تلتفّ وتتشابك إلى ما لا نهاية.

- ماذا.. ماذا كان ليحصل لو أنني بقيت هناك؟ هل سيكبر خليل من دون أن يعرف أصله وأهله؟ من دون أن يتعلّم لغة أبيه؟ من دون أن تكون له جذور يأوي إليها؟ يدخل عليه زوج أمّ، وإخوة غير أشقاء، يكون البطة السّوداء بينهم؟ يشقى بأصل أبيه الذي رحل عنه صغيرا وخلّفه يتخبّط إزاء مجتمع لا ينصفه؟ لا تنظري إليّ هكذا.. أنت ستتزوّجين من جديد، ستكون لك عائلة أخرى. وخليل، سيكون في أمان في أحضان أناس يحبّونه ويحفظونه كقرّة أعينهم..

قاطعته مزمجرة:

facebook.com/groups/exchange.book

- هـل اتّخـذت قـرارا عـنّي؟ رمّلتـني وزوّجتـني بينمـا زوجـي مـا يـزال أمـام عيـني نابضـا بالحيـاة؟ أيّ قلـب تحملـه؟ تـوزّع المشـاعر عـلى النّـاس.. هـذا نصيبـه أن يفـرح، وهـذا مصـيره أن يشـقى؟ دع لي القـرار وانظـر.. ربّمـا كنـت لأختـصر عليـك الطريـق وأهجـرك مثـلا! ربّمـا كنـت مـن يسرّحـك ويرسـلك إلى أهلـك! توقـف عـن لعـب دور البطولـة في مخيّلتـك!

ألهـث، يعلـو صـدري ويهبـط في اضطـراب. ألقـي بكلمـات حارقـة تلهـب قلـبي في طريقهـا. وسـيول الدّمـع لا تتوقّـف. يُفتـح البـاب فجـأة، جدّتـك تـأتي مهرولـة عـلى صـوت صراخـي. ترمقنـا في غضـب مكبـوت وتوجّـه كلمـات ناهـرة لأبيـك فينهـض مغـادرا. لعلّهـا حسـبتنا نواصـل شـجارا بدأنـاه في الصّبـاح. ومـا أن اختليـت بنفـسي حـتّى وضعـت رأسي عـلى السّريـر وانحرطـت في بـكاء مريـر. بكيـت أبـاك وبكيـت نفـسي، وبكيتـك.

facebook.com/groups/exchange.book

عزيزي خليل،

يطلع عليّ نهار جديد، وأنا امرأة أخرى غير التي باتت ليلتها. خرجت من غرفتك وتركتك نائما، على غير عادتي، وقد غادرني الهوس باختطاف جديد. جست عبر الفناء المقفر بعد صخب الاحتفال، أقتفي أثر أبيك. بدا المكان عاريا من كلّ زينة، وحاقت به كآبة غريبة، هي حتما صدى لما جاش في نفسي. لم أكن قد عقدت العزم على شيء، لكنّ ما قيل بالأمس لم يكن بالإمكان تجاهله. فكرت، هل يمكن لواجب مواساته أن ينسيني ما ألحقه بي من أذى؟ كنت أحاول إنشاء أولويّات في مشاعري. والغضب لم يكن مسموحا له بتصدّر القائمة، لأنّ مصاب أبيك كان أعظم من كلّ ما تخيّلت. وعتاب شخص يرى الموت يلتهم المسافات ليدركه لم يبد واقعيا آنذاك.

مشاعر الغيظ والقهر والهوان والغضب والغيرة.. كلّها انصهرت في بوتقة واحدة في أثناء نومي وذابت، ولم تخلّف في نفسي إلا بقايا ذريّتها رمادا حين نفضت لحافي في الصّباح. تعلم أنّني نطقت بالأمس بما لا أعني، حين صفعت والدك بكلمات قاسية. لم تكن قسوتها إلا صدى للجرح النّازف الذي غار عميقا في صدري. ولكنّني اليوم امرأة أخرى.

عبر باب المطبخ الموارب وصلتني ضحكاتهم. ضحكات عفويّة صافية، لأم وابنها الذي هبط في حضنها بعد طول غياب. تتبّعت الصّوت متوجّسة، حتّى وصلت. هل كان عليّ أن أطلع بعيني على موقف كهذا لأدرك ما عناه؟ لو أنّها كانت تعلم ما أصاب صغيرها، هل كانت البسمة لتعرف طريقا إلى ثغرها؟ أيّام قليلة إضافيّة من الحبّ والسّعادة والحبور، قبل أن يظهر المرض للعيان، فتدلّ عليه أعراضه وبصماته التي يخلّفها

facebook.com/groups/exchange.book

عـلى الجسـم والـرّوح.. هـذا مـا أراده.

انعكسـت أشـعّة الشـمس عـلى هيـكل المقعـد المعـدن، في لمعـان شـدّ نظـرات مـن بالدّاخـل إلى القادمـة المتطفّلـة الـتي كنتهـا. وقـف نـادر وجـاء باتجاهـي، ومـن دون تشـاور بيننـا، دفـع الكـرسيّ حـتّى الشرفـة الخلفيّـة. جلـس في هـدوء عـلى مقعـد بلاسـتيك ولـم يقـل حرفـا. لعلّـه خـشي بعـد ردّة فعـل الأمـس أن أتفـوّه بـكلام مجنـون أمـام والدتـه. لـم تكـن لتفهمـني عـلى كلّ حـال!

- المكان هادئ هنا.

قطعتُ الصّمت في محاولة لرأب الصّدع الذي شققته بالأمس.

- هـذا البيـت بنـاه جـدّي رحمـه اللـه.. هنـا ولـد أبي وعمّـي وتزوّجـا، وولـدت شـقيقاتي، قبـل أن ننتقـل إلى العيـش في عنّابـة. لكنّـه مرتبـط أيضـا بـكلّ ذكريات الإجـازات والمناسـبات العائليّـة والمشـاعر الجميلـة.. وهنـا.. هنـا.. قُتـل أبي أمـام عيـنيّ...

دسّ كفّـه في جيـب سروالـه وأخـرج الرّصاصـة. فغـرت فمـي مبهوتـة. لـم أكـن قـد انتبهـت لاختفائهـا مـن الإطـار. كنـت مفجوعـة في ولـدي فلـم ألتقـط التغيـيرات الـتي طـرأت عـلى القطـع الجامـدة.

- في هـذا الفنـاء كانـوا.. وخلـف البـاب اختبـأتُ. تـمّ الأمـر خـلال ثـوانٍ وجـيزة. حرّكـتُ دفّـة البـاب، فتهاطـل مطـر الرّصـاص في جنـون. ثـمّ انتهـى كلّ شيء. لـم يعلمـوا قـط أنّ الهاربـين الذيـن كانـوا عـلى أعقابهـم، قـد تسـلّقوا الجبـل تحـت سـتار الظـلام وباتـوا مختبئـين بـين الصّخـور النّاتئـة، يرتجفـون مـن البرد والرّعـب حـتّى طلـع علينـا نهـار يـوم مـضرّج بالدّمـاء. عمّـي كاد يجـنّ. أخفـى الغربـاء وتكبّـد في سـبيل حمايتهـم الغنـاء، ليلقـى أخـاه قتيـلا! لـو تأمّلـتِ، لرأيـتِ أنّ الأمـر قُـدّر لـه أن يكـون.. كانـت الأحـوال مضطربـة في المدينـة. سـافرنا مـن عنّابـة قبـل ذلـك بأيّـام، بعـد أن غـدا الوضـع مسـتحيلا. نسـمع كلّ يـوم عـن اغتيـالات ومداهمـات. وكان الرّعـب سـاريا مثـل ثعبـان هائـل

facebook.com/groups/exchange.book

يلتفّ على قلوبنا. نغلق أبوابنا ونتلصّص على الشارع من الشيش الخشب المغلق، كلّما تناهى إلينا دويّ إطلاق رصاص في الشوارع المجاورة. ركدت سوق العمل، ولم يعد أبي يجد ما يصنعه في ظلّ الفوضى المستحكمة. لذلك اتّخذ قرارا بالرّكون إلى ديار الأجداد. كان دافع خفيّ يسيّره في اتّجاه قدره. لعلّه نفس الدّافع الذي حدا بي إلى الهبوط هنا هبوطا اضطراريا حين دنا الأجل؟

ندّت عنّي زفرة طويلة. كأنّ كلماته تتكدّس ثقلا على صدري. فيواصل نزف الذكريات:

- كنت ولدا عاقّا طوال سنواتي الثلاثين! كلّ أمّ تنتظر أن يكبر أبناؤها ويحملوا عنها أعباء الحياة. ترنو إلى الرّجل الذي يزداد تعداد سنوات عمره، وتتوقّع أن يحطّ النّضج فوق كتفيه في أيّ لحظة! لكنّ ذكرها الوحيد يستمرّ في مراهقة متأخّرة. لا تسمع على لسانه إلاّ التذمّر والشكوى، ولا ترى في مقلتيه إلا العبث واللامبالاة. يزحف الشيب إلى فوديها ويفرد رداءه على مقدّمة شعرها، ولا شيء يهوّن عليها ترمّلها الباكر. هل كان عليّ أن أسافر وأغوص في غابة صبّار لأقرأ بعين أخرى آمالها وأمنياتها؟ مع كلّ وخزة شوكة تنغرس في جسدي يزداد اليقين الملحّ بضرورة العودة على الأعقاب. أن أوفيها حقّها من البرّ ما بقي في جسدي عرق ينبض. هل تفهمين ما أعني؟

أهزّ رأسي في صمت. لو كنت كلّفت نفسك عناء الشرح لكنت فهمت منذ الوهلة الأولى. لكنّك أبيت إلا أن تقذف بي خارج القارب. قلتُ فجأة:

- لا أريد أن أنزل من القارب.

نظر إليّ مستغربا. فأردفت بسرعة:

- هل فكّرت في خليل في كلّ هذا؟ جميل أن يكون برّ والدتك يشغلك بهذا القدر.. لكن من حقّ ولدك أيضا أن ينشأ بين أبويه، ولو كان قدره أن يفقد والده مبكّرا، فلماذا يفقد أمّه في نفس الوقت؟ أريد أن أكون

facebook.com/groups/exchange.book

جـزءا مـن الخطّـة.. إلى النّهايـة.

ردّ متحفّزا:

- وبعـد ذلـك؟ حـين تـأتي.. النهايـة، ترحلـين بـه إلى فرنسـا؟ وينـسى أصلـه ووطنـه؟ ينشـأ بعيـدا عـن جدّتـه وعمّاتـه وإرثـه الثقـافي والحضـاري واللغـوي؟

تغضّـن جبيـني في ضيـق. كان عـليّ طمأنتـه. لـم أكـن واثقـة ممّـا أنويـه بعـد ذلـك. لكنّـني اندفعـت:

- يمكنـني أن أسـتقرّ هنـا، مـع عائلتـك. ليسـت لـديّ عائلـة أركـن إليهـا في فرنسـا، غـير أمّـي. إن توصّلـت إلى إقناعهـا، فسـتحضر للعيـش معنـا. وإلاّ زرتهـا مـرّة او اثنتـين في السّـنة. وحرصـت عـلى ان يتعلـم خليـل لغتيـه بنفـس القـدر. يكـون جزائريّـا وفرنسـيّا. سـيحمل في قلبـه مزيـج الحضارتـين، كمـا تحمـل جيناتـه خليـط نطفتـين.

- هل تعدينني؟

- أعدك!

تنهيـدة ارتيـاح مـن قلـب مثقـل بالهمـوم. همـوم اليـوم والغـد. الفرحـة في عـين الأمّ ومسـتقبل الولـد. أمّـا هـذا الجسـد فهـو ذاهـب إلى هـلاك.

facebook.com/groups/exchange.book

الأربعاء ١٩ ديسمبر ٢٠٣٥، الساعة السابعة مساء،

قلب آخر صفحة من الرسالة الأخيرة، وبقي محدّقا في الورق في جمود. سمع خطواتها تقترب، فأعاد ترتيب الأوراق في المنضدة كما كانت واستقام جالسا.

- العشاء أصبح جاهزا.

قال في وجوم:

- لم تفي بوعدك له!

انتبهت إلى الرزمة التي عادت مكدّسة بعضها فوق بعض. أنهى القراءة إذن.

- بلى فعلت.. ما وسعني ذلك! لكنّ الظروف لم تكن مواتية طول الوقت.

- ما الذي حصل.. بعد اتّفاقكما ذاك؟

جلست، تضمّ قبضتيها عند حجرها، وقالت مسترجعة ذكريات بعيدة:

- بقيت هناك إلى جواره. أرسلت إلى أمّي أعلمها بقراري. ورغم كدرها، فإنّها لم تعارضني. لكنّها رفضت الانتقال للعيش معنا في الجزائر. كانت تزورنا من حين إلى آخر. ولم تطأ قدماي الأراضي الفرنسيّة ما دام أبوك على قيد الحياة.. كانت أيّاما فريدة، عببنا فيها من الحياة بنهم. كلّ يوم إضافيّ هو عطيّة غالية. وحين اقتربت الستة أشهر الأولى من الانتهاء، تملّكني الجزع. كنت أخشى أن يكون كلّ يوم نستقبل صباحه هو اليوم الموعود. وكان نادر يبدأ يومه بصلاة ليل طويلة قبيل الفجر، تشهد على صدق امتنانه لربّه على تأخير الأجل.. حتّى مرّت ستّة أشهر، وسبعة وثمانية، ثمّ سنة.. من دون أن تبدو عليه علامات انهيار حيويّ

facebook.com/groups/exchange.book

أو استسـلام لمـرض فتّـاك. نعـم، كان يعيـش بفضـل المسـكّنات. نعـم، كان يتحـدّث طويـلا إلى أشـباح هلوسـته في عمـق الليـل. لكنّـه يبـدو طبيعيـا متماسـكا في أثنـاء النّهـار، بشـكل لا يثـير شـكوك المحيطـين بـه. كنّـا نستسـلم أحيانـا لروتـين حيـاة أزواج عاديـين، فنتشـاحن ونتشـاجر.. ثـمّ نثـوب إلى رشـدنا ونعـوّض عـن تلـك السّـويعات الـتي أهدرناهـا في الخصـام.

- كم استمرّ ذلك؟

- ثلاث سنوات إضافيّة!

- كان الطبيـب النفـسيّ محقّـا إذن؟ حظـي بجـوّ عائـليّ مريـح مـدّ في عمـر مقاومتـه.

هزّت رأسها مؤيّدة وتشاغلت بسكب القهوة في الفناجين الصغيرة.

- كان نـادر قـد اقتـنى أرضـا زراعيّـة في الجـوار مسـتثمرا مدّخراتـه القليلـة، وكنّـا نقـضي جـلّ وقتنـا هنـاك. حـتّى جدّتـك، كانـت قـد أحبّـت فلاحـة الأرض وتعهّدهـا بالرّعايـة، فانكببنـا جميعـا عـلى اسـتصلاحها بجـدّ.. غرسـنا الأشـجار المثمـرة وزرعنـا الحبـوب، وفي كلّ مـرّة كنّـا نفعـل، كان نـادر يمسـك بالحبّـات في حنـوّ بالـغ ويهمـس إليهـا بـأن تنبـت سريعـا قبـل أن يوافيـه الأجـل. كان يـودّع الأشـياء ويبثّهـا الكثـير مـن المشـاعر، لعلّـه لا يلقاهـا مجـدّدا. يتسـاءل في كلّ موسـم حصـاد إن كان سـيعيش حـتّى موسـم الزّراعـة، ويتسـاءل في موسـم التقليـم إن كان سـيرى الأغصـان مخـضرّة مـرّة أخـرى.. يبـكى فى تأثّـر حـين تنضـج الخـضراوات ويحـين قطافهـا، ويكـون أوّل المسـتيقظين يـوم بدايـة الحصـاد، كي يمـلأ عينيـه مـن مشـهد سـنابل القمـح المنحنيـة قامتهـا ثقيلـة بحملهـا. يقـول في نشـوة: «هـل رأيـت؟ هـذا حصـاد آخـر نتمتـع بـه معـا!». لـم نُـثرِ مـن الفلاحـة، هـذا مؤكـد، بـل أحيانـا مـا كنـت أنفـق عـلى نفـسي مـن الحـوالات الـتي ترسـلها أمّـي مـن فرنسـا. لكنّهـا كانـت أجمـل أيامنـا عـلى الإطـلاق، رغـم شـبح المـوت المتربّـص. ولـم يكـن يفسـد متعتهـا عـليّ غـير وجـود زوجتـه الثانيـة عـلى مقربـة!

facebook.com/groups/exchange.book

- هل تزوّج حقّا؟

- ابنة عمّه، نعم! كانت قد تجاوزت الخامسة والثلاثين، وهي في عرف القرية قد غدت «عانسا». لذلك كان عليه أن يفعل.. إرضاء لعمّه، ووفاء بوعد والده. ولم أقدر على تفهّم ذلك على الإطلاق. الضرّة ضرّة، ولو كان الرّجل محكوما بالموت! لم يكن لإحدانا أن تحبّ الأخرى، لكنّ العلاقة كانت مسالمة ظاهريّا. بل كنّا نبدو منسجمتين ومتعاونتين لكلّ مشاهد خارجيّ، بشكل يثير الإعجاب والحسد! فقد كانت كلتانا شريكة في السرّ الصغير، رغم أنّني لم أغفر له أن استأمنها عليه قبلي، ورغم أنّني أشكّ في أنّ جدّتك قد أدركت حقيقة مرضه بفراسة الأمّ التي لا تخطئ. وكنت أغار منها.. جدّا. كانت بينهما حميميّة اللغة التي لا أفهمها، وذكريات طفولة سحيقة البعد، وميراث حضاريّ وثقافيّ وعائليّ لا يستهان به.. وأنا كنت الأجنبيّة الدّخيلة! لذلك فقد عزمت على أن أصبح واحدة منهم. تعلّمت العربيّة. جدّتك كانت معلّمة جيّدة. نبقى أنا وهي وجها لوجه، لا أحد يترجم بيننا، فإمّا أن يُقوَّم لساني أو يستقيم فهمها. ولكنّها كانت معرضة عن لغتي، وأنا كنت مقبلة على التعلّم بفعل الغيرة والرّغبة في التوحّد مع محيطي الجديد، فلا أبقى الغريبة إلى الأبد. تعلّمت إذن لهجة أهل أبيك، ودرّسني نادر بنفسه العربيّة الفصيحة، حتّى أتقنت قراءتها وكتابة حروفها. وخلال وقت وجيز تمكّنت من تصفّح الجرائد المحلية ومطالعة كتب الأطفال التي يشتريها أبوك من أجلك..

تركت ديانا مكانها وتناولت من المنضدة القريبة ألبوم صور قديمة، كانت قد أخرجته من مكمنه قبل وصول خليل. ولعلّها أمضت ساعات الليالي الفائتة تناجي الخيالات التي يضمّها بين دفّتيه. أبقته بين كفّيها لبرهة وقالت، بينما تتطاول نظرات خليل لاكتشاف ما يحجبه الغلاف:

- وفي تلك الفترة وقفت على قدميّ من جديد.. واستغنيت عن الكرسي..

- حقّا؟ كيف حصل ذلك؟

facebook.com/groups/exchange.book

- هناك أزمات تدكّنا.. وأخرى تُخرج من الأعماق أفضل ما فينا. وتلك الأزمة كانت من النّوع الثاني. كنت قد جرّبت العلاج الطبيعيّ لسنوات من دون فائدة. ثمّ استرجعت بعض العزيمة حين رأيت أباك يقاوم ظروفه ويواجه الموت.. أبديت بعض التقدّم آنذاك، لكنّني لم أستمرّ كثيرا. تمكّنت من الوقوف بضع مرّات.. لكنّني بقيت أعتمد على العجلات في تنقّلاتي. ثمّ، حين ضربت تلك الأزمة، أحسست بعظم المسؤولية التي تنتظرني. كنت سأبقى أنا وأنت، وحدنا، خلال وقت قصير! والدك أيّامه معدودة، وجدّاتك سيّدات طاعنات في سنّ تتهدّدهن أمراض الشيخوخة. هل يمكن أن نظلّ في حاجة إلى من يمدّ لنا يد المساعدة على الدّوام؟ كنت أنت حافزي هذه المرّة.. ونعم الحافز! من أجلك، من أجل أن أكون قادرة على العناية بك، واجهت ضعفي وتحدّيت عجزي. لم أعتمد على مركز للعلاج أو على معدّات تهمّ من هم في مثل حالتي، بل ارتجلت بما توافر في محيطي. وحيدة في الزّريبة، كنت أمضي ساعات، أحاول السّير على امتداد الحواجز الخشب التي حوصرت خلفها قطعان الخراف والبقر، لا يؤنسني غير الثغاء والخوار!

ضحكت، وهي تفتح الألبوم. قلّبت بضع صفحات قبل أن تتوقّف عند مشهد فتاة شابّة ترتدي عباءة سماوية باهتة، وتجمع شعرها تحت غطاء رأس مزركش. كانت تنحني في منتصف حقل قمح ناضج وتبتسم للعدسة. كانت ديانا أخرى. ديانا شابّة، فلاحة قرويّة.. وسعيدة. ضحكت وهي تناول ابنها الألبوم:

- ألا يليق بي هذا الشكل؟ ليت الزمن يعود إلى الوراء.. وأبقى هناك إلى الأبد!

سألها في اهتمام:

- لماذا لم تفعلي؟

- كانت ابنة عمّه عالية تجتهد لتحتلّ المشهد وتثبت حضورها. كانت

facebook.com/groups/exchange.book

تطبخ، وتتفوّق عليّ في الطبخ على الدّوام. حاولت أن أتعلّم أصناف الأكل التي يحبّها نادر من أمّه، لكنّني كنت أفشل. أعترف، ليس الطّبخ من مهاراتي، وأنت أوّل العارفين!

ضحكا. كانت ضحكتها رثاء لحالها، وضحكته مواساة حانية.

- ذهبتِ لأنّك خسرت «معركة» المطبخ؟ هناك معارك أخرى في «الحرب» من أجل البقاء!

- كنت أقنع نفسي بأنّه لا ضير من ترك تلك المهام لها.. الطبخ والتنظيف والغسيل والحياكة.. فأفرّغ وقتي من أجل العناية بك وبأبيك. لكنّ محاولاتها تلك كانت تجعلها تغنم مساحات من اهتمام نادر، وزخّات من ثناء جدّتك وتقديرها. وحزّ في نفسي أن أكون مرّة أخرى زوجة خرقاء بلا فائدة! وحين سقط نادر طريح الفراش في مرضه الأخير، تفانت في رعايته والسّهر على راحته.. رغم حملها الذي كان في شهوره الأخيرة.

- آه! لديّ إخوة غير أشقاء إذن!

- أخت. اسمها فائزة، على اسم خالة أبيك.. أمّ عالية. وضعتها بعد رحيل نادر بوقت قصير. كانت تعلم أنّ زوجها لن يعيش طويلا، لكنّه فرصتها الوحيدة -ربّما- لتصير أمّا.. حتّى لو اضطرت لتربية الطفل وحيدة. وربّما لو أسعفها الوقت لحرصت على إنجاب المزيد! لكنّ مشيئة الرّبّ قضت بألا تحبل على الفور. بالنسبة إليّ، كنتَ كافيا جدّا. خشيت ألا أكون قادرة وحدي على إيفائك نصيبك من الحبّ والاهتمام الذي يفترض بالأبوين معا تقديمهما.

قبل وفاته بأسابيع، اكتشفت أمر الرّسائل. كان يكتبها في هدأة اللّيل، فيخلو بك ويناجيك على الورق. وفي إحدى المرّات، غلبه الألم في أثناء الكتابة. أيقظني أنينه الشديد، فهرعت إليه أسنده وأحاول التخفيف عنه. حين مرّت النّوبة، أشار إلى كومة الورق التي تكدّست إلى جواره، وأوصاني بحفظها من أجلك. بعد ذلك، لم يعد قادرا على الجلوس أو الكتابة أو

facebook.com/groups/exchange.book

ممارسة أيّ نشاط يتطلّب جهدا وطاقة.

وفي ليلة شتويّة باردة، رحل والدك في وقت متأخّر.. قبيل الفجر. كان قد تألّم كثيرا. لم تعد المسكّنات ذات فائدة. قضى أيّامه الأخيرة يتلوّى ويئن ويثنيه الوجع. انقطع عن الأكل، فوصل طبيب القرية وريده بالسّائل المغذي. وكنّا نتداول على السّهر إلى جواره.. أنا وعالية وجدّتك. نراقب سحنته الشاحبة ووجنتيه الغائرتين وشفاهه الجافّة المتشققة.. الأعين التي تذوي وتغادرها الحياة. نرطّب فمه بقماشة مبلّلة، نحرص على نظافته الشخصيّة، ونبكي طالبين له الرّحمة. وحين جاءت تلك اللحظة الحتميّة وتسرّب من صدره الرّمق الأخير، كنّا مجتمعين عند رأسه. لم يكن يشعر بوجودنا أو يهتمّ له، كان يهذي بكلام كثير لا نفقه له معنى، ثمّ صعدت روحه إلى بارئها، مخلفا أمّا ثكلى، وأرملتين وطفلين يتيمين.

حاولنا أن نستمرّ على النّسق نفسه بعد ذلك. لكنّ هذا لم يكن ممكنا. كان الحزن قد رفع جدارا عازلا بين جدّتك والعالم الخارجي. ما عاد للأعمال الصغيرة نفس معناها القديم لديها. كانت قويّة من أجل ابنها. أخفت قلقها وحسرتها في صدرها حتّى لا يشعر بأنّ ما اجتهد في إخفائه كي لا يكدّرها، قد كان مكشوفا ناصعا أمام عينيها. لكن بعد رحيله، بدا أنّ جبالا من الألم قد حطّت الرّحال بين قسماتها دفعة واحدة في فجر ذلك اليوم. شاخت عشرين عاما على حين غرّة. ورغم محاولاتي وعالية أن نواسيها ونخفّف عنها، فقد كنّا كمن يحرث البحر. أوصدت قلبها على ذكرى الغاليين -نادر وأبيه- مثلما تحفظ الورد المجفّف بين صفحات الكتب، وطردت خارجه كلّ أسباب الحياة اليانعة. لم تكن قد لبست السّواد ولا أعلنت الحداد بعد رحيل زوجها. شمّرت على السّاعد ونهضت بمسؤولياتها الجسام، فجهّزت البنات وزوّجتهنّ، وعلّمت الولد وزوّجته ورأت أحفادها منه. أمّا وقد رحل، فقد آن لها أن تدخل مرحلة الحداد المؤجّلة. كان حزنها مضاعفا ومكثّفا، مثل شاي ثقيل غلى طويلا على نار جمر هادئة حتّى استحال سوادا. ثمّ رحلت عنّا بدورها.. بعد سنة واحدة

facebook.com/groups/exchange.book

مـن وفـاة نـادر.

لعلـك تتخيّـل، أنّ الحيـاة في بلـدة أبيـك غـدت غـير ممكنـة بعدهـا. لـم تعـد لي صلـة مبـاشرة بـأيّ سكّانها. مـن أجـل مـن أبقـى؟ وإلى مـن أركـن؟ كانـت زوجـة أبيـك الثانيـة قـد أخـذت عـلى نفسـها أن تنهـض بـكلّ أعبـاء الفلاحـة وتديـر مزرعـة العائلـة، بعـد أن شـاخ والدهـا بـدوره وتفرّقـت مـن حولـه البنات بزواجهـنّ، إلّاهـا. كنـت أراهـا تدخـل وتخـرج آمـرة ناهيـة، تتذمـر مـن ثقـل مهامهـا، تشـدّ الطفلـة الرضيعـة بوشـاح عريـض إلى ظهرهـا وتقصـد الحقـل منـذ طلـوع النّهـار. كانـت ذات همّـة وشـطارة، وكنـت أبـدو عالـة عليهـا. لـم أكـن أملـك نشـاطها وتفانيهـا، وقـد فـترت حماسـتي تجـاه الأرض بعـد وفـاة أبيـك. نظراتهـا كانـت تقـول: ارحـلي، لـم يبـق مـن مسـوّغ لمكوثـك!

في تلـك الفـترة، كنـت أبـكي كثـيرا. أفتقـد أبـاك بشـدّة، فأفتـح رسـائله إليـك وأقـرأ، أسـتزيد مـن صحبتـه. ورغـم أنّـني كنـت أعـرف كلّ مـا ورد فيهـا تقريبـا، إلّا أنّـه خصّـك بخلاصـة أفـكاره وخبرتـه في الحيـاة، مـا جعلـني أقرأهـا بتأثّـر وشـغف كأنّـني أكتشـف الأحـداث للمـرّة الأولى. بعـد ذلـك، شرعـت في الكتابـة إليـك أيضـا. لا أدري لمـاذا انتابتـني حاجـة ملحّـة للتوثيـق لتلـك التّجربـة قبـل أن تتبخّـر تفاصيلهـا مـن رأسي. انهمكـت أكتـب وأكتـب، كأنّمـا أصرف طاقـة الحـزن في اتّجـاه آخـر.. حـتّى وصلـت إلى العهـد الـذي قطعتـه عليـه بالبقـاء في الجزائـر. لـم أسـتطع أن أكتـب حرفـا بعدهـا. كلّمـا قـرأت السّـطور الأخـيرة مـن رسـالتي، غبـت في تفكـير متشـعّب، حـول الخيـارات المتاحـة.

كنـتَ قـد بلغـت الخامسـة. تتكلّـم العربيّـة غالبـا، وتفهـم الفرنسـيّة الـتي أخاطبـك بهـا في خلواتنـا، وتشـبه صبيـان الجـوار في شـغبك وشـكلك القـرويّ المغـبرّ، رغـم ملامحـك الأوروبيّـة. وكان عـليّ أن أتخـذ قـرارا. إن تأخّـرت في أخـذك إلى فرنسـا بضـع سـنوات أخـرى، فقـد تتعـثّر في تعليمـك هنـاك. فـإن كان العـزم بالعـودة، فـلا داعـي لتأخـيره. إمّـا بقـاء دائـم وقطـع مـع فكـرة الرّجـوع إلى بلـدي، وإمّـا رحيـل فـوريّ.

facebook.com/groups/exchange.book

وقـد جـاء خـلال شـهور قليلـة حـدث حسـم الـتردّد. ماتـت أمّـي، بسـكتة قلبيّـة، وحيـدة في شـقّتها، وأنـا بعيـدة عنهـا. وقـد عانيـت مـن تقريـع الضمـير لفـترة طويلـة بعدها.كنـت أديـن نفـسي لتخـليّ عـن أمّـي في مرضهـا لأمكـث مـع غربـاء! وهكـذا قفلنـا راجعـين إلى باريـس عـلى جنـاح السّرعـة، مـن أجـل مراسـم المأتـم والدّفـن. كان مـن المفـترض بهـا أن تكـون رحلـة قصـيرة، فلـم أكـن قـد نويـت بعـد موطـن اسـتقراري. فخلّفـت في الجزائـر متاعـي ومتاعـك ورسـائلي ورسـائل والـدك. لـم أكـن أدرك حينهـا أنّهـا رحلـة ذهـاب مـن دون رجعـة.

لكـنّ مكـوثي في شـقّتي القديمـة الـتي عرفـت فيهـا طفولـتي وسـنوات الشّـباب الأولى، كانـت مبعـث حنـين ووجـع. وكان مزاجـي يتأرجـح بـين حالتـين. الأولى تقـول بأنّـه لـم يعـد لـديّ مـا يربطـني بفرنسـا بعـد رحيـل آخـر مـن تبقّـى مـن عائلـتي، والأولويّـة لـك الآن حـتى تعيـش محاطـا بعمّـات وأقـارب مـن العائلـة الممتـدّة. والثّانيـة تقـول بأنّـني إن رجعـت الآن إلى الجزائـر، فقـد تنتهـي صلـتي بفرنسـا إلى الأبـد!

النّـاس يتغرّبـون غالبـا لحاجـة. عمـل أو دراسـة أو ثقافـة ومتعـة. حـين تنتفـي الحاجـة أو تُقـضى، يفكّـر المغـترب في العـودة إلى وطنـه. لكـنّ طـول الإقامـة وانقطـاع حبـل المرسـاة الـتي تربطـه بالوطـن الأصـليّ قـد تجعلـه يسـتبدله بوطـن جديـد. العائلـة تمثّـل أمـتن جـزء مـن الحبـل، ثـمّ هنـاك التعـوّد ونمـط العيـش. وأنـا كنـت قـد فقـدت كلّ صلـة عائليـة بفرنسـا، وتقمّصـت دور السـيّدة الرّيفيـة الـتي تشـكّل الأرض محـور وجودهـا، حـتّى أتقنتـه. أيقنـت في تلـك اللحظـة أنّـني عـلى وشـك اسـتبدال وطـني.

لا يجـدر بالمـرء أن يتّخـذ قـرارات مصيريّـة تحـت وطـأة الضغوطـات، لكنّـه إن لـم يفعـل، فالضغوطـات ستسـتمرّ! وقـد كنـت في تلـك الآونـة أرزح تحـت ضغـط رهيـب مـن إحسـاس بالذنـب تجـاه أمّـي، والمسـؤوليّة تجاهـك، والوفـاء لأبيـك، والخـوف مـن المسـتقبل. ثلاثـة منهـا، أقنعـت نفـسي بأنّهـا تصـبّ في اتّجـاه واحـد.. وحـده الوفـاء لعهـدي تجـاه نـادر لـم يكـن بمقـدوري

facebook.com/groups/exchange.book

أن أحافـظ عليـه إلى الأبـد. غلـب حنيـني إلى حيـاة المدنيّـة الأوروبيّـة البـاردة عـلى أُنـسي لوداعـة العيـش في الرّيـف الجزائـريّ النـضر. فحططـت الرّحـال في حـيّي القديـم، وأنـت عائلـتي وكلّ دنيـاي.

عـدتُ وقـد ازددتُ عقـودا مـن خـبرة الحيـاة. تعلمـتُ لغـة وتعرّفـت إلى حيـاة مـن نـوع آخـر. وقفـت عـلى قدمـيّ، واسـتغنيت عـن الكـرسيّ ذي العجـلات بشـكل نهـائيّ. رأيـت المـوت -مـرّة أخـرى- يخطـف المقرّبـين. وكان عـليّ أن أصمـد وأبقـى شـامخة مـن أجلـك.

بـاقي القصّـة يعرفهـا خليـل. بعـد مـرور كلّ تلـك السّـنوات، لـم يتبـقّ مـن هويّتـه العربيّـة غـير اسـم يحملـه في بطاقتـه الرّسـميّة وشـعر أسـود فاحـم هو كلّ مـا ورثـه مـن شـبه بأبيـه. ديانـا تناديـه بـ«دانيـال». وكذلـك تفعـل زوجتـه وأصدقـاؤه المقرّبـون. ربّمـا لـو سـعت بجـدّ لتمكّنـت مـن تغيـير الاسـم في الأوراق الرّسـميّة أيضـا، اكتفـت بإضافـة دانيـال كاسـم أوسـط. كانـت تحـاول التـصرّف بمـا تقتضيـه مصلحتـه، فتتوقّـف في منتصـف الطريـق حـين تردعهـا بارقـة وفـاء لزوجهـا الرّاحـل ووعودهـا الباهتـة لـه. مـع الوقـت، لـم يتبـقّ مـن معـاني الوفـاء إلا صـورة يتيمـة للعائلـة الصّغـيرة تتصـدّر غرفـة المعيشـة، التقطـت في أثنـاء جولـة السـياحة تلـك. وحكايـات متباعـدة عـن الوالـد، مـسرح أحداثهـا باريـس وحدهـا. في ذكرياتهـا المرويّـة، مسـحت ديانـا حقبـة الجزائـر وطمسـت معالـم البلـدة الريفيّـة.

نشـأ خليـل وهـو يعتقـد أنّ والـده قـد تـوفي بسـبب ورم خبيـث حـين كان في الثانيـة أو الثالثـة، سـنّ مـن المفـترض ألا يذكـر فيهـا شـيئا. لكنّـه يذكـر. ترتسـم في رأسـه صـور ضبابيّـة عـن رجـل مسـجّى عـلى فـراش المـرض، وعـن مسـاحات شاسـعة كان يركـض فيهـا بحريّـة ويطلـق ضحـكات صاخبـة مـع أطفـال شـعثٍ غـبرٍ. لـم يكـن ذلـك في باريـس، حيـث الشـقة الصّغـيرة

facebook.com/groups/exchange.book

المعلّقـة، والملعـب النظيـف المسـيّج، والأطفـال المهذّبـون المنضبطـون يلعبـون مـن دون ضوضـاء تحـت مراقبـة لصيقـة مـن الأمّهـات والمربّيـات. حسبها أحلامـا، مجـرّد أحـلام جامحـة متمـرّدة. تمامـا مثـل رحلـة الصّيـد عنـد الجـدول الضيّـق، ولعبـة الاختبـاء بـين سـيقان القمـح الصفـراء الشـامخة، وتسـلّق الأشـجار المثمـرة.. والسّـقوط الحـرّ عـلى فـراش ورق وحبّـات زيتـون. الآن يعلـم أنّـه ليـس هنـاك مـا هـو أوفى مـن ذاكـرة طفـل صغـير.

- ما هذه؟

كان قـد سرح في ألبـوم الصّـور، ينعـش ذاكرتـه المتقادمـة ويبحـث في ثناياهـا عـن قطـع ينفـض عنهـا غبـار السّـنين، حـين قاطعتـه ديانـا وهـي تمـدّ إليـه ورقـة أخـيرة، كانـت مطويّـة أسـفل تـلّ الرّسـائل.

- عنوان.. عنوان فندق في باريس.

دلـف إلى المكتـب، وهـو يشـعر بـأنّ أشـياء كثـيرة تغـيّرت مـذ غـادره آخـر مـرّة، منـذ يومـين. ألقـى تحيّـة عـلى جانيـت الـتي اهتّمـت بالسّـؤال عـن صحّتـه بعـد غيابـه بالأمـس، ثـمّ فتـح الرّسـائل ليواجـه المواعيـد المؤجّلـة الـتي سـتتراكم في مسـاحة اليـوم الجديـد، إضافـة إلى مواعيـده المقـرّرة.

بـين موعديـن، فتـح محـرّك البحـث، ورقـن اسـم «نـادر الشـاوي». ظهـرت مجموعـة مـن النتائـج. تصفّحهـا باهتمـام، محـاولا فرزهـا عـلى ضـوء المعطيـات الجديـدة. ليسـت المـرّة الأولى الـتي يمـارس فيهـا تلـك اللعبـة. منـذ سـنوات، كلّمـا اسـتبدّ بـه الفضـول ليعـرف أكـثر عـن والـده، كان يبحـث في صفحـات الأسـماء المشـابهة، يتأمـل الصّـور ويتسـاءل.. هـل يكـون والـده قـد هجـر أمّـه وأنشـأ لنفسـه عائلـة أخـرى في مـكان بعيـد، فادّعـت وفاتـه تخفيفـا للصّدمـة؟ يحـاول أن يميّز شـبها مـا، بـين صـور أولئـك الغربـاء الذيـن

facebook.com/groups/exchange.book

يتلصّص على حياتهم الخاصّة، والرّجل الذي يعرفه من صورة وحيدة عمرها ثلاثون عاما. لعلّه سيتوصّل إلى إجابة تشفي الغليل هذه المرّة.. وقد أنهى الرسائل كاملة.

عاين الصّفحات ذاتها، تلك التي يقع عليها في كلّ مرّة، حتّى حفظ وجوه أصحابها. ثمّ خطرت بباله فكرة. رقن اسما جديدا. «رنيم شاكر». بدا الاسم مألوفا حين سمعه للمرّة الأولى. بسرعة ظهرت سلسلة من النّتائج التي أكّدت ظنونه. فتح صفحتها الشخصيّة التي تصدّرتها صورة حديثة. وجهها مألوف أيضا. قرأ البيانات على عجل. أستاذة القانون في جامعة «باريس دوفين». هكذا إذن. لعلّه صادفها في أروقة الجامعة؟ لم يجمعه معها لقاء مباشر، لكنّه يتخيّلها الآن، تمرّ حذاءه بمشية جادّة معتدّة بنفسها، بكفّها حافظة تضمّ أجهزتها وملفّاتها الإلكترونية. لعلّها ظهرت على شاشة التلفاز أيضا.. يكاد يستحضر صوتها وطريقة كلامها وهو يتأمّل صورتها. سجّل معطياتها في ذاكرة جهازه. ستخبره ديانا إن كانت هي «رنيم شاكر» المعنيّة.

في جيب بنطاله، تستقرّ قصاصة الورق مع بيانات الفندق. ربّما عليه أن يتّصل، يكتشف من يحاول التّواصل معه. يتغضّن جبينه في تفكير يستغرقه. نبتت لعائلته تلك الليلة أطراف جديدة. جدّة لأبيه، زوجة أب وأخت غير شقيقة. وماذا يعني أن تمتدّ شجرة العائلة، في تلك الآونة بالذات، وهو يستعدّ ليكون نائبا للشعب في البرلمان الفرنسيّ؟ يتخيّل قريبا من الدّرجة الثالثة أو الرّابعة، يحمل إليه وصيّة ما.. وصيّة جدّته أو زوجة أبيه؟ بشكل ما، يكون هو الوريث الوحيد لثروة ما. كم هو في حاجة إلى تمويل إضافي لحملته الانتخابيّة. كم سيصنع الخبر فرقا في وضعيته تلك! هديّة غير متوقّعة في الزّمن بدل الضّائع.

بل لعلّه قريب طمّاع، اكتشف ترشّحه للبرلمان فقصده بنيّة الابتزاز! ربّما احتفظ لنفسه بنسخة من الرّسائل، يهدّده بها إن هو رفض تسوية ماليّة سخيّة، فيفضحه في وسائل الإعلام!

facebook.com/groups/exchange.book

عـادت الرّسـائل لتشـكّل كابوسـه مـرّة أخـرى. إن لـم يعـرف مـن وراءهـا، فستظلّ الظنـون تؤرجحـه بـين تفـاؤل وتشـاؤم. عليـه أن يتّصـل. كـوّن الرّقـم، وهـو لا يـدري عمّـن يسـأل! حـين جـاءه الـردّ، قـال إنّ قريبـا مـا تـرك عنـوان الفنـدق وطلـب منـه الاتّصـال، وهـو يجهـل تمامـا مـن يكـون، لكنّـه مـن عائلـة الشّـاوي! أصغـى إليـه الموظّـف مـن دون ملاحظـات سـخيفة، دوّن اسـمه ثـمّ طلـب منـه الترقّـب لبرهـة.. حـين عـاد إليـه، توقّـع خليـل أن يعلـن رحيـل القريـب. مـن سـينتظر في فنـدق باريـسيّ لمـدّة أسـبوع كامـل، اتّصـالا قـد يـأتي وقـد لا يـأتي؟ لكـن لمفاجأتـه، أعلـن الموظّـف أنّ الشـخص المعـنيّ ليـس في الغرفـة، لكنّـه تـرك تعليمـات لمكتـب الاسـتقبال بإعـلام كلّ مـن يسـأل عنـه بوجـوده بعـد السّـاعة الرّابعـة مـن عـصر كلّ يـوم!

طالـع سـاعته، كانـت تشـير إلى الثانيـة ظهـرا. سـينتظر بعـض الوقـت قبـل أن يتّجـه إلى العنـوان.

- جانيت، اتّصلي بالخبير المعماري رجاء.

أرسـل أوامـره عـبر الهاتـف الدّاخـلي، ثـمّ جهّـز الملفـات الخاصّـة بقضيّـة رسـتم. زار المحكمـة صباحـا قبـل مجيئـه إلى المكتـب، لرفـع طلـب إيقـاف الهـدم. كان ينهـي إدخـال المعطيـات عـلى جهـازه الشـخصيّ، حـين سـمع دقّـات موقّعـة عـلى البـاب، تلاهـا اقتحـام برونـو لعزلتـه بحضـوره المهيمـن. اقـترب بمشـيته المعتـدّة وابتسـامته الـودود:

- عرفت أنّك كنت في إجازة يوم أمس. هل أنت بخير؟

- بعض الإرهاق، لا غير.

- اهتمّ بنفسك جيّدا. يجب أن تكون في كامل لياقتك يوم المقابلة!

قاطعهما صوت جانيت على الهاتف الدّاخلي:

- أستاذ دانيال، الخبير على الخطّ.

ضغـط خليـل عـلى زرّ الـردّ في اهتمـام وانـبرى يحـدّث الخبـير، بينمـا وقـف برونـو مسـتمعا.

facebook.com/groups/exchange.book

- نعـم سـيّدي، نحتـاج تقريـرا مسـتعجلا بشـأن أحـد البيـوت المهـدّدة بالسّـقوط، في المنطقـة المتـضرّرة مـن زلـزال ٢٠٢٩.. هـل يناسـبك يـوم غـد؟ ممتـاز..

ما أن أغلق الخطّ حتّى بادره برونو في ضيق:

- هل تعمل على قضيّة متعلّقة بإسناد مبان قديمة في منطقة الزلزال؟

رمقه خليل بدهشة:

- هـل كنـت تعلـم بشـأن ذلـك؟ أنّ بيوتـا عـلى وشـك الانهيـار تؤهّـل للسّـكن، بعلـم الدّولـة؟

- اسـمع، هـذا يحصـل منـذ سـنتين.. ولـم يحصـل أن انهـار أحدهـا. لذلـك فـإنّ الموضـوع لا يدعـو إلى القلـق.

- تعـني أنّ ذلـك لـم يحصـل بعـد! لكنّهـا بيـوت متصدّعـة! لقـد رأيتهـا بعيـني! والخبـير في نهايـة الأمـر سـيقرّر مـا إن كانـت صالحـة للسّـكنى أم لا..

زفر برونو وبدا محتدّا وهو يستطرد:

- دانيـال، ابـق بعيـدا عـن هـذا الموضـوع رجـاء! أنـت الآن مرشّـح للبرلمـان، والعبـث بمثـل هـذه الملفّـات قـد يُفقـدك المصداقيّـة. خـبّرني صراحـة، مـن هـم المتـضرّرون المحتملـون؟ إنّهـم أشـخاص منبـوذون، مشـاريع إرهابيّـين، تـأذّى منهـم جيرانهـم فطردوهـم إلى المناطـق المهجـورة. ومـاذا لـو انهـار مـنزل أحدهـم فـوق رأسـه، هـا؟ إنّهـا مجـرّد نفـس خبيثـة نتخلّـص منهـا!

ظهـرت عـلى ملامـح خليـل الصّدمـة وهـو يحـدّق في برونـو غـير قـادر عـلى الـردّ، فـأردف برونـو:

- إنّهـا مبالغـة يـا صديقـي، تعـرف أنّـني لا أعـني ذلـك حتمـا! كلّ النّفـوس البشريّـة جديـرة بالاحـترام، لأنّ «الوطـن للجميـع» كمـا تعلـم! لكنّـني أريـدك أن تـرى أنّ أسـوأ مـا قـد يحصـل ليس بهـذا السّـوء في نهايـة الأمر.. وأنا مسـتعدّ للمراهنـة عـلى أنّ أيّـا مـن ذلـك لـن يحصـل. الدّولـة أكـثر حكمـة مـن أن تعرّض

facebook.com/groups/exchange.book

أبناءها لهذه المخاطر.. ولا شكّ أنّ خبراءها قد فحصوا المنطقة بشكل دقيق قبل فتحها من جديد. لكنّك تتعامل مع الأمر ببعض الحساسيّة، لأنّ الموضوع يهمّ من هم من نفس جذورك...

ألقى ملاحظته الأخيرة بلهجة المتفهّم، كمن ضبط طفلا بدينا يلتهم الحلوى، لكنّه يعده بالصّفح والتجاوز إن وعد بعدم معاودة الكرّة! تسارعت الأنفاس في صدر خليل. أصبح الأمر شكلا من التّحدّي:

- إذن فلنترك الخبير يؤدّي مهمّته، ويثبت صحّة ما تقول!

احتقن وجه برونو وانتفخت أوداجه، ثمّ قال بما أمكنه من ضبط النّفس:

- العناد لن يكون في صالحك!

لوّح بسبّابته في تهديد سافر، ثمّ استدار على عقبيه ومشى خارجا.

أسند خليل جبينه إلى كفّه وأغمض عينيه في إعياء.

إنّه عربيّ الأصل شاء ذلك أم أبى، وستبقى لعنة الاسم تطارده إلى الأبد. لا يهمّ إن كان قد تربّى في فرنسا، في محيط فرنسيّ صرف، سيظل في نظر الآخرين عربيّا، حتّى يُثبت العكس. هكذا يراه الفرنسيّون الذين ينتمي إليهم. بل هكذا يراه أقرب النّاس إليه. أليست تلك الحقيقة؟ تنقشع السّحب عن ذهنه في لحظة صفاء. ما الذي يجري يا خليل؟ هل يستحقّ الأمر أن تتشاحن مع شركائك وتغامر بوظيفتك ومصدر رزقك؟ ما الذي سيتغيّر بعد كلّ العناء الذي ستبذله والصّراعات التي ستخوضها؟ سترجع مثخنا بجراحك، صفر اليدين!

أعلن رنين جهازه وصول رسالة عاجلة. ردّ المحكمة. وصل في وقت قياسيّ مقارنة بما عهده لمثل هذه المعاملات. فتحه على الفور، ثمّ تلا نصّه مرّة تلو الأخرى بصوت عال، يواجه الحقيقة العارية. لا فائدة. تمّ رفض التماسه بوقف أعمال الهدم.

قُضي الأمر.

facebook.com/groups/exchange.book

ماذا تقول إذن؟ الوطن للجميع؟! يا للهراء!

تشـقّ السـيّارة طريقهـا في زحمـة السّـير الباريسـيّة، وخليـل سـارح شـارد الحـواسّ. يسـتعيد في مـرارة كلمـات برونـو المؤذيـة. مشـاريع إرهابيّـين؟ إذن فلـنزد الاحتقـان احتقانـا، لنطـأ عـلى الجـرح بأحذيـة عسـكريّة ثقيلـة، نتركـه يتعفّـن ويتقـرّح، ويُنبـت في أعماقـه حقـدًا يجـرّ في أعقابـه إرهابًـا. فكّـر، هـل يمكـن لمحمّـد رسـتم أن يغـدو أحـد إرهابـيّي الغـد؟ يكفـي أن يشـهد مقتـل والـده تحـت سـقف المـنزل المتداعـي، واعتـداءً عـلى شـقيقته بعـد أن ترابـط شـهورا أمـام مكتـب المدّعـي العـام.. يكفـي أن ينهـار عالمـه أمـام عينيـه ليفقـد البوصلـة، فيلبـس حزامـا ناسـفا ويفجّـر نفسـه في أحـد ميادين باريـس! عـلى مـن يقـع اللّـوم، لـو أنّ السـيناريو الـكارثيّ الـذي يحْـضُره يتحقّـق؟

أوقـف السـيّارة أمـام الفنـدق ذي النّجمتـين اليتيمتـين وزمّ شـفتيه في امتعـاض. لا يمكنـه أن يطمـع في وجـود قريـب ثـريّ ينتظـره في بهو فنـدق كهذا. عليـه أن ينـسى فرضيّـة الميراث الوفـير إذن. دفـع دفّـة البوابـة الزّجاجيـة، ثـمّ توجّـه رأسـا إلى مكتـب الاسـتقبال. وهـو يعـبر البهـو بخطـوات واسـعة، يـراوده شـكّ غريـب عـلى حـين غـرّة. مـاذا لـو كان أبـوه عـلى قيـد الحيـاة؟ أمّـه كذبـت منـذ سـنوات طويلـة بشـان اصلـه وتاريـخ ابيـه.. مـا الـذي يمنعهـا مـن تكـرار ذلـك؟ مـاذا لـو كان رجـل سـتينيّ كفيـف ينتظـره في هـذا الفنـدق التّعـس؟ يتخيّلـه الآن، عـلى هيئـة أبي محمّـد، رقيـق العـود محنيّ الظهـر مجعّـد الوجـه والكفّـين. وتـلازم لاوعيـه صـورة سـقف حجـري ينهـار، ليحطّـم جمجمـة شـيخ لا يمـيّز ملامحـه.

قبـل أن تشـطح بـه الخيـالات بعيـدا، انتبـه إلى عائلـة مؤلفـة مـن زوجـين وطفلـين، تحتـلّ أحـد صالونـات البهـو. السـيّدة الشـابّة كانـت تراقـب البـاب في انتبـاه. تلاقـت نظراتهمـا لبرهـة، ثـمّ تجاهلهـا وتابـع مسـاره باتجـاه موظّـف

facebook.com/groups/exchange.book

الفنـدق. عـرّف بنفسـه، وسـأل عـن الشّـاويّ الآخـر.. فأشـار الموظّـف إلى نقطـة خلـف ظهـره. حـين اسـتدار، رأى السـيّدة ذاتهـا تشـدّ عـلى ذراع زوجهـا، ليقفـا معـا في اسـتقباله.

خطـا باتّجاههمـا بـتردّد. ألقـى التحيّـة، ثـمّ مـدّ كفّـا ليصافـح الرّجـل من دون حـرارة. ابتسـامة لبقـة عـلى شـفتيه، يحـاول ألا تكـون متكلّفـة أو مبالغـا فيهـا. إنّهـا مجـرّد مقابلـة بـين غربـاء صـادف انتماؤهـم إلى شـجرة العائلـة نفسـها. احتـار كيـف يسـلّم عـلى المـرأة. مـن عادتـه أن يقبّـل الوجنتـين، لكنّهـا كانـت تضـع وشـاحا متزمّتـا عـلى رأسـها يوحـي بنـوع مـن التحفّـظ. إذن مصافحـة سـتكفي. فوجـئ بهـا تتجاهـل كفّـه وترتمـي عليـه معانقـة في اندفـاع عاطفـيّ جـارف. ربّـت عـلى ظهرهـا في ارتبـاك، بينمـا ارتفـع نشـيجها بـين ذراعيـه. بعـد ثـوان، فكّـت وثاقـه واسـتقرّت بهـم الجلسـة، لتواصـل البحلقـة فيـه بعينـين واسـعتين تلتهمانـه بينمـا تكفكـف الدّمـع المنهمـر. تكلّـم أخـيرا:

- كيف حالكم؟ هل كانت سفرة طويلة؟

شرح الـزّوج كيـف رأت فائـزة ذات يـوم عـلى شاشـة التلفـاز، بمحـض الصّدفـة، برنامجـا يتحـدّث عـن الانتخابـات الفرنسـيّة المرتقبـة، فانتبهـت إلى اسـم أخيهـا بـين المترشّـحين. رغـم محاولتـه إقناعهـا بأنّـه مجـرّد تشـابه أسـماء ربّمـا، فقـد أصرّت عـلى البحـث والتقـصّي. الصّـورة وتاريـخ الميـلاد كانـا كافيـين لتجـزم بأنّـه هـو، وتـشرع عـلى الفـور في التّجهـيز لرحلـة عائليّـة إلى باريـس. كانـت بحوزتهـا كومـة الرّسـائل تلـك. قرأتهـا مـرّة بعـد مـرّة حـتى حفظتهـا. وكان مـن واجبهـا إيصالهـا. قاطعـت زوجهـا لتـشرح:

- لـم أظـنّ أنّـني قـد أصـل إليـك يومـا، لذلـك سـمحت لنفـسي بالاطّـلاع عليهـا.. ثـمّ، أبي لـم يـترك لي شـيئا. كان قـد رحـل قبـل ولادتي. لذلـك فقـد اعتـبرت مـن حقّـي أيضـا أن أعـرف عنـه..

هـزّ خليـل رأسـه متفهّمـا. لـو كان مكانهـا لفعـل الـشيء نفسـه. ثـمّ، مـن ذا الـذي يكلّـف نفسـه عنـاء السّـفر مـن بلـد إلى آخـر لإيصـال رسـائل متأخّـرة؟

facebook.com/groups/exchange.book

بين طيّات كلماتها، يصله تأكيد ضمنيّ على وفاة الرّجل الذي منّى نفسه بلقائه. كانت فائزة تواصل شرحها:

- لم أرد أن أدخل عليك فجأة وأقول: أنا أختك التي لا تعرفها. لم أكن أدري ما الذي أخبرتك به أمّك بالضبط.. ربّما كنت لتطردني، جهلا بي. لذلك فضّلت أن تصلك الرّسائل أوّلا، فنتجاوز مرحلة الشكّ والإثبات.

يهزّ رأسه بشكل متواصل يوحي بالاهتمام، بينما يتساءل في سرّه: وماذا بعد؟ ما الذي جاءت تطلبه هذه الأخت بعد كل هذا الوقت؟

- هذا نادر.. وهذا خليل.

تشير إلى الولدين الجالسين في وداعة وأعناقهما مشرئبة باتّجاه الخال الجديد. يمدّ كفّه ليمسح على رأسيهما بحركة مجاملة. يتأمّل خليل برهة. ما من شبه بينهما. لكنّه لا يمنع نفسه من الدّهشة، لتلك الأخت التي تحرص على أن يحمل ابنها اسم أخ لم تره يوما.

- أمّي.. كان بودّها أن تراك، مرّة أخرى. لكنّها ترهب الطائرة. لم تشأ أن ترافقنا..

ماذا تطلب الآن؟ أن يسافر هو إليها؟ أن يزور زوجة أبيه التي عكّرت حياة أمّه سابقا؟ حاول ألاّ يبدو الامتعاض على وجهه ويحافظ على تعبيره المهذّب، بينما تابعت:

- ثمّ هناك ميراث أبي رحمه الله.. لن تشعر بالرّاحة حتى يصل إليك حقّك كاملا. لم يكن في نيّتها أن تحرمك منه، لكنّها لم تقف لأمّك على أثر بعد رحيلها. اختفت فجأة ولم تعاود الاتصال..

آه. هناك ميراث إذن في نهاية الأمر!

دفعت إليه ظرفا مغلقا. تحسّسه في فضول واهتمام.

- صكّ ملكيّة نصيبك وأمّك من أرض أبي.

تلك الأرض الصغيرة؟ ميراث هزيل إذن.

facebook.com/groups/exchange.book

- إضافـة إلى نصيبـك مـن تركـة جـدّي.. عـمّ أبي. كان قـد أوصى لأبي، ولـك مـن بعـده، كأنّـه ابـن مـن صلبـه. وصـكّ بنـكي بإيـرادات الأراضي لأكـثر مـن عقديـن ماضيـين.

رفـع حاجبيـه دهشـة هـذه المـرّة. لـم يـدار فضولـه وهـو يفـضّ الظـرف، ويطالـع المبلـغ الـذي كتـب عـلى الصـكّ. ثـمّ رفـع حاجبيـه أعـلى، وأعـلى.. قبـل أن يعـود بنظراتـه إلى فائـزة وزوجهـا.

- لا أدري ماذا أقول!

- لا تقل شيئا.. هذا حقّك.

تضيف مداعبة:

- إن كنـت لا تعـرف الشـاويّة، فـالأرض بالنّسـبة إليهـم أغـلى مـن الذّهـب. قـد يصـل بهـم الأمـر إلى سـفك الدّمـاء ومقاطعـة الأهـل ونكـران الذّريّـة مـن أجلهـا! لذلـك لا تسـتهن بمـا يُعـرض عليـك اليـوم.. فالأمـر قـد لا يتكـرّر عـلى مـرّ عصـور مقبلـة!

يبتسـم، ويـسرح مفكّـرا بمـا يمكنـه فعلـه بمبلـغ مماثـل. أبـواب كثـيرة تفتـح، ويتسـع مجـال الإمكانيات.

بعـد نصـف سـاعة، كان يقبّـل فائـزة عـلى وجنتيهـا ويصافـح زوجهـا. لديـه مشـاغل كثـيرة تنتظـره. يعتـذر. كان بـودّه لـو رافقهمـا في جولـة سـياحيّة، لكـنّ الحملـة الانتخابيـة عـلى أشـدّها ولا وقـت لتضييعـه. تعتـذر، لـم تـرد أن تكـون عبئـا عليـه. كلمـات كثـيرة مجاملـة. تحمّلـه سـلاما لأمّـه وزوجتـه وابنتـه وتتمـنّى أن تلقاهـنّ. يرسـل سـلاما باهتـا لأمّهـا المتخلّفـة وراء البحـر. لا يعـرض عليهـا أن تـزور بيتـه، ويشـعر بخيبتهـا رغـم عبـارات التفهّـم. لـم تقطـع كلّ تلـك المسـافة لتكتفـي بثلاثـين دقيقـة مـن وقتـه الثّمـين.

يسألها في فضول وهو يهمّ بالمغادرة:

- ما الذي كنت لتفعليه لو لم أتّصل اليوم؟

facebook.com/groups/exchange.book

- كنت لأنتظر لنهاية الأيّام العشرة التي حجزتها في الفندق، ثمّ أرحل. لو لم تأت، لعرفت أنّك لا ترغب في رؤيتي.. ولتفهّمت ذلك. وكنت لأرسل إليك الظرف في كلّ الأحوال.

يسترجع كلماتها المرّة إثر المرّة وهو يقود سيّارته في طريق العودة. ينتابه إحساس مزعج بأنّه قد فطر قلبها. تعامل معها مثل غريب لا يدين لها بعواطف تقابل تلك التي أبدتها بسخاء. يصيبه إحباط مفاجئ. يوقف السيّارة على جانب الطريق السّريعة ويجلس ساهما وراء عجلة القيادة. يتذكّر كلمات فائزة وهي تودّعه: «إن شئت بيع الأرض، نشتري منك.. لكنّنا نفضّل أن تبقى لك، صلة بأهلك في تلك البقعة القصيّة من العالم.. لعلّك تفكّر يوما في وصلها.. ووصلنا»، فينتابه سخط شديد، لا مبرّر له.

وصل متأخّرا مثل كلّ ليلة من هذا الأسبوع الطويل. لم تعد سيلين تبدو قلقة أو متوتّرة. إنّها غاضبة حدّ اللاّمبالاة بوجوده من عدمه. ربّما حان وقت المكاشفة. يستدعيها بهدوء لجلسة مصارحة في غرفة المكتب، فتستجيب على مضض. تجلس حيث أشار، معقودة الذّراعين والسّاقين، مصعّرة وجهها، مزمومة الشّفتين. يبحث عن بداية ممكنة.

- حدثت أشياء كثيرة هذا الأسبوع. لقد عرفت من أكون!

تدير إليه نظرات ملؤها الاستغراب وغياب الفهم. يشرع في الحديث، عن أبيه الذي جاء إلى فرنسا مصارعا الموج، عن تشرّده ورصاصته، زواجه وهروبه، وشجرة العائلة التي تمتدّ فروعها هناك في الجزائر. يحدّثها عن زوّاره الذين لقيهم عشيّة ذلك اليوم. زوّار من الجزائر؟ آه.. لديه أهل هناك في نهاية الأمر! يرضي فضولها ويستدعي حبورها بحديث الميراث. تنطلق قسماتها وتعاتبه بحنان، ما كان عليه أن يخفي اكتشافاته ويحتفظ

facebook.com/groups/exchange.book

بهـا لنفسـه! يفاجـأ مـن ردّة فعلهـا الهادئـة والسلسـة. عانقتـه بحـبّ وهـي تهمـس:

- خفت أن أفقدك بنهاية الانتخابات.

سـلوكه المريـب وغيابـه المتكـرّر أوحيـا إليهـا بأزمـة مـن نـوع آخـر! علاقـة بأخـرى؟ يبـدّد شـكوكها ويطمئنهـا لنقـاء ذهنـه مـن كلّ أثـر للخيانـة. ثـمّ يسـألها متقصيّـا:

- ألا يضايقك تاريخ أبي.. ولو قليلا؟

تبتسم في دلال:

- بـل هـذا يضيـف طبقـات مـن الإثـارة.. أنْ تكـون سـليل بعـض الرّحّالـة الشرقيّـين!

حـين اختـلى بنفسـه أخـيرا في غرفـة المكتـب، ابتسـم غـير مصـدّق. لقـد كان قلقـا أكـثر ممّـا يجـب. يصحّـح، هـذا الأمـر ليـس مهمّـا لأحـد، بقـدر مـا هو ذو أهميّـة لـه هـو. لـم يسـتطع أن يصـارح سـيلين ويعـبّر عـن مضمـون الرّسـائل بكلمـات مختـصرة وواضحـة، إلاّ بعـد أن تقبّلهـا هـو نفسـه.

تدخـل مريـم الصّغـيرة ذات الخمـس سـنوات وهـي تجـرّ حذاءهـا المـنزليّ الظريـف عـلى شـكل رأس أرنـب، وتحتضـن دميـة تبـكي.

- ألا تسكتينها؟

تدسّ المصاصة في فم الدّمية، فتسكت. تقول مريم باسمة:

- أحبّ أصوات الأطفال.. ألا تحبّها؟

يربّـت عـلى رأسـها مـن دون تعليـق. لـم يعـد يـدري مـا الـذي يحبّـه، ومـا الـذي يكرهـه. بـكاء الأطفـال مزعـج، تمامـا مثـل حقيقـة أصلـه العـربيّ. لكـن لا مفـرّ مـن مواجهتـه، اليـوم قبـل الغـد. يمـدّ يـده ويزيـح المصاصّـة، فينطلـق بـكاء الدّميـة بنفـس النّسـق. تتعـوّد عليـه الأذن بعـد برهـة، فيخفـت شـعوره بالانزعـاج، مثـل خلفيّـة موسـيقيّة مسـتمرّة. الإرهـاق يرفـع مـن حساسـيّته تجـاه

facebook.com/groups/exchange.book

الأصـوات النّـاشزة. في الأحـوال الأخـرى، يمكنـه تحمّـل صخـب فتاتـه أوقـات لعبهـا وضجيـج ألعابهـا. هـل يمكنـه مـع الوقـت أن يتعـوّد عـلى حقيقـة كونـه عربيّـا خـاض والـده غمـار البحـر ونجـا مـن الغـرق، ليتـشرّد في الشـوارع الفرنسـيّة دهـرا، وينتهـك القوانـين الـتي يقـف هـو اليـوم حاميـا لهـا؟

ينتبـه مـن شروده ليجـد نفسـه وحيـدا. لـم يعـد يسـمع صـوت مريـم ودميتهـا. لـم يـدرك توقيـت مغادرتهـا. شرد فجـأة، فتركتـه ورحلـت. وقـف في اسـتغراق قبالـة النافـذة يرقـب قطـرات المطـر الـتي أخـذت تتسـاقط بهـدوء في الخـارج.

لم يكتب حرفا إضافيّا في مسودّة الخطاب.

في كلّ دائـرة انتخابيّـة، يـتراوح عـدد النّاخبـين مـن أصـول عربيّـة بـين ربـع السـكّان وثلثهـم. لـو أنّهـم يتوحّـدون خلـف مرشّـح واحـد، لكانـت الغلبـة حتما مـن نصيبـه. لكنّهـم لا يفعلـون. ربّمـا لأنّهـم متفرّقـون بطبعهـم، ينتمـون إلى ديـن واحـد ولهـم السّـمات العامّـة ذاتهـا، لكنّهـم مختلفـون في توجّهاتهـم مـن أقـصى اليمـين إلى أقـصى اليسـار. وربّمـا أيضـا لأنّ أحـدا مـن المرشّـحين لـم يكلّـف نفسـه مشـقّة أخـذ مصالحهـم بعـين الاعتبـار في برنامجـه الانتخـابيّ، أو لأنّ محاولـة اسـتمالتهم تعـدّ وصمـة عـار في تاريـخ أيّ سـياسيّ محـترم، وقـد تنهـي مشـواره السـياسيّ بضربـة واحـدة!

صبـاح الجمعـة، وهـو يجلـس خلـف مكتبـه، يراجـع مسـودّة الخطـاب الـذي أهملـه طويـلا، ينتابـه اسـتياء مـن كلّ كلمـة، مـن كلّ حـرف. لا يجـد نفسـه في الـكلام المنمّـق الممطـوط الفضفـاض الـذي رُصّ عـلى شاشـته. هـل يمكنـه أن يجلـس أمـام الجماهـير ويتقلّـد الابتسـامة المتملّقـة ويـردّد عبـارات جوفـاء لا تقنعـه؟ ينـبري يمسـح ويمسـح بحمـاس ملهـوف. تختفـي الفقـرات مـن الصفحـة واحـدة إثـر الأخـرى، حـتّى عـاد أمـام شاشـة شـبه بيضـاء، يقـرأ

facebook.com/groups/exchange.book

عليها عنوانا متردّدا، لا هو حقيقة ولا هو شعار يملك أن يذود عنه حتّى النّهاية: الوطن للجميع. يتأمّل الكلمات، ويأخذ نفسا طويلا. هل يمكن لهذا الوطن أن يكون ملكا مشاعا بشكل عادل بين جميع مواطنيه؟!

تطرأ الفكرة في ذهنه، مثل بذرة نمت تحت الأرض وامتدّت جذورها، وآن أوان انبثاقها إلى السّطح. يطلع البرعم على استحياء، ويبحث عن مصدر نور يتزوّد منه بالطّاقة. لو أنّه يتصدّى للدّفاع عن حقوق المواطنين الفرنسيّين ذوي الأصول العربيّة، لو أنّه يسبغ معنى على شعاره الخاوي، لو أنّه يسترضي تلك الفئة المهمّشة من النّاخبين.. فقد يضمن مقعده! إذا أراد تقييم تلك الخطوة بميزان السّياسة، فهي مخاطرة غير مأمونة. قد تعدّ انتحارا سياسيّا بالنّسبة إلى أيّ مرشّح آخر. لكنّ حظوظه أوفر هذه المرّة. لديه «ميزة» طالما حسبها «عيبا». الاسم من المفترض به أن يجتذب قاعدة ناخبين لا يستهان بها. من المتاح له أن يصنع قوّة ممّا حسبه موطن ضعف، بشرط أن يحكم صياغة خطابه.

ماذا عن أولئك الذين هم «من طينته»؟ رفاقه الذين دعموه وشجعوه على اتّخاذ تلك الخطوة لتتويج مسار مهنيّ ناجح؟ هل يخون ثقتهم بارتدائه جلباب الرّجل العربيّ الذي لطالما تبرّأ منه في السّابق؟

إنّها سياسة. مجرّد لعبة سياسيّة! والغاية تبرّر الوسيلة!

يتوقّف عند ذلك الحدّ. هل يصبح المرء شخصا غير نفسه حين ينغمس في مستنقع السّياسة الموحل؟ لقد كان هدفه من دخول البرلمان منذ البداية منحرفا وأنانيّا. مجرّد عقدة شخصيّة يحاول تخطّيها. ما الذي ستفعله يا خليل دانيال الشاوي حين تُصبح بالفعل مسؤولا تجاه الشعب الذي منحك صوته؟ تعاوده كلمات ديانا في القصاصة التي صدّرت بها رسائلها:

«هذا تاريخك، ميراثك.. احمله على عاتقك وسر به في الطريق التي تختارها. لكن لا تهمله أو تتخلّ عنه، فأنت لا شيء من دون ماضيك

facebook.com/groups/exchange.book

وجــذورك»!

تذكّـر فجـأة المحاميـة. ديانـا أكّـدت هويّتهـا. قالـت إنهـا ظهـرت مـرّات في برامـج تهـمّ قضايـا عامّـة، كمستشـارة قانونيّـة. هـل سـيكون الاتّصـال بهـا ذا فائـدة مـا؟ لا يـدري. لكنّـه يفضـل أن يطـرق كلّ الأبـواب الممكنـة، بـدل أن يتربّـع عـلى الأريكـة ويراقـب الثـواني وهـي تمـضي، يسـحب بعضهـا بعضـا. طالـع بياناتهـا الـتي سـبق وحفظهـا في ذاكـرة هاتفـه، ثـمّ اتّصـل برقمهـا الخـاصّ. بعـد رنّتـين، جـاءه صوتهـا.

- أسـتاذة رنيـم شـاكر؟ معـذرة عـلى الإزعـاج.. أنـا خليـل الشـاوي. هـل يمكننـا أن نلتقـي؟

تابـع الإشـارة الحمـراء عـلى جهـاز الملاحـة وانعطـف إلى يسـاره مذعنـا إلى تعليمـات الإرشـاد. كان قـد اقـترب مـن العنـوان الـذي أملتـه إيّـاه في المكالمـة القصـيرة. حـدّدت موعـدا خـلال سـاعتين. لا يـدري إن كانـت قـد اسـتجابت لمرشّـح مجلـس النّـوّاب الـذي كانـه، أم للتّاريـخ القديـم الـذي سـاقه إليهـا الاسـم؟

لاحـظ أنّ منزلهـا يقـع في حـيّ خـاصّ بالبيـض. تسـاءل إن كانـت مقاوِمـة أخـرى للقانـون العـرفيّ مثـل ديانـا، أم مندمجـة تنكـر هويّتهـا، ولـم يُسـعفها الوقـت لتغيـير اسـمها، مثلـه؟

اسـتقبلته في أعـلى الـدّرج بمـودّة وقادتـه إلى جلسـة شرقيّـة مريحـة. كانـت نظـرة فضـول تطـلّ مـن عينيهـا. مـا أن اسـتقرّ بهمـا المقـام، حـتّى بـادرت مسـتفسرة:

- كيف حال ديانا؟ مضى دهر على لقائنا الأخير!

- لم تتغيّر.. لعلّها سجينة بإرادتها في الزّمن الماضي!

facebook.com/groups/exchange.book

تبادلا بعض العبارات المجاملة والبسمات اللبقة، قبل أن يبادرها خليل:

- أنت بالتأكيد تتساءلين عن سبب الزّيارة المفاجئة. وليست بحوزتي إجابة شافية. لا أدري ما الذي سأفيده تحديدا من هذا اللقاء.. لكنني أحسست بحاجة إلى شهادة محايدة! أنت تعرفين والديّ، وكان لك دور في تيسير زواجهما، ثمّ في جمعهما مجدّدا في الجزائر. وردتني منذ أسبوع رسائل قديمة.. كتبها لي أبي منذ ثلاثين عاما. وأمّي حكت وجهة نظرها أيضا.. لكنّني ما زلت أشعر بالضّياع. لقد حاول كلّ منهما أن يشدّني إلى حضارته وثقافته. أبي خطفني وسافر بي إلى الجزائر حين علم بقرب أجله.. أراد لي أن أعيش في كنف أهله وأتشرّب هويّته. خاف أن تُمحى بصمته من وجودي بعد رحيله. وأمّي، خطفتني بدورها حين تسنّت لها الفرصة! وعدت بأن تحفظ في تكويني ثنائية الهويّة، لكنها أخلفت وتنكّرت لعهودها. قالت إنّها خافت عليّ من هويّة كانت وما زالت محلّ اتّهام! مسحت الماضي من ذاكرتها، ونكّرت لي جذوري، فنشأت كما شاءت. لا أفهم، إن كان كلّ منهما لا يقبل ثقافة الآخر ويحسبها خطرا عليّ، فلماذا تزوّجا؟ ألم يفكّرا في المسافة التي تفصل بين هويّتيهما إلا حين أصبح الأمر يتعلّق بي؟ أصبح كلّ منهما تهديدا جديرا بالإبعاد والطّمس والإلغاء!

ابتسمت رنيم. هل كان بحوزتها جواب وإضافة تقدّمها للشاب الذي تمزّقه هويّته؟

- لعلّ أحدهما لم يتحلّ ببعد النظر الكافي ليكوّن رؤية استشرافيّة لما ستكون عليه الحياة بعد عقود. كانت حاجتهما إلى بعضهما البعض فوريّة وآنيّة. لكن من الظّلم أن نسلبهما حقّهما في المحاولة. فكّر معي.. لو عاش نادر لفترة أطول، ربّما كنت لتشعر بتوازن أكبر. لم تكن جذورك لتظهر بشكل مفاجئ. كنت لتتعايش معها منذ نعومة أظفارك، وتتقبّلها ببساطة.. أو ترفضها وتتخذ قرارا بالانحياز إلى جهة من دون أخرى. لا أحد يدري. أنت تشعر بالتمزّق الآن لأنّ الشلال تدفّق على رأسك على حين غرّة. لم تتعلّم أن تتعامل مع هويّتك بشكل سلس وتدريجيّ...

facebook.com/groups/exchange.book

قالت وقد خطرت ببالها فكرة:

- انتظرني لحظة.

غابت بالدّاخل لبضع دقائق، ثمّ عادت محمّلة بدفاتر وملفّات ورقيّة. المزيد من الورق القديم.

- قبل أن أصبح أستاذة في القانون، كانت هناك قضيّة فاصلة، حوّلتني من محامية مبتدئة إلى مستشارة قانونية يُحتفى بها على منصّات الحوارات التلفزية. دافعت عن رجل اتّهم بارتكاب تفجير إرهابيّ! كانت بالنّسبة إلى الآخرين مسألة شجاعة وقوّة، فاستحقّيت الاحتفاء والتبجيل.. لكنّها كانت بالنّسبة إليّ مواجهة مع ذاتي.. بين الهويّة العربيّة المسلمة التي أحملها بالوراثة، والهويّة الفرنسيّة المتحرّرة التي أطمح إلى الانتماء إليها. تلك القضيّة كانت شلالي الخاصّ.

قلّبت في شرود الصّفحات التي احتضنت مقالات صحفيّة وقصاصات جرائد دأبت طوال سنوات خلت على قصّها ولصقها في دفترها. تابع خليل حركاتها في انتباه، وهو يسترجع شذرات من حديث أبيه عن الشّاب الذي عرفه في ليون، ثمّ واجه تهمة تفجير مختبر الكيميائيّات. سألها في فضول:

- ولمن كانت الغلبة؟

- تريد الحقيقة؟ لا أدري! إنّه صراع مستمرّ ما دامت الحياة. لم أستطع أن أنحاز أو أن أمعن في الانتماء إلى شقّ من دون آخر.. لكنّني على الأقلّ أصبحت أستوعب أكثر وجهة نظر كلّ طرف، ومخاوفه وأحكامه المسبقة. راودني شعور بأنّني قد أنفع جسرا بين العالمين، أترجم عن كلّ أفكاره ومواقفه، فأسهم في ردم جزء من الهوّة الفاصلة بين جذوري وفروعي! اخترت أن أكون مزيجا متوازنا من ثقافتين تعرّفان بشكل متساوٍ من أكون. أنا رنيم شاكر.. مصريّة وفرنسيّة، مؤمنة بالإسلام وبالثورة الفرنسيّة وبالقضايا العادلة. حين أقف في قاعة المحكمة، أو في قاعة المحاضرات، أو على منصّة تلفزيّة، أذكّر نفسي برسالتي.. الجسر، الهوّة، كيف أكون

facebook.com/groups/exchange.book

عنصر بناء لا هدم. ليس ذلك يسيرا على الدّوام.. أنت تنحاز بطبعك، حين تحرّك القضايا نقطة حسّاسة في أعماقك، والحياد التامّ يحتاج ميزانا دقيقا للمشاعر، لم يُخترع بعد! وقد حرصت على أن ينشأ أبنائي على هذا المبدأ.. التوازن، ثراء الثقافة الشخصيّة، الخيارات.. كلّ منهم اتّخذ قراراته الخاصّة حين نضجت الهويّة واتّضحت معالمها في داخله. سمر، ابنتي الكبرى، اختارت أن ترجع إلى مصر، وجدت الوضع هنا غير محتمل وانحازت إلى هوّيتها المسلمة. أمّا ابني عمر، فهو يسير على خطى والدته، ولعلّه يصل إلى نتائج أفضل ذات يوم.

انتبه خليل إلى الاسم. سألها فجأة:

- ذلك المتّهم، كان اسمه عمر أليس كذلك؟ ما الذي حلّ به؟

أومأت رنيم برأسها وقد اكتست وجنتاها حمرة خفيفة:

- نعم، الدّكتور عمر الرّشيدي. استمرّ سجنه خمس سنوات كاملة، قبل أن تثبت براءته! أنشأ مختبره الخاصّ في ضواحي باريس، وحاول مواصلة العمل على تجاربه.. لكنّ المضايقات استمرّت، ووقع تعطيل حصوله على تصريحات وتجهيزات أكثر من مرّة، حتّى نفد صبره. رغم حصوله على تعويض مادّي وردّ اعتبار معنويّ، فإنّ السّياسة العامّة للبلاد كانت متناقضة مع نفسها.. وهذا ما أحارب من أجل تخطّيه والفصل بشأنه. أن تكون القوانين متّسقة مع نفسها وعادلة مع أبنائها. إذن انتهى الدّكتور عمر إلى اتّخاذ قرار بالهجرة خارج فرنسا.. إلى سويسرا، حيث تمكّن من الاستقرار وتنفيذ مشروعه على الوجه الذي يشتهيه. الآن، مولّد الطاقة الذي اخترعه منتشر الاستعمال بشكل كبير.

facebook.com/groups/exchange.book

السبت ٢٢ ديسمبر ٢٠٣٥، السّابعة مساء.

يجلس الآن تجاه مقدّمة البرنامج الشقراء، بينما تنهمك اختصاصيّات التجميل في وضع طبقة أخيرة من البودرة على وجه كلّ منهما. تبادله المقدّمة ابتسامة صغيرة مشجّعة، والحركة مستمرّة حولهما. في الغرفة الأخرى يتجهّز باقي ضيوف الحلقة. دوره يحين أوّلا.

زار عائلة رستم مرّة أخيرة ذلك الصّباح. بلّغهم عميق أسفه لما آلت إليه الأمور. «الأمور»، لفظ فضفاض يلخّص به صراعات الأسبوع. وعيه الطازج بجذوره، انغماسه في قضايا لم تكن يوما تحرّكه، تخبّطه بين بذور عاطفة لا تزال هشّة تهدّد مستقبله المهنيّ، وأعمدة صلبة من قناعات عريقة تقيم أركان حياته منذ الأزل.. الأمور ليست بخير يا أبا محمّد! أمورهم أيضا، لم تكن كذلك. لكن لماذا تبدو أكثرهم أسفا وتأثرا؟ يهزّ أبو محمّد رأسه والابتسامة ذاتها، بصفائها الصّادق ذاته، لا تحلّلها الخطوب ولا تذيبها النّوائب. بينما تسخر مريم، وتنطق نظرتها بالاستهانة. ألم أقل لك؟ «الوطن» و«الجميع» في شعارك الإنتخابي، كلّهم لا يعنوننا!

يتّصل به برونو، ساخطا يأتي صوته عبر الهاتف. أين مسودّة الخطاب؟ لم يف بوعده. لا مسودّة خطاب ليصادق عليها الشّركاء. تهرّب حتّى اللحظات الأخيرة. يدرك أنّه يخاطر بثقتهم وصداقتهم ودعمهم.. وربّما باستمرار شراكتهم. برونو لن يتفهّم أبدا. يقول مفتعلا جزعا شديدا: عطل في الشبكة، لم أتمكن من إرسال الملف! سأحاول من جديد. يتنصّل من مطاردة صاحبه، ويتجاهل اتّصالاته التّالية. لا فائدة.

تعديل الإضاءة، أكسسوارات تُغيّر أماكنها في اللحظة الأخيرة، وتعليمات المخرج تُلقى في كلّ الاتّجاهات. بينما يتّخذ خليل قرارا. سيفعل شيئا من

facebook.com/groups/exchange.book

أجـل عائلـة رسـتم. يجـد وظيفـة لمحمّـد. إذا مـا أبقـى عـلى وظيفتـه في المكتب فسـيكون معـه، سـاعيا أو مرافقـا، أيّ شيء. سـتكون وظيفـة بسـيطة ومريحـة، تسـمح لـه بسـاعات مـن المراجعـة، حـتّى لا يضيّـع دراسـته. أمّـا إذا طُـرد.. فسـيأخذه معـه أيضـا، إلى وظيفتـه الجديـدة. لـن تذهـب التّضحيـة سـدى. ضـاع المـنزل، لكـن مسـتقبل محمّـد لـن يضيـع. سـيتعلّم العربيّـة أيضـا. قـرار آخـر لا ينبغـي تأجيلـه. سـيتعلّمها ليسـتمرّ تواصلـه مـع أبيـه. لـن يحتـاج ترجمـة في كلّ مـرّة يريـد فيهـا الاسـتزادة مـن صحبتـه عـبر الرّسـائل.

تنتابـه سـكينة عجيبـة في جلسـته تلـك أمـام العدسـات المحملقـة فيـه. أنـت لا تعلـم أيّ لغـم سـينفجر في وجهـك أوّلا -لأنّ حقـل الألغـام كثيـف مـن حولـك- لكنّـك لا تبـالي. لعلّـك سـتبادر بتفجـير بعضهـا بنفسـك.

ثمّ.. تصوير!

- معنـا اليـوم المرشّـح المسـتقلّ الشـابّ لمجلـس النّـوّاب، خليـل دانيـال الشـاوي. مرحبـا بـك.

حافـظ خليـل عـلى ابتسـامته الوديّـة، بينمـا تحدّثـت لبضـع دقائـق لتقـدّم سـيرته الشـخصيّة ومسـيرته المهنيّـة. وبعـد بضعـة أسـئلة بسـيطة، ألقـت بالسّـؤال المتوقّـع والمرتقـب:

- أمامـي شـابّ فرنـسيّ تـربّى في ضواحـي باريـس، مـن أمّ فرنسـيّة.. لكنّـه يحمـل اسـما عربيّـا، مثـل أبيـه الـذى تـوفى منـذ سـنوات طويلـة. الآن، مـن حـقّ النّاخـب أن يتسـاءل، لمصلحـة مـن سـيقف خليـل الشـاوي في البرلمـان الفرنـسيّ؟ هـل سـيمثّل مصالـح الفرنسـيّين مـن أصـول عربيّـة؟

ألقـى خليـل نظـرة فارغـة عـلى الجماهـير المحدقـة بـه. ثـمّ دسّ كفّـه في جيبـه حيـث اسـتقرّت الرّصاصـة. أحـسّ بثقلها بـين أصابعـه، مؤكّـدة حضورها، وراوده لبرهـة مخطّـط الحركـة المؤثّـرة الـتي تخيّلهـا في وقـت سـابق. ثـمّ رفـع بـصره في اتّجـاه المقدّمـة. اسـتطالت الثـواني وامتـدّ حاجـز الصّمـت، وأطلّـت مـن عيـني سـيلين الـتي ترقبـه بـين جمهـور الحاضريـن نظـرات قلـق وتوتّـر.

facebook.com/groups/exchange.book

كانـت المقدّمـة تهـمّ بإعـادة السّـؤال، حـين اتّخـذ قـراره أخـيرا. سـحب كفّـا فارغـة مـن جيبـه وشـبك أصابعـه في حجـره قائـلا:

- سـيّدتي، هـل مـن أقاربـك وأهلـك مـن سـافر إلى خـارج فرنسـا وأقـام هنـاك؟

هزّت رأسها علامة الإيجاب وفي عينيها نظرة حذرة.

- ربّمـا سـافر بعضهـم منـذ عقـود، واسـتقرّ في بلـد آخـر.. فنشـأ هنـاك أبنـاؤه وأحفـاده. خبّريـني، كيـف سـتكون ردّة فعلـك، لـو اكتشـفت اليـوم أنّ لديـك أقـارب مـن الدّرجـة الثانيـة أو الثالثـة، يحملـون جنسـيّة أخـرى.. مـن بلـد اسـيويّ مثـلا؟ يتكلمـون لغـة مختلفـة ولديهـم عـادات مختلفـة؟

أطلقت ضحكة متشنّجة وقالت مدارية موجة ارتباك عابرة:

- سـيكون ذلـك غريبـا، وظريفـا.. في البدايـة. ثـمّ سـأتعوّد عـلى ذلـك. العالـم أصبـح قريـة صغـيرة في نهايـة الأمـر!

- بالضبـط. العالـم أصبـح قريـة صغـيرة.. لكنّنـا في فرنسـا مـا زالنـا نتعامـل بعضنـا مـع بعـض، نحـن الفرنسـيّين الذيـن نشـأنا عـلى أرض واحـدة، ونتكلّـم لغـة واحـدة، ويجمعنـا حـبّ وطـن واحـد، نتعامـل مـن منطلـق «الأصـل» و«التقليـد». إن لـم تكـن فرنسـيّا مـن أصـول صرفـة -أو أوروبيـة عـلى الأقـل- فأنـت مشـكوك في ولائـك! مـاذا يعـني أن أكـون فرنسـيّا مـن أصـول جزائريّـة أو صينيّـة أو مكسـيكيّة؟ ألسـت أعيـش عـلى هـذه الأرض، ويهمّـني اسـتقرارها ورخاؤهـا؟ مـا دامـت منحـت الدّولـة الجنسـيّة الفرنسـيّة لأيّ فـرد، فقـد أصبـح مواطنـا، ومـن حقّـه أن يقـف ممثـل في مجلـس النّـوّاب ويتكلّـم باسـمه -مثـل أيّ فـرد آخـر- ويسـهر عـلى عـدم اسـتثنائه مـن القوانـين أو حرمانـه مـن الحقـوق!

- إذن فقد اخترت أن تمثّل الفرنسيّين من أصول عربيّة؟

- أسـأت الفهـم سـيّدتي. سـأتكلّم باسـم الفرنسـيّين، كلّ الفرنسـيّين.. بمـن فيهـم مـن يحمـل أصـولا عربيّـة أو إفريقيّـة أو آسـيويّة. مـن المفـترض بسـيّدة

facebook.com/groups/exchange.book

مثقفة وواعية في مقامك الكريم ألا تشير إلى فروقات كهذه وعلى منبر إعلاميّ! أن يتحدّث عامّة النّاس بهذه اللغة السّطحيّة والسّاذجة، فهذا أمر متوقع.. لكن ما هو دورنا نحن السياسيّين والإعلاميّين والفنّانين؟ إن لم نقف نحن حماة للوعي العام ومصحّحين لمخلّفات ثقافيّة بالية، فمن سيفعل؟

لا يدري من أين استمدّ القوّة ليصدح بتلك الكلمات التي لطالما اعتقد في نقيضها! أخذ نفسا طويلا، وتخيّل الأب الذي لم يعرفه يراقبه وراء إحدى الشاشات. للمرّة الأولى، يفكّر في جعله فخورا به. لم يعرف من قبل ذاك الإحساس المستعر الذي تنبض به قلوب الأبناء، حين تكون بغيتهم نظرة رضا من آبائهم. لقد فعل كلّ شيء حتّى تلك اللحظة من أجل ذاته وحدها. كان الحقد محرّكه الأساسيّ، والرّغبة الأزليّة في انتزاع اعتراف الآخرين بكفاءته ونديّته، بل تفوّقه. لهاث مستمرّ وسعي محموم ينكت في قلبه سوادا، ويلتهم روحه. أمّا الآن، فما الذي يصبو إليه؟

- سيّدتي، ربّما لا تعلمين، ولا يعلم شركاؤنا في الوطن الذين يتابعون حديثنا هذا.. أنّ والدي كان مهاجرا غير شرعيّ، وصل إلى فرنسا ذات خريف على أحد مراكب الموت. وقد أمضى وقتا عصيبا قبل أن يستقرّ به المقام. عرف التشرّد والضّياع، وخالط عصابات الشّوارع وتجّار الممنوعات والإرهابيّين. وترك لي إرثا من التّجارب أفتخر به...

تحدّق به المحاورة غير مصدّقة. يبتسم في داخله: فجّرنا اللغم الأوّل.

أنت عارٍ من الأسرار الآن.

أن تعلن بنفسك على الملأ ما خلته منذ أيّام سرّا لا يجوز البوح به إلى أقرب المقرّبين، أليس ضربا من الجنون؟ من يبحث عن فضيحة يصدّر بها صفحات السّياسة، فعليه أن يجدّ أكثر في التّقصّي! أمّا هذه، فلن تكون الفضيحة التي يريدونها. كانت لتكون كذلك، لو أنّك بالغت في إخفائها تحت طبقات من الغموض والتستّر. وزن الفضيحة يعتمد على

facebook.com/groups/exchange.book

درجـة حرجـك تجاههـا. أمّـا وأنـت تتقبّلهـا ببسـاطة، فهـي لا شيء في موازيـن الصّحافـة الفضائحيّـة.

- هذا مثير.. مثير جدّا!

- ربّمـا، لكـن ليـس بقـدر الآتي. سـيّدتي، دعيـني أشرح واحـدة مـن القضايـا الأساسـيّة الـتي سـأهتمّ بهـا في حملـتي، وسـتكون مـن أولى أولويّـاتي إذا مـا جلسـت يومـا عـلى مقعـد البرلمـان أمثّـل هـذه الدّائـرة. منـذ عقـد أو أكـثر، بدأنـا في تطبيـق نظـام التقسـيم الجغـرافي للمدينـة الواحـدة، حسـب الأصـول الإثنيـة للمقيمـين بـكلّ جهـة.. وقـد انجـرّ عـن ذلـك ظلـم شـديد عـلى عائـلات كثـيرات. عائـلات حُرمـت مـن ديارهـا الـتي أفنـت عمرهـا ترفـع جدرانهـا وتشـيّد أسـقفها وتزيّـن واجهاتهـا، ليـأتي نظـام التقسـيم ويطلـب منهـا ببسـاطة أن تتركهـا وترحـل، نحـو بيـوت أخـرى في أحيـاء بعيـدة، لـم يجمعهـا بهـا تاريـخ مشـترك ولا ذكريـات.

- لكـنّ الحـالات الـتي تتكلّـم عنهـا محـدودة، وأغلـب المنتفعـين مـن القانـون سـعداء به.. والمتـضرّرون..

- فرنسيّون يا سيّدتي!

- عفوا؟

- المتــضرّرون فرنسـيّون، تمامـا مثــل أولئــك المنتفعــين والسّــعداء. مـا الهـدف مـن قانـون يكـرّس التفرقـة والظلـم لأبنـاء الوطـن الواحـد؟ هـذا قانـون سـيّئ، ويجـب مراجعتـه وإلغـاؤه، وإعـادة الحقـوق إلى أصحابهـا. مـن هدّمـت بيوتهـم ونقلـوا إلى أحيـاء مهـدّدة بالانهيـار، مـن أرغمـوا عـلى الهجـرة في وطنهـم نفسـه.. إنّهـم يسـتحقّون عدالـة أفضـل!

استمرّ مع كلّ جملة، يفجّر لغما إضافيّا. أحرق أرض المعركة.

لـم يكـن مـن المسـتغرب بعـد ذلـك أن تتجاهلـه المقدّمـة حـتّى نهايـة الحلقـة مباشرة البـثّ. انشـغلت عنـه بضيوفهـا الآخريـن، مرشّـحون منافسـون ومحلّلـون سياسـيّون. علّقـوا بكلمـات باهتـة عـلى مشروعـه الجـريء، ثـمّ انتقـل

facebook.com/groups/exchange.book

الحديـث فجـأة إلى مناطـق أكـثر هـدوءا وأقـلّ إثـارة.

غـاص خليـل في مقعـده، وغـاب داخـل فقاعـة وهميّـة عزلتـه عـن الهـراء الـذي يقـال حولـه. الآن يتبيّن أنّ السّياسـة هـي فـنّ احـتراف الهـراء؟ ومـا الـذي كنـت تفعلـه لسـاعات في مكتبـك غـير رصـف الهـراء وتشـكيل الخـواء؟ حـين شـغلتك قضيّـة صادقـة، كشـفت زيـف كل مـا عداهـا.

حـين أعلنـت المقدّمـة انتهـاء البـثّ، تـرك مكانـه عـلى عجـل وغـادر القاعـة. لحقـت بـه سـيلين إلى الرّدهـة وهتفـت في حمـاس:

- خطاب رائع يا عزيزي! ولتقرع طبول الحرب!

استسلم لعناقها لثانيتين، ثمّ أبعد ذراعيها كالملسوع. تساءلت في جزع:

- ما الأمر؟

- هل تسمعين؟

كانـت أصـوات طرقـات وصراخ مكتـوم تصـل إلى داخـل إسـتوديو التصويـر. كانـت فـوضى عارمـة قـد احتدمـت خـارج المبـنى وتناهـت أصداؤهـا إلى داخلـه. تحـرّك خليـل في اتّجـاه الممـرّ، ومـن ثـمّ إلى النوافـذ المطلّـة عـلى الشّـارع. ألقـى نظـرة عـلى الحركـة غـير الاعتياديّـة بالنسـبة إلى الشّـارع الفرعـيّ الهـادئ، ثـمّ تراجـع مصعوقـا. كانـت جمـوع غفـيرة قـد تجمّهـرت عنـد مبـنى القنـاة المحلّيـة تحمـل لافتـات عليهـا صورتـه مشـطوبة بالأحمـر ومشـوّهة بقـرون وانيـاب وعبـارات بذيئـة.

- يا إلهي!

لـم تكـن سـيلين أقـلّ صدمـة منـه. لكنّهـا انتبهـت مـن جمودهـا عـلى الفـور وجذبتـه مـن ذراعـه لتبعـده عـن النّافـذة. لا تنظـر. أمرتـه بصرامـة. سـايرها في ذهـول، لكنّـه في قـرارة نفسـه كان يـدرك ألا مهـرب ممّـا يـراه في الخـارج. حـين تخـرج عـن المسـلك الآمـن الـذي يتّبعـه سياسـيو الشاشـات مـن الطبيعـيّ أن تكـون المعارضـة شرسـة. في الخـارج، سـيجد بانتظـاره ناخبـين مـن الجاليـة العربيّـة والمسـلمة، يسـتنكرون أن يكـون رجـل اسـمه الثـاني دانيـال مرشّـحا

facebook.com/groups/exchange.book

يمثّلهـم.. وسـيكون هنـاك أيضـا مدافعـون عـن الثقافـة الفرنسـيّة الأصيلـة، يطالبـون بحرمانـه مـن الجنسـيّة الفرنسـيّة وقـد أعلـن تعاطفـه مـع أنصـاف الفرنسـيّين!

فكّـر، هـل كان في حاجـة إلى خـوض تلـك الحـرب إلى النّهايـة؟ ألـن يجـد نفسـه إلا عـلى ضفّتهـا الأخـرى؟ لقـد عـاش تجربـة كاملـة ومدهشـة خـلال أسـبوع واحـد، عـرف خلالهـا مـن يكـون، وجـد لنفسـه دورا وهويّـة وانتمـاء، حـدّث بياناتـه في سـجّلات لاوعيـه وأصبـح أكـثر رضـا وقناعـة عـن كينونتـه ووجـوده. هـل مـا زالـت الانتخابـات قضيّتـه؟ هـل بقيـت شـهوة السّـلطة ماثلـة ضمـن أولويّاتـه؟ لـم تعـد مسـألة حيـاة أو مـوت كمـا أقنـع نفسـه حـين قـرّر اجتيازهـا. مـاذا الآن؟ هـل بوسـعه أن يتراجـع ويتجنّـب المعركـة وخسـائرها المبـاشرة والجانبيّـة المحتملـة؟

ثـمّ مـال تفكـيره إلى كلّ أولئـك الذيـن منحهـم خطابـه الأمـل. فكّـر في كلّ مـن يحمـل فكـرا يشـبهه، ويضـع عـلى عاتقـه مهمّـة تمثيلـه في البرلمـان. فكّـر في أكـوام الخيبـة الـتي سـتثقل صـدورا تحـرّك فيهـا الأمـل ونفـض عنـه الغبـار بعـد سـنوات مـن الخمـود. هـل يمكنـه أن يخذلهـم والمعركـة في أوجهـا؟

يوقظـه أزيـز الهاتـف المرتـجّ في جيبـه مـن تأمّلاتـه. برونـو ديبـون يتّصـل. رسـالة الشاشـة تعلـن أنّ اتّصـالات أخـرى لـم يـردّ عليهـا قـد سـبقت. لعلّـه سـيفقد عملـه الآن قبـل أن يفعـل شـيئا يذكـر! هـل هـي المعركـة الخطـأ؟ هـل ضحّـى بـكلّ شيء مـن أجـل وهـم سـيتبخّر بعـد قليـل؟ لا النّاخبـون المعنيّـون راضـون عنـه، ولا ربّ عملـه المموّل لحملتـه! انطفـأ الهاتـف لبرهـة، ثـمّ تعـالى الأزيـز مـن جديـد بشـكل ملـحّ متّصـل. تسـأله سـيلين:

- ألن تردّ؟

- إنّه برونو..

تنتبه إلى تكشيرته العابسة، فتقول بحماس:

- أنت تواجه فرنسا الآن.. برونو لن يشكّل فرقا!

facebook.com/groups/exchange.book

إنّها محقّة. فليتحلّ بالشّجاعة إلى النّهاية. تمرّ إليه عدوى حماستها. ما أن فتح الخطّ حتّى تدفّق صوت برونو عاليا مزمجرا:

- أين أنت يا رجل؟ أتّصل بك منذ دهر! هاتفي لم يتوقّف عن الرّنين هذا المساء.. الكثير من العملاء الثائرين! سوف نجني ثروة يا صديقي!

ترتفع قهقهة برونو، وخليل لا يستوعب شيئا ممّا يقوله.

- سوف نفتح النّار على وزارة الإسكان! الجميع الآن يريد أن يقاضيها من أجل مشروع التقسيم الذي لم يرض إلا أقلّ القليل. سنكون الممثّل الرّسمي للمتضرّرين.. سنبدأ في جمع التواقيع منذ الغد. خطابك ألهب الجماهير، والحرب الحقيقيّة ستبدأ!

قهقهة أخرى تملأ أذنيه، قبل أن يهتف برونو منهيا الاتّصال:

- ارجع إلى الميدان أيها الفارس، واصل إبداعك!

أغلق الخطّ وقد سيطر عليه الذّهول. هل كان هذا حقيقيّا؟ تنبّهه سيلين وقد حيّرها سرحانه:

- ماذا قال؟

- أن أواصل إبداعي! العملاء يريدون مقاضاة وزارة الإسكان!

أطلقت صيحة منتشية وقفزت مثل طفلة وهي تعانقه بحرارة.

يأخذ نفسا عميقا، ويُذكّر نفسه، أنت جسر.. أنت تردم الهوّة. كان عليه أن يواصل المسير على الطريق التي شرع في تعبيد أمتارها الأولى هذا المساء. الطريق الوعرة التي يصعب السّير عبرها، سيتمدّد فوقها، جسرا، فيعبر آخرون من ورائه. كان يجب أن يبادر أحدهم، أن يكون أوّل السّالكين، وقد قدّر له أن يكون هو، حامل الرّاية. قبل ذلك، عليه أن ينتهي من رأب صدوعه الخاصّة، أن يصل الجسور المنقطعة في داخله مع ذويه.

تحرّك فجأة، ركض باتّجاه أحد تقنيّي التّصوير، يسأل عن مخرج

facebook.com/groups/exchange.book

الطّوارئ. تبعته سيلين، لا تدرك فيمَ يفكّر. هتف وهو يحثّ الخطى في اتّجاه المخرج:

- يجب أن ألحق بها قبل أن ترحل!

قطع بضعة أمتار، ثمّ عاد أدراجه بنفس السّرعة التي ولّى بها. شدّ سيلين من كفّها وقال مبتسما:

- أظنّ فائزة ستكون سعيدة بالتعرّف إليك وإلى مريم.

وهما يهرولان عبر السلالم في اتّجاه المخرج ويتبادلان ابتسامات متواطئة، ينتابه إحساس غامض بالإثارة.

أنت تمضي باتّجاه منعطف حادّ، والرؤية غائمة لا تكشف ما وراءه. وعيك بهويّتك يتغيّر ويواصل التحوّل. ما يدريك كيف تكون قناعاتك خلال أسابيع، شهور، سنوات؟ هل تصبح شخصا آخر لا تتعرّفه في مرآتك؟ هل يمكن أن ينهار زواجك وتتنكّر لك سيلين كما تنكّرت ديانا لنادر؟

تعبر صدره موجة قلق، ثمّ يتبدّد الزبد.

أوليست تلك سنّة الحياة؟ لا شيء باق على حاله.

فليدع القلق لأوانه.

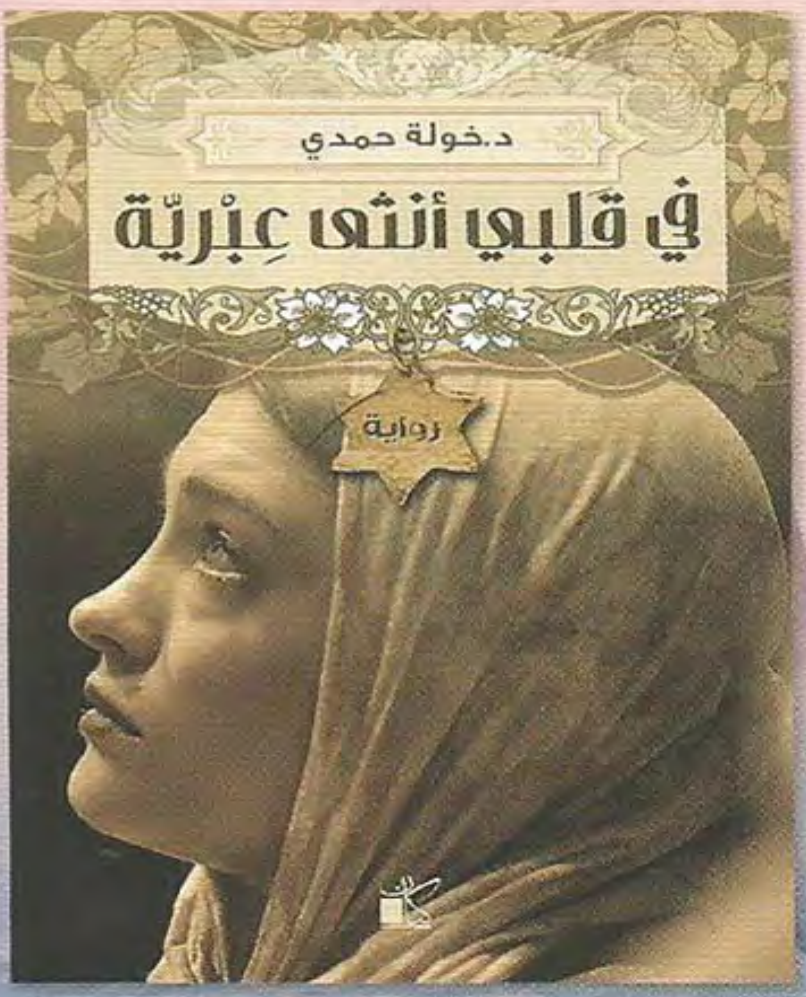
تمت بحمد الله

facebook.com/groups/exchange.book



كان كل شيء باردا وخاليا من الإثارة حتى تلك اللحظة التي قرّرت فيها التمرّد على مساري المحبط وصنع شيء خارق يحرّرني من جحيم الفراغ. منذ وضعت قدمي اليمنى في القارب الخشب المتراقص على الشاطئ في ليلية خريفيّة غاب قمرها، أصبحت حياتي تتابعا مرتجلا لحالات استثنائية. خضت المغامرة تلو الأخرى وعرّضت حياتي للخطر أكثر من مرّة. اقتربت من حدود الموت غرقا، جعلت نفسي طريد العدالة، وكدت أنحدر إلى عالم الجريمة. وجدتني مرارا أتمنّى لو عدت إلى حياتي الرتيبة الخالية من الإثارة. خفت أن أموت وحيدا وشريدا في ركن منسيّ. خفت أن أكون قد قايضت حياتي العاديّة باللاشيء!

صدر للكاتبة





تصميم الغلاف:
عبد الرحمن الصواف

9 789776 376908